أفكار وآفاق

مجلة علمية أكاديمية محكمة نصف سنوية، تصدرها جامعة الجزائر2

العدد03 – السنة 2012

عدد خاص لسنة 2012

دراسات وبحوث حول المساهمة الحضارية لمدينة تلمسان

1 –الصلات الثقافية والفكرية بين تلمسان وقسنطينة

2 –إشكالية انتشار الصحافة المغاربية والمشرقية في الجزائرما بين 1920 و1954 : تلمسان ...

3 –قراءة لوثيقة محمّد بن رَحّال التلمساني حول المطالبة بالإصلاحات (1891)

4 – العلاقة بين بني عبد الواد (بني زيان–تلمسان) وبني مرين (المغرب) فيما بين القرن ...

5 –تأملات حول "تلمسان في خضمّ حركة الفكر المغاربي" بين القرنين الميلاديين ...

6 – تقرير باربديت Barbedette حول هجرة تلمسان لسنة 1911

7 – مكانة الجزائريين في تطور الحركة الفكرية (التصوف) ببلاد الشام : مهاجري تلمسان أنموذجا

8 – كتاب "المواهب" ومخالفات الملالي لشيخه ابن يوسف السنوسي التلمساني

9 – نشاط فرحات عباس بتلمسان : 1943–1945

10 – تلمسان في العصور العتيقة

11 – التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي

12 – النخبة التلمسانية ودورها الثقافي والسياسي والاجتماعي من نهاية القرن التاسع عشر ...

قـــراءات

1 - وقفة مع رجلين كبيرين أسهما في صناعة التاريخ الحديث للجزائر

أ – رحلة مع الرئيس احمد بن بلا

ب– عبد الحميد مهري: محطات و مواقف في مسيرته النضالية

تقـــاريـر

1 – تقرير حول : تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية

أ – تلمسان تشع بثقافتها عاصمة للأمة الإسلامية على مدار 2011

ب– تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية : مساهمة جامعة تلمسان

2 – تقرير حول المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس (الدوحة 2012) من خلال الصحافة القطرية

عدد خاص
لسنة 2012

أفكار وآفاق

مجلة علمية أكاديمية محكمة، نصف سنوية
تصدرها جامعة الجزائر2

مدير المجلة
أ.د. عبد القادر هني

مدير التحرير
أ.د. محمود بوسنه

هيئة التحرير
أ.د. مصطفى عشوي
أ.د. محمد العيد رتيمة
أ.د. محمد بوخلوف
د. علي تابليت
د. مصطفى نويصر
د. حسين عبد اللاوي
د. ابراهيم صحراوي

لجنة المراجعة اللغوية
د. محمد بلقاسم
د. يوسف إيمون
أ. بثينة عثامنية
أ. فضيلة أولبصير

أمانة المجلة
أ. نعيمة بن صام
أ. خديجة العطوي

تصميم وإخراج
أ.د. محمود بوسنه
أ. نعيمة بن صام

العدد 03 - (جانفي - جوان) 2012

اللجنة العلمية

أ.د. **سعد الله أبو القاسم** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **عمار بوحوش** (جامعة الجزائر3)
أ.د. **رشيد بن مالك** (المركز التقني لتطوير اللغة العربية)
أ.د. **جمال يحياوي** (مركز البحث في الحركة الوطنية)
أ.د. **الهاشمي لوكيا** (جامعة قسنطينة)
أ.د. **نور الدين زمام** (جامعة بسكرة)
أ.د. **جمال معتوق** (جامعة البليدة)
د. **عبد الرزاق عبيد** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **أحمد منور** (جامعة الجزائر2)
د. **الزبير عروس** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **حمو بوظريفة** (جامعة الجزائر2)
د. **سعيد بومعيزة** (جامعة الجزائر3)
أ.د. **عبد القادر خياطي** (جامعة الجزائر2)
د. **أحسن بشاني** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **بشير معمرية** (جامعة باتنة)
د. **محمد الطيبي** (جامعة وهران)
أ.د. **رابح علاهم** (جامعة الجزائر2)

اللجنة العلمية الدولية

أ.د. **جمال تركي** (تونس)
أ.د. **زكي مبارك** (المغرب)
أ.د. **علي خليفة الكواري** (قطر)
أ.د. **مصطفى عمر التير** (ليبيا)
أ.د. **محمد عبد الشفيع عيسى** (مصر)
أ.د. **حسين جمعة** (سوريا)
أ.د. **محمود الربداوي** (سوريا)
أ.د. **ساسين عساف** (لبنان)
أ.د. **محمد قيراط** (الإمارات)
أ.د. **عمر هارون الخليفة** (السودان)
أ.د. **محمد بن ناصر** (فرنسا)
أ.د. **عبد الرحمن طه** (المغرب)
أ.د. **يحيى علوان** (ليبيا)
أ.د. **حماه الله ولد السالم** (موريتانية)
أ.د. **عباس السوسوة** (اليمن)

المراسلة والاشتراك

الموقع الإلكتروني: www.afkar-affak.org : ***URL***

البريد الإلكتروني: afkar.affak@univ-alger2.dz :***E-mail***

contact@afkar-affak.org - univ.alger2@gmail.com

الهاتف/الفاكس: 021.90.89.95

العنوان: جامعة الجزائر2، عمارة البحث، حي جمال الدين الأفغاني- بوزريعة- الجزائر

توجه مبالغ الإشتراك إلى الحساب المالي لجامعة الجزائر2 :

حساب الخزينة: 116 / 1127

حساب مركز الصكوك البريدية (CCP): 3224 - 92 clé 34

© جميع الحقوق محفوظة لجامعة الجزائر2

قواعد النشر

أهداف المجلة:

مجلة «أفكـــار وآفـــاق» مجلة أكاديمية محكمة، تهدف إلى نشر الدراسات والبحوث الأصيلة المبتكرة في مختلف العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان من حيث آدابه ومجتمعه وسلوكه وتاريخه وسياسته وتواصله وتحديات مستقبله.

تقبل البحوث والدراسات المكتوبة باللغة العربية للنشر في مجلة «أفكـار وآفاق» بشرط احترام قواعد النشر العامة والخاصة الموالية. إن المجلة مفتوحة أمام كل الباحثين العاملين في مختلف الجامعات ومراكز البحث الجزائرية والعربية والأجنبية.

أ- قواعد النشر العامة:

1. الالتزام بالقواعد العلمية المتعارف عليها في كتابة البحوث الميدانية والتجريبية والدراسات النظرية.
2. الالتزام بمراجعة البحث من حيث الأسلوب واللغة.
3. يجب أن لا تزيد صفحات البحث عن 30 صفحة وأن لا تقل عن 06 صفحات.
4. الالتزام بكتابة العناوين الرئيسية في وسط السطر والفرعية في الجانب.
5. الالتزام بإرسال السيرة الذاتية المختصرة بالنسبة للباحثين الذين يراسلون المجلة لأول مرة.
6. الالتزام بإرسال البحث إلى البريد الإلكتروني الموالي:

afkar.affak@univ-alger2.dz - univ.alger2@gmail.com - contact@afkar-affak.org

7. يجب أن لا يكون البحث قد سبق نشره في السابق.

ب- قواعد النشر الخاصة:

- فيما يخص كتابة النصوص:

8. يكتب نص المقال ببرنامج وورد(Word)، بخط أريال أبجد هوز، وبحجم 14 بالعربية و12 باللغات الأجنبية.
9. تخصص الصفحة الأولى من المقال لكتابة المعلومات الأساسية الموالية فقط: عنوان البحث، اسم الباحث أو الباحثين والدرجة العلمية، اسم المؤسسة أو المؤسسات التي يعملون لديها ، عنوان المراسلة، البريد الإليكتروني.
10. تخصص الصفحة الثانية من المقال لتقديم ملخص للبحث في حدود 150-250 كلمة والكلمات الدالة (من 3 إلى 5 كلمات). يجب أن يعبر الملخص عن محتوى المقال بصورة شاملة وصادقة.
11. تخصص الصفحة الثالثة من المقال لتقديم ترجمات بالفرنسية والإنجليزية فيما يخص كل من: العنوان و إسم الباحث والملخص والكلمات الدالة، مع احترام الدقة في هذه الترجمات.

ملاحظة: يمكن لهيئة التحرير أن تتكفل بإحدى الترجمات أي الترجمة إلى الفرنسية أو الإنجليزية.

12. إننا لا نقبل إلا الصور الرقمية ومن نوع جبيك (jpeg).
13. يجب أن تكون الصور رقمية وبإسم المؤلف؛ مثال: "إسم المؤلف الصورة رقم1. jpeg".
14. يجب أن يكون عدد الخرائط والصور محدود وتخص فقط تلك التي تقدم معلومات هامة لا يمكن الاستغناء عنها (أقصى حد من الصور هو 5).

- **فيما يخص إثبات المراجع والهوامش:**
- **تكتب المراجع كما يلي:**

15. يشار إلى المراجع داخل المقال وتسجل في قائمة بآخره بصورة مرتبة ترتيبا أبجديا أو ألف بائيا.
16. تسجل الكتب في قائمة المراجع كما يلي: اسم الباحث أو الباحثين(السنة)، عنوان الكتاب، الجزء أو المجلد، دار النشر، مكان النشر.
17. تسجل الدوريات في قائمة المراجع كما يلي: اسم الباحث (السنة)، عنوان البحث، اسم الدورية، العدد، مكان الصدور.

- **تكتب الهوامش كما يلي:**

18. يجب أن تكون الإحالات (الهوامش) متسلسلة بأرقام متتابعة وتوضع أسفل الصفحة.
19. سجل إحالات الهوامش في أسفل الصفحة كما يلي:
    - إذا كانت الإحالة إلى كتاب: يكتب رقم الإحالة، اسم ولقب الباحث (السنة)، الصفحة التي توجد بها الفكرة أو الفقرة المنقولة.
    - إذا كانت الإحالة إلى مقال منشور في دورية: يكتب رقم الإحالة، اسم ولقب الباحث (السنة)، الصفحة التي توجد بها الفكرة أو الفقرة المنقولة.
    - عند تكرار ذكر نفس المرجع، يكتب بعد رقم الإحالة نفس المرجع السابق والصفحة،

    في حالة ما إذا كان التكرار مباشر، وإذا فصل تكرار المرجع بمرجع آخر أو عدة مراجع أو صفحة جديدة، يجب ذكر بعد رقم الإحالة اسم ولقب الباحث (السنة)، الصفحة ثم مرجع سابق.

- **تكتب الإحالات للمراجع الإلكترونية كما يلي:**
- **إذا كان المرجع موقع إلكتروني:**

20. إسم الكاتب أو المنظمة. عنوان الصفحة الرئيسية، (شبكة الأنترنت). عنوان الموقع URL (تاريخ تصفح الموقع: اليوم، الشهر، السنة).

- **إذا كان المرجع صفحة من موقع إلكتروني:**

21. إسم الكاتب (عنوان المصدر). عنوان صفحة المصدر أو الوثيقة التي تتضمن المصدر،(عنوان الصفحة الرئيسية)، (شبكة الأنتيرنت). عنوان الموقع URL (تاريخ
22. تصفح صفحة الموقع: اليوم، الشهر، السنة).

جـ- فيما يخص التحكيم:

23. تخضع كل البحوث والدراسات إلى التحكيم السري من قبل محكمين مختصين.
24. تعرض الدراسات والبحوث على محكمين أثنين على الأقل لتقديم الخبرة حولها. وتعتبر هذه التقارير أساس القبول أو التأجيل لأي بحث أو دراسة. مع العلم أن المجلة يمكنها أن تطلب إدخال التعديلات التي تراها مناسبة بناء على تقارير المحكمين.
25. يمنح الباحث عددين من المجلة التي نشر بها بحثه و05 مستلات من البحث المنشور.

د- فيما يخص الكتب والملتقيات العلمية:

26. تنشر المجلة مراجعات للكتب الجديدة والهامة.
27. تنشر المجلة تقارير عن الملتقيات العلمية التي تتناول مواضيع تعبر على إشكاليات تهم المجلة.

هيئة التحرير

الفهرس

– تقديم العدد : تلمسان وتفاعلاتها الحضارية عبر الزمن XI
أ.د. محمود بوسنه

دراسات وبحوث حول المساهمة الحضارية لتلمسان

1. الصلات الثقافية والفكرية بين تلمسان وقسنطينة 01
أ. د.عبد العزيز فيلالي

2. إشكالية انتشار الصحافة المغاربية والمشرقية في الجزائر
ما بين 1920 و1954: تلمسان ونواحيها أنموذجا 22
أ.د. محمد القورصو

3. قراءة لوثيقة محمَّد بن رَحَّال
حول المطالبة بالإصلاحات (1891) 52
أ.د. عبد الحميد حاجيات

4. علاقة بني عبد الواد (بنو زيان، تلمسان) ببني مرين (المغرب)
بين القرن 7 – 10هـ/ 13 – 16م 60
د. لطيفة بشاري بن عميرة

5. تأملات حول "تلمسان في خضمّ حركة الفكر المغاربي"
بين القرنين الميلاديين الثاني عشر والرابع عشر 73
د. محمد سهيل ديب

6. تقرير باربديث Barbedette حول هجرة تلمسان لسنة 1911 79
أ.د. بشير يلس شاوش

7. مكانة الجزائريين في الحركة الفكرية (التصوف) ببلاد الشام
مهاجروتلمسان أنموذجا 91
سهيل الخالدي

8. كتاب "المواهب" ومخالفات الملالي لشيخه
ابن يوسف السنوسي التلمساني 121
د. جمال الدين بوقلي حسن

9. نشاط فرحات عباس بتلمسان: 1943 – 1945 135
د. مصطفى أوعامري

* إن ترتيب الدراسات والبحوث ليس لديه أية علاقة بمدى أهمية الأعمال البحثية المقدمة في العدد.
* الأفكار والآراء التي تتضمنها الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة على رأي المجلة.

10. تلمسان في العصور العتيقة..... 145
د. محمد الحبيب بشاري

11. التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي (دراسة ميدانية)..... 167
د. سيدي محمد نقادي

12. النخبة التلمسانية ودورها الثقافي والسياسي والاجتماعي من نهاية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى..... 179
د. إبراهيم مهديـد

قراءات

1. وقفة مع رجلين كبيرين أسهما في صناعة تاريخ الجزائر المعاصر..... 200
أ.د. عبد القادر هني

أ – رحلة مع الرئيس احمد بن بلا..... 201
د. هاني سليمان

ب – عبد الحميد مهري محطات ومواقف في مسيرته النضالية..... 205
أ. العايب معمر

تقارير

1. تقرير حول تظاهرة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة 2011 216

أ – تلمسان تشعّ بثقافتها عاصمة للأمة الإسلامية على مدار 2011..... 216
أ. عبد الكريم أوزغلة

ب– تلمسان عاصمةً للثقافة الإسلامية: مساهمة جامعة تلمسان..... 218
د. عبد المجيد بوجلة

2. تقرير حول المؤتمر الدولي للدفاع عن القـدس (الدوحة 2012)
من خلال الصحـافة القطرية 221
د. محمد صالح بني عيسى

الملخصـــات

– الملخصات بالفرنسية 244

– الملخصات بالانجليزية 255

* إن ترتيب الدراسات والبحوث ليس لديه أية علاقة بمدى أهمية الأعمال البحثية المقدمة في العدد.
* الأفكار والآراء التي تتضمنها الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة على رأي المجلة.

Sommaire

- Préface : Tlemcen et ses interactions civilisationnelles à travers le temps XI
Pr. Mahmoud Boussena

- Etudes : Les contributions civilisationnelles de Tlemcen

1- Les relations culturelles et intellectuelles entre Tlemcen et Constantine..... 01
Pr. Abdelaziz Filali

2- Problématique de la diffusion de la presse maghrébine et moyen-orientale en Algérie entre 1920 et 1954 : Le cas de la ville de Tlemcen et ses environs 22
Pr. Mohamed El-korso

3- Présentation d'un document de Mohammed Ben Rahal (1891)..... 52
Pr. Abdelhamid Hadjiat

4- Relations des Béni Abdelwed (Benu Ziane-Tlemcen) Avec les Béni Mérine (Maroc) entre le VIIème et le Xème siècle de l'Hégire/XIIIème et le XVIème siècle..... 60
Dr. Latifa Bechari Benamira

5- Tlemcen dans le mouvement de la pensée maghrébine du XIIème aux XIVème siècles 73
Dr. Mohamed Souhil Dib

6- Le rapport Barbedette sur l'émigration de Tlemcen 1911..... 79
Pr. Bachir Yelles Chaouche

7- La place des algériens dans le mouvement intellectuel (soufisme) fi-bilad el-sham : le cas des émigrés de Tlemcen..... 91
Souheil El Khaldi

8- Le livre ''Al-Mawahib'' et les erreurs d'Al-Mellali vis à vis de son maitre cheikh Al-Sanouci 121
Dr. Djamel Edine Boukli Hacène

9- L'activité de Ferhat Abbas à Tlemcen (1943-1945) 135
Dr. Mustapha Ouamri

10- Tlemcen à l'époque préhistorique 145
Dr. Mohamed El Habib Bachari

11- L'aménagement urbain de la ville de Tlemcen de l'époque des Murabitines jusqu'au début de l'occupation coloniale française 167
Dr. Sidi Mhamed Négadi

12- L'élite tlemcennième et son rôle culturel, social et politique de la fin du XIXème siècle à la fin de la première guerre mondiale 179
Dr. Brahim Mehdid

- Analyses bibliographiques..... 200
- Rapports..... 216
- Résumés..... 244

Content

- Preface: Tlemcen and its civilizational interactions throughout the time..... XI
Pr. Mahmoud Boussena

- Studies

1- The cultural and intellectual relations between Tlemcen and Constantine..... 01
Pr. Abdelaziz Filali

2- Problematic of the Maghreb and Middle East press diffusion in Algeria between 1920 and 1954: the situation in Tlemcen and its surroundings..... 22
Pr. Mohamed El-korso

3- Presentation of a document of Mohammed Ben Rahal about claiming reforms (1891)..... 52
Pr. Abdelhamid Hadjiat

4- Relations of BanouAbdeloued (The Zayyanids-Tlemcen) to the Marinids (Morocco) between the 7th and the 10th centuries AH/ 13th and 16th centuries AD..... 60
Dr. Latifa Bechari Benamira

5- Tlemcen in the the midst of the movement of Maghreb thought Between the centuries twelfth and fourteenth 73
Dr. Mohamed Souhil Dib

6- The «Barbedette» Report about Tlemcen Exodus of 1911..... 79
Pr. Bachir Yelles Chaouche

7- The role of Algerians in the intellectual movement (Sufism) in bilad e-sham: the case of immigrants from Tlemcen 91
Souheil El Khaldi

8- The book “El Mawahib” (talents) and the irregularities of al-mellali toward his Master Ibn Yusuf al-Sanusi e-tlemceni 121
Dr. Djamel Edine Boukli Hacène

9- The activity of Ferhat Abbas in Tlemcen (1943-1945) 135
Dr. Mustapha Ouamri

10- Tlemcen in antique eras 145
Dr. Mohamed El Habib Bachari

11- The urban planning of the city of Tlemcen from the periods of Murabitines to early French colonial occupation 167
Dr. Sidi Mhamed Négadi

12- The Tlemcenian Elite and its cultural, political and social role, by the end of the nineteenth century to the end of the First World War 179
Dr. Brahim Mehdid

- Biographical analysis..... 200
- Reports..... 216
- Abstracts..... 244

تقديم العدد
تلمسان وتفاعلاتها الحضارية عبر الزمن

أ.د. محمود بوسنه
جامعة الجزائر2

عاشت الجزائر والعالم الإسلامي في سنة 2011 تظاهرة ثقافية هامة من خلال الاحتفاء بتلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية عن المنطقة العربية وجاكارتا وكوناكري عاصمتين للثقافة الإسلامية عن المنطقتين الأسيوية والإفريقية ؛ وهذا بناء على برنامج الايسيسكو العشري للعواصم الثقافية الإسلامية (2005 – 2014).

لقد سمحت هذه التظاهرة بالكشف عن الميراث الحضاري العريق لتلمسان الجوهرة ؛ التي كانت وتبقى إحدى المدن الإسلامية الكبيرة. حيث قدمت عبر الزمن عطاءات حضارية متميزة، في الفن والعلم والعمران ؛ فإشعاعاتها امتدت لتشمل ليس فقط مدن شمال إفريقيا وإنما المشرق العربي والأندلس. وفي هذا الإطار قال الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله عندما زار تلمسان للمساهمة في فعالية هذه التظاهرة «جئت إلى تلمسان لأشم عبق التاريخ وعطر الفن والثقافة.....ومتسائلا كم جمعت تلمسان من علماء وزهاد وأهل فكر وقلم، وأسماء عائلات اختصت بالتدريس، والرحالة كالعقباني وابن مرزوق والمقري، فقد كانوا عالميين ولو توفر المال والاستقرار لأضحت مدرسة ابني الإمام كلية علمية في الوقت الذي كانت فيه السربون وأكسفورد في رحم الغيب...».

نعم إن تلمسان هي موطنا للعلم والإبداع والتاريخ، ولهذا قررت هيئة تحرير مجلة أفكار وآفاق، أن تدلوَ بدلوها وتخصص محور الدراسات والبحوث لهذا العدد لعرض مجموعة من الأعمال البحثية المتميزة حول الإسهام الحضاري لمدينة تلمسان، اشرف على إعدادها مجموعة من الباحثين تفضلوا بإفادتنا بتحاليل ونقاشات علمية هامة يبرزون فيها طبيعة التفاعل الحضاري لمدينة تلمسان مع محيطها.

عرفت مدينة تلمسان نوعا من الاستقرار البشري منذ العصر العتيق وهذا رغم خضوعها لمد وجزر مع محيطها المتنوع ؛ فمن التموجات التي عرفتها مع سيطرة الرومان والوندال والبيزنطيين إلى دخولها دائرة الإسلام، لما عمت

الفهرس

الثقافة الإسلامية بالجزائر والبلدان المغاربية. لقد أصبحت بعد ذلك تشع وتتطور في إطار هذه الثقافة وتعمل على مقاومة مختلف أشكال الغزو الخارجي وهذا سواء على مستوى مجالها الحيوي الحضاري المباشر أي ربوع الجزائر أم المجال الحيوي غير المباشر (البلدان العربية والإسلامية).

و في هذا الإطار قرر الطاقم العلمي لمجلة أفكار وآفاق توجيه اهتمامات المجلة في سنة 2012 إلى الدراسات والبحوث حول تلمسان ؛ وهكذا عملنا على إعداد عدد خاص بهذا الموضوع، ونعلن عن الشروع في إعداد أعداد متخصصة، وبصورة منتظمة من المجلة حول مواضيع هامة تشغل بال المجتمع والباحثين.

وبمناسبة صدور هذا العدد الخاص أوجه شكري إلى كل من الأستاذ محمد القورصو والأستاذ مصطفى نويصر على المجهودات الكبيرة التي بدلوها في تنظيم هذا العدد.

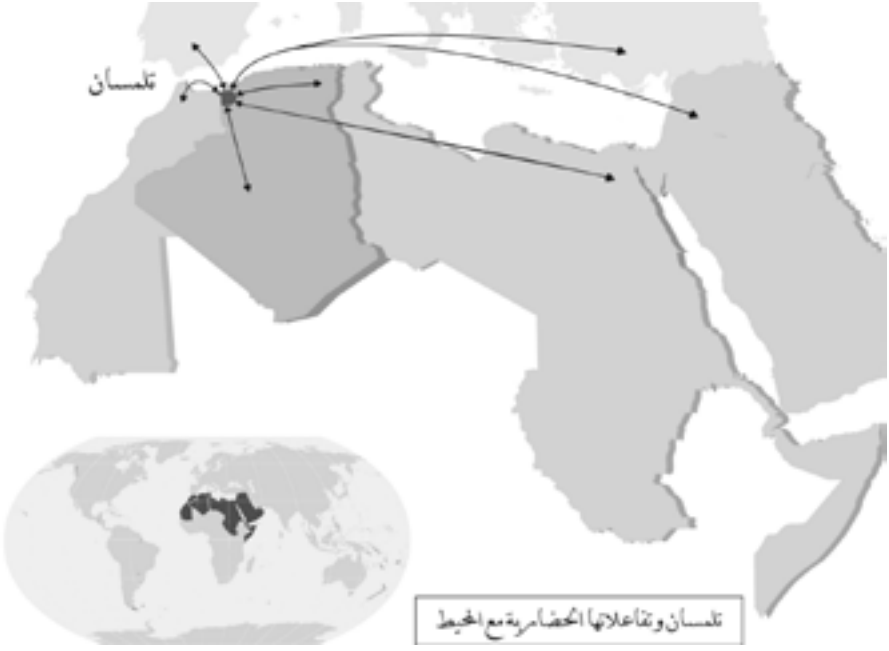

دراسات وبحوث
حول
المساهمة الحضارية لتلمسان

الصلات الثقافية والفكرية بين تلمسان وقسنطينة

أ. د.عبد العزيز فيلالي
جامعة منتوري، قسنطينة–الجزائر

ملخص

تعد كل من مدينتي تلمسان وقسنطينة من المدن العريقة في الجزائر، دخلهما الاسلام مع طلائع أبي المهاجر دينار، ومنذ ذلك الوقت عرفتا صلات ثقافية وفكرية ومثاقفة صوفية لأن المشرب والمنبع واحد هو الإسلام. ساهم فيها علماء من قسنطينة ومن تلمسان. لعبت البيوتات القسنطينية والتلمسانية دورا مهما في هذه الصلات، ولاسيما منها اسرة لفكون والملاري وابن قنفذ وابن باديس من قسنطينة وأسرة ابن خلوف وابن مرزوق، والمقري والشريف التلمساني من تلمسان في العصر الوسيط. واستمر التواصل بين علماء المدينتين في العهد العثماني بحيث كان أبوعبد الله محمد بن باديس يراسل ابا العباس احمد المقري التلمساني في قضايا تتعلق بمسائل فكرية ولغوية، وتوجد زاوية بمدينة قسنطينة يحمل اسم شيخها "سيدي علي التلمساني". وفي عهد الاحتلال الفرنسي انتقل العالم القدير عبد القادر الجاوي التلمساني الى قسنطينة واستقر بها مدرسا وباعثا للنهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية. وكان رائد النهضة في الجزائر الإمام عبد الحميد بن باديس كثير الزيارة لأهل تلمسان التي كانت لها مكانة في وجدانه، ولاسيما تلك التي دشن فيها "دار الحديث" وكتب منها نداء لأهل قسنطينة خاصة والجزائر عامة لمقاطعة الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة.

الكلمات الدالة : تلمسان، قسنطينة، العصر الوسيط، البيوتات العريقة، التواصل الثقافي.

مقدمة

تتطلب دراسة المدن التركيز على موقعها وبعدها الزماني والجغرافي وما تتضمنه من تنمية بشرية واقتصادية وحضارية في الماضي البعيد والقريب، لان التاريخ هو أساس فهم الحاضر، ولأن المدن لا تنمو من فراغ، وإنما تنمو وتترعرع متأثرة بعوامل بشرية وطبيعية واقتصادية وثقافية، ومتغيرات تؤثر في خصائصها ووظائفها، وان دراسة المدن، تعد من الدراسات، التي تبيّن الاستقرار البشري وتحدد نوع نشاطاته المختلفة، وقد عرفت الجزائر تأسيس المدن وإنشائها في الألفية الأخيرة قبل الميلاد.

وتعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر، عرفتا الاستقرار البشري، منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وصارت الأولى (قسنطينة) عاصمة للدولة النوميدية الشرقية إبتداءا من القرن الرابع قبل الميلاد، وأصبحت الثانية (تلمسان) عاصمة إقليمية لغرب الجزائر في عهد المماليك المحلية، وخضعت كل منهما للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي ما بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين.

عرفت مدينة قسنطينة بثلاثة أسماء هي: كرثن، سرتا، قسطنطينة، وعرفت تلمسان ايضا ثلاثة أسماء هي: بوماريا، إقادير وتلمسان.

دخلت قسنطينة إلى دائرة الإسلام، في منتصف القرن الأول الهجري واحتضن أهلها الإسلام واللغة العربية مبكرا، في عهد أبي المهاجر دينار ما بين سنتي 55هـ/62هـ681-674-، الذي قام بنقل عاصمة ولايته من القيروان الى مدينة "ميلة" في الجزائر سنة 59هـ/677 ومكث بها نحو سنتين كاملتين فتح خلالها مدينتي "تيديس" وقسنطينة ومنهم جميعا وجه البعثات والسرايا والحملات نحو المغرب الأوسط (الجزائر)، وصار يدير من ميلة شؤون الولاية، فتمكن من فتح بلاد الجزائر، بفضل جهود ومساهمة رجال كتامة ماليا واقتصاديا وعسكريا وبنصيب كبير في إتمام فتح المغرب الأوسط (الجزائر) وكان لهم شرف الدفاع عنه ونشره إلى أن أوصلوه إلى تلمسان.[1]

أما مدينة تلسمان فقد دخلتها طلائع أبي المهاجر دينار، ثم عقبة بن نافع في حملته الثانية (683-64/681-62) في العقد الأول من النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وهي الفترة الزمنية تقريبا التي دخلت فيها قسنطينة إلى حاضرة الإسلام. وأصبحت تلمسان في عهد موسى بن نصير، في نهاية القرن الأول الهجري تقريبا، مقرا مفضلا لطارق بن زياد، يقيم فيها مع زوجته "أم حكيم" وحاشيته وجنده وهيئة أركانه.[2]

وكان طارق بن زياد يحكم المنطقة الواقعة ما بين تلمسان وطنجة ويفضل الإقامة بالأولى (تلمسان)، ويدير منها شؤون عمالته، وقد استقبل طارق بن زياد في تلمسان مقر حكمه "الكونت يوليان" حاكم مدينة "سبتة" مع ابنتيه، واتفق معه على مشروع فتح الأندلس، وبهذا يكون أهل تلمسان بقيادة العالم الزناتي "الياس المغيلي" التلمساني الذي اعتنق الإسلام مبكرا، قد حملوا لواء الجهاد، الى جانب جيش طارق بن زياد وتحت لوائه، في إتمام فتح الربوع المغربية وبلاد الأندلس[3]، بأموالهم ورجالهم وفلذات أكبادهم.

1 - عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة ص 35-33.

2 - ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس، ص72.

3 - شخصية وتراث العلامة عبد الكريم المغيلي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ص1.

خضعت مدينة قسنطينة في العهد الإسلامي للدولة الأغلبية والفاطمية والزيرية والحمادية والموحدية ثم الدولة الحفصية.
وكذلك خضعت تلمسان في الوقت ذاته، إلى إمارة محلية مغراوية ثم الى الدولة الادريسية وأحيانا للفواطم ومغراوة تحت نفوذ عبد الرحمان الناصر الأموي الأندلسي في القرن 4هـ/10م، ثم المرابطين والموحدين، وصارت عاصمة للدولة الزيانية سنة 633هـ.

1. الصلات الثقافية والفكرية قبل القرن التاسع عشر

إن الحديث عن الصلات الثقافية والفكرية والمثاقفة الصوفية بين تلمسان وقسنطينة والأخذ والعطاء الحضاري، وتحديد درجة استفادة أهل الحاضرتين من بعضهما،تعوزه النصوص المنوغرافية والمصادر الأساسية، بحيث مرت على هذا الجانب مرور الكرام، وما ذكرته من نتف وشذرات جاء محتشما لا يشفي غليل الباحث، وخاصة في العصور الوسطى.
ولكن ظاهرة الصلات الثقافية والفكرية بين قسنطينة وتلمسان، برزت منذ أن إختصت المغرب الدين الإسلامي واللغة العربية، وأصبح يتفاعل مع منظومة العلوم الإسلامية، ولاسيما بعد ان تصدرت هذه العلوم الحواضر الكبيرة، ساهم علماء قسنطينة وتلمسان في نشرها وازدهارها، وتكوين نخبتها عبر الحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية.
كانت مدينة قسنطينة معبرا للطلاب والعلماء والحجاج نحو بلاد المشرق، وصارت تلمسان محطة للعلماء والطلاب والمتصوفة القادمين من الأندلس والمغرب الأقصى يؤمون مساجدها ومدارسها وزواياها، فكانت محجا للصوفية والمريدين، للوقوف على ضريح ابي مدين شعيب بالعبادة والتبرك به والدعاء عنده، والالتقاء بالاولياء الصالحين التي تزخر بهم مدينة تلمسان ولبس الخرقة منهم.
فكانت اخبار وكرامات المتصوف "ابي يعزي يلنور" (ت 572هـ/1178) تصل إلى مدينة تلمسان ومدينة قسنطينة ومنها خبر شجرة التين الموجودة ببيته، والتي لا ينقطع منها التين طوال السنة وقد سافر أحد وجهاء قسنطينة من بني علناس رفقة أخيه الحاج ميمون إلى جنوب مكناس حيث يوجد بيت أبي يعزي للتأكد من شجرة التين وكرامة الشيخ فأكلا من تينها.[4] وقد تأثر الخطيب ابن قنفذ بخوارق أبي يعزي وزار قبره سنة 761هـ/1359 م[5]، ويعني هذا أن أهل المدينتين كانوا يأخذون التصوف من مشرب واحد ومن منبع مشترك.

4 - العزفي: دعامة اليقين في زعامة المتقين، احمد التوفيق الرباط 0891هـ. ص 35.

5 - أبو يعزى يلنور: صوفي زاهد من شيوخ أبي مدين الغوث قال عنه ابن قنفذ: "حدّث عن البحر ولا حرج": أنس الفقير ص21.

كما انتشرت في المدينتين الطريقة المدينية، وهي مدرسة أبي مدين شعيب الغوث (ن594/1198م)، التي ضمنها صاحبها الجانب العملي المأخوذ من مدرسة المجاهدات العملية المغربية، وطعّمها بالافكار الصوفية الأندلسية التجريدية، في اتجاهها الباطني ووحدة الوجود، واستمد فكرة تنظيم الطريقة وطقوسها من المتصوف عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني (ت 560/1165).[6]

وقد رفض أبو مدين شعيب أسلوب التقشف والزهد السطحي الظاهر، القائم على ترك الملذات في المأكل والملبس والتطيب والعطر، لأن الزهد في نظره فضيلة وفريضة وقربى[7]. وكان يلتزم بالتصوف السني، ولذلك كانت طريقته واسطة بين طريقة الجيلاني القادرية وعدد آخر من الطرق أهمها الطريقة الشاذلية في المغرب الإسلامي.[8]

وقد صارت مدينة تلمسان ما بين القرنين 7 و9هـ/13-15م عاصمة للزهد والتصوف والفقه المالكي، ومنبرا للحضارة الإسلامية، ووسطا للحركة الباطنية وللغليان الروحي، ومشتلة للعلم والمعارف، وخزانا للعلماء والفقهاء والمتصوفة بفضل التواصل الثقافي والفكري والعلمي مع حواضر الغرب الإسلامي.

لعبت البيوتات العريقة في المدينتين (قسنطينة وتلمسان) دورا بالغ الأهمية في النهضة الفكرية والعلمية، وكانت العامل الأساسي في التواصل الفكري والثقافي بين أهل قسنطينة وأهل تلمسان، ولاسيما منها : أسرة لفكون، وأسرة ابن قنفد، واسرة ابن باديس وأسرة ابن عبدون من قسنطينة، وأسرة المرازقة، والمقري والشريف العلوني وابنا الإمام وأسرة ابن النجار والعقباني وغيرها من تلمسان، بحيث كانت تتبادل الزيارات السياحية الروحية والعلمية بين المدينتين والتدريس بهما، وحضور الطقوس الصوفية والمجالس العلمية.

والظاهر ان رموز الفعاليات الدينية والفكرية والعلمية والأدبية والتصوف في المجتمع القسنطيني والتلمساني، كانت محل تقدير وعناية واحترام من قبل السلطة الحفصية والزيانية، وهذا الأسلوب يعد دلالة واضحة للتوازنات التي تريدها السلطة بين أهل المعقول والمنقول والتصوف، وقد استفاد أصحاب علم الباطن من هذا السلوك، فكان لهم الازدهار والانتشار في الحواضر الكبرى للمغرب الأوسط وأريافه.[9]

---

6 - الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 -9هـ، ثورة الجزائر ق1 ص 28.

7 - نفسه.

8 - نفسه.

9 - ابن قنفذ: انس الفقير ص 94 والطاهر بونابي: المرجع السابق ص 84.

فقد قام أبو علي حسن علي بن لفكون القسنطيني (بعد602هـ/1205) وهو الكاتب الكبير، وشاعر وقته، والذي يعد من العلماء البارعين الغزيري الإنتاج في المنظوم والمنثور، خلف ديوانا شعريا مدح فيه ابن عبد المومن، في رحلة سياحية علمية من مسقط رأسه حاضرة قسنطينة، زار خلالها أغلب مدن المغرب الأوسط والأقصى، إلى إن حط رحاله في مراكش عاصمة الموحدين.

كانت الرحلة في طلب العلم، هي ميزة تلك العصور، يقول عنها ابن خلدون: "فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[10].

فبقدر ما كانت الرحلة فحصا للأغوار، ووصفا للأمصار وتقصيا للحقائق وللأحوال والاوضاع الجغرافية والاقتصادية والبشرية والثقافية، فانها أيضا عاملا من عوامل التزود بالعلوم والمعارف، والأخذ من الشيوخ والتتلمذ عليهم.

دوّن الشاعر ابن لفكون، جولته هذه في قصيدة شعرية طويلة ضمنها أحاسيسه تجاه المدن التي زارها، تعد من درر المنظوم ونفائسه. فمكث في تلمسان التي أعجب بها مدة اتصل بعلمائها وأدبائها. فكانت له مناظرات أدبية، وفكرية مع بعضهم، وقد خص حاضرة تلمسان بقوله:

وفي وهران قد أمسيت رهنا لظامي الخصر ذي ردف روي
وأبدت لي تلمســـان قدودا جلبن الشـوق للقلب الخلي[11]
ولما جئت وجدة همت وجدا بمن خنث المعـــاطف معنوي

وكان الفقيه المتحدث أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف المكني بأبي فارس (ت 681/1287) من مواليد تلمسان، تعلم بها، ثم انتقل إلى مدينة بجاية في رحلة لطلب العلم، فأخذ عن شيوخها من علم المنقول والمعقول، مثل أبي الحسن الحرّاني وأبي العباس المليانى، وتقلد بها قضاء الانكحة، ثم غادر بجاية ليستقر في مدينة قسنطينة، فدرس بها، والتقى بعلمائها وصفه الغبريني بأنه خزانة مالك بن أنس، احتك بالفقهاء وكان مشاورا لهم، وكانت فتواه هي التي يجري بها العمل، تقلد وظيفة القضاء، ومارسها بمدينة قسنطينة، توفي بمدينة الجزائر (ت681/1287).[12]

وهذا دليل على ان علماء المغرب الأوسط، كانوا يتبادلون الزيارات والأفكار ويتناظرون في أمهات الكتب ويقومون بالتدريس ويتقلدون الوظائف، فالمثاقفة بينهم متواصلة بالرغم من أن قسنطينة تقع تحت نفوذ الحفصيين وتلمسان عاصمة بني زيان.

10 - المقدمة ص 816.

11 - الغبريني: عنوان الدراية ص 482.

12 - نفسه ص 19.

وقد زار محمد بن احمد بن مرزوق (781/1380) مدينة قسنطينة عدة مرات الأولى وهو لا يزال شابا لم يتجاوز19 من عمره، في طريقه إلى البقاع المقدسة رفقة والده أبو العباس احمد بن مرزوق (741هـ/1341) فتتلمذ على بعض الفقهاء والصلحاء بالمدينة ولاسيما منهم قاضيها كما أشار هو إلى ذلك في مجموعه.

ورجع إليها أستاذا زائرا درّس بها مجموعة من العلوم منها كتاب البخاري في الحديث، قال عنه ابن قنفذ الخطيب الذي تعلم على يده بعض العلوم : "شيخنا الفقيه توفي بالقاهرة، ودفن بين أبي القاسم وأشهب، له طريق واضح في الحديث، ولقي أعلاما، وأسمعنا حديث البخاري وغيره في مجالس مختلفة، ولمجلسه لياقة وجمال، ولين معاملة، وله شرح جليل على "العمدة" في الحديث والبردة".[13]

وزارها مرة ثالثة مع السلطان أبي الحسن المريني (731-749هـ/1331-1349م)، الذي توقف في مدينة قسنطينة بعد الاستيلاء عليها فأقام ابن مرزوق مع أسرة السلطان المريني بها، ولما كانت وقعة القيروان على أبي الحسن، وثار سكان مدينة قسنطينة على بني مرين سنة 749/1349وعلى وجودهم في المدينة خرج منها ابن مرزوق رفقة أسرة السلطان وتوجهوا الى مدينة بسكرة[14].

وكان الفقيه المتصوف أبي هادي (747هـ/1347م) قد تجرأ على أبي الحسن، وطلب منه العودة من حيث أتى وترك افريقية وقسنطينة وشأنهما، إلاّ أن أبا الحسن رفض طلبه ونصيحته، فكانت الكارثة عليه، بالرغم من أن، السلطان المريني، كان شديد الحرص على التقرب من المتصوفة، وزيارتهم والتبرك بهم ومعانقتهم، كما كان يفعل مع أبي هادي مصباح الصنهاجي، صاحب زاوية بقسنطينة، ويمنح لهم الهدايا ويكتب لهم ظهائر التشريف والتكريم، مثل ما فعل مع الخطيب حسن بن خلف بن باديس (784/1372) وأخيه أبي القاسم شيخ الحرابة.[15]

وكان الخطيب محمد بن مرزوق يجلس مع المتصوف أبي هادي في مدينة قسنطينة، ويبجله ويعتقد فيه يقول عنه: "من كبار اصحابه (السلطان أبوالحسن) الذي كان يعظمهم الشيخ الصالح العارف العابد القانت الفاضل أبو محمد عبد الهادي (أبو هادي) أحد اولياء الله البدلاء، الخاشعين الأتقياء أصحاب كرامات وأحوال ومقامات، أحد المتصوفين الطاهرين، وخاتمة الأولياء المتقين، لم ير مثله أبدا في

13 - التنبكتي: نيل الابتهاج ص 962، ابن قنفذ: كتاب الوفيات ص 373.

14 - ابن مرزوق: المجموع ورقة 83-74.

15 - نفسه ص37-38- التنبكتي : نيل الابتهاج ج2 ص296.

المغرب، وكان والدي أبو العباس (ت741/1340) شديد الاعتقاد فيه"[16]. وكان المتصوف أبو هادي يزور زاوية العباد وينزل بها مع أتباعه ويقيمون بها جميعا مدة من الزمن عاكفين.

وقد شاهد ابن قنفذ في زياراته العديدة إلى العباد تواصل عملية الانقطاع والاعتكاف بهذه الزاوية(زاوية العباد) واستمرار نشاطها الاجتماعي في الإنفاق على المنقطعين والعاكفين.[17]

وكان يرافق أبو الحسن مجلسا من العلماء والفقهاء استقروا بمدينة قسنطينة، وكان من بينهم الخطيب ابن مرزوق، وأبو عبد الله محمد المقري (757/1356) والشريف العلوني التلمساني (771هـ/1369) الذي عين قاضيا على حاضرة قسنطينة، فتواصلوا جميعا مع علماء هذه المدينة بالأخذ والعطاء الفكري ولاسيما منهم القاضي المحدث حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني (778هـ/1376م).[18]

وعاد إليها ابن مرزوق الخطيب مرة أخرى مع السلطان أبي عنان في حملته الشهيرة على افريقية سنة (758هـ/1356م) ضمن المجلس العلمي للسلطان، فدخل المدينة بعد حصار طويل، ومكث العلماء التلمسانيون الثلاثة في مدينة قسنطينة، يدرسون المنقول والمعقول ويجلسون مع علمائها ونخبتها.

وكان أبو عنان، قد اختار المقري للكتابة وقاضي العسكر، اثناء حملته على مدينة قسنطينة، التي اتخذ فيها موقفا مشددا، ضد الولي الخطيب حسن بن خلف الله بن باديس السالف الذكر، لأنه رفض الغزو المريني، وكان يحمس المقاتلين ضدهم بخطبه المؤثرة على أهل قسنطينة، فنزع منه ظهير التشريف والتكريم الذي منحه أياه أبو الحسن ونفاه وسجن أخاه شيخ الحرابة.[19]

وقد أشار ابن قنفذ الى المحاورة والمناظرة الفقهية التي دارت بين أبي هادي مصباح سعيد الصنهاجي (748/1347) صاحب زاوية بقسنطينة مع فقهاء تلمسان، ولاسيما وأن أبا هادي ينتمي إلى الطائفة المجارية والتي اخذها عن أبي لقمان المراكشي، قبل ان يتحول إلى الطريقة المدينية عن طريق شيخ زاوية ملارة.[20] يعقوب الملاري (717هـ/1317م) بملارة (فرجيوة) وقسنطينة.

---

16 - المسند ص 651. انس الفقير ص46 وأبو هادي شيخ وولي صالح، استقر في مدينة قسنطينة وأصله من المغرب الأقصى، كانت له منزلة معتبرة، عند سلاطين بن حفص وكذلك السلطان أبو الحسن المريني وبالرغم من مقاومة غزوه لافريقية ونصيحته بالعودة إلى المغرب الأقصى فقد ظل أبو هادي يقول عنه أنه أفضل الملوك وأقربهم إلى الله، المسند ص 864.

17 - انس الفقير ص 601-701.

18 - بونابي المرجع السابق ق1 ص 823.

19 - أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف ج1 ص382، أبو سالم العياشي: الرحلة ج2 ص 502 خرج مع الأمير أبي الناصر بن الحسن وبعض أولاد السلطان من قسنطينة واتجه إلى بسكرة.المجموع ورقة 84.

20 - أنس الفقير: ص49-15.

أما الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الحفيد (ت 842/1438) الذي شرّق وغرّب، فكان له فضل الإقراء من المغرب إلى الحجاز، اشتهر بعلمه وفضله في الأمصار التي زارها، فقد مكث في مدينة قسنطينة نحو ثمانية أشهر مدرسا ومفتيا ومجتهدا خلال سنة 837/1433 أثناء رحلته إلى البقاع المقدسة، تتلمذ عليه طلاب كثيرون وكانوا يتزاحمون على مجلسه، ولاسيما منهم إبراهيم بن فايد بن موسى بن هلال (ت857/1455) الذي اخذ عليه الأصليين والمنطق والمعاني والبيان فضلا عن علم الفقه، والظاهر إن ابن هلال استغل وجود ابن مرزوق في قسنطينة، فلازمه وتقرب منه حتى أخذ عنه غالب العلوم المتداولة عنده، كما اشار التنبكتي.[21]

وأما الفقيه احمد بن يونس بن سعيد القسنطيني، فقد تزود بمؤلفـــاته منها شرحه على البردة.[22]

وفي مجال التصوف فقد انفتحت قسنطينة على زاوية العباد بتلمسان واعتنقت طريقتها عن طريق يعقوب بن عمران البويوسفي (ت717/1317) الذي تتلمذ على الشيخ مسعود بن عريف، أحد أصحاب القطب أبي مدين (594هـ) الذي ينحدر من جبال الشلف، فتأثر به يعقوب الملاري تأثرا كبيرا لدرجة ان الشيخ مسعود ورث له الطريقة المدينية، ونصحه بالعودة الى بلده وبناء زاوية بها تكون منارة للاشعاع الصوفي السني. وكان ذلك في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م، وهذا دليل ايضا على التواصل الفكري ما بين متصوفي علماء تلمسان مع علماء وصوفية قسنطينة.

والظاهر أن طريقة أبي مدين شعيب الغوت وطقوسه في مجال التصوف السني، قد عرفها شيوخ مدينة قسنطينة وطلابها وصلحاؤها، ويكون هؤلاء الشيوخ تتلمذوا عليه مباشرة أو عن طريق تلاميذه، في مدينة بجاية، التي أقام فيها أبو مدين فترة طويلة، وأن بجاية لا تبعد كثيرا عن قسنطينة، وتخضع كلتاهما للنفوذ الحفصي.

وأن كتابي "عنوان الدراية" و"أنس الفقير" رصدا لنا العديد من المراسلات والاتصالات بين شيوخ قسنطينة وصلحائها وبين شيوخ بجاية ومتصوفيها[23] وزياراتهم الكثيرة للمدينتين.

حرص يعقوب الملاري على العمل بالكتاب والسنة والاعتناء بالجانب التربوي العملي من التصوف في زاويته، وهي الطريقة التي سلكها أبو مدين الغوث، التي يرى فيها بأن التصوف ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا بلبس

21 - نيل الابتهاج ص 54.

22 - نفسه ج1ص45 – السخاوي: التحفة اللطيفة ج2 ص 061.

23 - انظر الغبريني: ص 19-052-152 وابن قنفذ : ص 94-15.

الصوف الخشن والخرقة، وانما يكون بالصبر على الأوامر واليقين والهداية، وهو السلوك الذي التزم به أبو مدين وأسرة ابن مرزوق في تلمسان.[24]

وقد التزم شيخ الزاوية الملارية، بهذه المبادىء والافكار، وبما تحلى به نظام أبي مدين الغوث، حتى أصبح لزاوية ملارة وشيخها تأثير روحي كبير في قسنطينة والمغرب الادنى، فصارت قبلة للمريدين وملاذا يلجؤون إليها وقت الشدائد يحتمون بشيخها وببركاته ودعواته.[25]

وكذلك وضح لنا ابن قنفذ الخطيب المكانة التي كان يتمتع بها والد جده يعقوب وجده يوسف بن يعقوب (764/1360) بسبب الاعتقاد فيهما لأنهما ينتميان الى طريقة أبي مدين الغوث، وارتباط أغلب صوفية قسنطينة وبجاية بها عن طريق التتلمذ أو الأخوة في الطريقة، لأن أبا مدين الغوت مكث نحو 15 سنة ببجاية وهو الأمر الذي جعل العلاقة متينة بين زاوية ملارة بفرجيوة التي تبعد عن قسنطينة بمرحلتين ولكن صاحبها كان يتنقل ما بين ملارة وقسنطينة دائما، لأن ابنته تزوجت من حسن بن قنفذ (ت 750هـ/1350م) والد ابن قنفذ الخطيب (810هـ/1347م) وزاوية العباد بتلمسان حيث كان الشيخ يوسف يعقوب الملاري (ت764/1360) كثير التردد على ضريح ابي مدين، وهو ما جعل الشيخ أبو العباس بن مرزوق (741/1341) القائم على ضريح العباد، يهدي للزاوية الملارية جزءا من عكاز أبي مدين كعربون لهذا الانتماء وللصلة الوثيقة بينهما.[26]

إن مكانة الولي يوسف بن يعقوب الملاري عند سلاطين بني حفص وسلاطين بني زيان جعلت السلطان الحفصي أبو يحي أبو بكر (718-747/1318-1343) يكلفه بمهمة دبلوماسية الى البلاط التلمساني، للقاء السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول (707-718/1307-1318) وقد قام بهذه المهمة على أحسن ما يرام، إذ تمكن الشيخ الملاري، من إبرام معاهدة هدنة وسلم وحسن الجوار، بين الدوليتين الجارتين مدتها عشر سنوات[27]، وهذا دليل واضح على العلاقة المتينة بين رجال التصوف ورجال الحكم والسلطة، فتعدى بذلك من التعاون الثقافي والفكري إلى التعاون السياسي والدبلوماسي.

فقد كانت لشيخ زاوية ملارة، علاقات عديدة ومتنوعة مع العلماء والصلحاء والأمراء والسلاطين في قسنطينة وتونس وبجاية وتلمسان، تدل على اتساع دائرة شهرته العلمية والروحية والصوفية وكثرة الاعتقاد فيه.

---

24 - نللي سلامة العامري : الولاية والمجتمع ص47. عبد العزيز فيلالي : دراسات في تاريخ الجزائر ص 621.

25 - ابن قنفذ: الفارسية ص139-491-891.

26 - ابن قنفذ: انس الفقير، ص 35.

27 - نفسه ص53.

وكان الخطيب ابن قنفذ القسنطيني (810هـ/1407م) حفيد الملاري يوسف بن يعقوب (ت 764هـ/1363م) قد تأثر بثقافة جده الصوفية وتتلمذ عليه لأنه كفله بعد وفاة والده، وعلمه منذ نعومة أظفاره علوما شتى، فتعلق الصبي بجده تعلقا شديدا، فأظهر ابن قنفذ نجابة كبيرة في هذا الميدان.

أهلته إلى الرحلة نحو المغرب الأوسط والأقصى، عكس أقرانه الذين كانوا يتوجهون إلى بجاية وتونس والمشرق الإسلامي للاستزادة من العلوم والمعارف، والالتقاء بالأولياء الصالحين، والوقوف عند أضرحة المتوفين منهم، فقصد مدينة تلمسان عاصمة بني زيان والتقى بعلمائها، ووقف عند ضريح وزاوية شيخها أبي مدين بالعباد، وتبرك به، ولاسيما وأن علاقة طيبة روحية تربط بين جده الملاري وأسرة ابن مرزوق بتلمسان القائمين على ضريح أبي مدين الغوث وخطباء مسجد العباد، وقد استغرقت جولته السياحية والعلمية ما يزيد عن ثمانية عشر سنة، التقى خلالها بأقطاب التصوف ولبس الخرقة بيدهم.

فكان كثير التردد على مدينة تلمسان في غدوه ورواحه ورحلاته المتعددة نحو فاس وسلا وأغمات ودكالة، استقر بمدينة تلمسان مدة من الزمن سنة 776/1373م، بسبب المجاعة التي اجتاحت المغرب الإسلامي، اتصل خلالها بالمجالس العلمية والصوفية التي تقام بتلمسان وشارك فيها.[28]

فقد وقف كثيرا أمام ضريح أبي مدين الغوث بعباد تلمسان، يتبرك به، ويتضرع أمام مقامه وفي ذلك يقول: "فلجأت إلى قبر أبي مدين وركعت هناك ما قدر لي ثم قرأت جملة من القرآن، ثم أخذت في التسبيح والتهليل في نفسي، حتى رق قلبي واجتمع خاطري، فاستغفرت اليه وصليت على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت : يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك، وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد وسند متصل قريب غير منفصل، والغرض تسيير الانتقال والحفظ في كل الاحوال".[29]

كما التقى بالمتصوفة التلمسانية الشهيرة بالصالحة بفاس وبتلمسان، فكانت هذه الأخيرة تجالس كبار الفقهاء ومجادلتهم في مسائل فقهية عديدة وكانت تعكف لقراءة القرآن الكريم وعلى زهد وتقشف وعبادة وورع، وكان مجلسها يضم الفقيه العالم محمد المقري والشريف التلمساني، وابن قنفذ الخطيب القسنطيني ويقول عنها هذا الأخير: "أنها كانت تطلعني على آداب دقيقة وتنبهني ما انتفع به".[30]

28 - انس الفقير ص 18، ابن مرزوق: المجموع، ورقة 41-71.

29 - انس الفقير واعز الحقير ص 501.

30 - ابن قنفذ : المصدر السابق ص 501.

وكان ابن قنفذ قد رصد في كتابه الموسوم "أنس الفقير وغز الحقير في رحالات التصوف كأبي مدين وأصحابه"، معتبرا شخصية أبي مدين الدافع الأساسي لوضع هذا الكتاب.[31]

وقد دخلت حلقات الدرس بمدينة قسنطينة، مؤلفات مشرقية وأندلسية وتلمسانية كثيرة، اعتمدها الطلاب في دراستهم وأبحاثهم منها كتب ابن مرزوق الخطيب وحفيده محمد، وكتب ابن أبي حجلة التلمساني وقصائده في الشعر الصوفي، وهو الأمر الذي جعل الثقافة في قسنطينة وتلمسان تعتمد على رافدين هامين، رافد المشرق ورافد الأندلس، فضلا عن الجهاز العلمي والثقافي المحلي في المدينتين، فنتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل وعمق التفكير، حتى أصبحوا حجة في الفقه والتفسير وعلى رأسهم أبو اسحاق التنسي، وفي علم أصول الدين والنحو والأدب والتاريخ ومنهم ابن هدية وابن خميس والمقري وابنا الإمام والشريف الحسني من تلمسان، وأبو على بن لفكون وعبد الكريم بن لفكون أيضا والخطيب ابن قنفذ القسنطيني، وأبو على حسن بن باديس 787/1385م وغيرهم كثيرون أصبحوا حجة في الفقه والتفسير والأصول والنحو والأدب والتاريخ وعلوم عقلية أخرى.[32]

غير أن الجدير بالذكر ومن خلال المعطيات السابقة نجد ان علماء تلمسان قد زاروا قسنطينة ودرّسوا بها وتولّوا بعض المناصب فيها مثل الإفتاء والقضاء، بينما علماء قسنطينة أغلب وجهتهم كانت نحو بجاية وتونس والشرق أكثر من وجهتهم نحو الغرب بحكم موقعها بين القطبين الثقافيين تونس وبجاية، فقد رصدت لنا المصادر عينات كثيرة لقسنطينيين استقروا في مدينة بجاية وتونس عاصمة بني حفص،تولوا مناصب عديدة في هذه الحاضرة من قضاء وافتاء وكتابة وتصدروا التدريس والخطابة في مساجدها ومدارسها وكذلك منهم من طاب لهم العيش في الديار المصرية والحجازية فاستقروا بهذه الربوع خلال العصور الوسطى.

لم تتوقف المراسلات بين علماء قسنطينة وعلماء تلمسان، تتضمن المسائل الفقهية والأدبية واللغوية وهي رسائل توجهت لكبار علماء تلمسان مثل أبنا الإمام ومحمد بن مرزوق الحفيد والشريف الحسني وأبو العباس أحمد المقري التلمساني (1041 هـ)في العهد الزياني وغيرهم.

فقد راسل أبو عبد الله محمد بن باديس في القرن 11/17م أبا العباس احمد المقري التلمساني، صاحب كتاب "نفح الطيب"، يستفسره في قضايا لغوية وعند لقائه بالديار المصرية توسع معه في المسائل الفكرية واللغوية، واخذ عنه

31 - ابن قنفذ انس الفقير ص 08-18-28.

32 - عبد الكريم لفكون : منشور الهداية ص 902.

الكثير حسب منشور الهداية.[33]
وظل الاتصال الديني والثقافي والروحي بين تلمسان وقسنطينة متواصلا وقائما عبر العصور المختلفة ففي العهد العثماني كانت الزاوية تقوم بوظائفها الدينية والتعليمية والثقافية بمدينة قسنطينة، تحمل اسم أحد الشيوخ التلمسانيين الذين استقروا بهذه المدينة وهي زاوية الشيخ سيدي علي التلمساني.[34]

2.الصلات الثقافية والفكرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

أما الصلات الثقافية والعلمية بين تلمسان وقسنطينة خلال القرنين 19 و20، فقد وضحتها بعض الوثائق يمكن أن نستخلص منها بعض الفعاليات الثقافية آنذاك.

عبد القادر المجاوي

ظهرت في مدينة قسنطينة شخصية فذة نادت بالإصلاح وكرست حياتها للتدريس من أصول تلمسانية، استفاد منه أهلها، هذه الشخصية هي: عبد القادر المجاوي 1848-1913م، وهو علم من أعلام الجزائر، كانت له بصمات في الحركة الثقافية وتأثيرات هامة في النهضة والحركة الإصلاحية في الجزائر، ولد بتلمسان عام 1848م، ينتمي الى أسرة تلمسانية عريقة في العلم وممارسة القضاء، فقد كان والده محمد بن عبد الكريم المجاوي، قاضيا بتلمسان لمدة زادت عن خمس وعشرين سنة (25)، فنشأ عبد القادر في هذا البيت الشريف نشأة علمية، ولما عيّن والده قاضيا على طنجة، درس بمدينة تطوان ثم بالقرويين في فاس وفي سنة 1869م عاد إلى وطنه الجزائر واستقر في مدينة قسنطينة ودرّس في مساجدها العلوم الشرعية واللغة العربية في المدرسة الكتانية التي أسسها صالح بأي وجعلتها الإدارة الفرنسية مدرسة رسمية.[35]
فاستفاد منه أهل قسنطينة، بحيث كان معلما بارعا، استحوذ على قلوب تلاميذه بعلمه الغزير ولسانه الفصيح ومنهجه المشوق وعمق ثقافته يعود إليه الفضل في إيقاظ روح الإصلاح والنهضة الفكرية بمدينة قسنطينة فذاعت شهرته العلمية في البلاد، فأقبل عليه طلاب العلم والمعرفة من مختلف مناطق الوطن.
ومن التلاميذ الذين حملوا أفكاره ولواءه والذين سيكون لهم شأن كبير: العالم حمدان الونيسي، الذي انتقل إلى التدريس بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة وهو أستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، والمولود بن الموهوب المدرس بالمدرسة الكتانية، وأستاذ المفكر الجزائري مالك بن النبي.

33 - عبد الكريم لفكون : منشور الهداية ص 902.

34 - عبد القادر دحدوح: مدينة قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية قسنطينة 0102 ص 59.

35 - عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص 091.

فكان الشيخ عبد القادر المجاوي مربيا بارعا قدم نصائح وعلوم مفيدة لطلابه، في كتاب ألفه بعنوان "إرشاد المتعلمين" تحدث فيه عن علوم اللسان وعلوم الأديان وعلوم الأبدان، كما قدم عدة كتب أخرى في علوم شتى بلغ عددها ثلاثة عشر كتابا ورسالة، ومقالات عديدة في صحف ذلك الوقت، أشار فيها إلى أن العلوم الحديثة لا تتعارض مع الإيمان، بل تخدمه، وتعز الدين وتدعمه وتنميه وتعتبر أفكاره هذه هي اللبنة الأولى للنهضة الإصلاحية في الجزائر، وخلف عبد القادر المجاوي عددا كبيرا من التلاميذ، حملوا أفكاره وساروا على دربه، واتخذوا من منهجه منارا يهتدون به في جهادهم التربوي والتعليمي، ثم انتقل إلى الجزائر سنة 1898م.

وأصبح مدرسا بمدينة الجزائر بمدرسة الثعالبية العليا المكلفة بتكوين القضاة والمترجمين، ثم وسع نشاطه بداية من سنة 1908م، خارج المدرسة الثعالبية إلى الدعوة والإرشاد، وساهم في إحياء اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وبذل جهدا كبيرا في نشر الثقافة العربية الإسلامية وتكوين جيل من المثقفين، صاروا كلهم نواة للوطنية واليقظة القومية، فربطوا حاضر الجزائر بتاريخها المجيد الحافل بالأمجاد والبطولات والانجازات الحضارية، وتشاء الأقدار أن يتوفى عبد القادر المجاوي في قسنطينة التي خدم فيها كثيرا بين أهله وتلاميذه في 26/09/1914م أثناء زيارته لها وكانت له نشاطات مكثفة في هذه الزيارة، ولهذا فقد شككوا في أن موته لم يكن طبيعيا، ويشير تلميذه ابراهيم أطفيش (1886-1965م) بأنه تعرض للإغتيال من طرف المخابرات الفرنسية، بحيث وضعت له ولثلاثة عشر عالما جزائريا السّمّ في القهوة فمات لتوه.[36]

كما شككوا فيما بعد في مقتل الإمام عبد الحميد بن باديس، ونحن لا يمكننا الجزم في ذلك لأن الوثائق تعوزنا، غير أن هذه الأفعال غير بعيدة عن سلوكات الإدارة الفرنسية وأجهزتها المختلفة، وليست غريبة عنها هذه الأفعال للتخلص ممن يضايق وجودها في الجزائر.

وقد أمّ صلاة الجنازة تلميذه الشيخ أحمد الحبيباتي وأبّنه تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب مفتي الديار القسنطينية.

وألقى بالمناسبة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس خطبة مؤثرة أبّن فيها شيخ أستاذه جاء فيها: "أيها الإمام الذي ببزوغ شمسه تمزقت سحب الجهل، وبدت غرة القلم المعين، أنت الذي عانيت في سبيل إصلاحنا أتعابا طويلة... كنت مثالا لحسن الأخلاق وكرم الطبع، ولباب الفضيلة... نبكيك بالدموع، ويبكيك القرطاس والقلم، نبكيك وتبكيك المنابر ودروس العلم والحكم، نبكيك ويبكيك هذا القطر الحزين، الذي غمرته بيض أياديك وغرر فضائلك الحسان،

36 - مولود عويمر : الشيخ المجاوي أستاذ الجماعة مجلة الوعي عدد 3-4 شهر افريل، ماي 1102 ص 941-351.

وقد حان أن أودعك وعزيز على وداعك وداعا يعقبه اللقاء إن شاء الله في جنان الرضوان،أرجع الى ربك راضيا مرضيا مثنيا عليك بكل لسان مهديا لك الفوز بالخلد في أرقى فراديس الجنان".وختم العلامة ابن باديس تأبينه بقصيدة طويلة نقتطع منها ما يلي:

ألا إن هذا الدهر ذو فتكـــــــات وإنا لنـــا في طيه لعظـــــــات
له عصميات في النفوس فلو رمـى بها الراسيـــات صرن منخفضـات
وكم قد رماها فاصطبرنا لرميـــــه الى أن رمى بأعظـــــــم النكبات[37]

ابن باديس وتلمسان

أما الشخصية الثانية من الأسرة الباديسية التي كان لها اتصال بمدينة تلمسان فهي الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس الذي اختار لتلمسان شخصية علمية مرموقة هي الإمام محمد البشير الإبراهيمي، نائبه في جمعية العلماء المسلمين، لغزارة علمه وفصاحة لسانه وسداد رأيه وقوة حجته وشجاعته في مواقفه.

فكان الإمام الإبراهيمي في تلمسان يقوم بحركة واسعة، تفاعل أهل تلمسان مع مشروعه الاجتماعي والثقافي، كما تفاعل أهل قسنطينة بمشروع عبد الحميد بن باديس الذي يتضمن بذور نهضة إصلاحية وتربوية.

لم يتأخر التلمسانيون في السعي لبناء مدرسة حرة تكون منارة علمية وفكرية إسلامية وحصنا للغة العربية في مدينتهم، فأسسوا مدرسة جميلة أطلق عليها اسم "دار الحديث" فكانت هذه المدرسة فريدة من نوعها وليس لها نظير في القطر الجزائري آنذاك، شيدت على نمط معماري هندسي تلمساني أصيل، وهي عبارة عن مجمع تربوي ديني ثقافي.

لعل أحسن احتفال شهدته الجزائر وأروعه هو الاحتفال بفتح هذه المدرسة بتلمسان يوم 22 رجب 1356 الموافق ليوم 27 سبتمبر 1937 فكان الاحتفال جميلا في مظهره، ولطيفا في أسلوبه وبديعا في مناسبته ودقيقا في تنظيمه وفي علو الطبقة التي شاركت فيه، وشاهدت مراسيمه، وتكلمت على منبر المدرسة، من العلماء ورجال السياسة والشعراء وأهل الفكر وصفته جرائد ذلك الوقت وصفا دقيقا، واهتمت به اهتماما كبيرا، وحشد له التلمسانيون، الإمكانيات المادية والمعنوية الضخمة، رغم مضايقات الإدارة الفرنسية واستفزازات المخابرات وتهديدات رجالها.[38]

وقد اختارت الجمعية الدينية لمدينة تلمسان أن تدوم الاحتفالات بهذه المناسبة يومين كاملين، 27 و28 سبتمبر 1937م، وتزامن الاحتفال مع نهاية انعقاد مؤتمر

37 - نفسه.

38 - مجلة الشهاب م 13 ص 151 م14 ص 177.

جمعية العلماء المسلمين في الجزائر العاصمة لتجديد إدارتها، حضره ما يزيد عن 5 آلاف مشارك من المعلمين وأنصار الجمعية ومحبيها، وكان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، قد بشر المؤتمرين بهذا الحدث الهام، وتحديد يوم التدشين، وأخبرهم بطموح أهل تلمسان لنشر مبادئ الجمعية وأهدافها، والتفاني في خدمة الإسلام واللغة العربية ووجه لهم دعوة باسم سكان مدينة تلمسان، الذين يتشوقون ويتشرفون بأن يكون الافتتاح الرسمي لهذه المدرسة بيد الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس. وقال في هذا الصدد:"لقد حملني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب علي أن أبلغها إليكم، وهي أنهم يسلمون عليكم، ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشرونكم بأنهم شيدوا للإسلام والعربية معهدا، لم يكن له نظير، في تاريخ الجزائر الحديث، كما انهم يتشوقون ويتشرفون، أن يكون فتح هذا المعهد لأول مرة بيد علامة الجزائر، وزعيم نهضتها الأستاذ عبد الحميد ابن باديس".[39]

فكان يوم الافتتاح "عرسا علميا" تجلت فيه الأخوة الإسلامية والنخوة العربية حسب تعبير الإبراهيمي.[40] فكان يوما مشهودا اتضحت فيه تطلعات الأهالي للثقافة الإسلامية والعلم فكان فيه روح التعاون والتكافل في ابلغ صوره، واعتبروه من اسعد أيام تلمسان وأبهجها، جاءته الوفود من مختلف مناطق الوطن، فرحة مستبشرة بهذا الإنجاز الذي لم يعهدوه منذ زمن بعيد.[41]

وصل المجلس الإداري لجمعية العلماء بقيادة رئيسها الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس صبيحة يوم الاثنين 27 سبتمبر 1937، إلى محطة تلمسان للسكك الحديدية، قادما من الجزائر العاصمة وكان في انتظار الوفد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وعلية القوم ووجهاء المدينة ونخبتها، وحشد كبير من أبناء تلمسان والضيوف فاستقبلوا الوفد بالورود والزهور وبالترحيب الحار، تقدم ابن الشيخ الإبراهيمي محمد الطفل، فألقى أمام الإمام عبد الحميد بن باديس كلمة ترحيبية

لطيفة، باسم أطفال تلمسان عبر فيها عن شعور أبناء المدينة الطيب والفياض نحو الشيخ الإمام ونحو جمعية العلماء ومجلسها الإداري.[42]

خرج الوفد من المحطة راجلا يتقدمهم الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس بين صفين طويلين متراصين من الجماهير الغفيرة تعد بآلاف (نحو عشرين ألف) من أبناء تلمسان والضيوف جاءت للترحيب بزعيم النهضة الجزائرية

39 - نفسه م 31 ص 243.

40 - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 2 ص 03- مجلة الشهاب م 31 ص 243.

41 - مجلة الشهاب م 31 ص 151. م 41 ص 771.

42 - نفسه.

الحديثة وبالعلماء فكان الاستقبال استقبال الزعماء، تأثر ابن باديس له تأثرا عميقا. وكانت الجماهير منظمة تنظيما محكما ومنسقا، وحناجرها تهتف بحياة جمعية العلماء وبرجال العلم، وتكبر وتسبح لله، متحدية بذلك الإدارة الفرنسية وأعوانها، فكانت أصواتهم مؤثرة تصل إلى أعماق الوجدان وكانت النسوة تولولن وتزغردن من وراء الحجاب.[43]

ولما وصل الوفد إلى مدرسة "دار الحديث" تقدم الشيخ البشير الإبراهيمي باسم أهل تلمسان وسكانها وباسم الجمعية الدينية التلمسانية بكلمة وجيزة عبر فيها للإمام عبد الحميد بن باديس عن امتنانهم لحضوره ومشاركته في هذا الحفل، واخبره بان التلمسانيين يرغبون في ان يكون فتح المدرسة بيده، ففتحها الشيخ الإمام ابن باديس باسم الله وباسم الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة كما جاء على لسانه.[44]

دخل الشيخ الإمام والوفد المرافق له المدرسة مبتهجا مسرورا فتفقد الأقسام والطوابق، معجبا، بطراز المدرسة وهندسته، وهو النمط التلمساني الأصيل، الذي أقبره الاحتلال أو كاد يقبره ويطمسه.

تقع المدرسة في مكان مجاور للشيخ الإمام البرادعي، صاحب كتاب التهذيب والإمام القدير الشهير محمد بن أحمد بن صعد التلمساني، وبالقرب من دار الباي، ومجاور للثانوية الفرنسية، فكان موقعها إستراتيجيا وهاما حافلا بالطلاب والزوار.[45]

وكانت الجماهير الغفيرة تحيط بالمدرسة وملتفة حولها ورؤوسها مشرئبة، تريد الاستماع إلى كلمة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ورؤيته. فأطل عليهم من شرفة المدرسة، وهو فرح مسرور بهذا الصرح العلمي التربوي الديني، ومتأثرا بحفاوة الاستقبال. وخاطبهم بكلمة رقيقة بليغة نابعة من القلب، عبر فيها عن اغتباطه بوجوده في تلمسان وبين أهلها قائلا: "يا أبناء تلمسان ويا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبّع، إلى اليوم تحيّيكم، وأن الإسلام من يوم محمد صلى الله عليه وسلم إلى اليوم يحيّيكم، وأن أجيال الجزائر من اليوم، وإلى يوم القيامة، تشكركم وتذكر صنيعكم، يا أبناء تلمسان، كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد، فأديتموها، فنعم الأمناء أنتم، فجزاكم الله جزاء الأمناء".[46] وهي كلمة صادقة نابعة من القلب تبين ما يشعر به الإمام نحو تلمسان وأبنائها، وهي شهادة صريحة واعتراف واضح من الإمام، بما قدمه أهل المدينة للعروبة والإسلام ماضيا

43 - نفسه م13 ص 153.

44 - نفسه.

45 - احمد طالب الإبراهيمي: مذكرات جزائري ج 1 ص 52 -62.

46 - مجلة الشهاب م 31 ص 253.

وحاضرا.
وكان الإمام يكن معزة خاصة لتلمسان، ومحبة متميزة في وجدانه، وهوى فياض في قلبه، ولهذا كان يزورها في كثير من المناسبات، ويتردد عليها، وكان يشعر بانشراح في صدره ونشاط في فكره وغبطة في قلبه أثناء زيارته لها.
ويتضح ذلك من خلال خطاب ألقاه أمام طلاب الزيتونة وعلمائها في تونس سنة 1937م، جاء فيه. "حقا إن لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه ولا يضاهيه، إلا هوى تلمسان، اعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب، لا احد مثلهما إلا في ربوعهما (تونس وتلمسان)، ومن نعم الله علي في العهد القريب أن يسر لي التردد بين الخضراء(تونس) والبهجة (تلمسان) مرتين".[47]
وبمناسبة افتتاح مدرسة الحديث بتلمسان كما أسلفنا رافق الأستاذ الشيخ محمد خير الدين الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس الى المنصورة حيث توجد أطلال مسجدها، حيث حرر نداءا يدعو فيه سكان قسنطينة خاصة والأمة الجزائرية على وجه العموم مقاطعة الاحتفال الفرنسي بالذكرى المئوية لاحتلال مدينة قسنطينة وعدم المشاركة فيه، والتزامهم به جاء فيه: "في مثل هذا اليوم منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب. ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة وضمد تلك الجروح وتقريب السكان المجاورين من بعض، لكن قوما من الأنانيين (الفرنسيين) الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوقين وأن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين (المعمرين) على المغلوبين (الجزائريين) هؤلاء القوم أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بمدخل مدينة قسنطينة تثير العواطف، وتمس كرامة الأحياء منا والأموات..."
"يحتفلون ومطالب الشعب الجزائري معرقلة ومعطلة وحقوقه مهملة وسوط القوانين الاستثنائية نازلة على ظهره كل يوم"
ولهذا فقد اجتمعت (14) أربعة عشر جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينة يوم 18 سبتمبر÷1937م في نادي الاتحاد، وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، وكما قام المؤتمر الإسلامي باحتجاجه لهذه الاحتفالات وقدم عريضته للوالي العام، وقدم مكتب لجنة قسنطينة إلى رئيس بلدية قسنطينة.
وفعلت نفس الشيء الجمعيات الإسلامية القسنطينية، فقامت بواجبها، "وإني كقسنطيني أقوم بنشر هذا النداء، فما بقي منكم إلا أن تقوموا أنتم بواجبكم وهو مقاطعة هذه الاحتفالات" (حرر بالمنصورة حوز تلمسان يوم 28/09/1937).[48]

47 - نفسه م 31 ص 653.

48 - نداء عبد الحميد بن باديس لسكان قسنطينة منشور يوم 7391/90/82.

ولما قرأ الشيخ الإمام النداء على رفقائه بالمنصورة، جعل أحد تلامذته يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب الإمام عبد الحميد بن باديس وقال: "يا أبنائي إنكم تعلمون أني لم اطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئا واحدا وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها" ثم التفت الى ضيفه ورفيقه الأستاذ إبراهيم الكتاني الذي حضر مؤتمر المعلمين وافتتاح دار الحديث، قادما من المغرب الأقصى، قائلا له: "هنيئا لكم إنكم تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر فإننا نحترق على التضحية في سبيلها ولا نجد للتضحية سبيلا".[49]

وكان اليوم الأول من الاحتفال مخصصا للخطب والدروس بحيث ارتجل الإمام محمد البشير الإبراهيمي خطبة ساحرة، ثم قام الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بإلقاء درس في الحديث النبوي الشريف.

وفي الليل تحدث الشيخ مبارك الميلي والشيخ العربي التبسي في درسين هامين الأول عن الحديث والثاني عن التفسير وختم الجلسة الشاعر محمد العيد آل خليفة بإنشاد قصيدة كلها عيون وغرر.[50]

وقد ظل أهل تلمسان على العهد يواكبون، نشاط جمعية العلماء المسلمين وفي غيرها من المدارس والنوادي، ويساهمون في توعية مجتمعهم، بنخبهم وحضور التظاهرات الثقافية التي تديرها جمعية العلماء، في تلمسان وفي الحواضر الجزائرية الأخرى، فقد شاركوا آهل قسنطينة بجوارحهم وبحضورهم بوفد هام يزيد عدده عن أربعين تلمسانيا، في الاحتفال الذي دام أربعة أيام، أقامته جمعية العلماء المسلمين بمدينة قسنطينة سنة 1938م، بمناسبة ختم الشيخ عبد الحميد بن باديس، تفسير القرآن الكريم بمسجد سيدي الأخضر، والذي استغرق فيه نحو "25 سنة" كاملة.

وتقدم الوفد التلمساني يوم التكريم بتقديم هدية عميقة في معناها ثمينة في جوهرها للأستاذ المفسر، وهي عبارة عن محفظة كتب عربية مصنوعة من الجلد الجيد، سُرَّ بها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس سرورا كبيرا، وصارت هذه المحفظة رفيقة دربه في تجواله وترحاله، ولا تزال المحفظة مع جملة من الآثار المادية والفكرية التي تركها الشيخ الإمام في بيت أخيه عبد الحق بن باديس بقسنطينة إلى اليوم مع مجموعة من الكتب والوثائق، محفوظة في منزله.[51]

---

49 - نفسه.

50 - الشهاب م 31 ص 353.

51 - نفسه م 41 ص 481.

الخاتمة

تعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر عرفتا الاستقرار البشري منذ آلاف السنين قبل الميلاد، خضعت كل منها للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي ودخلتا دائرة الإسلام مع طلائع ابي المهاجر دينار وعقبة بن نافع. ومنذ ذلك الوقت عرفت كل منهما صلات ثقافية وفكرية، ومثاقفة صوفية خلال العصر الوسيط.ساهم فيها علماء من قسنطينة ومن تلمسان. ولاسيما منها البيوتات العريقة في الدين والعلم والتصوف. وكانت الزيارات متبادلة بين العلماء لكلتا المدينتين، لأن قسنطينة تعد محطة ومعبرا للطلاب والعلماء والحجاج، وأن تلمسان كانت مشتلة للعلم والتصوف.

فقد حط رحاله بمدينة قسنطينة الشيخ المتحدث ابو محمد عبد العزيز بن مخلوف التلمساني، فدرس بها علم المعقول والمنقول كما زار محمد بن احمد بن مرزوق الخطيب رفقة والده والسلطان ابي الحسن وابي عنان عدة مرات، وانتقل اليها العالم محمد المقري والشريف التلمساني الذي عين قاضيا فيها.

وكان رجال التصوف بقسنطينة، على اتصال دائم مع رجال التصوف بتلمسان ولاسيما منهم الشيخ يعقوب وابنه يوسف بن يعقوب الملاري صاحب زاوية ملارة وحفيدهما ابن قنفذ الخطيب، لانتمائهم إلى الطريقة المدنية وتوجد زاوية بمدينة قسنطينة تحمل اسم شيخها مبدي علي التلمساني.

واستمر التواصل بين علماء قسنطينة وعلماء تلمسان حتى في العهد العثماني بحيث كان ابوعبد الله محمد بن باديس يراسل ابا العباس احمد المقري التلمساني في قضايا فكرية ولغوية.

أما في عهد الاحتلال الفرنسي، انتقل العالم القدير عبد القادر المجاوي التلمساني إلى مدينة قسنطينة واستقر بها مدرسا وباعثا لبذور النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية. وكان رائد النهضة الإصلاحية والعلمية الإمام عبد الحميد بن باديس، كثير الزيارة لتلمسان،التي كانت لها مكانة في نفسه ووجدانه، ولاسيما تلك التي دشن فيها "دار الحديث". وكتب فيها نداء لأهل قسنطينة خاصة وأهل الجزائر عامة لمقاطعة الاحتفالات بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة.

المراجع

1 - ابن خلدون، عبد الرحمان (1991). المقدمة. تحقيق حجر عاصي، منشورات كلية الهلال، مطبعة المعارف، بيروت.

2 - ابن قنفذ، القسنطيني (1986). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تقديم محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، دار التونسية للنشر، تونس.

3 – ابن قنفذ، القسنطيني (1971). الوفيات. تحقيق عادل نويهض، الكتاب التجاري، بيروت.
4 – ابن قنفذ، القسنطيني (1965). انس الفقير واعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي، الرباط.
5 – ابن عبد الحكم (1964). فتوح افريقية والأندلس. دار الكتاب اللبناني، بيروت.
6 – ابن مرزوق، الخطيب. المجموع. مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 20.
7 – التنبكتي، ابوالعباس احمد بابا (2004). نيل الابتهاج بتطريز الديباج. تحقيق على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
8 – السخاوي، شمس الدين (1979). التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. تحقيق اسعد طرابزوني، مطبعة دار الثقافة، القاهرة.
9 – لفكون عبد الكريم (1987). منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
10 – ابو العباس (1980). دعامة اليقين في زعامة المتقين. تحقيق احمد التوفيق، مطبعة المعرف، الرباط.
11 – الغبريني، ابو العباس (1981). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للطاعة والنشر، الجزائر.
12 – الإبراهيمي، احمد طالب (2007). مذكرات جزائري. دار القصبة للنشر، الجزائر.
13 – الإبراهيمي، احمد طالب (1997). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي، بيروت.
14 – بونابي، الطاهر (2008). الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و9 هـ/15-14م. دكتوراه باشراف الدكتور عبد العزيز فيلالي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر.
15 – الحفناوي، ابو القاسم (1985). تعريف الخلف برجال السلف. مؤسسة الرسالة، تونس.
16 – دحدوح، عبد القادر(2010). مدينة قسنطينة : محطات ومعالم تاريخية بقسنطينة. قسنطينة.
17 – العامري، نللي سلامة (2001). الولاية والمجتمع. تقديم الدكتور هشام جعيط، جامعة منوبة، تونس.
18 – فيلالي، عبد العزيز(2007). مدينة قسنطينة تاريخ- معالم –حضارة. دار الهدى، الجزائر.

19 - فيلالي، عبد العزيز(2002). تلمسان في العهد الزياني. موفم للنشر والتوزيع، الجزائر.
20 - فيلالي، عبد العزيز(2012). دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي. دار الهدى الجزائر.
21 - عويمر، مولود (2011). الشيخ المجاوي أستاذ الجماعة. مجلة الوعي عدد 4-3 افريل- ماي، الجزائر.

إشكالية انتشار الصحافة المغاربية والمشرقية في الجزائر ما بين 1920 و1954: تلمسان ونواحيها أنموذجا

أ.د. محمد القورصو
جامعة الجزائر2

ملخص

استكمالا لاحتلالها الجزائر، سعت فرنسا إلى عزل السكان "المسلمين" عن العالم العربي والإسلامي؛ فاتخذت باريس والحكومة العامة في الجزائر عدة إجراءات قانونية وإدارية فرضت بموجبها رقابة صارمة على الحركة الفكرية والثقافية شملت بوجه خاص الصحافة المغاربية والمشرقية، موضوع هذه الورقة. تبيّن من خلال دراسة المحفوظات، زكتها المقابلات الشفوية رغم الطوق المفروض على الجزائر، إلا أن عددا معتبرا من العناوين الصحفية تمكنت من اختراق جدار العزل حتى وإن كان عدد النسخ جدّ محدود. كيف تمّ إدخال العناوين المحظورة للمستعمرة ؟ أين كانت تصدر هذه العناوين؟ كيف تصرفت إدارة الاحتلال مع هذا الموضوع؟ كيف كانت تتمّ المطالعة في ظل الحظر الفكري والثقافي؟ تمحورت الإجابات جغرافيا حول مدينة تلمسان وضواحيها أما تاريخيا فتمتد من سنة 1920 إلى 1954.

الكلمات الدالة : تلمسان، المغرب العربي، المشرق العربي، الصحافة باللغة العربية، الحظر.

1. الجوانب المنهجية للموضوع

1.1. إشكالية الورقة

شكل موضوع التواصل الثقافي بأبعاده المتشعبة الثقافية والفكرية والدينية والاجتماعية والسياسية بين الجزائريين وباقي الفعاليات في البلدان العربية الإسلامية، مغربيا ومشرقيا، هاجسا حقيقيا بالنسبة للسلطات الاستعمارية التي سعت منذ الساعات الأولى من احتلالها للجزائر عزلها عن مربطها الثقافي والروحي الذي مثلته بلدان المشرق العربي وتغيير وجهتها الثقافية الفكرية بإقامة مجموعة من الآليات تمثلت في محاربة اللغة العربية ونشر اللغة الفرنسية بين فئة جدّ قليلة من الجزائريين رافقها سنّ قوانين تكرّس الرقابة عن كلّ نشاط ذي صلة بالفكر من بينه دخول وانتشار الصحافة العربية الصادرة خارج المستعمرة، لاسيما منها العناوين الغير الشرعية.

ونظرا لما ترتب عن الطابع الاستيطاني للمستعمرة الجزائرية من فرض هوية فرنسية- أوروبية بالموازاة مع محاربة الهوية العربية الإسلامية، أقامت السلطات الحاكمة عدة هيئات ومؤسسات إدارية وأمنية وثقافية متخصصة في تتبّع ومراقبة الحركة الثقافية والفكرية والدينية في الجزائر مركزة اهتمامها على المطبوعات من جرائـد، ودوريات، وكتب الخ. فجنّدت في سبيل ذلك رجالاتها من مسئولين إداريين وسياسيين ومثقفين ومصالح أمنية وكل المعنيين بالشأن الثقافي، الفكري والديني لفرض رقابة مشددة شملت:

- **أولا: الرجال**: فكانت جميع حركات وسكنات الجزائريين من رجال الدين ومثقفين وتجار وجزائريين بسطاء، تحت المجهر الاستعماري؛
- **ثانيا: الشعائر والمواسم الدينية** (الأعياد الدينية، أداء فريضة الحجّ الخ.)
- **ثالثا: الفعاليات الثقافية، الرياضية والترفيهية** : العروض المسرحية، الفرق الموسيقية (التونسية والمصرية على وجه الخصوص)، الفرق الرياضية، الكشافة الإسلامية الجزائرية؛
- **رابعا: المطبوعات الواردات من المشرق** (المجلات، الدوريات، الكتب، الرسائل التي كان يبعثها المجندون الجزائريون في الشام [1] إلى ذويهم، الخ.)

إنه الحصار الفكري بجميع مواصفاته.

انصب اهتمام مصالح الرقابة على الترصّد لكل الصحف الصادرة باللغة العربية في تونس والمغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي، لمنع دخولها وانتشارها بين القراء الجزائريين خشية التواصل بين فعالياتها النشطة وعدوة التغيير التي سميت بالإصلاح التي عرفها العالمين العربي والإسلامي مطلع القرن العشرين والتي وصلت أصداؤها إلى الجزائر.

يدّل حجم المحفوظات من تقارير وقوائم بأسماء المشتركين في الصحف الصادرة في البلدان العربية وكذا ملخّصات مترجمة [2] لعدد من عناوينها المجمعة في محفوظات آكس آن بروفانس (Aix en Provence) بفرنسا، والجزائر العاصمة (بئر خادم ومحفوظات الولاية) ومحفوظـات وهران وقسنطينة على ثلاثة أشياء على الأقلّ:

أ- انتشار الصحافة المغاربية والمشرقية عبر مختلف أنحاء المستعمرة الجزائرية، رغم شـدة المـراقبـة؛

ب- صمود روح الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية وبالتالي مقاومة المدّ الثقافي الكولونيالي، كانا أشدّ وأقوى من الرقابة الاستعمارية.فلا الدخل

1 - Archives de la Wilaya d'Oran, carton 4473, Alger, 1920.12.29.

2 - Archives de la Wilaya d'Oran, le Bulletin Mensuel d'Information les années 1933-1940, carton 4473, Archives d'Outre Mer, France, carton 9h 46.

الضعيف للجزائريين ولا قلة المواصلات ولا حتى تفشي الأمية في جميع الأوساط والفئات الاجتماعية،حالوا دون انتشار الصحافة العربية بينهم.

جـ- الهاجس الذي شغل بال المستوطنين، إداريين كانوا أم مدنيين (كولون) لما يمكن أن يصيبهم جرّاء تفاعل الجزائريين، لاسيما الوطنيين منهم، بما تحمله لهم المطبوعات المغاربية والمشرقية من معلومات وأفكار تصبّ في خانة النهوض بالشعب الجزائري.

من هنا أهمية الموضوع المعرفية والتاريخية.

1.2. المحفوظات المعتمدة في إعداد هذه الورقة

من الواجب التنبيه أن الوثائق الموظفة في إعداد هذه الورقة تعتبر غير كافية بالنظر لسعة وتشعّب التساؤلات التي يوحي بها الموضوع. لقد اعتمدنا على النزر القليل مما جمعناه - رغم حجمه - في مناسبات بحثية مختلفة من دور محفوظات آكس آن بروفانس (1980) ووهران (1986 و1988).

تتطلب دراسة مستوفية للموضوع، استكشافا جديدا للوثائق الأرشيفية وجردا شاملا لما يوجد بمختلف دور المحفوظات السابق ذكرها، لاسيما بفرنسا. لذا تكتسي هذه المقاربة للموضوع طابعا محليا مونغرافيا لاعتمادها بالدرجة الأولى على ما جمعناه من معطيات تاريخية، خاصة من رصيد محفوظات ولاية وهران.

يتكوّن الرصيد الوثائقي الذي تبنيناه، من مجموعة واسعة من المحفوظات نذكر منها:

1 - التقارير اليومية والأسبوعية والنصف شهرية والشهرية والنصف سنوية والسنوية التي كانت ترفع من مختلف الهيئات والمصالح الإدارية والاستخبارتية من "بريفكتور" (préfecture ولاية) ومصالح الشؤون الأهلية (Affaires indigènes)وشرطة، وجندرمة (gendarmerie) وجيش، وقياد وباشغوات الخ. كانت كل التقارير التي تعدّ توجّه بعد التدقيق فيها وتلخيصها، للحكومة العامة بالجزائر (le Gouvernement général d'Algérie-G.G.A.-) ومن ثمة إلى الوزارات المعنية بباريس؛

2 - مجموعة من التحقيقات كانت تقوم بها بشكل دوري السلطات المدنية ومصالح الشرطة عبر مختلف مدن المستعمرة بطلب من وزارتي الداخلية والحربية بباريس أو بطلب من الحاكم العام بالجزائر مباشرة أو حتى "البريفي" (préfet الوالي). ومن حسن حظ دارسي هذه التحقيقات من مؤرخين وباحثين، أنها جمعت في ملفات خاصة مبوّبة، ومصنّفة حسب أماكن صدورها وكذا مواضيعها.

3 - هناك صنف آخر، طريف ولكنه نادر يتمثل في التقارير الصادرة عن مصالح البريد التي كانت تعثر من حين لآخر في سلّة المهملات على جرائد أو

دوريـات أو كتب أصحابها مجهولون (destinataires inconnus). وتكمن أهمية هذه التقارير في ذكر اسم وعنوان المرسل إليه مع وصف دقيق لما عثر عليه، كلّ ذلك مرفقا بمعطيات ثمينة من الوجهة التاريخية كعدد النسخ المرسلة ودور النشر وعناوين الناشرين والبلدان التي منها أرسل الموصوف. غالبا ما كان هذا الوصف الخارجي، مصحوبا بوصف موجز للمحتوى الفكري مما يدلّ على وجود أخصائيين في الشؤون الفكرية ضمن مصالح البريد الكولونيالي.

4 - اعتمدنا أيضا على صنف آخر من الوثائق، تمثلت في قوائم المجلات والدوريات الصادرة في تونس، والمغرب وباقي البلدان العربية التي كانت ترسل من باب التبادل لبعض عنـاويـن الصحف الصادرة في المستعمرة كمجلة الشهاب مثلا وجريدة البصائر و La Voix des Indigènes (صوت الأهالي) والنجاح وما أرسل لبعض الشخصيات البارزة كما سيأتي ذكره.

2. الرقـابة الكـولونياليـة

تعدّدت واختلفت قنوات دخول الصحافة المغاربية والمشرقية بتعدّد طبيعتها واختلاف اتجاهاتها. فهناك الصحف الرسمية وشبه الرسمية التي كانت تصدرها الممثليات الدبلوماسية الفرنسية في الخارج وهناك الصحف المصنفة في خانة الصحف الحرّة وتلك المصنفة ضمن صحف المعارضة سواء كانت سياسية أو ثقافية أو دينية. يضاف إليها الصحف الفنية والأدبية والترفيهية. فطبيعي أن تتعدّد وتتنوّع قنوات دخولها للمستعمرة وطرق إيصالها للقارئ الجزائري. فمراعاة لكل ذلك اتخذت الإدارة الكولونيالية عدة إجراءات نكتفي بعرضها موجز لأهمها :

1.2 - الرقابة المحلية

كانت من صلاحيات الحاكم العام ويمارسها عن طريق مصلحة الاتصالات للشمال الإفريقي (Service des liaisons nord africaines) اختصارا (S.L.N.A. المتفرعة إلى عدة مصالح من بينها مركز الإعلام والدراسات Centre d'information et d'études) اختصارا (C.I.E. الذي كانت توكل إليه جميع القضايا المتعلّقة بـ (الشؤون الأهلية) الموزعة عبر المقاطعات الثلاثة في الشرق وفي الوسط وفي الغرب. إلى هذا المركز، كانت تتبع مصلحة الرقابة الصحفية بمختلف فروعها: الفرع المختص بالصحافة الناطقة باللغة الفرنسية، وآخر بالصحافة الصادرة باللغة العربية وآخر باللغات الأجنبية من بينها اللغة الإيطالية واللغة الإسبانية الخ. كانت المقالات الصادرة باللغات الأجنبية منها اللغة العربية، تترجم إلى اللغة الفرنسية لمعرفة محتواها قبل تسريحها للبيع أو إصدار أمر بتعطيلها وحجز

الأعداد التي كانت ترسل عن طريق البريد.

2.2 - الرقابة الدبلوماسية

كانت من اختصاص السفارات والقنصليات الفرنسية ببلدان المشرق العربي وخارجه. بالنظر لسابقتها، اكتست هذه الرقابة شكلا وقائيا، حيث كانت المصالح الدبلوماسية تصدر توصياتها لوزارة الخارجية يبرق بها مباشرة إلى باريس، التي تصدر أوامرها بمنع دخول العناوين التي كانت تنتقد السياسة الفرنسية. إن مثل هذه الحالات كثيرة والمراسلات التي اطلعنا عليها في هذا الشأن تثبت فعالية الرقابة الدبلوماسية الإستباقية، كما تثبت التعاون الكامل والفعال لجميع المصالح الرقابية وتضافر جهود مسؤوليها بغية فرض رقابة ناجعة، شاملة، وصارمة على الرأي العام الجزائري. كليـلة، هو عنوان رصيف مكيـة، منعها الحاكم العام بالجزائر بتاريخ 9 - 9 - 1920 بعد تلقيه برقية من رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ميلـران (Millerand)[3]. نصّ البرقية ناطق بنفسه ولا يحتاج إلى تعليق : "أطلعني قنصل فرنسا بجدّة أن عددي 404 و405 من جريدة كليـلة [الصادرة] بمكّة يتضمنان مقالات من شأنها أن تحثّ الجزائريين على التمـرّد. انتهى. فلا يسعني إلا أن أطلب منكم منع دخولها. انتهى". التوقيع ميلـران.

3.2 - الحجز الكلي والمنع الجزئي

ومما ينبغي ملاحظته في هذا الصدد، أن الحجز الإعلامي اكتسى مظهرين يمكن أن يوصف الأول بالكلي في حق المجلات والجرائد التي عرفت باستمرارية مواقفها المعادية للاستعمار الفرنسي ليس فقط في حقّ السياسة المنتهجة من طرف فرنسا في الجزائر ولكن عبر مستعمراتها. أما المنع الجزئي فلم يترتب عنه حظر للمجلة أو الجريدة من الدخول للمستعمرة وإنما مصادرة الأعداد التي نشرت فيها مقالات تتضارب مع المصالح الفرنسية في الجزائر. رغم الطوق المفروض على الحركة الفكرية في الجزائر، غضت السلطات الاستعمارية الطرف في بعض الحالات عن بعض العناوين فسمحت لعدد من الصحف المغاربية والمشرقية من الدخول للجزائر وأحسن دليل على ذلك ما نشرته مجلة الشهاب لصاحبها الشيخ عبد الحميد بن باديس من مقالات مقتبسة من جرائد ومجلات ودوريات مغاربية ومشرقية نـدّد أصحابها بالسياسة الاستعمارية في المشرق. كيف يفسّر هذا الموقف؟ هل هو من باب التسامح الذي يعود إلى البعد الجغرافي وخاصية الساحة المشرقية التي لا يعرف عنها الجزائريون الكثير مما يحدّ من مفعول تأثيرها الفكري الذي يقتصر على شريحة جـدّ ضيقة من القرّاء الجزائريين الذين

3 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 1422, Alger 18.08.1920.

يحسنون اللغة العربية، أم مرجعه تهاون مصالح الرقابة؟ لا شكّ أن هناك نوع من المخادعة المقصودة. فعندما كان الأمر يتعلّق ببلد مغربي أو عندما كان المخاطب إليه مواطن مغربي، فسرعان ما كانت الإدارة الاستعمارية تبادر بمنع أو مصادرة الصحيفة في حال عرضها للبيع.

3 - قنوات دخول الصحافة للمستعمرة

فهل بعد هذا العرض الموجز، للأجهزة القمعية في ميدان الرقابة الصحفية، من فجوات تتسرب منها الصحافة المغربية والمشرقية لقرائها في المستعمرة الجزائرية؟

3.1 - البريد

كان البريد، القناة الأكثر استعمالا في إيصال الدوريات والصحف الممنوعة وغير الممنوعة لقرائها في الجزائر. ولتفادي المصادرة البريدية للعناوين الممنوعة أو التي تتضمن مقالات لا يسمح بدخولها للمستعمرة، عمد المراسلون إلى عدّة حيّل من بينها إدراج الصحف الممنوعة وسط كمّ من الصحف المرخّص لها بالدخول، كما تمّ تمويه عناوينها الأصلية بغلاف غير غلافها الأصلي حتى لا تلفت الانتباه عند تفقّد المراسلات من طرف مصلحة الرقابة البريدية. لقد أثبتت العديد من الشهادات الشفويّة التي جمعناها، نجاعة هذا الأسلوب، مما ترتب عنه تسرّب العديد من العناوين الممنوعة داخل المستعمرة بعد اختراقها طوق المراقبة، لكن من الناحية الكميّة كان عدد النسخ لنفس المجلة أو الدورية محدودا سيّما وأن عمليات التفتيش الفجائية، مكنت مصالح الرقابة من رصد أسماء وعناوين القراء الذين أرسلت إليهم الصحف الممنوعة، فكانوا جراء ذلك محلّ مراقبة مستمرة.

3.2 - التجارة

كانت التجارة، القناة الثانية التي تسرّبت عبرها الصحف الممنوعة أو المشتبه في محتواها وكذا الكتب التعليمية وغير التعليمية التي كانت تدرج ضمن السلع المستوردة بطريقة شرعية من طرف التجار الجزائريين من تونس والمغرب الأقصى ومصر وسوريا على وجه الخصوص. غالبا ما كان تجار المواد الاستهلاكية يخفون الدوريات والكتب في صناديق الشاي أو التوابل وأما تجار الأقمشة فكانوا يخفونها وسط لفّات الحرير المستورد من سورية أو غيره من الأقمشة الثخينة.

3.3 - البعثات الطلابية والفرق الفنية العربية

لعبت البعثات الطلابية عند زيارة ذويهم أثناء العطل المدرسية أو بعد انتهاء فترة إقامتهم العلمية في المغرب، أو تونس،أو مصر، أو سوريا أو حتى في فرنسا؛ دور الوسيط الثقافي والفكري والسياسي، بين النخب الفكرية والسياسية والمثقفين في الجزائر ونظرائهم في الخارج عبر ما كانوا يجلبونه معهم من مطبوعات من هذه البلدان. ونظرا لطبيعة هذه البعثات وللمستوى العلمي الذي تميزت به، نستنتج أن ما كانوا يدخلونه للبلاد، كان يوجه لتحسين تكوين المدرسين ورفع مستوى المتعلمين وبالتالي في رفع المستوى العامّ للفئات المهتمة بالشأن الوطني ثقافيا وسياسيا.

3.4 - موسم الحجّ

تمثل دور النخب والمثقفين وحتى عامة الناس من الحجاج إلى البقاع المقدسة، في الترويج، شفهيا، للتيارات الفكرية والدينية المتداولة في المشرق العربي. نشير أنّ هذا القطاع الذي كثيرا ما تخوفت منه إدارة الاحتلال، كان مراقبا مراقبة شديدة حيث خضعت المشاركة في بعثات الحجيج لإجراءات صارمة فلم تمنح رخص تأدية هذه الشعيرة الإسلامية ؛ على العموم؛ إلا لمن أعلن /أو عرف بولائه للمحتل (مثل القياد) وكبار التجار الذين كان نشاطهم مرهونا بابتعادهم عن السياسة وكل ما حام حولها. فكل من أدى فريضة الحج دون أن يرخّص له، تعرض بعد عودته لأرض الوطن لعقوبة السجن.

والحقيقة أنّه لم يتبين لنا من خلال مطالعتنا للنشريات المعدة في هذا الباب من طرف مختلف الهيئات والمصالح الإستخبتارية والإدارية، أن الحجاج استغلوا هذه الفرصة لإدخال المجلات والدوريات والكتب المحظورة منها وغير المحظورة. لكن بالمقابل ركّزت هذه التقارير على الروايات الشفهية التي كان ينقلها الحجاج بعد عودتهم لأرض الوطن والتي كانت تجد آذانا صاغية في المقاهي على وجه الخصوص.

3.5 - الفرق الفنية العربية

أما فيما يخص الفرق الفنية العربية وبالتحديد الفرق المسرحية والموسيقية التي كانت تحل بالجزائر مدعوة من طرف الفرق الجزائرية، فإنها حملت ضمن أمتعتها وآلاتها الموسيقية، الجرائد والدوريات والكتب وكلّ ما كان يساهم في تقريب وتوطيد العلاقات بين الطرفين. جريد La Jeune Tunisie (تونس الفتاة) مثلا لم تكن معرفة

في المقاطعة الغربية وخاصة في تلمسان ومعسكر قبل 5 جنافي 1949. أكتشف أمرها على إثر مرور الفرقة التونسية التي قادتها السيّدة زكيّة بنت الحاج محمد مراكدة[4]. إن مثل هذه الحالات ليست نادرة وكثيرا ما كان يرافق استعراض الفرق الفنية توزيع شبه منظم وفي الكتمان؛ حتى لا نقول في سريّة لعدم ووقوفنا على وثائق تأكّد أو تنفي ذلك؛ لصحف وكتب بل وحتى أسطوانات[5] البلد الضيف كما حدث مع بعض الفرق الموسيقية العصرية التي زارت الجزائر والمقاطعة الوهرانية في النصف الثاني من الثلاثينات.

3.6 - مبعوثو الصحف التونسية وحفلات تكريمهم

يضاف إلى ما سبق ذكره، عامل الإشهار الصحفي[6]. فكثيرا ما كانت دور الصحف التونسية، نظرا لعلاقة الجوار والمصاهرة والحدود المشتركة بين تونس والجزائر، ترسل مبعوثين[7] عنها في جولات استطلاعية واشهارية عبر مختلف المدن الجزائرية للتعريف بالجريدة أو الدورية وبالتالي توسيع شبكة قراء الصحف المسموح نشرها في المستعمرة وجمع الاشتراكات. لقد حدثت حالات عديدة تجاوز فيها المبعوثون الصحفيين مهامهم المعلنة، فراحوا يعرفون بالجرائد المحظورة التونسية والمصرية ويعملون على توزيعها خفية ضمن صنف القراء المعروفين باهتماماتهم الفكرية والسياسية.

ومما يؤكد شغف وتعطش القراء الجزائريين؛ على الرغم من قلة عددهم واستفحال الأميّة وتخوفهم من القمع الاستعماري؛ للأخبار العالمية بصفة عامة والعربية الإسلامية على وجه الخصوص، رغبتهم في ربط علاقات تواصل مع العالم الخارجي، تكريمهم للصحفيين العرب. فقد نظم مجلس إدارة نادي السعادة بوهران في 20 جويلية 1949[8] حفل تكريم على شرف محمد عيساوي الجمّني، محرّر جريدة الأسبوع التونسية

4 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 1422, Tlemcen le 24.6.1949, Mascara le 3.4.1949.

5 - Archives de la Wilaya d'Oran, Bulletin Mensuel d'Information,1933-1940.

6 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 6985, Rabat le 1924.10.3.

7 - أرسلت جريدة الأسبوع إلى وهران وتلمسان، كل من الطيب بن أحمد بن عبد القادر وعبد الخالق عبد الله المزورغي للتعريف بالجريدة والترويج لها: أرشيف ولاية وهران، تقرير مصالح الأمن من تلمسان بتاريخ 1950.8.11. وأما مكي بن كمال بن عزوز فنزل بالمدينتين المذكورتين بصفه مديرا لصحيفة إفريقيا الشمالية ؛ نفسه؛ تونس 1950.2.27. كما أنّ الطالب محمد بن محمد العيساوي بن محمد العقاد، زار عددا من مدن الغرب الجزائري منها وهران وتلمسان، ممثلا لجريدة النهضة التونسية؛ نفس المرجع؛ تقرير أمني من وهران بتاريخ 1954.5.21 وأخيرا صدوق بن محمد بن أحمد بسباس، هو الآخر طالب تونسي جاء باسم جريدتي الندوة والزيتونة، ورد اسمه في تقرير مؤرخ من تيارت في 1954.3.18...إلخ.

8 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Oran le 29.8.1949.

المحظورة في الجزائر منذ 1947. فكانت هذه المناسبة بالنسبة للمشاركين في هذه الاحتفالية، فرصة للتعارف وربط علاقات ثقافية وفكرية من جهة وتجديد الاشتراكات (السرية) من جهة أخرى. من الوجوه المتميزة التي شاركت في هذا التكريم، المحامي بلبقرة عضو في حركة انتصار الحريات الديمقراطية والحكيم بومدين بن اسماعيل من نفس التشكيلة السياسية[9]. من سوء الحظ لم تحتفظ ذاكرة المحفوظات التي استقينا منها هذه المعطيات، فحوى النقاش الذي دار بين الحضور خاصة بين مبعوث الجريدة والوطنيين أعضاء حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

في نفس السياق ولكن في شهر جوان من سنة 1954، عاد مبعوث الجريدة السابق ذكرها (الأسبوع) محمد عيساوي الجمّني ليشارك في حفل تدشين المدرسة الحرّة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بندرومة.حضوره بين سنتي 1947 و1954، يجعلنا نعتقد أولا، أنه كان مداوما على زيارة الجزائر والتنقل عبر مختلف مدنها للتعريف بجريدته، ثانيا،أنه كان على اطلاع بأحوال الجزائريين وما حملته نخبهم من انشغالات ومطالب لفكّ الحصار المفروض عليهم؛ ثالثا، حضور شخصيات سياسية جزائرية معروفة باتجاهها الاستقلالي الوطني حفل تكريم الصحفي التونسي الجمّني وحضور هذا الأخير حفل تدشين مدرسة تابعة لجمعية معروفة بدودها عن اللغة العربية والدين الإسلامي في محيط معاد لكل ما له صلة بالشخصية الجزائرية، يحمل عدة دلالات أهمها أنه كان مرحبا به في التنظيمين الوطنيين، أنّه شاطر مسؤولي الحزب الاستقلالي وجمعية العلماء همومهم وبالتالي مطالبهم السياسية والثقافية والدينية، وأخيرا كان حضوره يرمز إلى وجود روابط متينة أو على الأقل متواصلة بين البلدين تمثلت في البعثات العلمية الطلابية والصلات المتعددة الأشكال التي وجدت بين حزبي الاستقلال في الجزائر وتونس وبين العلماء المصلحين الجزائريين وعلماء الزيتونة.

3.7 - البحر والبحّارة

كان للبحر والبحارة دور في إيصال أخبار العالم وشعوبها للمستعمرة. فعن طريق هذه القناة تسربت الجرائد والدوريات والكتب والمطبوعات التي كان البحارة يطالعونها عبر رحلاتهم الطويلة. اختلف اتجاه وانتماء المطبوعات، كما تعددت لغتها من عربية وفرنسية وانجليزية وألمانية وايطالية واسبانية... معروف أن الموانئ مدن عالمية قبل العولمة وفضاءات

9 - نفسه.

للتعارف والاحتكاك، فكان رسوّ السفن بمثابة فكّ العزلة التي لازمت البحارة طيلة سفرهم وبالتالي هي مناسبة للتعرف على المدن الساحلية وشعوبها وثقافاتها، كما أنها فرصة لعمال الموانئ لربط اتصالات مع أصحاب البزاة البيضاء أو الزرقاء وتبادل أطراف الحديث معهم الذي يمتد إلى عدة أو أيام بل إلى أسابيع، فعن طريقهم نقلت أخبار البلدان والقارات التي عبروها سواء كانت سياسية أو غير سياسية منقولة بالمشافهة أو مكتوبة مطبعة. لقد لعبت موانئ الغزوات (Nemours) ومستغانم ووهران بالنسبة للمقاطعة الغربية من الوطن دورا لا يقل أهمية عن الممرات البرية. فميناء مستغانم مثلا، كان ملتقى للأخبار الدولية لاسيما عن طريق التجار الألمان والإنجليز الذين كانت تربطهم بالزاوية العليوية للشيخ ابن عليوة، روابط ثقافية بل روحية متينة ومعلوم أن عددا من مريدي هذه الزاوية، من البحارة الألمان والإنجليز[10].

4 - الانتماءات الثقافية والسياسية للقراء

هل بالإمكان تحديد الانتماءات الثقافية والدينية والسياسية للتجار الذين لعبوا دورا فعالا في انتشار الصحافة العربية الإسلامية في المستعمرة وبخاصة في مدينتي تلمسان ومعسكر (لأنهما كانتا جزء من دراستنا في الدكتوراه)؟ بناء على القوائم الاسمية التي جمعناها والتي تعود إلى عشرينيات وثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، المدعّمة بشهود عيان استجوبناهم في سبعينيات وثمانينيات القرن المذكور، نلاحظ أن الذين وقفوا وراء هذه الحركة الفكرية والثقافية، كانوا من المثقفين باللغتين العربية والفرنسية والتجار وعدد محدود من الكتبيين. لقد احتل تجار الأقمشة في الشارع الأكثر نشاطا وإقبالا من طرف الرجال والنساء على حدّ سواء، الصدارة. فكانا سوق الأقمشة، بالنسبة لمدية تلمسان، وحي باب علي في معسكر، فضاء لتداول مختلف السلع وفرصة للحديث عن الحياة اليومية لسكان المدينة والشؤون العامة للبلاد وأحيانا العالم. من خلال هذه البوابة المفتوحة على عالمي التجارة والسياسة (تكتسي كلمة السياسة معنا واسعا)، كانت تثار بين الأطراف الأكثر وعيا، مسألة تداول الصحف والدوريات والكتب من بينها تلك الصادرة في تونس، والمغرب وعدد من بلدان المشرق العربي. هل من لغز يختفي وراء تلك الحركية التي حولت بعض الفضاءات الاجتماعية- الاقتصادية المحضة إلى ميدان تسوّق فيه الثقافة بمعانيها المختلفة؟

10 -Archives de la Wilaya d'Oran, Bulletin Mensuel d'Information, 1937, Archives d'Outre Mer, France, boite 9h46.

كانت الأحياء التجارية التي تقاسم النشاط فيها الجزائريون واليهود، أحياء متميّزة استقطبت صنفا معيّنا من شرائح سكان المدينة، صنفتها المصالح الاستعمارية والباحثون الاجتماعيون، في خانة الطبقة البورجوازية. كان زقاق تجار الأقمشة في تلمسان،؛ القيسارية؛ وحي باب علي في معسكر ؛ وقس على ذلك بالنسبة للأحياء المسماة بالتقليدية عبر مختلف مدن الجزائر؛ مربطا للوافدين من خارج المدينة والمستعمرة. فبالقيسارية وجد مقرّ نادي الرجاء التابع لحزب الشعب الجزائري وليس مستبعدا أن يكون الأمير خالد الذي حط الرحال بمدينة أبي مدين مطلع العشرينيات واستقبل من طرف لجنة نادي الشبيبة الإسلامية، قد طاف بالقيسارية ونزل ضيفا عند بعض وجهائها الذين تميّزوا باتجاههم الوطني العربي-الإسلامي. لا ننسى أن هؤلاء التجار وآخرون، هم الذين كانوا في طليعة من استقبل الشيخ عبد الحميد بن باديس فجر تأسيسه لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1929 ثم بعد التأسيس سنة 1931 و1932 وما بعد هذين التاريخين. نفس الوجوه استقبلت واحتضنت الشيخ البشير الإبراهيمي الذي بقي في عاصمة الزيانيين من 1932 إلى أن أصبح رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (ج.ع.م.ج.) غداة وفاة رئيسها الأول الشيخ عبد الحميد بن باديس. كانت الصحف الوطنية الصادرة عن نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب، وتلك الصادرة عن ج.ع.م.ج.، ثم في الأربعينيات صحف حركة فرحات عباس، تقرأ وتتداول من قارئ إلى آخر بالموازاة مع قراءة الأهرام والرابطة العربية والشورى ومجلة الإخوان المسلمين الصادرة في مصر، وكليلة المكية والقبس ومجلة الطليعة ولسان الأحرار الصادرة في سورية والزهرة التونسية وأخبار العالم المغربية وغيرها من الصحف والدوريات الأخرى. عرف سوق الكلام[11] نشاطا حثيثا كلما تراجعت الحركة التجارية أو كلما حلت مناسبة ثقافية أو سياسية بالمدينة التف حولها الجزائريون كتدشين دار الحديث بتلمسان في سبتمبر 1937 أو خروج حركة سياسية مؤيدة للمؤتمر الإسلامي الجزائري في 1936من أعماق الأزقة الضيقة والفقيرة لحي باب علي بمدينة معسكر أين شيدت مدرسة حرّة تابعة لج.ع.م.ج. من نفس هذا الحي ستنطلق سنة 1943 مظاهرة صاخبة مؤيدة لأحباب البيان والحرية قبل أن تتبع بمسيرات ومظاهرات أخرى إلى غاية 1962. هكذا واكب، بل امتزج النشاط التجاري بالحراك السياسي الوطني بصنفيه الإصلاحي الثقافي- الديني والسياسي الاستقلالي، فلم تكن بالتالي عملية اقتناء الصحافة المغربية أو المشرقية من طرف القراء الجزائريين المداومين على قراءتها، مجرّد نشاط ترفيهي وإنما صبّت في سياق

11 - نقصد بهذه العبارة الأخبار المنقولة عن الصحف بعد مطالعتها وطريقة تداول الخبر الصحفي بين عامة الناس خاصة بين من لم يطلع عليها.

الحركة النهضوية التي عرفها العالم العربي الإسلامي بشكل عام، والمستعمرة الجزائرية بشكل خاص لاسيما وأنّ موسم الحجّ كان فرصة للحجيج لتطعيم وتوثيق الروابط الروحية بينهم وبين الوافدين من المشرق العربي. تدلّ تقارير مخبري الشرطة الفرنسية من أصول جزائرية (informateurs de la police) المندسين بين المترددين على المقاهي العربية (cafés maures) عن مدى تأثر الحجيج الجزائريين برحلتهم الروحية إلى البقاع المقدسة.

5 - انتشار الصحافة العربية

بلغ عدد عناوين الصحف المغربية والمشرقية الوارد ذكرها في مختلف تقارير الشرطة الفرنسية والتي اطلعنا عليها 67 عنوانا للفترة الممتدة بين سنتي 1920 و1954.

يبدو للوهلة الأولى، أن هذا العدد معتبر للغاية، وأن الصحافة الصادرة باللغة العربية في المغرب والمشرق العربيين كثيرة الانتشار والرواج في المستعمرة الجزائرية. الحقيقة عكس ما يتصوّر. فإذا ما حاولنا توزيع مجموع العناوين التي رصدناها على لوح زمني تكون الصورة على النحو التالي[12]:

	سنة دخول الصحيفة	عدد الصحف المرصودة
1	1920	04
2	1921	01
3	1924	01
4	1929	02
5	1930	08
6	1932	02
7	1934	01
9	1936	11
10	1939	29
11	1947	06
12	1949	01
13	1950	01
14	1954	03
	المجموع	67

التعليق على الجدول:

- **أول ملاحظة:** يتبادر للعيان عدم تغطية الجدول الزمني للحقبة الممتدة ما بين

12 - راجع الجدول في الملحق 1.

1920 و1954 بجميع سنواتها. يعود سبب ذلك لنوعية الوثائق الأرشيفية التي وقفنا عليها والتي تتخللها عدة فجوات.

- **ثاني ملاحظة**: تخصّ سنتي 1936 و1939. عرفت سنة 1936 وهي السنة التي انتصرت فيها الجبهة الشعبية في فرنسا وانعقد فيها المؤتمر الإسلامي بالجزائر، حراكا سياسيا لم تعرفه المستعمرة من قبل كانت فيه المبادرة للأحزاب والمنظمات الجزائرية في طرح مسألة الحريات التي تضمنها مشروع بلوم فيوليت الذي عارضته إدارة الاحتلال بشدة لما شكله من خطر على كيانها.تنفست "الجزائر المسلمة" كما كان يقال آنذاك؛ الصعداء وكانت 1936 سنة إشراقة سياسية لكافة المستعمرات الفرنسية خاصة بالنسبة لبلدان المغرب العربي، فانعكس ذلك إيجابا على دخول وانتشار 11 عنوانا صحفيا من مختلف بلدان العالم العربي الإسلامي. أما فيما يخص سنة 1939 بعناوينها الـ26 التي تمثّل ما يمكن وصفه بالعصر الذهبي لانتشار الصحافة العربية في المستعمرة، فارتبط ذلك بأجواء الحرب العالمية الثانية التي أدخلت المستعمرة في ارتباك وفوضى استغلتها الصحف الجزائرية الصادرة في الجزائر في تكثيف مبادلاتها مع شقيقاتها العربية المغربية والمشرقية.

- **ثالث ملاحظة**: لا ينبغي أن يعتمد بشكل قطعي على العدد الإجمالي للعناوين التي تمّ رصدها لأن هذا العدد جزئي فهو ناقص لعدم تمكننا من القيام بجرد كامل وشامل لمختلف العناوين في مختلف أرصدة ودور الأرشيف من جهة ولوجود ثغرات في العلبة الواحدة تعود إلى سببين أساسيين. الأول حدث في كثير من المرات أن التقارير من نفس الصنف والموضوع، تصنّف ضمن ملفات غير ملفاتها الأصلية، هكذا وعلى سبيل المثال عثرنا على ملخصات لجريدة الأمة لمصالي الحاج ضمن علبة مخصصة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.ثانيا عندما تكون الوثيقة حساسة أو لم تستوف المدة الزمنية المحدّدة قانونا للإطلاع عليها،تسحب تلقائيا من العلبة طرف مصلحة المطالعة للمحفوظات هذه الملاحظات المنهجيّة تزكيها شهادة مصطفى باغلي، صاحب المكتبة التلمسانية الذي أبلغنا بأنه كان يعرض على قراء مدينة تلمسان والغرب الجزائري 37 عنوانا سنة 1936[13] أتته كلها من الأقطار العربية، المغربية والمشرقية. في نفس السياق وفي نفس الفترة تطلعنا أسبوعيّة La Défense (الدفاع)، على حصول صاحب المكتبة المصرية، 42 rue la Lyre (شارع لاليـر) بالجزائر العاصمة، على رخصة استيراد مجموعة من الصحف العربية والكتب المدرسية، وأنه كان يبحث عن وكلاء داخل القطر

13 - مقابلة مع المغفور له الحاج مصطفى باغلي، تلمسان، أكتوبر 1979.

الجزائري يسوقون ما تم استيراده[14]. كما أنّنا عثرنا على وثيقة رسمية تنصّ على أنّ الإدارة الاستعمارية سمحت سنة 1953 لعمار شنيفي، كتبي في 39 شارع لاليرـ دائما بالجزائر العاصمة، باستيراد 44 عنوانا من مصر،ما قيمته نقدا 500. 313. 1 فرنك فرنسي[15].

فما قيمة المعطيات الكمية المقدمة آنفا وما درجة صحتها؟ إن وراء الأعداد المعتبرة للصحف والدوريات التي كانت تعرض في المكتبات إلى جانب الكتب باللغة العربية (37 عنانا في تلمسان و44 في الجزائر العاصمة عند كتبي واحد)، مخادعة إدارية تعكس مدى الذكاء الماكر للسياسة الاستعمارية. حقيقة كان مصطفى باغلي يبيع الزهرة والرسالة والأهرام وغيرها من العناوين الملتزمة فكريا ودينيا وسياسيا ولكن ما لم تذكره تقارير الشرطة التي اطلعنا عليها، أن هذه العناوين كانت تأتيه في أغلب الحالات في ثلاث نسخ أو نسختين بل حتى نسخة واحدة كما كان الحال بالنسبة للأهرام المصرية[16].

إذا أضفنا إلى هذا كله عامل الأمية الذي حدّ بطبيعة الحال من عدد القراء وبالتالي من انتشار وتطوير الحركة الصحفية، يؤخذ مدلول الحصار الثقافي والفكري المفروض على الجزائريين كل معانيه. فالأميّة في هذا الحال، هي أنجع وأكثر وقاية من الرقابة الإدارية والأمنية لأنّ حاملها لا يصغى لما يكتب ويدور في فلكه، اللهمّ إذا كان له حس وطني متميّز يحمله على تنمية قدراته الفكرية رغم محدوديتها.

6 - المسموح والمحظور من الصحف العربية في مستعمرة الجزائر

يمكن تصنيف الصحف المغاربية والمشرقية التي تمّ رصدها إلى صنفين: ما سمحت الإدارة الاستعمارية بإدخالها وبيعها ومطالعتها وأخرى كانت محظورة، تعرّض بائعوها وموزعوها وقراؤها لعقوبات إدارية أحيانا وقضائية أحيانا أخرى.

6.1 - يتوزع بدوره الصنف الأول إلى صنفين :

-صحافة تهتم بالجوانب العلمية والأدبية والمعرفية، وصحافة سياسية اندماجية أو على أقل تقدير غير معارضة للسياسة الاستعمارية في البلاد العربية غربا

14 - عن جريدة La Défense (الدفاع) العدد 130، بتاريخ 1936.12.15 من بين هذه الجرائد: الرابطة العربية، الزيتونة، الجهاد، البلاغ...إلخ.

15 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Oran le 4.12.1953.

16 - مقابلة مع الحاج باغلي، أكتوبر 1979.

وشرقا. جريدتا العمران[17] والعالم الأدبي[18] التونسيتين، أرسلتا مجانا وعن طريق البريد إلى أعيان مدن تلمسان ووهران والجزائر العاصمة ما بين سنة 1921 وسنة 1933.

وجدت بعض أعداد العمران فيClinchant (المطمر حاليا، بولاية مستغانم) وأعدادا من العالم الأدبي في عين تموشنت[19].

- أما الصحافة السياسية ذات الاتجاه الاندماجي فمثلتها دورية إفريقيا الشمالية[20] في عهدها الثاني تحت إشراف المكي بن كمال بن عزوز الذي زار الجزائر سنة 1950 في مهمة استطلاعية الغاية منها التعرّف على "وضعيّة الأحزاب السياسية في شمال إفريقيا... " يفهم من خلال الدورية نفسها أن هذه المهمة كانت تندرج ضمن مخطط استعماري محض يرمي إلى ضرب "العناصر الوطنية المتطرفة". لم تذكر التقارير التي أعدت على إثر هذه الزيارة إذا كانت الدورية منتشرة عبر كامل أرجاء القطر أم لا. للعلم عثر على نسخ من هذه الدورية في تيارت وغليزان. أما جريدة Le Phare de Tunis et d'Alger[21] (فنار تونس والجزائر) التي كان اتجاهها على شاكلة سابقتها، فكانت معروفة في الجزائر العاصمة وتيارت وغليزان ومعسكر ومستغانم وأما عن المكلّف بتوزيعها على مستوى القطر الجزائري يدعى ألبير بوخيرة، يهودي الأصل من مواليد تونس استقر ؛لا ندري متى؛ بمدينة الجزائر[22].

هذا بالنسبة للصحف الصادرة في تونس. أما فيما يخصّ العناوين المشرقية، فمنها المصرية والسورية، والعراقية واللبنانية الخ. إن رواج الصحف والدوريات الصادرة في هذه البلدان، كان متفاوتا من مقاطعة جزائرية إلى أخرى. فبالنسبة لبعض العناوين الأدبية والهزلية الصادرة في مصر ككل شيء، والفكاهة، والمكشوف، والعرفان(1936-1939)[23]، فإننا لم نجد لها آثارا في المقاطعة الغربية رغم توفرها في الجزائر العاصمة[24]. أما العناوين الصادرة في سوريا والعراق ولبنان (بيروت)، لم تذكر التقارير المطلع عليها ما إذا كانت منتشرة

17 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Oran le 20.6.1921.

18 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Oran le 12.12.1936

19 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Ain Témouchent le 20.30.1933.

20 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Tunis le 7.2.1950.

21 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Tiaret le 26.5.1954.

22 - المرجع السابق.

23 - Archives de la Wilaya d'Oran, Archives d'Outre Mer, France, boite 9H17, Rapport mensuel, année 1936.

24 - نفسه.

أم لا. إنّ ما وقفنا عليه هي قوائم العناوين التي كانت ترسل من باب التبادل الصحفي إلى شقيقاتها بالجزائر مثل الشهاب والبصائر[25] والنجاح. سجلنا أن عناوين دخلت المستعمرة عن طريق التبادل مثل الإسلام والهداية الإسلامية والمكشوف والعرفان الصادرة في مصر؛ ثم القبس والأحداث والطليعة والجزيرة ولسان الأحرار ونشرة المكتب العربي وأحداث فلسطين الصادرة في سوريا. أما من العراق فسجلنا الدفاع القومي والسجال (Assadjal). تأتي بعدها العناوين البيروتية كصوت الشعب والأهالي ومنارة الشرق. أما فيما يتعلق بالصحافة المغربية فوجدت نسخ من أخبار العالم في مدينة تلمسان وبالضاحية المجاورة لها الحناية وأيضا في ندرومة ومستغانم. نشرت الشهاب سنة 1939 مقالات مقتبسة من الوحدة المغربية و[26] Le Cri Marocain مما يدلّ على وجودهما في قسنطينة، البصائر وصلتها في نفس السنة الحرية والسعادة والمغرب.

6.2 - هذا بالنسبة للصنف الأول من الجرائد والمجلات التي لم تعطلها السلطات الاستعمارية. أما العناوين التي حالت دون وصولها للقراء الجزائريين واعترضت دخولها إلى المستعمرة، فبعضها سياسي وبعضها إعلامي. فعلى أساس هذا التصنيف، اتخذت مصالح الرقابة موقفين متكاملين مانعة منعا باتا الصحف السياسية ومعطلة بشكل انتقائي الصحف الإعلامية (المعروفة بالعامة) كلما تعرضت عناوينها لمواضيع سياسية مناوئة لمصالح الاستعمار في الشمال الإفريقي. وادي النيل[27] والفلاح[28] والفتح[29] والشورى[30] من الصحف المصرية؛ سورية الجديدة[31] الصادرة بدمشق، كليلة[32] المكية، الإرادة[33] والهلال[34] التونسيتين وغيرها من العناوين، منعت إما جزئيا وإما حصريا من الدخول للمستعمرة. كانت

25 - Archives de la Wilaya d'Oran, Archives d'Outre Mer, France, boite 9H17, Constantine le 3.5.1939.

26 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4482 ;
منعت الصحيفة بقرار وزاري بتاريخ 3. 192.5.

27 - Archives de la Wilaya d'Oran, Archives d'Outre Mer, France, boite 9H 17 ;
منعت بقرار وزاري بتاريخ 1930.2.20. المنشور الذي يشير إلى المنع، صادر في قسنطينة بتاريخ 1939.5.6.

28 - Archives de la Wilaya d'Oran, Archives d'Outre Mer, France, boite 4482 ;
منعت بقرار وزاري بتاريخ 1930.2.20، المنشور الذي يشير إلى المنع، صادر في الجزائر بتاريخ 1930.3.11.

29 - نفسه؛ باريس 1930.2.20.

30 - المرجع السابق، باريس 1920.5.3.

31 - نفسه ؛ منعت بقرار وزاري، بتاريخ 1920.8.31.

32 - نفسه ؛ منعت بمرسوم اتخذه الحاكم العام للجزائر بتاريخ 1939.7.24. أرخت الوثيقة حاملة هذه المعلومة بالجزائر في 1939.7.25.

33 - نفسه ؛ علقت بقرار وزاري بتاريخ 1939.3.22. أرخت الوثيقة حاملة هذه المعلومة بالجزائر في 1939.5.5.

34 - نفسه ؛ تلمسان 1947.5.17.

قرارات المنع الجزئي من صلاحيات الحاكم العام للجزائر ومن ثمة أمكنه رفع المنع حيال الصحف التي انتقدت ظرفيا السياسة الاستعمارية دون أن يشكل ذلك خطها الصحفي الرئيسي. أما قرارات المنع الوزارية التي اتخذتها باريس، فشملت الصحف التي تضمن خطها الصحفي مناهضة سياسة الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا. كانت الصحافة التونسية أكثر الصحف العربية عرضة للمصادرة الدورية إذ شكل تعدّد عناوينها وانتشارها المثير من وجهة نظر إدارة الاحتلال، خطرا على الرأي العام الجزائري، نذكر منها، الأسبوع، الزهرة والزهو وجميعها عناوين لصحف تونسية عامة. تشير تقارير مصالح الرقابة، أن البوليس حجز بتاريخ ماي 1942 في تلمسان عند التاجر عليلي 10 نسخ من جريدة الأسبوع بعد أن باع منها 64 نسخة. ولما علم بابا أحمد؛ تاجر آخر؛ خبر حجز هذا العنوان، باع ستين (60) نسخة بيعا مباشرا، أي من يد إلى يد.

أما في مدينة مستغانم، فكانت حصيلة الحجز الإداري[35] كالتالي: 15 نسخة دائما من الأسبوع و14 نسخة من الزهرة، و3 نسخ من الزهو وجدت بدكان محمد زحاف، المعروف بانتمائه لحزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية[36] اللتين تزعمهما الحاج مصالي.

7 - محتويات بعض العناوين الصحفية

كان بودّنا القيام بدراسة محتوى الصحف الممنوعة والمصادرة لمعرفة نوعية المقالات المنشورة وهل تطرقت للوضع العام في المستعمرة الجزائرية وكيف كان ذلك. استعصى علينا ذلك لعدم وقوفنا على العناوين الممنوعة والمصادرة لكن تمكننا من معرفة القليل في هذا الباب عن طريق المبررات الإدارية التي احتوتها تقارير مصالح الرقابة التي غالبا ما كانت ترفق تقاريرها بملخصات مترجمة لمقالات نشرت في الصحف محل الاتهام.

7.1 - الفتح المصرية تتعرض لأحداث قسنطينة

صدر تحت توقيع محيي الدين نجيب في جريدة الفتح[37] المصرية بتاريخ 6 جمادي الأولى سنة 1953 مقال بعنوان : "العبرة من حوادث قسنطينة". تشير التقارير أن العنوان كتب بأحرف جدّ بارزة وأن المقال كان جدّ طويل حيث نشر على صفحتين، الأولى والثانية. نستخلص من هذه الملاحظات، أن الصحيفة أولت اهتماما خاصا بالحدث المعالج كما أنها سعت إلى الترويج لما يجري في المستعمرة

35 - نفسه ؛ مستغانم 1947.5.20.

36 - نفسه.

37 - مجلة الفتح، العدد 408، تاريخ الصدور في 6 جمادي الأولى 1953.

الجزائرية ليس على مستوى الرأي العام المصري ولكن كذلك على مستوى الرأي العام العربي والإسلامي. فكون هذا الموضوع احتل الصدارة في مجلة مصرية، يعني أن للجزائر مكانة في الضمير العربي والإسلامي وأنها كانت هي من صنع الحدث مما يتوجّب التجاوب معها ولو إعلاميا والتعاطف معها عربيا وإسلاميا. هذا بالنسبة للمظهر الخارجي للمقال. على الرغم من أن موقع المقال، محيي الدين نجيب، لم يتعرّض بالتفصيل لما جرى في قسنطينة شهر أوت 1934 إلا أنه ركز على المسبّب: "جناية ذلك اليهودي الأثيم الذي اعتدى على قدسية المسجد الجامع في قسنطينة" وما تبع ذلك من ردود الأفعال من طرف الجزائريين وتدخّل "الجالية اليهودية لمناصرة اليهودي الظالم "- وذهاب الجزائريين ضحية بعض المستفزين الذين " تزيّوا بزيّ المسلمين وانخرطوا في صفوفهم وقاموا بتحريضهم على قتال اليهود".

بعد هذا، تساءل الصحفي عن الأسباب التي أدت إلى ما حدث. فميّز بين الأسباب الاقتصادية – الاجتماعية المتمثلة في غضب وسخط "ضحايا الربّا الفاحش من الفلاحين والتجار المستوردين الذين خرّبت بيوتهم بأيدي صغار المرابين اليهود "والأسباب النفسية إذ بدأ اليهود في نظره" يمرنون أنفسهم على مقاومة كل ما لا يوافق هواهم ومعاداة كل من تختلف مصلحته ومصلحتهم". أما عن الأسباب الأيديولوجية، فتكمن حسب صاحب المقال في رغبة اليهود في "تأسيس ملك في بيت غيرهم".

فعلى الرغم من أنّ هذه المقالة تنقصها الكثير من المعطيات التاريخية (عدد الضحايا، وقوف شرطة المحتل إلى جانب اليهود، دور النائب العام ابن جلول والشيخ عبد الحميد بن باديس ؛ رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تهدئة الوضع الخ.) إلا أنّ خطورتها لم تخف على مصالح الرقابة التي صادرت الجريدة حتى لا يستغل محتواها في إعادة إشعال فتيل الاحتجاجات التي يمكن اختزالها في تهميش الجزائريين واحتقارهم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، ثم لأنّ ظاهرة الربّا نمت بشكل مطرد مع وطأة الضرائب ومختلف الغرامات الاستعمارية التي مست كلّ الجزائريين دون استثناء بما فيهم ما سمي آنذاك بالأسر الكبيرة التي عرفت بثرائها وجاهها ومكانتها الاجتماعية. إنّ عقوبة السجن وما تشكّله من إهانة لكل من عجز عن تسديد ضرائبه أو لمن سدّدها بعد فوات وقتها، هي التي رمت بعديد الجزائريين بما فيهم العائلات الكبرى في أحضان المرابين اليهود الذين أثبتوا مدى ذكائهم في هذا المجال. فالعلاقة بين السياسة الضرائبية التعسفية واستفحال ظاهرة الربّا، علاقة جدلية استفاد منها الطرفين كل حسب موقعه وغايته: اليهود، الذين تمكنوا من تنمية ثرواتهم وتوسيع نفوذهم المعنوي على حساب الجزائريين الذين لجؤوا مكرهين إلى خدماتهم؛ والإدارة الاستعمارية

التي حولت الضرائب إلى سلاح لإجهاض ما تبقى للجزائريين من أمل في النهوض وحمل مطالبهم أمام الرأي العام الجزائري.

أما جريدة الأسبوع التونسية الصادرة بتاريخ 12 ماي 1948 فصادرتها السلطات الاستعمارية بالجزائر لنشرها عدة مقالات تندّد فيها بالوجود الفرنسي في تونس، مبشّرة في الوقت ذاته باقتراب اليوم الذي تتحرّر فيه من قبضة فرنسا." الذكرى السوداء لفاجعة 1881"،أتبع هذا العنوان الرئيسي بعنوان فرعي في سطرين كاملين جاء فيهما : "الشعب التونسي يعلن حداده في هذا اليوم على إنتهاك حرمته وسلب قوّته واستقلاله بتآمر الدول الأوروبية عليه (العنوان الفرعي الأول) وهو وطيد الإيمان بأنّ كفاحه لنيل مجده سيكلّل بالظفر وأنّ تكتله سيجبر الطغيان على التسليم بأهدافه "[38] (العنوان الفرعي الثاني، انتهى). تربع العنوانان على ثلث الصفحة الأولى من جريدة الأسبوع مما يضفي على المقال طابعا إعلاميا وسياسيا واضحا، زادته الافتتاحية قوة وعمقا في المنحى الوطني للصحيفة : "يوم الاستقلال آت لا ريب فيه". أما في الصفحة الثانية فنقرأ : "كلّ شخص مستعبد هو أخي، وبلاد احتلها أجنبي هي وطني ". تذكر الصحيفة أسفل الصفحة، أنّ المقال مقتبس من مجلة "الإخوان المسلمين الغراء".

من جهة أخرى، تعلمنا تقارير الشرطة المكلّفة بمراقبة الحركة الصحفية في الجزائر، أن مصالحها عثرت ببريد مدينتي معسكر وسيق[39] على أعداد من الأسبوع بتاريخ 22 أوت 1949 وردت فيها أربع مقالات حول الجزائر. تمّ في المقالة الأولى التعريف بالمسجد الذي تمت فيه البيعة (بيعة الأمير عبد القادر أميرا على قبائل الحشم في 21 نوفمبر 1832 بمسجد سيدي حسان بمعسكر)، المقالة الثانية وردت فيها مقتطفات شعرية للأمير عبد القادر. خصصت المقالة الثالثة للتعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتمجيد رسالتها التربوية والتعليمية المجسدة فيما أقامته من مدارس ومساجد وجمعيات ونوادي الخ. أما المقالة الرابعة فبجّل فيها رجال الجمعية أمثال الشيوخ البشير الإبراهيمي والعربي التبسي ومحمد خير الدين.

استنكرت الجريدة السياسة الانجليزية في سورية وأعمال فرنسا في الهند الصينية ومن جملة ما جاء فيها، أنّ فرنسا تعد ولم تف بوعودها. وعدت بتحسين أوضاع المسلمين في الشمال الإفريقي ولكن لم يتحقق شيئا من هذه الوعود، ذلك أنها تقدم حسب ما جاء في الأسبوع، مصلحتها الخاصة ومصلحة مستوطنيها عن مصلحة السكان الأصليين[40].

38 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 6985.

39 - Archives de la Wilaya d'Oran, boite 4473, Sig le 5.9.1949.

40 - نفسه.

إن هذه المقالات وتلك التي لم نطّلع عليها، ساهمت بشكل أو بآخر؛ من خلال ما أوردته من أنباء عن بلدان تشبعت بنفس المعتقد، وارتوت من نفس النبع، تشابه حاضرها المعاصر المضني؛ في خلق ذهنية نهضوية واحدة موحّدة معادية للاستعمار ترتكز أساسا على معطيات لغوية ثقافية ودينية وحضارية مشتركة. وهذا ما كان يفزع السلطات الاستعمارية. إنّ جلّ التقارير الإدارية والمقالات التي نشرت في الدوريات الاستعمارية كنشرية إفريقيا الفرنسية وبخاصة المقالات التي كان يمضيها Joseph Desparmet (جوزيف دسبرمي)، حذرت، بل ونددّت بنماء الوازعين اللغوي والديني[41]، وما تلك الجملة التي خطها محيي الدين نجيب في جريدة الفتح بمناسبة أحداث قسنطينة : "إن الشعوب الإسلامية مهما تساهلت في حقوقها القومية، فإنها لا تتساهل أبدا في كرامتها الدينية"، ما هي إلا صرخة تحذيرية نابعة من أعماق الضمير التاريخي لهذه الشعوب وتأكيد للمخاوف الاستعمارية.

الخاتمة

إن النتيجة الأولى التي تتبادر لذهن القارئ وهو يطالع لوح انتشار الصحافة المغربية والمشرقية بالجزائر ما بين 1920 و1954، أنها واسعة الانتشار واحتكاك مثقفيها ومفكريها بنظرائهم مستمر ومثمر بدليل عملية تبادل عدد من العناوين الصحفية بين الطرفين.

لكن القوانين الوضعية السائدة في المستعمرة لاسيما منها تلك المتعلقة بالوضع الثقافي والفكري[42] التي إذا ما أضيف إليها فقدان العوامل الأساسية المتحكمة في التوزيع العادي للصحافة الصادرة داخل وخارج حدود المستعمرة، تثبت أن الواقع مغاير تماما لما يتصوّر، ذلك ما تأكّده تكرار إحدى العبارتين: " هذه الصحيفة غير

41 - راجع (1931 - 1939) Bulletin du Comité de l'Afrique Française. من بين المقالات التي وقعها (جوزيف دسبرمي) :

Les guides de l'opinion indigène en Algérie, 1933,pp.11-16. L'histoire des Arabes et les Oulémas algériens, mai 1934, p 274-281. Les manifestations en Algérie (1933-1934),août 1934, p537-547.Le nationalisme à l'école indigène en Tunisie et en Algérie,1er. partie 1935, p 104-107.Idem (fin), 1935, pp. 229-232 ; etc.

42 - بموجب منشور 16 فبراير 1933 المعروف بـ (منشور "ميشال") Michel circulaire ؛باسم الأمين العام لولاية الجزائر المكلف بالشؤون الأهلية ؛ وبإيعاز من شيوخ الزوايا، وبني ويوي الذين أرعبتهم تحركات رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الشيخ عبد الحميد بن باديس، منعت ولاية الجزائر على من لم يعينوا من طرفها من التدريس و إلقاء الخطب بالمساجد الرسمية. كان المنشور موجها بشكل خاص ضد خطباء و وعاظ ومدرسي ج.ع.م.ج. وكانت الناحية الغربية، المتضرر الأكبر من عملية الحظر المفروضة عليهم (أنظر أرشيف ولاية وهران، علبة 4480 ؛ Ali Merad Mohammed El Korso. (1968)). دعّم هذا المنشور بقرار ولائي اتخذه والي الجزائر بتاريخ 2 مارس 1933 وفي مارس 1935، يصدر وزير الداخلية Regnier (رينيي)، قرارا يقضي بمعاقبة كل الذين يعارضون تطبيق القوانين التي تصدرها فرنسا وإدارتها في المستعمرة. كان هذا القرار صدمة بالنسبة لجميع التشكيلات الوطنية وخاصة ج.ع.م.ج. التي تعرّضت لمضايقات كبيرة. وفي 8 مارس 1938 يشدّد القرار المعروف بهذا الاسم الخناق على العلماء بتسليطه عقوبات صارمة ضدّ كل اللذين يفتحون مدارس قرآنية أو حرّة دون ترخيص إداري مسبق. علق الشيخ عبد الحميد بن باديس على هذا القرار بأنّ سنة 1938 هي أسوأ ما عرفته الجمعية لحدّ الآن.

منتشرة في.... " أو "هذه الصحيفة غير معروفة في ... " الواردتين في مختلف تقارير الشرطة والمصالح التابعة لها كلما قامت بتحقيق ميداني لتقييم مدى انتشار هذا العنوان أو ذاك عبر مختلف مدن وقرى المستعمرة.

رغم الدلالة المعرفية للجرد الذي قمنا به ونسبية الأخطاء التي نكون قد ارتكبناها جراء محدودية أدوات العمل المستخدمة من تقارير إدارية وأمنية (rapports administratifs et de police) فإنّ الاستنتاجات التي توصلنا إليها تبقى في نظرنا صالحة ونوجزها في النقاط التالية:

1 - الانتشار الرمزي وبالتالي الضعيف للعناوين الصحفية المغاربية والمشرقية بالمستعمرة،

2 – نجاعة مصالح الرقابة التي تمكنت رغم بعض الاختراقات من فرض حصار ثقافي وفكري شبه شامل على الجزائريين؛

3 – عزل الشعب الجزائري عن باقي العالم العربي والإسلامي حتى لا تصيبه عدوى النهضة التي حملت لواءها بعض الأسماء المؤثرة أمثال : جمال الدين الأفغاني (1838-1897) في أفغانستان، مصطفى كامل باشا (1874-1908) ومحمد عبده (1849-1905) في مصر، الشيخ محمد رشيد رضا (1865-1935) في لبنان، أبو القاسم الشابي (1909-1934) في تونس، الخ ؛

4 – كانت مطالعة الصحف الصادرة باللغتين العربية والفرنسية، نخبوية[43] اقتصرت على المثقفين الذين أتقنوا إحداهما أو اللغتين معا. فلا غرابة إذا بلغ نصيب مجلة الشهاب لصاحبها عبد الحميد بن باديس والبصائر لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين [44]47.76 % من مجموع العناوين المنتشرة عبر المستعمرة مما يدلّ على الطابع النخبوي الذي ميّز الصحافة العربية التي بقيت مختلف الشرائح الاجتماعية في منأى عنها بسبب تفشي الأمية؛

5 – أحسن الصحفي محيي الدين نجيب من الفتح المصرية رسم أبعاد القطيعة التي فرضها النظام الاستعماري على الشعوب التي هيمن عليها حينما كتب:

"ومن العبر في حوادث قسنطينة خلو أيدي المسلمين من وسائل النشر ونقل

43 - El Korso, Mohammed (1988). Structures islahistes et dynamique culturelle dans le mouvement national algérien 1931-1954. p 54-106, in colletif : Lettrès, intellectuels et militants en Algérie, éd. O.P.U., p 175 Alger.

44 - El Korso, Mohammed (1988). Politique et religion en Algérie. L'Islah : ses structures et ses hommes : le cas de l'Association des 'Ulama' Musulmans Algériens en Oranie 1931-1945. thèse de doctorat, Jussieu, p 570, Paris.

الأخبار.فمصر والجزائر بقعتان من شمال إفريقيا متقاربتان وكلاهما ينتسبان إلى دين واحد وإلى لغة واحدة وإلى قارة واحدة بل إلى جانب واحد من القارة الواحدة، ومع ذلك فإن هذه الجرائد اليومية الكبرى التي تصدر في مصر في 12 صفحة كبيرة بالحروف الدقيقة، لم تستطع أن تعرف شيئا عن حوادث قسنطينة والجزائر إلا عن طريق باريس وصحف باريس.فنحن إلى الآن لم نسمع عن إخواننا مسلمي الجزائر إلا ما أرادت مطبوعات فرنسا أن نسمعه وحتى جرائد اليهود الضعيفة في فلسطين والتي ليس لها من القراء ربع ما لجرائدنا الكبرى، استطاعت أن تأخذ من نفس الجزائر أو من مصادر يهودية محضة أخبارا عن هذه الحوادث. بينما جرائدنا لا تتصل بتلك البلاد عن طريق أهلها ولا تستطيع أن تنقل لنا حكم الشعب المغربي نفسه على ما وقع بين ظهرانيه".[45]

إنّ محتوى ما كتبه محيي الدين نجيب، بالغ الأهمية لأنه يشخّص القطيعة الثقافية والفكرية بين المغرب والمشرق العربيين طيلة عهد الاستعمار من جهة، ولأنه يحمّل إلى حدّ ما الشعوب المغربية مسؤولية تلك القطيعة، من جهة أخرى. فإذا كانت حقا، الصحافة هي الجسر الذي يربط الشعوب والبلدان والأقطار فيما بينها، فينبغي التّذكير بأن التجربة الصحفية لاسيما العربية منها في المستعمرة الجزائرية، حديثة العهد [46] مقارنة بمصر، تعود إلى مطلع القرن الماضي ولم تصبح قائمة على قدميها إلا بعد العقد الثالث منه، وبالتالي لم تكن لدى النخبة المثقفة ثقافة عربية مهما كانت ثقافتها الوطنية خلال هذه العقود بل وحتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، خبرة في مجال الكتابة الصحفية وكيفية استغلال الخبر الصحفي إعلاميا وثقافيا وسياسيا في الترويج لقضايا شعوبهم المصيرية التي تبنتها العديد من الصحف كالشهاب والبصائر والمغرب العربي والأمة الخ. أضف إلى ذلك وازع السياسة التعسفية التي حاولت تطويق الصحافة الناطقة باللغة العربية بعد سن إدارة الاستعمار، مجموعة من القوانين أصبحت بموجبها لغة الضّاد مطاردة في عقر بيتها بالجزائر. فكل الذين حاولوا نشر الحرف العربي تعرضوا للسجن والمتابعة القضائية. ولا شكّ أن من بين العوامل التي حملت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على إنشاء جريدة La Défense (الدفاع) الأسبوعية، التهديدات التي ما فتئت تتعرّض لها الصحافة الناطقة باللغة العربية ذات الاتجاه الإصلاحي الوطني. ولدينا من جهة أخرى في باب التجربة

45 - الفتح، العدد 440، 6 جمادي الأولى 1953.

46 - راجع :

- Ihadaden, Zoheir (1983). A presse indigène en Algérie des origines jusqu'en 1930. éd. O.P.U, Alger.

وأيضا:

- ناصر، محمد (1978). المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطوّرها، أقلامها من 1903 إلى 1930. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

الإعلامية التي خاضتها هذه الجمعية باستخدامها اللغتين العربية والفرنسية الدليل القاطع على أنّ العمل الصحفي مهنة قبل أن يكون رسالة خاصة إذا كانت نضالية. فمدير (الدفاع)، الأمين العمودي، جمع بين المهنية أولا والرسالة النضالية ثانيا وهذا ما يتجلى من خلال قراءة مقارنة نقدية لعناوين البصائر و(الدفاع). فباختصار شديد طغت على الأقلام التي كانت تكتب في البصائر النزعة الأدبية والأخلاقية الناتجة عن نمط تكوينهم الثقافي والفكري، هذا في الوقت الذي استنبطت فيه مقالات (الدفاع) روح مادتها الصحفية من الواقع اليومي المرّ الذي طبع حياة الجزائريين فدخلت فيه الجريدة في نقاشات حادة وجريئة مع النظام الكولونيالي منتقدة بشكل خاص ما أسمته "نظام السيف" المسلط على الجزائريين في البلديات المختلطة والمقاطعات العسكرية ناهيك عن تحريكها الساحة السياسية بمطالبة مديرها تنظيم مؤتمر يجمع كافة الفعاليات السياسية الجزائرية فكان المؤتمر الإسلامي الجزائري (1936-1937) كما أنه فتح أعمدة صحيفته لمناصري ومعارضي مشروع بلوم فيوليط سنة 1936. من باب آخر ولكن في نفس السياق، كان الأمين العمودي، محل متابعات عديدة وتعرضت صحيفته عديد المرات للحجز والمصادرة. فمسألة المراقبة والحجز ليست مسألة لغة فقط؛ حتى وإن كان الأمر كذلك؛ ولكن مسألة فحوى الخطاب المنشور على أعمدة الصحافة.

فمهما يكن من أمر، فإنّ ما جاء على لسان محيي الدين نجيب، صحيح إلى حدّ بعيد. فالشعوب المغربية عامة والشعب الجزائري على وجه الخصوص، قليل الكتابة كثير المشافهة، ثقافته في ذاكرته، فهي بالتالي حبيسة مقامه لا تعرف رواجا على خلاف النص المكتوب الذي ينقل أخبار العالم من بلد لآخر ومن قارة لأخرى، فمن أوربا وبالتحديد من فرنسا؛ مثلما ورد ذكره؛التقط الصحفي محيي الدين نجيب خبر مأساة الجزائريين في قسنطينة فنقلها إلى قرائه في مصر ومنها عبر عدد من البلدان العربية. هذه هي خاصية الخبر المكتوب السريع التنقل والتداول. لكن هل كانت القطيعة بين الجزائر والمشرق كاملة شاملة، وهل كان السياج الذي فرضه الاستعمار على الجزائريين غير قابل للاختراق؟ تبيّن لنا أنّ بعض الصحف الممنوعة، تمكنت من اختراق هذا السياج رغم سمكه باللجوء إلى طرق ملتوية وحيّل شتى لإيصال الصحيفة لقرائها بالجزائر. ونتيجة لهذا المنع تكيّفت أساليب وطرق المطالعة مع الظروف المحيطة بها من رقابة متعددة الأوجه واستفحال انتشار الأمية باللغتين العربية والفرنسية. فتحوّلت المطالعة من مطالعة فردية إلى مطالعة جماعية، وتحوّلت الأماكن الخلفية لدكاكين الحرفيين والتجار (لاسيما تجار الأقمشة في القيسارية بتلمسان) والنوادي الثقافية وبعض المقاهي، إلى فضاءات شبه نضالية، فتحول معها قارئ الجريدة إلى خطيب يحضى باحترام من حوله.

فتولّدت عن الحصار والمنع،روح التحدي التي كانت الرافد الأمين للروح الوطنية المناهضة للاستعمار.

وأخيرا ماذا عن الصحافة الصادرة باللغة العربية في مستعمرة الجزائر، هل كانت معروفة في البلدان العربية؟ نعم إذا أخذنا بمبدئ التبادل الذي ميّز بعض دور الصحف المشرقية ومثيلاتها في الجزائر كالشهاب والبصائر مثلا. يطلعنا الدليل العام للدوريات العربية المحفوظة بدار الكتاب بتونس[47] على وجود 45 عنوانا من عناوين الصحافة الصادرة في الجزائر ما بين 1915 و1954 عل اختلاف انتماءاتها واتجاهاتها ولغاتها. هذا دليل آخر على وجود حركة صحفية وفكرية بين المشرق والمغرب العربيين رغم جدار المراقبة المتماسك والمتصدّع في آن واحد. فمحاولات القطيعة بين الجزائريين وباقي البلدان العربية والإسلامية التي خططت لها إدارة الاستعمار حتى وإن نجحت إلى حدّ كبير إلا أنها لم تكن شاملة ولانهائية.

47 - وزارة الشؤون الثقافية (1985). الدليل العام للدوريات العربية المحفوظة بدار الكتب الوطنية، دائرة الدوريات التونسية، ص191، تونس.
- البيبليوغرافية القومية التونسية، الدوريات العربية 1975-1860، مصلحة التوثيق، تونس 1984-1975.

الملاحق

ملحق 1

جدول جامع لانتشار الصحافة المغاربية والمشرقية بالجزائر ما بين 1920 و1954
(حسب جرد جزئي في أرشيف ولاية÷ وهران – الجزائر– وما وراء البحر– فرنسا)

تاريخ الوثيقة المعتمدة (بالسنة)	عدد الصحف المرصودة	أماكن صدور الصحف		عدد العناوين المرصودة
1920	04	1	سورية	01
		2	مصر	02
		3	مكـة	01
1921	01	1	تونس	01
1924	01	1	المغرب	01
1929	02	1	مصر	02
1930	08	1	مصر	05
		2	سورية	01
		3	العراق	01
		4	تونس	01
1932	02	1	تونس	01
		2	مصر	01
1934	01	1	مصر	01
1936	11	1	مصر	06
		2	تونس	02
		3	مجهولة المصدر	03
1939	26	1	سورية	07
		2	المغرب	05
		3	مصر	04
		4	بيروت	03
		5	السعودية	02
		6	العراق	02
		7	تونس	02
		8	نيويورك	01
1947	06	1	تونس	06
1949	01	1	تونس	01
1950	01	1	تونس	01
1954	03	1	تونس	03
المجموع	67	10 أماكن		67

ملحق 2

جدول مفصل بعناوين الصحف والدوريات المغاربية والمشرقية المنتشرة في المستعمرة الجزائرية ما بين 1920 و1954

	تاريخ الوثيقة المعتمدة		عنوان الصحيفة	مكان صدورها	اتجاهها	تاريخ منعها أو مصادرتها	مناطق انتشارها
1	1920	1	الفلاح	مصر	جامعة	1930.2.20	1939 – قسنطينة جامعة سياسية (الشهاب)
		2	وادي النيل	مصر	سياسية	1920.5.03	حجزت
		3	سورية الجديدة	سورية	سياسية	1920.5.03	
		4	كليلة	مكة	سياسية	1920.8.31	
2	1921	1	العمران	تونس	علمية اقتصادية أخلاقية		1921 – تلمسان والمطمر (مستغانم) 1924 – أولاد ميمون (تلمسان)
3	1924	1	أخبار العالم	المغرب	سياسية		1924 – تلمسان، الحناية، ندرومة (ولاية تلمسان) ، مستغانم
4	1929	1	الفتح	مصر	سياسية إعلامية	1930.2.20	1929 – ثم 1934 تلمسان 1929 مغنية، 1931 مغنية، وهران (أرسلت إلى الشيخ السعيد الزاهري)، 1939 قسنطينة (الشهاب) حجزت.
		2	الشورة	مصر	جامعة سياسية	1930.2.20	1931 – تلمسان، قسنطينة (الشهاب).1933 وهران (الزاهري)، 1939 قسنطينة (الشهاب)
5	1930	1	الصباح	مصر	جامعة سياسية	تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		2	نور الإسلام	مصر	دينية تاريخية	تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		3	الإخاء	مصر	علمية تاريخية	تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		4	التقوى	مصر	أدبية إسلامية	تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		5	أقرأ وأفكّر	مصر		تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		6	الجامعة الإسلامية	سورية	إسلامية تاريخية	تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		7	الهداية	العراق	إسلامية جامعة	تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)
		8	Le (الهلال) Croissant	تونس		تحت الرقابة	1930 – قسنطينة (الشهاب)

6	1932	1	العالم الأدبي	تونس	علمية أدبية		1932- وهران (الزاهري)، عين تموشنت
		2	الجهاد	مصر	إسلامية		1936- الجزائر العاصمة (المكتبة المصرية)
7	1934	1	مجلة الإخوان المسلمين	مصر	إسلامية	تحت الرقابة	1934- الحناية (تلمسان) حجزت، 1936 الجزائر (المكتبة المصرية)
8	1936	1	الإسلام	مصر	دينية		1936- قسنطينة (الشهاب)، الخروب (قسنطينة). 1939- الجزائر (الكمتبة المصرية)
		2	كل شيء	مصر	جامعة		1936- بيع في أكشاك الصحف
		3	المصور	مصر	عامة		1936- بيع في أكشاك الصحف
		4	الفكاهة	مصر	هزلية		1936- بيع في أكشاك الصحف
		5	الأهرام	مصر	إعلامية جامعة		1936- بيع في أكشاك الصحف
		6	الرابطة العربية	مصر	إسلامية جامعة		1954- تيارت
		7	مجلة الزيتونة	تونس	أدبية دينية		
		8	الزمان	تونس	جامعة		
		9	البلاغ	تونس	مجهول		
		10	الرسالة	مجهول	مجهول		
		11	المقطم El Mokattam		مجهول		1919-1922؟
	1939	12	نشرة المكتب الوطني	سورية			الجزائر (البصائر)
		1	القبس	سورية			وهران (الزاهري)، الجزائر (البصائر) - قسنطينة (الشهاب)
		2	الأحداث	سورية			الجزائر (البصائر)
		3	الجزيرة	سورية			قسنطينة (الشهاب)
		4	مجلة الطليعة	سورية			
		5	لسان الأحرار	سورية			
		6	نشرة المكتب العربي حول أحداث فلسطين				
		7	الهداية	مصرية			قسنطينة (الشهاب)
		8	المكشوف	مصرية			قسنطينة (الشهاب)
		9	العرفان	مصرية			قسنطينة (الشهاب)
		10	المجلة المصرية	مصرية			قسنطينة (الشهاب)
		11	صوت الشعب	بيروت			الجزائر (الحزب الشيوعي الجزائري)

		12	الأمالي	بيروت			قسنطينة (عبد الله بوزيد)
		13	منارة الشرق	بيروت			قسنطينة (بوشمال)
		14	صوت الحجاز	السعودية			قسنطينة (الشهاب)
		15	أم القرى	السعودية			قسنطينة (الشهاب)
		16	الدفاع القومي	العراق			الجزائر (البصائر)
		17	السجل؟ Assadjal				قسنطينة (الشهاب)
		18	الوحدة المغربية	المغرب			قسنطينة (الشهاب)
		19	الحرية	المغرب			الجزائر (البصائر)
		20	السعادة	المغرب			الجزائر (البصائر)
		21	المغرب	المغرب			قسنطينة (الشهاب)
		22	Le Cri Marocain (صرخة المغرب)	المغرب			
		23	الإرادة	تونس	وطنية	1939.7.24	
		24	الهلال	تونس	انتقادية	1939.7.22	
		25	نشرة المكتب العربي الوطني، رابطة نيويورك	أمريكية	أدبية		قسنطينة (الشهاب)
9	1947	1	الأسبوع	تونس	جامعة		1947-وهران، تلمسان، مستغانم 1954- تلمسان، ندرومة، سيدي بلعباس، معسكر، تيارت، غليزان 1956- تلمسان، ندرومة، معسكر، تيارت، غليزان.
		2	الزهرة	تونس	مسائية أدبية		1947- مستغانم، وهران، تلمسان
		3	الزهو	تونس	فكاهية انتقادية		1947- مستغانم، وهران، تلمسان
		4	النهضة	تونس	سياسية خبرية		1954- تلمسان ، وهران، سيدي بلعباس، مستغانم، غليزان معسكر، تيارت
		5	البعث	تونس			1947- تلمسان
		6	الوزير	تونس			قسنطينة (الشهاب)
10	1949	1	تونس الفتاة	تونس	سياسي مغاربي		1949- تلمسان، معسكر
11	1950	1	إفريقيا الشمالية	تونس	وطني ثم اندماجي		
12	1954	1	الندوة	تونس	اندماجي		تيارت
		2	فنار تونس والجزائر	تونس			1954- الجزائر، غليزان، معسكر، تيارت، مستغانم
		3	صوت إفريقيا				1954- وهران، الجزائر

المراجع

1 - Archives de la Wilaya d'Oran, boites1422 , 4473, 4482, 6985.
2 - Bulletin du Comité de l'Afrique Française années 1929-1939.
3 - Bulletin Mensuel d'Information 1933-1940.
4 - Archives de la Wilaya d'Oran, Archives d'Outre Mer, France, boite 9h17, 9h 46.

5 - جريدة الشهاب (1929 - 1930).

6 - جريدة البصائر (1937 - 1939).

7 - Journal La Défense (1934-1939)

8 - وزارة الشؤون الثقافية التونسية (1985). الدليل العام للدوريات العربية. دار الكتب الوطنية، تونس.

9 - وزارة الشؤون الثقافية التونسية (1975). البيبليوغرافية القومية التونسية. الدوريات العربية 1975-1860، مصلحة التوثيق، تونس.

10 - سيف الاسلام، الزبير. تاريخ الصحافة في الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

11 - ناصر، محمد (1978). المقالة الصحفية الجزائرية : نشأتها، تطوّرها، أعلامها من 1903 إلى 1931. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

12 - Ageron, Charles-Robert (1962). Les Musulmans Algériens et la France1871-1919. t. 2.

13 - Albert, P. (1979). La presse. Que sais-je ?, éd. P.U.F, Paris.

14 - Archambault, F. et Lemoine, J. F. (1977). Histoire de la presse de 1945 à nos jours : Quatre milliards de journaux : La presse de province. éd. Alain Moreau, Paris

15 - Betty, T. et Henry R. (1973). La presse et l'information, éd. Fillipachi, Paris.

16 - El Korso, Malika (1984). La Guerre d'Algérie à travers cinq journaux catholiques métropolitains (1954-1958). thèse de troisième cycle, sous la direction du Pr. Ch. R. Ageron, école des hautes études,Paris

17 - El Korso, Mohammed (1988). Politique et religion en Algérie. L'Islah : ses structures et ses hommes : Le cas de l'Association des 'Ulama' Musulmans Algériens en Oranie 1931-1945. thèse unique, sous la direction du Pr. René Gallissot, Jussieu, Paris. (Cette thèse a été reconnue comme Thèse de Doctorat d'Etat en Sciences Politiques, Alger.)

18 - El Korso, Mohammed (1988). Structures islahistes et dynamique culturelle dans le mouvement national algérien 1931-1954. in collectif : Lettrés, intellectuels et militants en Algérie 1880-1950, éd. O.P.U, Alger.
19 - Faucher, J. A. et Jacquemart, N. (1968). Le quatrième pouvoir : la presse française de 1830 à 1960, Paris.
20 - Ihadaden, Z. (1983). Histoire de la presse indigène en Algérie des origines jusqu'en 1930. éd. E.N.A.L, Alger.
21 - Kayzer, J. (1963), Le quotidien français, in Cahier de la fondation Nationale des Sciences Politiques, Paris, A Colin, 170p.
22 - Merad, Ali (1967). Le Réformisme Musulman en Algérie de 1925 à 1940. Essai d'histoire religieuse et sociale, éd. Mouton, La Haye, Paris.
23 - Merad, Ali (1964). La formation de la presse musulmane algérienne 1919-1939. éd. I.B.L.A.
24 - Sauvy, Alfred (1971). L'opinion publique. Que sais-je ?, P.U.F, Paris.

قراءة لوثيقة محمَّد بن رَحَّال
حول المطالبة بالإصلاحات (1891)

أ.د. عبد الحميد حاجيات
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان–الجزائر

ملخص

تكمن أهمية الوثيقة التي أعرضها، في شخص معدّها محمد بن رحال، من جهة وفيما تضمنته من مطالب رفعها رفقة الحكيم محمد بن العربي أمام اللجنة الكولونيالية لمجلس الشيوخ الفرنسي في جويلية 1891 من جهة أخرى. تكتسي هذه الوثيقة شكل عريضة مطلبية تشمل مختلف مناحي الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية الاقتصادية والسياسية "للأهالي". من المنظور التاريخي، تعتبر هذه الوثيقة، في مضمونها وشكلها، بمثابة قطيعة مع المقاومة المسلحة وتأسّس للعمل السياسي المطلبي الذي ميّز العقود الخمس الأولى من القرن الماضي قبل اندلاع الثورة التحريرية.

الكلمات الدالة: عريضة مطالب، اللجنة الكولونيالية، مجلس الشيوخ، العمل السياسي.

الوثيقة التي أعرضها عبارة عن تقرير وجهه محمد بن رحَّال والحكيم محمد بن العربي جراء مساهمتهما في أعمال لجنةٍ عَيَّنها مجلس الأمّة للجمهوريّة الفرنسيّة، للنظر في أوضاع الأهالي بالقطر الجزائريّ، وما يقتضيه تحسينها من إصْلاحات، برئاسة جول فيري (Jules Ferry). وذلك في أوائل جويلية سنة 1891 م/ ربيع الأوّل 1309 هـ. طبعت هذه الوثيقة في المطبعة العمومية بتونس.

ويلاحظ أنّ محمّد بن رَحَّال كان قد بلغ سِنُّهُ حوالي ثلاثٍ وثلاثين سَنَة. وكان ينتمي إلى فِـئَةِ الوُجَهـاء، حيثُ إنّ أباه كان يَشْغَـلُ وظيفة قائِد في ناحية ندرومة. وكان محمد بن رحّال من قلائِلِ الأبْـناء الذين أسعدهم الحظُّ بقبولهم في المدرسة الابتدائيّة، ثمّ الثّانويّة. وقيلَ إنه كانَ أوَّلَ جزائريّ نال شهادة الباكلوريا، سنة 1874، وحَظِيَ بالتعليم باللغَتَيْن، العربيّة والفرنسيّة. ثمّ عُيِّنَ، سنة 1876، خليفة الآغَا. وفي سنة 1878، عُيِّنَ في وظيفة قائد بندرومة، إثر استقالة أبيه عنها.

وفي تلك السنة سافر إلى باريس حيث زار المَعْرَض العالمي، رُفقةَ عددٍ من كِبَـار الموظَّفين المسلمين، ويبدو أنّ معرفته للغة الفرنسيّة سمحت له بالالتحاق بذلك الوفد بصفة ترجمان. والظّاهر أنّه تأثّر كثيرًا بما شَـاهده في ذلك المعرض من

مظاهر التّقدُّم في العلوم والإنجازات العُمْرانيّة، وأنّه أدركَ مَدَى تخَلُّفِ بلاده، نتيجةَ ما أصابها مِنْ جُمودٍ في أواخِرِ العهد العُثْمانِيّ، ومن أضْرارِ أيَّامَ الاحتلال الفرنسيّ، وما اقترفه مِنْ تقتيل وتخريبٍ أثناء مقاومة الأمير عبد القادر والمقراني وبو عمامة وغيرهم.

وعاد إلى بلاده وكُلُّهُ عَزْمٌ على خِدْمَتِها، والمساهمة في تطويرها، وفي تحسين أحوال أهاليها. غَيْرَ أنّ وظيفته في البادية لم تَسْمَحْ له بالتّحَرُّكِ في مختلف الأنحاء والاتصالِ بالأشخاص الذين يَهُمُّهم الأمر، فاستَقال سنة 1884 من منصب القيادة واستعادَ بذلك حُرِّيَّته. فاقتصرت أعماله على بَذْلِ الجُهُودِ الرّامية إلى تحقيق العدالة والأمْن وانتشارِ التّعْليم في البلاد.

وتُعْتَبَرُ اسْتِقالةُ محمد بن رَحَّالَ مِنْ مَنْصِبِ القِيادة بدايَةَ مرحلةٍ جديدة في حياته، تَتَّسِمُ بطابَعِ النّضْجِ السِّيَاسيّ، رَغْمَ صِغَرِ سِنِّهِ الذي كان لا يتجاوزُ سِتَّ وعِشْرين سنَة، وتَحَوُّل إلى الكِفَاح من أجلِ خِدْمَةِ الشَّعْبِ الجزائريّ بكلّ الوسائل المُتاحَة، فقامَ بنشر بعض المقالات في هذا الاتِّجاه. وفي سنة 1891، سافر إلى باريس لعَرْض المطالب بالإصْلاحات، رفقة الحكيم محمد ابن العربي، على لجنة مجلس الأمّة الفرنسيّ، لتدرُسَها، وتقترح على الحكومة الفرنسيّة ما تُوافق على تَلْبِيَتِهِ من المَطالب. ونَصُّ الوثيقة، الذي نحن بصدد تَحْلِيل بعض مُحْتَواهُ، يشتمل على ما أدْلَى به محمّد بن رَحَّال ورفيقه مِنْ آراءٍ واقتراحاتٍ مِنْ أجْل تَحْسين أوضاع الأهالي بالجزائر.

وأوّل مِحْوَرٍ تناوَلَتْه الوثيقة يُخُصُّ قضيَّة تَعْميم التّعْليم، وتسهيل إيصاله إلى الأهالِي "ولو بتجَوُّلِ المُعَلِّمين والمُدَرِّسين أثناءَ القَبائل والعُروش"، مع التحذير من جَعْلِ التعليم إجْباريًّا "لِما في ذلك مِن تَكْدِير خواطِر أولياء التلامذة". ويُضِيفُ نَصُّ الوثيقة أنَّ إحْجامَ الأهالي عن إرْسَالِ أبنائهم إلى المدارس التي تُؤَسِّسُهَا السّلطة الفرنسيّة لا يَنْبَغي أنْ يُنْسَبَ إلى تَعَاليم الدِّيَانَةِ الإسْلامِيَّة، بل الإسلام يَحُثُّ النَّاسَ على طَلَب الْعِلْمَ، فمِمَّا وَرَدَ في الحديث النّبَويّ قوله: "اطْلُب العِلْمَ ولَوْ بالصِّين"، وقوله: "كُلُّ لِسانٍ بإنْسان".

ويبدو أنّ الإشَارة إلى إمْكانِيَّةِ إحْجَام الأهالي عن إرْسالِ أبْنائِهِمْ إلى المَدارس الفرنسيّة، في حالة إلزام التّعْليم، تَنِمُّ عن إدْراكِ محمّد بن رَحَّال لما كان يُكِنُّهُ الأهالِي مِنْ كُرْهٍ للسُّلْطَةِ الاستعماريّة. ولِذا فإنَّهُ يَقْتَرِحُ أن يكون إقْناعُ الأهالِي "بإقامةِ هَيْئَاتٍ (أيْ لجانٍ) غَالِبُ أعْضائِها من الأهالِي". وهذا يعني أنّ الاتِّصال بالأهَالي يُسْتَحْسَنُ أن يكون على يَدِ أعْضَاءٍ من مُجْتَمَعِهم، يستعمِلون أسلوبَ الإقْناع ولا يَلْجَئُونَ إلى القوّة. وينتهي نَصُّ الوثيقة حول تعميم التعليم بقول محمّد بن رحّال ورفيقه: " وأمَّا جَبْرُ الدَّوْلَة على ذلك فمن المَساعِي المُخْطِرَة التي لا تُجْدِي نَفْعًا".

والذي يُثيرُ الانْتِبَـاهَ أنَّ محمّد بن رَحَّال يُولِي اهْـتِمامًا كبيرًا للتعليم، فهو يَعْتَبِرُهُ عُنْصُرًا هامًّا من وسائل تحْسين أحوال الأهالِي. ومِمَّا وَرَدَ فِي نَصِّ الوثيقة فِي هذا الشَّأْن: "ورأى السَّيِّدُ محمّد بن رحّـال أنّه لا بُدَّ من التَّرَقِّي في المعارِفِ إلى دَرَجَةٍ سامِيَةٍ". ويَرَى فيما يَخُصُّ التعليم في المرحلة الابتدائيّة، "إضافة تعليم الصَّنائع والحِرَف". وفي شأن مكانة الموادِّ العربيّة، فإنّه يقترح إحْلالَها مكانة مرموقة لجَذْب اهْـتِمام التّلامِذة، وذلك بقوله: "ومن البَـاعث على تحريك الْهِمَمَ للتَّعَلُّم الاعْتِـنـاءُ بتعليم العربيّة وأصول الفقه لأبْـناء الأهالِي، حيثُ كانوا على عِلْم مِنْ أنَّ مَنْ أَنْكَرَ لُغته أَنْكر مِلَّتَهُ".

فهذه الآراء، إنْ دَلَّتْ على شيءٍ، فإنّما تَدُلُّ على تَمَسُّـكِ محمَّد ابن رَحَّال بانْتِمائِهِ الحَضَاريّ، وتَخلُّقِه بقِيَمَ الإسْلام السَّامِيَة، ومَبـادِئِهِ الاعْتِقادِيَّة والأخْلاقِيَّة، وثقـافته الأدبيَّةِ والفَـنِّيَّة، وأُصُوله التَّشْرِيعِيَّة، ولا يرى مانِعـًا من اكتِساب فنون حَضارة الأجانب والاستفادةِ من تعلُّمِها. وهو يقترح تشجيعَ مَنْ أَبْدَى مَوْهِبَةً في هذه العلوم ونَبَغَ فيها، فيقول: "ومَنْ كانت فيه قابِـلِيَّةُ التَّرَقِّي للفنون من الأهالي، يُنَشَّطُ بإدْراجِهِ من ضِمْن المُقِيمِين (أي الدَّاخِلِيِّين) على نَفَقَة الحُكومَة، ومن التنشيط تَوْظِيفُ النَّجِيبِ من التّلامِذة حتى لا يَنْحازَ إلى الفَلْتاء بالبطالة، وتَسُوءُ أخْلاقُهُ".

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الآراء والاقتراحاتِ تهدف إلى معالجة جانب هامٍّ من جوانب تكوين المُواطِنِ الصَّالح مَعْرفِيًّا وثقافِيًّا وأخْلاقِيًّا، وجعله قادِرًا على القِيام بدوره في المجتمع على أحسن وجه. ويبدو من خِلال نَصِّ هذه الوثيقة أنّ المجتمع الجزائريّ كان يشكو من تدهور أحوال الأهالي في هذا المجال. كما يبدو مِنْ مُحْتَوَى بَـاقِي نصِّ الوثيقَـة أنّ أحوال الأهَـالِي كانت سَيِّـئَةً جِدًّا في سائر المجالات، نتيجة سياسة الاستيلاء على الأراضِي التي انْتَهَبَها الفرنسيّون، وتخريب العديد من المؤسَّسَـاتِ التّعْلِيمِيَّة مِنْ كَتَـاتيب ومدارس ومساجد، وانعدام أيِّ قرارٍ جِدِّيٍّ يَهْدِفُ إلى تنفيذِ سيَـاسةٍ تُساعِدُ الأهالِي على استرْجَـاع ما أُخِذَ منهم ظُلْمًا، وتُمكِّنُهم من مُمارسة مِهْنة، ونَيْل حَظٍّ من العلم يَسْمَحُ لَهم بالاطِّلاع على ما ينبغي عليهم معرفتُهُ في مجال الصِّحَّة والحِرَف والتّجارة والقضاء، من أجل إبْعاد شَبَح البطالة والفقر والأوْبِئَة وسائر مظاهر التّخَلّف.

والظّاهر أنّ تدهور أحوال الأهالي بَدَأَ منذ الاحتلال الفرنسيّ للجزائر، ولم يزل يتفاقم دون أنْ تَجِدَ له السّلطة الاستعماريّة حُلولاً ناجعة. فكانت الآراءُ تتأرْجَح بين سياسةٍ استيطَـانيّة تهدف إلى إبْعادِ أهالي الأراضي الشماليّة الخَصْبَة، وتَهْجِيـر أهَـاليها نحو الأراضي الجنوبيّة الجَدْبَةِ والصّحراء، وسياسةٍ اندماجيّةٍ تَرْمِي إلَى إدْمَـاج الأهَـالي في مجتمع المُعَمِّرين، وتَدْعُـو إلى تعميم التعليم في

المدارس الفرنسيّة، عن طريق إلزام الأَهَالي ببَعْثِ أولادِهِمْ إلى المدارس التي تؤسِّسُها السّلطة الحاكمة.

ويبدو أنّ أغْلبَ المُعَمِّرين كانوا يَسْتَبْعِدُون أيَّ حَلٍّ يمنَعُهم من التّوَسُّع على حساب الأهالي، ويَرَوْنَ أنَّ إلزامَ التّعليم يتطلّب إنفاقَ أموالٍ ضَخْمَةً لبناء المدارس وتجهيزها في المُدُن والقُرى والأرْيَاف، وأنَّ تكوينَ الأهالي العلميّ قد يفتح لهم باب الحصول على الوَظائف وطلب المُساواة في الحقوق، ممّا يُهَدِّد مَصالِحهم. وقد تَفَطَّن محمّد ابن رَحّال إلى خَطر تلك الآراء المُغْرِضَة، فأجَابَ على ما قد تُحْدِثُهُ هذه الظُّنون من تَرَدُّدٍ وتقاعُدٍ. فجاء في نَصِّ الوثيقة أنّ تنفيذ تعميم التعليم يكون "بمدارس مُحْتَشَمَة، لا بسَرَايَاتٍ وقصورٍ شَامِخَة... وقد غلط مَنْ توهَّم أنَّ مَنْ بَرَعَ في الفنون العلميَّة يَنْقلِبُ عدوًّا لفَرنسا، غير أنَّه يَتفَطَّنُ بمَعَارفه إلى المَظالم والدَّسَائس ومُعَاكَسَةِ مُرتَكِبيهَا، وذلك معنى التّقَدُّم والمُواصلة بين العناصرَ والاقتداء، وفي نجابة أبناء الأهالي، وتمدُّنِهم فخرٌ لدولة الجمهوريّة، خُصوصًا إذا أحرَزُوا الشهادات الكاملة، وفي ذلك وَفاءٌ بالذَّوْق السِّياسِيّ وحُسْن مُوالاةٍ بين الحكومة والأهالي". وينتهي الحديث حول هذا المحْوَر بالإشارة إلى قَبول اللَّجْنَة.

ويَلِي ذلك طَلَبُ إصْلاح القَضَاءِ بعد صُدور أَمْرٍ يُكَلِّفُ المَحاكِمَ الفَرَنْسِيَّة البَتَّ في قضايا المُسْلِمين منذَ سنة 1866 م، فيُعَبِّرُ عن استياء الأهالي "لا لِكَوْنِ المَحاكِمَ الفَرَنْسَوِيَّة غير مُنْصِفَة أوْ غير مُنْتَظِمَة بَلْ لِطُولِ آمادِها ووفْرَةِ مَصاريفِها، وذلك أنَّهُ بَلَغَ من أمْرِ طالِبِي النَّزْرِ اليَسير من الحُقوق أنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَقْدِروا على رَفْعِ مَطالِبِهِمْ لَدَى مَحْكَمَة القاضي سَريعَةِ الانْفِصال قَلِيلَة الأكْلاف والمصاريف التَجَئُوا إلَى اسْتِخْلاص حُقُوقِهِمْ بأيْدِيهِمْ بالضَّرْب والمُطارَدَةِ تَخَلُّصًا من الوُقوع في الأكْلاف والانْتِظار، وأيْضًا ففي تَقْديم عُدُول الْفَرَنْسَوِيِّين على تَركاتِ المُسْلِمين مَصاريفُ تَسْتَغْرِقُ جُلَّ التَّرِكَةِ وأحْيانًا جَميعَها، زيادَةً على ما في ذلك التَّداخُل من هَتْكِ حُرْمَةِ الأحْكام الشَّرْعِيَّة الدِّينِيَّة التي الْتَزَمَتْ فَرَنْسَا باحْترامِها بمُعاهَدَةِ عام 1830، فالقُرْآنُ العَظِيم هو شَريعَةٌ دِينِيَّةٌ مَدَنِيَّةٌ، وفي اخْتلاف اللُّغات والطِّباع ما يَحْمِلُ على الظَّنِّ بأنَّ الحاكِمَ الْفَرَنْسَوِيّ المُكَلَّف بالأقْضِيَة إذا كان حَديثَ السِّنِّ هو في قُطْر الجزائِرِ بمَنْزِلَةِ القاضي المُسْلِم إذا كان كُلِّفَ بالقَضَاء في الجهات الشَّماليَّة من فَرَنْسَا، فَلا يَأْتِي إلاَّ بالعَبَث لجَهْلِهِ أخْلاقَ القَوْم وطِباعَهُمْ. وما قِيلَ من أنَّ قُضَاةَ المُسْلِمينَ لا يَفْتَرُونَ عَنْ الارْتِشاء فَمَرْدُودٌ بأنَّ الرَّشْوَةَ لَمْ تَنْقَطِعْ مع الجوج (القاضي) الفرنسويّ، إنْ لَمْ تَكُنْ له فلأعْوانِه... فالمَسْؤُولِيَّةُ في ذلك على فَرْض الارْتِشاء إنَّما تَعُودُ على مَنْ امْتَحَنَهُمْ ورَآهُمْ أهْلاً، وعَيَّنَهُمْ إلَى مَنْصِب القَضَاء. والسَّبَبُ في عَدَم وُجُودِ ذَوِي الكَفاءَة والأهْلِيَّة والعِفَّة من المُتَرَشِّحِينَ للْقَضَاء هُوَ فَقْدُ المَدارِسِ التي تُزاوَلُ فيها الأحْكامُ وعُلُومُ القَضاء،

كما أنَّ السَّبَبَ فيما يَعْرِضُ من الارْتِشاءِ هو قِلَّةُ الْمُرَتَّبَاتِ وعَدَمُ كِفايَتِها للقِيام بِمُقْتَضَياتِ الخُطَّة الشّرْعِيَّة، ولِذلك أجْمَعُوا على طَلَبِ الرُّجُوعِ إلى الْعَمَل بالأمْرِ الصَّادِرِ في عام 1866، الذي حَرَّرَ لائِحَتَهُ لَجْنَةٌ مُشَكَّلَةٌ من نُوَّابِ أوْطانِ الجزائِرِ الثَّلاثَةِ من الأهالِي والإفْرَنْج كما طَلَبَ ذلك وَكِيلُ الْجُمْهُورِيَّةِ الْعامِّ بالْجزائِر... ولِذلك يَلْزَمُ أنْ تُرْفَعَ دَرَجَةُ التَّعْلِيمِ بالْمدارس الْعَرَبِيَّة، وأنْ تُدْمَجَ فيه الآدابُ العربيَّة التي انْطَوَتْ اليَوْمَ في زَوايا الإهْمال، فكان لِهَذه الْمَلْحُوظاتِ تَأْثِيرٌ حَسَنٌ في أنْفُسِ الحاضِرين".

ثُمَّ يُواصِلُ النَّائِبانِ عَرْضَهُما أمام لجنة مجلس الأمّة الفرنسيّ مركزين على كثرة الضَّرائِبِ المسلطة على الهالي، "وطَلَبَهُمْ تَخْفِيفَ أعْبائِها، وتَنْظِيمَ هَيْئَةٍ تُراقِبُ أعْمالَ الْمُوَزِّعِينَ لِمالِ الْجِبايَة، لِما في سُلُوكِهِمْ من الحَيْفِ والاعْتِسافِ، وإعانة الفقراء والْمساكِين، لا مِنْ مِيزانِيَّةِ الْحُكومَةِ الْخاصَّة، بَلْ من رَيْعِ الأوْقافِ التي حَبَّسَها ذَوُو الْمَعْرُوفِ على عَهْدِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة، وهي أوْقافٌ كانت قِيمَتُها تَبْلُغُ الأرْبَعِين مَلْيُونًا من الفْرَنْكات لِجَمِيعِ الْقُطْرِ تُصْرَفُ في مُرَتَّباتِ الْعُلَماءِ أهْلِ مَجالِس ... فاسْتَحْوَذَت الْحُكومَةُ على ذَلك الْمَبْلَغ، وأخْرَجَتْهُ عَمَّا أُعِدَّ له، فأصْبَحَتْ إدارَةُ الإعانَةِ على ما يَسُوءُ من الإهْمال والخَلَل. وقد نَصَّ الواقِفُ في تَحْبِيسِهِ على أنْ يَكُونَ طَبِيبُ الْمَصْلَحَةِ من الْمُسْلِمِينَ، ولكِنْ حالَ دُونَ الْوَفاءِ بِذلك غَرَضُ الْحُكومَةِ الْمَحَلِّيَّةِ فإنَّها عَيَّنَتْ لِلمَصْلَحَةِ الْمَنْوَّهِ عنها طَبِيبًا من الْمالطِيِّينَ، وإنْ كانَ الأنْسَبُ والأصْلَحُ أنْ يُعالِجَ كُلُّ طَبِيبٍ بَنِي جِلْدَتِه، وعَدَلَتْ عن اسْتِخْدامِ أحَدِ حُكَماءِ العرب مَجَّانًا، فوافَقَ أعْضاءُ اللَّجْنَةِ على هذه الْمَلْحُوظات وساعَدُوا عليها.

ثُـمَّ يُشِيرُ النَّائِبانِ مُحَمَّد بن رَحَّال والطَّبِيب مُحَمَّد ابن الْعَرْبِيّ إلى جَوانِبَ أُخْرَى من الاضْطِهادِ الفرنسيّ بالجزائِر، منها القانونُ الْمُخَصَّصُ بالأهالِي ولا تشمل أحْكامُهُ سِواهُمْ " ومَحْصُولُهُ تَفْوِيضُ الأمور إلى وُكَلاءِ الْحُكومة في الْجِهاتِ الْمَنُوطَةِ إدارَتُها بِعُهْدَتِهِمْ في مُعاقَبَةِ الأهالِي ورَدْعِهِمْ بِما شاءُوا من أنْواعِ الْعُقوباتِ كُلَّما ظَهَرَ لَهُمْ ذلك لازِمًا لِراحَةِ الْبِلادِ بِدُونِ مُعَقِّب ولا سائِلٍ لَهُمْ حَتَّى نَشَأ عن ذلك شَطَطٌ ضَجِرَ لَهُ الأهالِي، فَطَلَبَ النَّائِبانِ من اللجْنَةِ إبْطالَ هذا القانونِ وتَخْفِيفَ وَطْأتِه بِإضافَةِ بُنُودٍ تَمْنَعُ الْمَظالِمَ، وتَجاوُزَ الْحُدُودِ التي هِيَ نَتِيجَةُ إطْلاقِ الْحُكْمِ، فهذه الْحالَةُ الْحَرِجَةُ أصْبَحَتْ كالسَّيْفِ الْمُعَلَّقِ بِشَعَرَةٍ فوق رُؤُوسِ الأهالِي، وأصْبَحَتْ مُوجِبًا للنُّفُورِ والشِّقاقِ وابْتِعادِ ابْنِ البَلَدِ من الْفَرَنْسَوِيِّ.

ويَلِي ذلك حَدِيثٌ عن الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّة، وَرَدَ فيه طَلَبُ اعْتِبارِها اخْتِيارِيَّةً لا جَبْرِيَّةً، وذكر، في مَسْأَلَةِ التَّجَنُّس بالْجِنْسِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّة "أنَّ حُرِّيَّةَ التَّجَنُّس لا تُلائِمُ أُصولَ الشَّرِيعَةِ الإسْلامِيَّة"، ويَتْبَعُها قَضايا مُساهَمَةِ الأهالِي في الانْتِخاباتِ الْعُمُومِيَّة، في الإدارَةِ الْبَلَدِيَّة ومَجالِسِ الشُّورَى العُمومِيَّة والْمَجْلِسِ الأعْلَى ومَجْلِسِ الشُّيُوخِ والْمَجْلِسِ الْجِنائِيّ، ويَتَحَدَّثُ عن الرِّبا قائِلا: "عَمَّ الرِّبا سائِرَ جِهاتِ الْقُطْر، فَهَلَك

الفهرس

الْبِلاَد والْعِباد "ومُقْتَرحًا" إقامَةَ بَنْك عَقاريٍّ يَقْتَرِضُ منه عُمُومُ الْفَلاَّحِين من الأَهالي والإفْرَنْج بفائِض قَليل يَتَرَكَّبُ مَجْلِسُ إدارَتِهِ من أَهالِي وإفْرَنْج، وتَمْتَدُّ فُروعُهُ إلَى سائِرِ مَراكِزِ الْبِلاد حَتَّى لا يَضْطَرّ الْفَلاَّحُ إلَى الرُّكُونِ إلَى المرابِينَ من الْيَهُودِ، فَيَبيعُونَ أَمْلاَكَهُمْ بأَقَلِّ ثَمن".

وتَنْتَهي هذه الْوَثيقَةُ بالإشارَةِ إلَى قَوْلِ رَئيس اللَّجْنَةِ جول فيري، في نِهايَةِ اجْتِماع الْمَجْلِس: " إنَّ اللَّجْنَةَ لَمُبْتَهِجَةٌ كُلَّ الابْتِهاج بِما صَرَّحَ به الْخَطِيبانِ الْمُتَكَلِّمانِ منَ الْمَقاصِدِ النَّبِيلَة، وهِيَ تَشْكُرُهُما على الشَّواهِدِ التي أَقاماها على مُوالاتِهما لِفَرَنْسَا، وتَعَلُّقِهما بأَذْيالِها، وتُؤَكِّدُ لَهُما بأَنَّها تَنْظُرُ في مَطالِبِهما بغايَةِ الاعْتِناءِ ومَزيدِ الرَّغْبَةِ في الْوَفاءِ بِما اشْتَمَلَتْ عليه من الْحُقوق، وحَرَّرَتْ اللَجْنَةُ في هذه الْمَطالِب تَقْريرًا أَمْضَاهُ الْمَسْيُو جول فيري".

ويُستنتج من هذه الآراء والمواقف أنّ السّلطة الفرنسيّة لم تلتَزِمْ بتنفيذ سياسةٍ واضحةِ المَعَالم، وإنّما كانت تتّخذ القرارات دون التّأكُّد من صَلاحِيَّتِهَا بالنسبة للمجتمع الجَزائريّ، وكثيرًا ما كانت لمصلحة المُعَمِّرين، أو كانت لا تَحْظَى بالعناية المطلوبة لنجاح تنفيذها. ومن ذلك مثلاً قرارُ تَأْسِيس مَدارِسَ عُليَا بالقُطْر الجزائريّ لتَكْوِين القُضاةِ والمُدَرِّسِينَ، في سنة 1850، فإنّه لم يَحْظَ بالرِّعايَة المَرْجُوَّة، حيثُ إنَّ تسييرَهَا كان على يَدِ ضُبَّاطِ الجيش الفَرَنْسِيّ، ولم يَتَحَسَّنْ تسييرُها إلاّ في أواخر القرن التّاسع عشر، أي سَنَوَات قليلة بعد مُساهَمَةِ محمّد ابن رَحّال ورفيقه الحكيم ابن العربي في عَرْضِ المَطالب بالإصلاحات أمامَ لَجْنَةِ مجلس الأمّة الفرنسيّ. فتَمَّ تنظيمُ المدارس العُلْيَا الثلاث بمُدُنِ تلمسان والجزائر وقسنطينة، وتزويدُها بأساتذة أكفاء ومَكْتَبات، في سنة 1895 .

ويُمْكِنُ القولُ بأنّ مُهِمَّة محمد ابن رَحّال والحكيم ابن العربيّ كان لها تأثيرٌ هامٌّ في هذا المجال، وأنّ هذه المدارس كان لها دورٌ أَسَاسِيّ في تكوين إطارات مُزْدَوجَة اللغة، وأنّ هذه الإطارات قامت بدَوْرٍ لا يُسْتَهانُ به في النّهضة الفكريَّة والثّقافيّة بالجزائر، خلال القرن العشرين، وفي حركة المقاومة الوطنيّة.

ويُسْتَنْتَجُ أيضًا من هذه الوثيقة أنّها تُعَبِّرُ عن أسلوبٍ جَدِيدٍ في العلاقات بين مُمَثِّلِي الشعب الجزائريّ والسلطة الفرنسيّة. وذلك يكْمُنُ في الانتقال من المُقاومة بالسلاح، التي قادها الأمير عبد القَادر والمُقْرَاني وبوعمامة وغَيْرُهم، إلى مقاومةٍ سِلْمِيَّة تَرْتَكِزُ على الحِوَار، وتهدف إلى المُطالبة بالحقوق والإصلاحات، مع التّمَسُّك بالانتِمَاء إلى الحضارة العَربيّة، والتَّحَلِّي بالقِيَم الأخلاقيّة الإسلاميّة، فهي تُشَكِّلُ مرحلةَ التّمْهِيدِ للانتقال إلى مَرْحَلة الحَرَكة الوطنيّة والمُطالَبَة بالحُرِّيَّة والاستقلال.

هذا، ويُلاحَظُ أَنّ هذه الوثيقة تناولت قضايا أخرى كانت تتطلَّب إصلاحاتٍ هامَّة، مثل نظام الضّرائب، ونَزْعِ المِلْكِيَّة للمصلحة العامّة. وفي كلّ هذه المحاور

التَزَمَ محمّد ابن رَحّال ورفيقُه نَفْسَ الموقف الذي اتّخذاهُ في مِحْوَر تعْمِيم التعليم، والذي يتَّسِمُ بطابع المُقاوَمَة الحِواريَّة، والمطالبة بالمساواة، مع التّمسّك بالهُويَّة الإسْلامِيّة وما تتّسِم به من قِيَـم أخلاقيّة ومبادئ دينيّة. غير أنّ عَرْضَها لَمْ يَحْظَ بعِنايَة السّلطة الاستعماريّة، رغمً ما نالَ من قبولٍ مَبْدَئِيّ، مِمّا أدّى إلى هجرة العديد من الأهالي إلى أقطارٍ إسلاميّة أخرى، وإلى نشأة حركات تطالب بتحقيق ما كان يَصْبو إليه الشعبُ من الإصلاحات، وتَدْعُو بعد رَفْضِها إلى الاسْتِقْلال.

الملحق (1) : صفحات من الوثيقة التاريخية موضوع هذا البحث

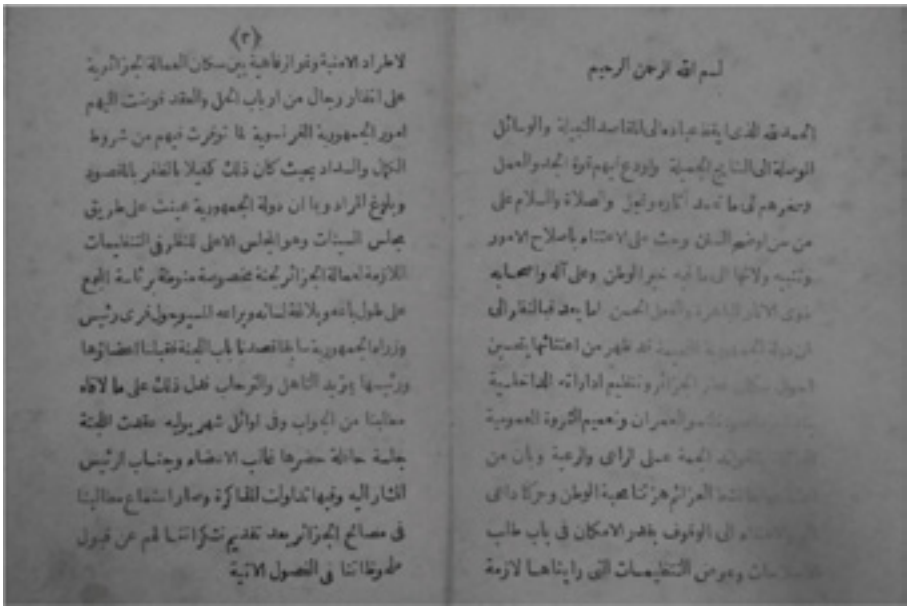

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يقد عباده الى المقاصد النبيلة والوسائل الموصلة الى النتايج الجميلة واودع فيهم قوة الجد والعمل وسخرهم في ما تعمد آثاره وتحول والصلاة والسلام على من من اوضح السنن وحث على الاعتناء باصلاح الامور وتنبيه ولانها الى ما فيه خير الوطن وعلى آله واصحابه

(٢)

لاطراد الامنية وفراغها بين سكان العمالة الجزائرية على اختيار رجال من ارباب الحل والعقد فوضت اليهم امور الجمهورية الفرنسوية لما توفرت فيهم من شروط الكمال والسداد بحيث كان ذلك كفيلا باختيار المقصود وبلوغ المراد وبا ان دولة الجمهورية عينت على طريق مجلس النيابات وهو المجلس الاعلى للنظر في التعليمات اللازمة لعمالة الجزائر لجنة مخصوصة منوطة برئاسة الوجيه على طول باشه وبلاطة لسانه ووزراه السيو وكل فرى رئيس وزراء الجمهورية ساعة قصدنا باب اللجنة تقبلنا اعضاؤها ورئيسها وبعد التاهل والترحاب فعل ذلك على ما لاقاه معالينا من الارباب وفي اوائل شهر يوليه عقدت اللجنة جلسة حافلة حضرها غالب الاعضاء وجناب الرئيس اشار اليه وفيها تداولت المذاكرة وصار استماع معالينا في مصالح الجزائر بعد تقديم تشكراتنا لهم عن قبول عروضاتنا في الفصول الاتية

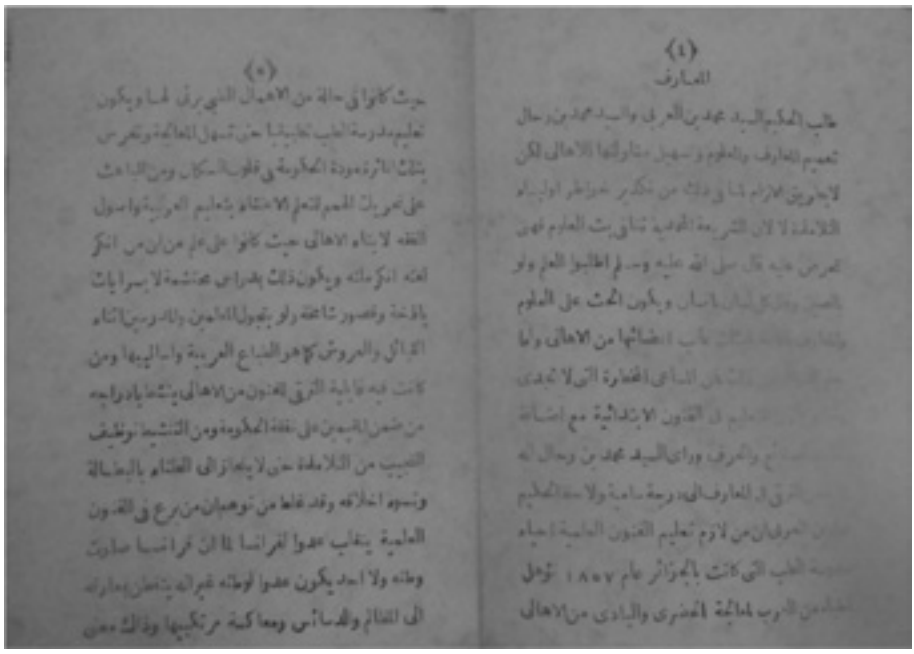

المعارف

طلب الحكيم السيد محمد بن العربي والسيد محمد بن رحال تعميم المعارف والعلوم وتسهيل مناولتها للاهالي لكن لاجل هذا الالزام لما في ذلك من تكثير خواطر اولياء التلامذة لان الشريعة المحمدية تنافي بث العلوم فهي تحرض عليه كل سبل الله عليه وسلم اطلبوا العلم ولو بالصين وان كل انسان يكون الحث على العلوم

ورأى السيد محمد بن رحال انه

العارف الى درجة سامية ولا سبيل لتعليم

المعروفان من لازم تعليم الفنون العلمية احياء

الطب التي كانت بالجزائر عام ١٨٠٧ توصل

الاطباء من الاوروبيين لمعالجة الحضري والبادي من الاهالي

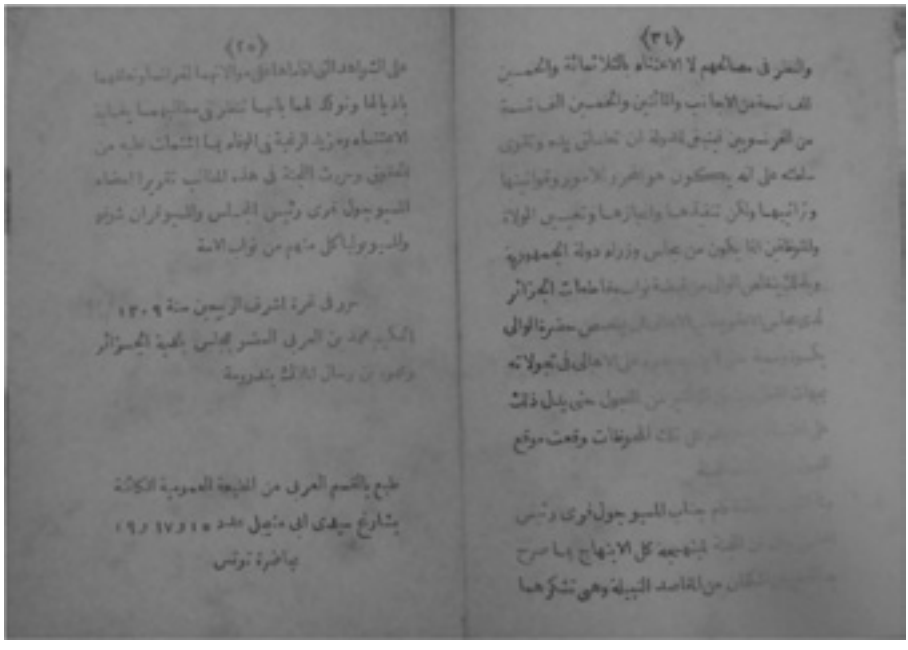

والتفرق في معالمهم لا الاعتناء بالثلاثمائة والخمسين

الف نسمة من الاجانب والاثنين والخمسين الف نسمة

من الفرنسويين فيحق للدولة ان تحافظ بذه وتكون

سلطته على انه يحكمون هو الحرر الامور وقوانينها

وترتيبها ولكن تنفيذها وابرازها وتعيين الولاة

والقوقاد انما يكون من مجلس وزراء دولة الجمهورية

وبخلاف ينقض الوالي من رئاسة ولاية الجزائر

لدى مجلس الوزراء ان يتصل حضرة الوالي

بكتب الى الاهالي في تحولاته

الى ان يصل حتى يدل ذلك

على الشواهد التي اشاروا على موالاتها الفرنساويين

بادائها ونوكل لها باتها تفرق معاليهما بغاية

الاعتناء ويزيد الرغبة في الوفاء بها التعاب عليه من

التحقيق وبرئت الذمة في هذا المطلب تقريرا بمضمنه

السيو جول فيري رئيس المجلس والسيو فران شوزو

والسيو ريبا كل منهم من نواب الامة

حرر في غرة الشرف الزيمين سنة ١٣٠٩

الحكيم محمد بن العربي المشير بمجلس بلدية الجزائر

والمحرر بن رحال الكاتب بدورته

طبع بالقسم العربي من المطبعة العمومية الكائنة

بشارع سيدي ابي منديل عدد ١٥ و ١٧ و ١٩

بمدينة تونس

علاقة بني عبد الواد (بنو زيان، تلمسان) ببني مرين (المغرب) بين القرن 7 – 10هـ/13 – 16م

د. لطيفة بشاري بن عميرة
جامعة الجزائر2

ملخص

بعد سقوط الدّولة الموحدية، استقرّ بنو عبد الواد (الزيانيون) في تلمسان والمناطق المحيطة بها، وأسسوا إمارة حكمت المغرب الأوسط حوالي ثلاثة قرون. وكان الأمير يغمراسن، مؤسس الدّولة، بعد فشله في حرب المرينيين، قد أوصى ابنه أبا سعيد عثمان بمسالمتهم. لكن هؤلاء، شنّوا هجمات متكرّرة على المغرب الأوسط، وحاصروا العاصمة تلمسان، واحتلوها أكثر من مرّة.

وأمام إصرار الزّيانيين على صدّهم، وبداية ضعف دولتهم غيّر المرنيون سياستهم، واختاروا تلك التي تجنبهم كثرة التكاليف، وتمكنهم من التحكم في مصير الإمارة، فأجّجوا الفتن بين أفراد الأسرة الحاكمة. وأصبح المرينيون يولون من شاؤوا ويعزلون من شاؤوا، فدبّ الضعف في جميع دواليب الدّولة الزيانية ولم يستطع رجالها ردّ هجمات الإسبان ثمّ الأتراك، وانهارت الإمارة.

الكلمات الدالة: بنو عبد الواد، بنو مرين، الفتن، الإسبان، الأتراك.

مقدمة

إثر سقوط دولة الموحّدين، تقاسمت بلاد المغرب ثلاث إمارات، الإمارة الحفصية في إفريقية، والمرينية في المغرب الأقصى، والعبد الوادية في المغرب الأوسط. ولمّا تولّى الأمير يغمراسن بن زيان السلطة في تلمسان سنة 633هـ[1] (1236-1235م). أعلن في البداية ولاءه الرمزي للموحدين[2]، حتى يزكوا توليته، ولا يلفت نظر بني مرين والحفصيين.

1 - هو أبو يحي يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، ولد سنة 603هـ أو 605هـ/ 1206 أو 1208م) تولى إمارة تلمسان يوم الأحد 24 ذي القعدة 633هـ/ 31 جويلية 1236م (ابن خلدون عبد الرّحمن، العبر، 7، ص 162، ط. بيروت؛ ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء 1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1400هـ/ 1980م، ص 204) غير أن التنسي يقول أن أبا يحي بويع في 17 جمادى الأخيرة سنة 637 هـ (1241-1240م)،(نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان، الباب السابع، تحقيق محمود بوعياد، طبعة الجزائر، 1405هـ1985-م، ص 154).

2أنظر: حاجيات، أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، الجزائر 1394هـ/1974 والطبعة الثانية، 1982م، ص. 13-12؛ ((لم يترك يغمراسن من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش))، (العبر، 7، ص 163، ط. بيروت).

جهود الأمير يغمراسن في بناء الإمارة

ولما شرع الأمير الزياني في توسيع إمارته من ناحية شلف، اصطدم بمغراوة التي استنجدت بالأمير أبي زكرياء يحي الحفصي[3]. وكان يترقّب الفرصة المناسبة لتوسيع نفوذه، هو الآخر، غربا. فاحتل تلمسان في 29 محرم سنة 640هـ[4] / 29 جوان 1242م. وعقد صلحا مع يغمراسن، ينصّ على إقامة الخطبة له، دون الرشيد الموحدي[5]، الذي سبق ليغمراسن أن مكنه من استعادة مدينة مكناس التي اتخذها المرينيون عاصمة لهم[6]، فرد الرشيد بالزحف على المغرب الأوسط، لكن يغمراسن هزمه جنوب وجدة في 10 صفر سنة 646[7]هـ/ 1248م.

وكان لهذا الانتصار نتائج عديدة منها : أن بني عبد الواد أصبحوا يشكلون قوة في المنطقة[8]، كما أن القبائل المنتشرة حول تلمسان انقسمت إلى مؤيدة، ومعارضة ليغمراسن، الذي تفطن للدور الذي يمكن أن تلعبه تلك القبائل لصالحه. فاستغل أوضاعها، وضرب بعضها بالبعض الآخر[9]. كما قام، من جهة أخرى، بعدة محاولات للتوسع شرقا، ضد مغراوة وبني توجين، وغربا، ضد بني مرين وأحلافهم، وخاض في سبيل ذلك حروبا عديدة[10]. وقد استطاع بصموده، وحنكته السياسية،

3عنه أنظر: Idris (H.R): E.I.,article Abou- Zakariya, T.3, Nelle éd. P.71.)

4 - بغية الرواد، 1، ص 205؛ العبر، 7، ص 185 فما بعدها، Fey (Henri Léon), Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination espagnole,Oran, 1958, P. 47. ويجعلها التنسي سنة 645هـ/ 1247-1248م (المصدر السابق، ص 160).

5 - هو أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف العسكري بن عبد المؤمن بن علي، (بغية الرواد، 1، 205) بويع في مستهل شهر محرم سنة 630هـ/ 18 أكتوبر 1232م وقتل يوم الثلاثاء آخر صفر سنة 646هـ/ 23 يونيو 1248م، (عنه أنظر: عنان (محمد عبد الله)، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة 1964م، جـ. 2، ص. 427 فما بعدها من عدة صفحات).

6 - أنظر:
Laraoui Abdallah, Histoire du Maghreb, Paris, 1970, PP. 188-189. ومكناس أو مكناسة الزيتون تقع على بعد 130كلم شرق مدينة الرباط وعلى بعد 60 كلم غرب مدينة فاس،(Funch Brentans (C); E.I. article Meknès, T.III., PP. 18 sqq).

7 - بغية الرواد، 1، ص206؛ العبر، 7، ص 170، (ط.بيروت)، نظم الدر، ص 163؛ وتقع وجدة شرق المغرب الأقصى على بعد 14 كلم من الحدود الجزائرية المغربية، في الجهة الجنوبية، من سهل أنجاد الواسع، أسسها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ/ 994م Marçais (G.), E.I., Article Oujda, T.III, PP. 1085-1086.).

8 - حاجيات (عبد الحميد)، أبو حمو موسى الزياني، ص 13.

9 - ذلك بأن استقدم قبيلة بني عامر من صحراء بني يزيد (العبر، 7، ص 40و 46، ط. بيروت)؛ وبنو عامر عرب كانوا يضعنون في مجالات بني يزيد، وكان هؤلاء يدفعون لهم ضريبة قدرها ألف غرارة من الزرع تسمى القرارة، لأن بني عامر يظاهرونهم في حروبهم (مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر، 1982، ص. 156)؛ وأقطع يغمراسن بني عامر أراضي خصبة، بين وهران وتلمسان ليضرب بهم عرب المعقل (العبر، 6، ص 59-58) الذين أحدثوا اضطرابات في سهل متيجة أزعجت الدولة (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص 151 فما بعدها)، كما استقدم قبيلة حميان الهلالية. فاستقرت جنوب تلمسان (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص. 151).

10 - قام يغمراسن بحوالي ((اثنتي وسبعين غزوة ضد العرب في الصحراء (بغية الرواد،1، ص 207؛ العبر، 7، ص. 162؛ نظم الدر، ص. 157؛ Marçais (G.), Tlemcen (Les villes d'art célèbres), Paris, 1950, P.35، حاجيات، المرجع السابق، ص 13).

أن يضع أسس إمارة، حكمت المغرب الأوسط حوالي ثلاثة قرون. ووضع قواعد سياسة الدولة الخارجية التي تتمثل في توسيع منطقة حكمه، لتشمل أكبر مساحة في المغرب الأوسط. ولهذا فهو يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني عبد الواد، التي اختلفت حدودها، حسب قوة وضعف سلاطينها. إذ وصلت شرقا إلى جبل الزان (جبل أكفادو)[11]، واستقرت عند الوادي الكبير (وادي الصومام)[12]. ووصلت جنوبا إلى الصحراء (صحراء نوميديا)[13]، التي تفصل بين بلاد المغرب وبين بلاد السودان[14]. أما غربا فقد استقرت بوادي ملوية[15]. وكانت هذه الحدود تصل في عهد ابن خلدون إلى بلاد تاوريرت[16]، على بعد مائة وستة وثلاثين كيلومترا إلى الغرب من مدينة وجدة[17].

الأمير يغمراسن يضع أسس السياسة الخارجية للإمارة

أوصى يغمراسن قبل موته سنة 681هـ[18] / 1283م، ابنه وخليفته أبا سعيد عثمان الأول[19]، بمسالمة بني مرين (غربا)، والتوسع على حساب بني حفص (شرقا)"[20]. وهذا ما فعله، بعد خمس سنوات من توليته مقاليد الحكم. إذ جهز سنة 686هـ/ 1286 - 1287م[21] حملة، تلبية لطلب أمير تونس أبي حفص(1284 - 1295م)، الذي استنجد به ضد واليه على بجاية، أبي زكرياء بن السلطان أبي إسحاق الحفصي، الذي أعلن استقلاله عنه. فراح يحاصره بهدف الاستيلاء على ولايته لنفسه، لكنه لم يحقق هدفه.

---

11 - أنظر: Léon l'Africain, Description de l'Afrique, Nouvelle édition, traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris IV, 1956, T.2, P. 323, note 2.

12 - نفسه.

13 - نفسه.

14 - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط. القاهرة 1333هـ/ 1915م، جـ 5، ص 149.

15 -Léon l'Africain, Op. cit., P.323.

16 - ابن خلدون، العبر،7، ص 454؛ عنها (أنظر:Léon l'Africain, description de l'Afrique, T.1, P. 297)

17 - أنظر الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ط.الثانية، بيروت، 1384هـ/ 1965م، جـ 2، ص 132؛ بوزياني الدراجي، تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد 791-633هـ، الجزائر 1981-1980، ص 47.

18 - توفي يوم 29 من ذي القعدة 681هـ/ 28 مارس 1283م، عندما خرج لاستقبال عروس ابنه، ابنة السلطان الحفصي (العبر، 7، ص 189؛ بغية الرواد، 1، ص 207؛ نظم الدر، ص 176.).

19 - ولد أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 639هـ/ 1241م وتمت له البيعة سنة 681هـ/ مارس 1283م (بغية الرواد، 1، 208؛ نظم الدر، ص -176 177).

20 - عن هذه الوصية (أنظر: ابن خلدون، العبر، 7، ص. 190).

21 - عنه أنظر:Julien Ch. A: Histoire de l'Afrique du Nord, 2eme édition, Revue et mise à jour par R. Le Tourneau, Paris, 1952, T.2., P.140.

زحف المرينيين على تلمسان

وبينما كان الأمير الزياني منشغلا بفتوحاته في المناطق الشرقية، أخذ المرينيون يغيرون على أراضيه، منذ سنة 689هـ[22]/1289م، لغرض استنـزاف قبيلته، مستهدفين القضاء على دولته. فقد هاجم أبو يعقوب ابن يوسف المريني تلمسان أربع مرات وحاصرها في المرّة الخامسة حصاراً دام حوالي ثمان سنوات[23]، من شعبان سنة 698هـ/ مايو1299م، إلى ذي القعدة سنة 706هـ/ مايو 1307م[24]. وعندما رأوا شدة مقاومتها، أحاطوها بسياج من الأسوار، وأنشأوا مدينة المنصورة، على بعد ثلاث كيلومترات منها[25]، لاستقطاب كل الأنشطة، خاصة التجارة، التي كانت تمثل عماد الحياة الاقتصادية، في العاصمة الزيانية[26].

وقد أثر ذلك الحصار على النشاط التجاري، لكنه لم ينقطع نهائيا، إذ استمرت سواحل المغرب الأوسط تجذب التجار[27] القطلانيين، خاصة من ميورقة. التي كانت المراكب تغادرها بانتظام سنة 703هـ/ 1304م، إلى الموانئ الشرقية للدولة العبد الوادية، مثل: تنس وشرشال، والجزائر[28]. كما لم ينقطع النشاط التجاري للقشتلانيين، والإيطاليين، والبروفانسيين، واللانجدوكيين في هذه المنطقة[29].

وبعد النزول في الموانئ الغربية، كان التجار الأوروبيون يغامرون بالسفر نحو منطقة العمليات الحربية بتلمسان التي أصبحت مقر سوق سوداء مزدهرة. وكانت المنصورة هي المستفيدة من ذلك[30]. إذ أصبح يعبرها طريق الذهب الإفريقي الكبير، الذي يربط الساحل بالصحراء. وبذلك صارت تقوم مقام تلمسان، في تصنيع المعادن الثمينة، وفي التبادل التجاري؛ يقصدها التجار المسلمون والمسيحيون

---

22 - (بغية الرواد،1، ص. 209 فما بعدها)، ويذهب حاجيات إلى أن هجومات المرينيين بدأت سنة 695هـ/ (1294-1285م)،(المرجع السابق، ص. 15).

23 - أنظر: Marçais (G), Tlemcen, P. 46 sq.

24أنظر: Dhina, Attallah (Dhina), Le royaume Abdelouadide à L'époque d'Abou- Hammou Moussa 1er et d'Abou-Tachéfine 1er, Alger, 1985, P.75.

25 - Marçais (G), op. cit., P. 57

26 - عن حالة تلمسان أثناء الحصار (أنظر: Sid Ahmed Bouali: Les deux grands sièges dde Tlemcen dans l'histoire et la légende E. N.L., Alger, 1984, P. 21 sqq؛ العبر، 7، ص 194 فما بعدها (ط. بيروت)؛ بغية الرواد، 1، ص 209 فما بعدها؛ نظم الدر، ص 178 فما بعدها؛ Bargès (l'Abbej.), Tlemcen, ancienne capitale du Royaume de ce nom, Paris, 1859, P . 193).

27 - Marçais (G), op. cit., P. 57.

28 - Dufourcq (Charles Emmanuel) : L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, Paris, 1966, P.389.

29 - Dufourcq, L'Espagne catalane, P.369.

30 - Ibid, P.471.

واليهود من مختلف البلدان[31]، وكذلك السفراء المبعوثون إلى السلطان المريني[32]. لكنها مع ذلك لم تعمر طويلا، بعد انتهاء الحصار، لأن بني عبد الواد، بعد استعادة ملكهم، أخذوا في تحطيمها شيئا فشيئا، وانتهوا من ذلك قبل منتصف القرن التاسع الهجري[33] (الخامس عشر الميلادي). وأثناء الحصار أوقف الأمير عثمان بن يغمراسن الدعوة للحفصيين[34].

الزيانيون يسترجعون تلمسان ويصالحون بني مرين

ولما توفي أبو سعيد فاتح ذي القعدة سنة 703هـ [35]/ 5 جوان 1304م خلفه ابنه أبو زيان (703 - 707هـ/ 1304 - 1308م). وفي عهده قتل أبو يعقوب يوسف المريني على يد أحد عبيده[36]، مما تسبب في انتشار الفوضى في صفوف جنده، وشجع الزيانيين الذين كانوا على وشك الاستسلام، على الخروج إليهم، فهزموهم وخلصوا أنفسهم سنة 707 هـ/1307 - 1308م.

ثم عقد أبو زيان صلحا مع أبي ثابت المريني خليفة أبي يعقوب. وبدأ يسترجع بعض المناطق الشرقية، التي استولى عليها بنو مرين أثناء الحصار. وعادت إلى تلمسان أهميتها السياسية، والاقتصادية، بالمغرب. وأصبح سلاطينها أكثر استقلالا عن ذي قبل، عندما كانوا يعترفون، إلى حد ما، بالسيادة الحفصية[37].

ولما توفي أبو زيان يوم الأحد 21 شوال سنة 707هـ[38]/ 15 أفريل 1308م، خلفه أخوه أبو حمو موسى الأول، فاستهل حكمه بعقد صلح مع أبي ثابت[39] هو الآخر، ليضمن استقرار حدوده الغربية. واهتم بالنواحي الشرقية. فاستطاع أن يوسع حدود إمارته إلى ما كانت عليه أيام أبيه[40]. واهتم بشؤون الدولة في الداخل، فزاد في تنظيمها، حتى اعتبره ابن خلدون ((أول ملوك زناتة))[41].

31 - Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord, T.2.,P.157; Dhina: Le Royaume Abdelouadide, P. 129; Dufourcq; Ibid.

32 - Marçais (G): Tlemcen, P. 574sq.

33 - Bargès: Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom, P.194

34 - العبر، 7، ص 207، ط. بيروت.

35 - نفسه؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 15.

36 - في يوم الأربعاء 7 ذي القعدة، دخل عبد على أبي يعقوب يوسف فقتله بخنجر (العبر، 7، ص 199؛ بغية الرواد، 1، ص 24؛ نظم الدر، ص 182 فما بعدها؛Marçais (G): Tlemcen, P. 58)

37 - أنظر:Dufourcq; l'Espagne catalane, P. 470.

38 - بغية الرواد، 1، ص 212؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 16.

39 - العبر، 7، ص 204، ط. بيروت.

40 - بغية الرواد، 1، ص 203؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 16-17.

41 - العبر، 7، ص 204، ط. بيروت، وعن أعمال أبي حمو وشخصيته (أنظر: Marçais (G): Tlemcen,(les villes d'art célèbres),P.79.

وبعد مقتله راح ابنه وخليفته أبو تاشفين الأول يعقد صلحا مع أبي سعيد المريني[42] (710-731هـ/ 1310-1331م). وتفرغ للناحية الشرقية، مثل أسلافه، وقام بعدة محاولات للاستيلاء على بجاية[43]، انتهت بلقاء جيوشه، التي أتى بها لتدعيم بني سليم[44]، بجيوش أبي يحي الحفصي[45]، فهزمه، ووصلت جيوش بني عبد الواد إلى تونس، فدخلتها وسلمتها إلى حليفيهم، عمران، وحمزة بن عمر السليمي، ثم عادت إلى تلمسان[46].

أمام ضغط أبي تاشفين المتزايد على الحفصيين، لجأ أميرهم، أبو يحي، إلى الاستنجاد بالسلطان أبي سعيد المريني فحاول أن يصلح بين الطرفين، لكن الأمير الزياني رفض وساطته.

أبو الحسن المريني يحتل تلمسان

بعدما تولّى الأمير أبو الحسن المريني السلطة، إثر وفاة أبيه أبي سعيد، واصل سعيه لدى أبي تاشفين ليوقف غاراته على الحفصيين، ولما رأى عدم جدوى تدخله، قرر الزحف على تلمسان، فحاصرها سنة 735هـ/1335م، واستولى على المناطق الواقعة شمالها[47]، بتنسيق ولاشك مع الحفصيين. وهو ما يفسر هجوم هؤلاء في نفس الوقت على جيش بني عبد الواد، قرب بجاية. وربّما يكون أبو الحسن قد فعل ذلك ليقطع الاتّصال بين تلمسان والبحر الذّي قد تأتيها عن طريقه إمدادات من بني الأحمر، ملوك غرناطة، حلفاء بني زيان ضدّ المرينيين أو لمنع تموينها عن طريق الجمهوريات الإيطالية التي كانت لها معها علاقات تجارية[48]. وصمد أبو تاشفين وأبناؤه في الدفاع عن عاصمتهم، حتى قتلوا[49]. وسقطت تلمسان بين

---

42 - العبر، 7، ص 225، عنه أنظر: Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord,P. p. 177-178.

43 - Lespes (René) : Oran, ville et port avant l'occupation française,Revue Africaine 1934, P.281

44 - ثار بنو سليم ضد أبي يحي الحفصي، وبايعوا منافسه الأمير ابن أبي عمران، وطلبوا المساعدة العسكرية من أبي تاشفين الزياني،)أنظر: حاجيات (عبد الحميد)، أبو حمو موسى الزياني، ص18).

45 - هو أبو يحي زكرياء بن يحي (895- 899هـ/ 1490-1494م) عنه)أنظر: Idris (H.R): E.I., T.III, Article Abou-Yahia Zakariya, Nelle éd. P.71.) (

46 - حول الصراع بين أبي تاشفين وأبي يحي،)انظر: ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر، 7، ص 221 فما بعدها؛ ابن خلدون (يحي)، بغية الرواد، 1، 218 فما بعدها؛ التنسي، نظم الدر، ص 197 فما بعدها(.

47 - يرى باسي ((Basset R. أن أبا الحسن فعل ذلك ليقطع الاتصال بين تلمسان وبين البحر، الذي قد تأتيها عن طريقه، إمدادات من بني الأحمر، ملوك غرناطة، حلفاء بني عبد الواد ضد المرينيين، أو تموينها عن طريق الجمهوريات الإيطالية، التي كانت لها معها علاقات تجارية Nedrouma et les Trarah, Paris 1901, P.12.)).

48 - Basset (R.): Nedrouma et les Trarah, Paris 1901, P.12.

49 - Bargès فقد انتهى بقتل أبي تاشفين وأبنائه، الفرع الأول لبني عبد الواد وينتقل الحكم لفرع بني زيان(,Tlemcen (ancienne capitale de ce nom, p. 194

أيدي أبي الحسن يوم 27 رمضان 737 هـ[50]/ 29 أبريل 1337م، فولى عليها ابنه أبا عنان. وواصل سيره شرقا إلى تونس، فاستولى عليها. وبقي بالمغرب الأدنى، إلى أن ألحقت به القبائل العربية هزيمة بالقيروان سنة 749هـ/ 1348م[51]. وبذلك وضع حدا للسيطرة التي حققها على بلاد المغرب، بفضل حسن استغلاله للظروف الناجمة عن العلاقات السياسية المتدهورة بين الحفصيين وبين بني عبد الواد.

وبلغت ابنه بعدذلك مباشرة، أي نفس السنة، إشاعات مفادها أن أباه هلك بالطاعون، فأسرع بالعودة إلى فاس، خوفا من أن يغتصب منه أقاربه العرش[52].

بنو عبد الواد (الزيانيون) يستعيدون تلمسان

وكان أبو سعيد و أخوه أبو ثابت، ابنا عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن، يعملان في جيش أبي الحسن، وبعد هزيمة القيروان، وما نجم عنها من انشغال المرينيين بمشاكلهم الداخلية، اغتنما الفرصة وانسحبا مع حوالي خمسمائة فارس من مغراوة وبني توجين[53]. فسارا إلى تلمسان، واسترجعاها في 22 جمادى الآخرة من نفس السنة / 18 سبتمبر 1348م[54]. وتولى الأول السلطة، وقاد الثاني الجيوش. وبدأ يسترد من المرينيين أراضي الإمارة[55]. فاسترجع وهران، وندرومة، وتدلس. وقد حاول الناصر بن أبي الحسن المريني أن يتصدى له في إفريقية، فساعده أبو عنان الذي استولى على الحكم بفاس، فهزم الأمير الزياني الناصر في وادي ورك، ببلاد العطاف[56] في شلف؛ وواصل توسعاته شرقا .

وأعاد الناصر الكرة مع أبيه الذي قدم من بجاية إلى مدينة الجزائر، عن طريق البحر. واعترضه القائد الزياني أبو ثابت، بمكان يسمى تبعزيزن في 10 شعبان من عام 751هـ/1349م. فقتل الناصر وذهب والده إلى المغرب عن طريق الصحراء[57]، في

---

50 - عن هذا الموضوع أنظر: العبر،7، ص 277 فما بعدها؛ بغية الرواد، 1، ص 219؛ نظم الدر، ص 200؛ Bargès, op. cit., PP. 193 194.

51 - عن هذا الموضوع أنظر: Julian (Ch.), histoire de l'Afrique du Nord,T.2, P.14

52 - دعا ابن أخي أبي عنان لنفسه بالإمارة في فاس، فتغلب عليه أبو عنان وانتصب على العرش (حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص 24).

53 - وبايعهما قومهما ظاهر تونس، آخر ربيع الأول سنة 749هـ/ 1348م (بغية الرواد، 1، ص 237 و240).

54 - نفسه.

55 - ابن خلدون، العبر، 7، ص. 248- 249 (ط. بيروت)، وحسب Bergès فإن عثمان أبا سعيد- أعلن نفسه حاكما على تلمسان خلال سنة 752هـ/ 1351م؛ (Tlemcen, ancienne capitale de ce nom, P. 195).

56 - يحي بن خلدون، بغية الرواد، جـ. 1، ص. 243-242؛ غير أن عبد الرحمن بن خلدون لا يذكر مشاركة الناصر بن أبي الحسن المريني، في هذه المعركة. بل ذكر أن الذي تصدى لأبي ثابت هو ونزمار وجموع العرب بإيعاز من أبي الحسن (العبر، 7، ص. 248).

57 - التنسي، المصدر السابق، ص 213.

محاولة فاشلة، لجمع الأنصار، ولاسترداد عرشه من ابنه أبي عنان[58] (1348 - 1358م). لكنه مات دون أن يحقق هدفه[59].

المرينيون يزحفون على تلمسان من جديد

ولم يطمئن أبو عنان لانتصارات بني عبد الواد، فانتهز فرصة استغاثة مغراوة ضدهم[60]، وزحف عليهم، في آخر شهر ربيع الثاني 753هـ/1352م، فقتل سلطانهم، وشرد أخاه أبا ثابت، إلى بجاية، حيث قبض عليه الحفصيون، وقتله أميرهم أبو يحي[61].

وولى أبو عنان ابنه محمد على تلمسان، التي بقيت تابعة لفاس إلى أن قدم أبو حمو موسى الثاني من تونس[62] فاقتحمها وطرده منها في ربيع الأول سنة 760هـ/ 1360م. ثم شرع في استرداد أراضي إمارته، فوجه المريني حملة ضدّه سنة 760هـ/ 1360م. فاستولت جيوشه على عاصمته[63]. لكنهم سرعان ما غادروها إلى بلادهم، بسبب مشاكلهم الداخلية، وإزعاج قبائل المعقل[64] حلفاء الأمير الزياني، لجيشهم[65].

وعاد أبو حمو إلى تلمسان. ثم راح يسترجع المناطق المحيطة بها، خاصة الشرقية منها. وزحف أمير فاس، أبو سالم[66] في جويلية 1359 - 19 سبتمبر1361م 761هـ) على تلمسان، فدخلها في 6 شعبان 761هـ[67]/ 1361م، بعد انسحاب أميرها الذي خالفه إلى أجر سيف[68]. حيث ساعدته رغبة على تخريب عدة مدن مرينية بالحدود

---

58 - حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص 213.

59 - عن هذا الموضوع أنظر: Julien (Ch. A) :Histoire de l'Afrique du Nord, P.181.

60 - وقد يكون قام بهجومه هذا ضد بني عبد الواد لكي يقطع الطريق على أبيه (حاجيات، المرجع السابق، ص 31-30.).

61 - بغية الرواد، 1، ص. 245 فما بعدها؛ العبر، 7، ص 252؛ نظم الدر، ص 214؛ Bergès, Tlemcen, p.195.

62 - ولد أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن سنة 703هـ/ 1304م، بغرناطة في الأندلس، وعاد مع أبيه إلى تلمسان بعد سنة، فنشأ بها، وفي سنة 737هـ/ 1337م، انتقل مع عائلته إلى فاس بأمر أبي الحسن المريني الذي ضم تلمسان آنذاك. وعندما استرجعها أبو سعيد عاد إليها أبو حمو، واستقر مع أبيه بندرومة، ولما قتل أبو عنان الأمير الزياني، أبا سعيد، غادرها أبو حمو إلى تونس، وفي سنة 758هـ/ 1357م توجه إلى الجنوب، فاشترك مع الدواودة في صد المرينيين هناك، ولما وصل إلى الحضنة التقى ببني عامر الذين طردوا من مواطنهم في المغرب الأوسط، فتحالف شيخهم سفير معه وواصل طريقه غربا إلى تلمسان (أنظر التفاصيل عند حاجيات، المرجع السابق، ص. 69 فما بعدها).

63 - Abdallah Laraoui, op. cit., P.215.

64 - نسبة إلى معقل بن الحارث، بطن من مدحج، من القحطانية، كانت مواطنهم في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بالمغرب الأقصى، وكانوا مجاورين لبني عامر من زغبة في مواطنهم، ما بين قبلة تلمسان والمحيط الأطلسي (معجم قبائل العرب، 3، ص 1123).

65 - حاجيات، المرجع السابق، ص 94.

66 - عنه أنظر: Julien (Ch. A) :op. cit. P.184.

67 - حاجيات، التاريخ السياسي لدولة بني زيان، الجزائر في التاريخ، جـ 3، ص 404.

68 - هي قرية عامرة على نهر ملوية وكانت توجد في الطريق بين وجدة ومليلة (المغرب، ص 88).

الغربية لبلاده[69]. فاضطر أبو سالم أن يعود بسرعة إلى فاس، خوفا من أن يزحف بنو زيان عليها[70]. وعاد أبو حمو بدوره إلى عاصمته وواصل توسعه شمالا وشرقا فضم وهران، والمدية، وملیانة ومتيجة والجزائر[71].

وفي تلك الأثناء جمع أبو زيان بن أبي سعيد الثاني، بعض القبائل، وحاول استعادة عرش أبيه من أبي حمو، ولما فشل تدخل أبو سالم المريني إلى جانب قبائل بني سويد، وبني عامر، والمعقل، لمساعدته، لكن أبا حمو استمال بني عامر فتخلوا عن خصمه، وفشلت بذلك محاولته[72].

بعدئذ تعددت حملات أبي حمو على بجاية، فأقلقت السلطان الحفصي، الذي استعان عليه بابن عمه، ومنافسه، على العرش، أبي زيان. فحاصره الاثنان، لكنه استطاع أن يقضي، بعد معارك عديدة، على أبي زيان[73].

ونزولا عند رغبة بني سويد[74]، زحف السلطان عبد العزيز المريني على تلمسان، فاستولى عليها في محرم سنة 772هـ/ أوت 1370م[75]. وبعد وفاته سنة 774هـ[76]/ 1372م، عاد إليها صاحبها، واسترجع مرة أخرى المناطق الشرقية. كما ساعد عامل سجلماسة ومراكش، عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، في ثورته ضد ابن عمه أبي العباس. مما جعل هذا الأخير يغزو تلمسان. لكنه غادرها بعد أيام سنة 786هـ[77]/ 1375م.

بعد ذلك دخل أبو حمو في صراع مع ابنه أبي تاشفين، الذي كان يخشى منافسة إخوته، المنتصر وأبي زيان وعمير، على العرش، بعد وفاة أبيه، الذي كان يعطف عليهم مما أدى إلى وقوع حرب بينهما. انتهت بقتل الأب، في غرة ذي الحجة سنة 791هـ/ 21 نوفمبر 1389م[78].

---

69 - مثل وطاط وبلاد ملوية، (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص159)؛ ولكن زغبة ثارت ضده سنة 768 هـ/1367م، فقتل أبو حمو كثيرا من رجالها بمساعدة رياح(المرجع السابق، ص 160).

70 - العبر، 7، ص 260 فما بعدها.

71 - حاجيات، المرجع السابق، ص 405-404.

72 - العبر، 7، ص 262 فما بعدها.

73 - العبر، جـ7، ص 268-267؛ المرجع السابق، ص 117 فما بعدها.

74 - بدافع الغيرة من قبيلة بني عامر، التي حظيت بمكانة مرموقة لدى أبي حمو، بسبب الدور الكبير الذي لعبته في مؤازرته، طلبت قبيلة سويد من السلطان عبد العزيز المريني أن يزحف على تلمسان (مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، المرجع السابق، ص 156 فما بعدها).

75 - Laroui (Abdallah)m op. cit., P. 215.

76 - توفي عبد العزيز المريني بتلمسان، بعدما أصابه مرض خطير في 22 ربيع الثاني سنة 774هـ/ 1372م (العبر، 7، ص 698).

77 - العبر، جـ 7، ص -296 298 (ط. دوسلان).

78 - نفسه، ص 353؛ نظم الدر، ص 253.

المرينيون يؤججون الفتن في البيت الزياني

وبتولي أبي تاشفين زمام الأمور، دخلت الدولة الزيانية مرحلة جديدة من تاريخها، تتمثل في التدخلات الخارجية في شؤونها الداخلية، إذ أن استنجاده بالمرينيين في حربه ضد أبيه، شجعهم على مواصلة هذه السياسة التي تجنبهم كثرة التكاليف، وتمكنهم من التحكم في مصير هذه الدولة[79]، خاصة وأن الضعف بدأ يسري في جسم دولتهم، من جراء التنافس على الحكم آنذاك. فأخذوا يعملون على إثارة الفتن بين أفراد الأسرة الحاكمة[80]، إذ لما قامت فتنة بين أبي تاشفين وأخيه أبي زيان، وهزم الأول الثاني، استنجد بهم. فجهزوا له حملة، كلفوه بقيادتها. وعندما وصلت إلى تازا[81]، توفي أبو تاشفين في 17 ربيع الثاني 795هـ[82]/ فيفري1393م، فأوقفوا حليفهم الجديد، وأودعوه السجن، وهب يوسف بن أبي حمو موسى الثاني[83]، الذي كان واليا على الجزائر، للدّخول إلى تلمسان، وقتل أبا ثابت بن أبي تاشفين، وكان تولى الأمر حوالي أربعين يوما[84]. ثم استولى على الحكم. فهاجمه أبو فارس[85] بن السلطان أبي العباس المريني[86]. فلجأ إلى حصن تاجحمومت[87]. واستولى القائد المريني على تلمسان، ثم راح يخضع المناطق الشرقية. لكنه عاد إلى فاس، بعد موت أبيه. وتولى أمر قومه. ثم أطلق سراح أبي زيان، وبعثه على رأس جيش، ليستولي على تلمسان، ويتولاها للمرينيين. ونجح أبو زيان في مهمته، فبويع بالإمارة، غرة ربيع الثاني سنة 796هـ/ 3 فيفري 1394م[88]. ولما حاول أن يستقل عن حلفائه المرينيين ساعدوا ضده، أخاه، أبا محمد عبد الله بن أبي حمو

79Laroui (Abdallah)m op. cit., P. 215. ، ويذكر الحسن الوزان (Léon Africain) أن ملوك فاس غزوا تلمسان عشر مرات (Description de l'Afrique, T.2, p.323).

80 - عن سياسة المرينيين إزاء بني عبد الواد أنظر: Laroui (Abdallah): op. cit., P. 215.

81 - مدينة تقع شرق المغرب الأقصى على بعد حوالي 100كم شرق وشمال شرق مدينة فاس بممر تازا، بين المغربين الأوسط والأقصى على الطريق الطبيعي الكبير الرابط بين الشرق والغرب (أنظر: Marçais (G): E.I.,Art. Taza, T.4, pp. 745-746).

82 - نظم الدر، ص 279، الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، جـ 2، ص 181، أو هو توفي في رمضان من نفس السنة (حاجيات، استمرار النفوذ المريني، الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، الجزائر، 1984، جـ3، ص 426).

83 - ويكنى الحجاج (أنظر الدر، ص 213)، أو يوسف بن الزابية (الجزائر في التاريخ، جـ3، ص 426).

84 - نظم الدر، ص 282؛ الجزائر في التاريخ، جـ3، 426.

85 - هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس المريني (حاجيات، استمرار النفوذ المريني، الجزائر في التاريخ، جـ3، ص 426) أو هو أبو فارس أحمد بن أبي العباس " (الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، جـ2، ص 112) تولى أمر المرينيين من 796هـ/ 1393م، إلى 799هـ/ 1396م، (نفس المرجع).

86 - هو أبو العباس أحمد المستنصر بن ابراهيم تولى الإمارة في فاس مرتين الأولى سنة 776هـ/ 1374م وتنحى في نفس السنة، والثانية سنة 789هـ/ 1387م إلى 796هـ/ 1393م (نفس المرجع).

87 - نظم الدر، ص -283 284، أو تاحجمومت، (حاجيات، المرجع السابق، جـ3، ص 426) ولم أعثر على تعريفه.

88 - نظم الدر، ص288.

الثاني. فتولى الأمر سنة 801هـ/1398م، ثم خلعوه سنة 804هـ/ 1401م، ونصبوا مكانه أخاه الآخر، أبا عبد الله، المعروف بابن خولة. ولما توفي هذا الأخير، خلفه ابنه عبد الرحمن في ذي القعدة سنة 813هـ/ مارس 1411م[89]، ثم تولى الأمر عمه السعيد بن أبي حمو، آخر محرم سنة 814هـ/ 1412م[90]. وأعان المرينيون عليه أخاه أبا مالك عبد الواحد[91]، فلما حقق هذا الأخير هدفه، حاول أن يتخلص منهم، لما لمسه من ضعف فيهم[92]. فتدخل في شؤونهم حتى أنه ((ملّك بفاس السلطان محمد بن أبي طريق بن أبي عنان المريني))[93].

إمارة بني عبد الواد بين تدخلات المرينيين والحفصيين

غير أن أبا مالك تعرض لضغط الحفصيين، من الجهة الشرقية، بعدما حاول استرجاع المناطق التي كانت تحت نفوذهم. فزحف أميرهم أبو فارس على تلمسان[94]، ودخلها في 13 جمادى الثانية سنة 827هـ/ 13 ماي 1424م. وغادرها أميرها إلى فاس. فولى عليها السلطان الحفصي محمد بن الحمراء بن أبي تاشفين الثاني، يوم الأحد 16 جمادى الثانية[95]. وفي رجب سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة (831هـ/1421م)، عاد أبو مالك عبد الواحد إلى تلمسان، ودخلها بمساعدة السلطان الحفصي الجديد، عثمان بن أبي فارس[96].

ومنذ ذلك الحين واصل الحفصيون بتونس، مثل المرينيين بفاس تدخلاتهم، في الشؤون الداخلية لإمارة بني عبد الواد، فعزلوا من شاؤوا، وولوا من شاؤوا، ومتى شاؤوا، وتوالت الاضطرابات بسبب التنافس على السلطة بين أفراد البيت الزياني، الذين كانوا يستنجدون بالحفصيين تارة، وبالمرينيين تارة أخرى. وتألبت ضدهم القبائل، واستقلت عنهم مناطق عديدة[97]. فزاد بذلك ضعفهم ولم

89لم يبق على العرش سوى شهرين، ثم اغتصبه منه عمه، بعدما فرّ من السجن بفاس، (الجزائر في التاريخ، جـ. 3، ص 427).

90 - لم يستطع البقاء في الحكم لسوء سياسته، خاصة من الناحية المالية (نفس المرجع).

91 - نظم الدر، ص 318؛ الجزائر في التاريخ، جـ3، ص 427.

92 - Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle, d'après Berque (J) un manuscrit jurisprudentiel, Annales, E.S.C Septembre Octobre 1970,P. 329

93 - نظم الدر، ص -342 325.

94 - Léon l'Africain: op. cit., T.2, P. 324.

95 - نظم الدر، ص 325-324.

96Léon l'Africain: op. cit., T.2, P. 324.

97 - مثل تنس والجزائر وتدلس، (حاجيات، الجزائر في التاريخ، جـ. 3، ص. 455.).

يستطيعوا مقاومة الإسبان عند نزولهم بوهران سنة 914هـ/ ماي 1509م[98].
وهكذا، بعدما استقّرت قبيلة بني عبد الواد في مدينة تلمسان، وأسّست بها إمارة دامت حوالي ثلاث قرون. وحاول يغمراسن انتهاج سياسة مسالمة مع المرينيين بعد فشله في حربهم عدّة مرّات. وأوصى ابنه أبا سعيد عثمان بالسّير على نهجه. لكن المرينيين كانوا يشنّون هجمات متكرّرة في مرحلة قوّة الدّولة العبد الوادية. وحاصروا العاصمة تلمسان واحتلّوها أكثر من مرّة.
وأمام إصرار الزيانيّين على صدّهم، تحيّنوا فرصة تنافس أفراد الأسرة على الحكم، وبداية ضعف الدّولة، وغيّروا سياستهم، واختاروا تلك التي تجنّبهم كثرة التّكاليف، وتمكّنهم من التّحكم في مصير الإمارة، فأجّجوا الفتن التي زادت الأوضاع سوءا ممّا سمح لهم بتولية من شاؤوا وعزل من شاؤوا. حتى اعترى الضّعف كلّ دواليب الدّولة فلم يستطع رجالها الصّمود أمام هجمات الإسبان، ثمّ الأتراك وانهارت الإمارة.

المراجع

1 – بوزياني الدراجي (1981). تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد 791–633هـ، جامعة الجزائر2، قسم التاريخ.
2 – التنسي، محمد بن عبد الله (1985م). نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان، الباب السابع، تحقيق محمود بوعياد، طبعة الجزائر.
3 – الجيلالي، عبد الرحمن (1965م). تاريخ الجزائر العام، ط.الثانية، بيروت.
4 – حاجيات، عبد الحميد (1974). أبو حمو موسى الزياني÷ :حياته وآثاره. الطبعة الأولى، الجزائر.
5 – حاجيات، عبد الحميد (1982). أبو حمو موسى الزياني÷ :حياته وآثاره. الطبعة الثانية، الجزائر.
6 – حاجيات، عبد الحميد (1984). استمرار النفوذ المريني: الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني. الجزائر.
7 – ابن خلدون، عبد الرّحمن (1956). العبر. مج7، ط. بيروت.
8 – حاجيات، عبد الحميد (1980م). تحقيق حول مؤلف ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. الجزء1، الجزائر.

98 - لقد هاجم البرتغاليون مينائي المرسى الكبير ووهران سنة 906هـ/ 1501م، لكنهم فشلوا في الاستيلاء عليهما، وهاجم الأسبان المرسى الكبير وتغلبوا على أهله في 11 سبتمبر 1505م/ 910هـ؛ Bergès: Tlemcen, p. 303; Pélissier: Mémoire Historique et géographique, PP. 10-11; حاجيات، خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ، جـ 3، ص 456 أو 13 سبتمبر 1505م (Lespes, Oran, p. 295). ونزل الاسبان بوهران يوم 19 ماي 1509م؛ (نفسه).

9 – عنان، محمد عبد الله (1964م). عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. القاهرة.
10 – القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(1915م). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. القاهرة.
11 – مصطفى أبو ضيف أحمد عمر(1982). القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين. الجزائر.
12 - Bargès, l'Abbej (1859). Tlemcen, ancienne capitale du Royaume de ce nom, Paris.
13 - Basset R. (1901). Nedrouma et les Trarah, Paris.
14 - Berque J. (1970). Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle, un manuscrit jurisprudentiel, Annales, E.S.C.
15 - Dhina, Attallah(1985). Le royaume Abdelouadide à L'époque d'Abou- Hammou Moussa 1er et d'Abou-Tachéfine 1er, Alger.
16 - Dufourcq ,Charles Emmanuel (1966). L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, Paris.
17 - Fey, Henri Léon(1958). Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination espagnole, Oran.
18 - Funch, Brentans C .(1966). article Meknès, In Encyclopédie de l'Islam, t. III.
19. Idris, H.R. (1966). Article Abou-Yahia Zakariya, In Encyclopédie de l'Islam, éd. Nelle, t. III.
20 - Julien, Ch. A. (1952). Histoire de l'Afrique du Nord, 2ème éd., Paris.
21 - Laraoui, Abdallah (1970). Histoire du Maghreb, Paris.
22 - Léon l'Africain(1956). Description de l'Afrique, Nouvelle édition, traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris IV.
23 - Lespes, René (1934). Oran, ville et port avant l'occupation française. Revue Africaine.
24 - 13-Marçais, G. (1950). Tlemcen : Les villes d'art célèbres. Paris.
25 - 14- Marçais, G. (1950). Article Oujda, In Encyclopédie de l'Islam, t. III.
26 -15- Marçais, G. (1950). Art. Taza, In Encyclopédie de l'Islam, t.4.
27 - Sid Ahmed, Bouali (1984). Les deux grands sièges de Tlemcen dans l'histoire et la légende. E.N.L, Alger.

تأملات حول "تلمسان في خضمّ حركة الفكر المغاربي" بين القرنين الميلاديين الثاني عشر والرابع عشر[99]

د. محمد سهيل ديب
أستاذ باحث – جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر

ملخص

إن النشاط الحكمي[100] – بصفته عنصرا اجتماعيا، يعمل كهيئة مؤسساتية، من خلال برنامج تعليمي له محتوياته وتوجهه الإيديولوجي وغائيته، ويتكفل بتكوين فاعلين مؤهلين لتأطير هذا التعليم، عرف شيئا من الجفاف بعد الموحدين، ولم يتشكل واقعيا في العالم المغاربي الإسلامي إلا بعد استحداث المدارس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وذلك مع الزيانيين. لقد لعبت تلمسان دورا رائدا في هذا التوجيه الفكري العقلاني الجديد. وممن أسهم في هذا الدور، وشد انتباهنا، شخصيتي "الأبلي" و"أبو عبد الله التلمساني".

الكلمات الدالة: الفكر المغاربي، الحكمة، العقلانية.

للتمكن من فهم أهمية القرن الرابع عشر الميلادي، في خضم حركة الفكر المغاربي بصورة عامة، وكذا مدينة "تلمسان" بصورة أخص، لا بد من أن يكون مَعلمان تاريخيان حاضرين في الذهن، يتعلقان بالتصور العقدي والديني:

ـ إنه التصور الذي كان له التفوق الرسمي قبل النصف الثاني من القرن الثالث عشر، والذي يعود إلى وحدوية الموحدين التابعين لابن تومرت.

ـ وهو أيضا، التصور الذي سيعيد المذهب السني المالكي (بما فيه من مركبات جُنَيْدِيَّة وأشعرية) بدءا من النصف الثاني للقرن الثالث عشر عبر، وسائل النشر الأخرى الإيديولوجية، كالمدارس المؤسسة في تونس أولا، ثم في فاس، وأخيرا في تلمسان.

أكيد أن تلمسان لم تنتظر استحداث المدرسة الأولى، لتُفصح عن ميلها إلى المالكية، إذ أن "يغمراسن" كان قد أبدى ثلاثة عقود من قبل، كل التعاطف مع مذهب الإمام "مالك" وذلك بتحديق نفسه بكل العلماء ـ المثقفين منهم وأهل العقيدة ـ الذين ينحون نحو هذا الاتجاه.

---

99 - كتب المقال في الأصل بالفرنسية وقام بترجمته أ.د جمال الدين بوقلي

100 - أي من الحكمة، والحكمة هي فلسفة المؤسسة على عقيدة التوحيد عند المسلمين.

ولنسجل هنا إذن، أن طيلة أواخر القرن الثالث عشر، أخذ يرتسم نمط جديد في الخطاب، ليتحول إلى خطاب عقدي ديني، لا تَرضَى أطرُه باستلام المبادئ المِفتاحية للمهدوية باعتبارها معيارا مرجعيا للمواد الأساسية في التعليم الديني.

ما هو الدور الذي لعبته تلمسان في تأسيس هذه الأنماط وفي تجاوزها ؟

يبدو أن "المهدي بن تومرت" منذ إقامته بتلمسان، أدرك بنشاطه، القمَّة في مشروعه. وفيما بعد، ودائما في تلمسان، قام النشاطُ الأكثر نجاحا، لصالح المذهب السني المالكي ردا على المهدوية.

هكذا إذن، تظهر تلمسان، كما لو كانت بالتناوب، الموضع الأصلي للمذهب المهدوي الناشط، والموضع الذي يتخطى هيمنته. وفي ظلّ هذا المظهر، فإنها تتقدم لنا كفضاء مخصص للنهضة، وإعادة التجديد للمالكية بصورة أكثر تنوُّرا. وذلك عن طريق تدرج مضبوط للنشاط الفكري ألا وهو التعليم.

أما [هذا] التعليم، فسيكون مرادفا لنقد الخطاب العقدي الديني، ويعالج طبقا لسجلين :

الأول يتمَوْقع في مستوًى تربويّ يتكفل به "الأبلي" الأستاذ. والثاني يتمَوْضَعُ في المستوى المعرفي والاستكشافي، ويتولاه بالدرجة الأولى، "أبو عبد الله الشريف التلمساني" التلميذ.

ففيما يتعلق بـ"الأبلي"، فإن الأمر يتعلق مستقبليا، بتحديد العلاقات بين الشيوخ (أو بين خُطبهم) وبين جملة من المقاييس (اللسانية والخطابية والمؤسساتية) التي تنظم الإنتاج.

المثال الأول : العلاقة بين خطاب الأستاذ والمؤسسة :

إن "الأبلي" يحذر من تأثير الموظَّفين السامين على التعليم، لأن الخطاب في هذه الحالة، لا يرتجى منه، استهداف التوجه العلمي إذ سيتشوَّش بحكم اعتراض عامل أجنبي له. فلا بد بالنسبة إليه، من تحديد العملية المركزية للخطاب أو البيان، لأن ذلك يبيح كشف الرموز التي يعمل ضمنَها الخطباءُ. ثم إن رموز الوضع المرجعي، يكشف أحيانا، الخطاب ؛ وإنه لمن جواهر الأمور، أن نقوّم هذا الكشف، ونعيد تسجيل الخطاب في حدود المقاييس التي تضمن إنتاجه، وذلك لقياس علاقته بالحقيقة، والموضوعية، وتقدير مداه.

المثال الثاني : علاقة المعلم والمتعلم بالأداة التربوية.

ولما أضحى الكتابي الأداةَ التعليمية في قمّة الجوْدة، تعيَّن شرحُ توجيه النمط الجديد بشأن هذه الأداة في المعرفة، من طرف عملية نقدية ثلاثية :

ـ فلما استقل الكتابي عن الناسخ، فإنه أضحى يملك الاستطاعة ألا يؤمِّن تماسكَه

الداخلي. أما التلف إن هو حدث، فإنه يكون أخطر في ما إذا تعلق الأمر بآثارٍ ذات سلطة.

ـ ويمكن للكتابي (التأليف) استقطاب انتباه التلميذ (أو الشيخ) وإلغاء الصوت الملكي لتكوين الفكر عن طريق الرحلة.

ـ وفي هذا الشأن، يشكل الكتابي الشاشة الدائمة بين الحقيقة والفكر في الوقت الذي يظهر خطأ الناسخ.

بيد أنه لا بد من أن يكون حاضرا في الذهن، بأن الكتاب في حد ذاته ـ كإنتاج عقلي لمفكر ـ ليس هو الذي يشكل مرمى "الأبلي"، وإنما تسخيرات أدوية هي منبع تلف المعرفة والانحراف.

وإذا كان "الأبلي" يتمَوْقع في مستوى نقد وسائل المعرفة والعلاقة، بين السلطات العليا للنظام وسلك الأساتذة، فإن "أبا عبد الله الشريف التلمساني" من جهته، يخصص انتباهه لقيمة مضمون المعرفة، ويتمَوْقع من ثمة، في مستوى نقد المعرفة.

ومن هنا، نفهم أن الاهتمام المشترك بين هذين الرجلين العظيمين ـ الأستاذ والتلميذ ـ هو إحلال نمط نصي حيث يتحول الخطاب المرجعي إلى موضوع دراسة علمية ومعرفة موضَّحة، في مكان نمط خطابي قديم، وهو نمط يَعتبر الخطاب أو النص نموذجا قابلا للتقليد أو يعاد نقله.

ولد "أبو عبد الله الشريف التلمساني" في (1310م) وتوفي في (1369م). تلقى تعليم "الأبلي" بتلمسان في العلوم الشرعية، وعلم الكلام، وأصول الدين، قبل أن يهتدي إلى تونس حيث كان العالم الشهير "ابن عبد السلام"، يشرح مقالات "ابن سينا" وملخصات كتاب "أرسطو" التي حرَّرها "ابن رشد". وعندما عاد إلى تلمسان، أوجب على نفسه أن يقوم بالتعليم، ونشر العلم، فيما يخبرنا "ابن مريم"، في كتابه "البستانِ"[101]. وبلغت نجاحاته درجةً بحيث إن الديار المغاربية اكتظت بالطلبة، وأضحت بؤرة للأنوار. وعندما استولى المرينِيُّون على تلمسان، نُقل "أبو عبد الله" إلى فاس، ليكون طرفا في مجلس السلَطان العلمي، قبل أن يُعتقل بسبب رفضه الإقامة في أرض أجنبية.

وعلى إثر وفاة السلطان المغربي، أرجع الشريفَ الحاكمُ أبو حمو، بعد أن حرر تلمسان، ونصَّبه كأستاذ في مدرسة، أسسها من أجله، وهي المدرسة اليعقوبية.[102]

101 - ابن مريم (توفي في 1600)، مؤلف أورد فيه 182 سيرة لشخصيات مشهورة في تلمسان.

102 - هذه المدرسة التي كانت قبالة مسجد سيدي إبراهيم والتي لم تكن منفصلة معه سوى بفناء طوله 60 مترا، وقع تحطيمها من طرف الإدارة الاستعمارية. وحسب " ابن خلدون "، فإن هذه المدرسة " كانت مزوَّدة بمنبر مع صومعة مرصعة بالخزف الذي كان يحد الفسيفساء ".

إن عنوان كتاب هذا المفكر وهو "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول"، ينطوي على دلالة المقاربة العقلانية التي ينتمي إليها. ويعني الأمر في الحقيقة : بناءً " من بنى يبني ومعناه أيضا رفع " حكما (في التاريخ) على أساس مصدر أصلي. وفي الشأن القانوني، لا يمكن في رأيه، صياغة حكم إلا إذا رجعنا إلى حجة " مؤسسة بذاتها "، أي تلك التي مصدرُها هو القرآن والحديث.

أما الكتاب فإنه مركب بكيفية عقلانية بقدر ما هو مركب بكيفية ديداكتيكية. والشيء الذي يهمّ المؤلف هو ما هو ضروري للبرهنة الاستدلالية لعرض المبادئ الجوهرية لنظريته التي تدور فكرتها المركزية حول العلاقة بين الأصول (أي أصول الدين)، والفروع (أي الأحوال الخاصة الطارئة).

إن القيم الثابتة التابعة للأصول، إنْ هي أثبتت الوجه الجوهري لما هو مقدَّس، فلا بد من أن تكون بصورة مواتية مفهومة ومهضومة، لكي نتمكن على أساس دلالاتها الدقيقة، "بناء" القيم الجديدة (أي الفروع) التي أنتجتها تحولات التاريخ التي لَمْ ولنْ ينقطعَ العالَمُ الإسلاميّ، عن مواجهتها.

إن "عبد الله" يتموقع في نقطة الوصل بين منظورين. الأول هو المنظور الذي يعرض الأصول من وجهه المتكوّن ؛ وأما الثاني، فهو المنظور الذي يستوجب الفروعَ من وجهها المتكوَّن. وهوَ الأمر الذي يسمح بتقديم علوم الدين على أنها علوم في حالة التكوُّن، وذلك بفضل الاستثْراء المستمر الذي تجود به مواردُ أحداث الساعة.

ووسيلة هذه العملية، تكمن في رأي المؤلِّف، في نشاط العقل. إن الأمر يتعلق ببلوغ عقلانية تَكتشف في "الأصول" الطاقات الموضوعية، وليست الطاقات المصطنعة، والمصنوعة ـ أي القابلة للانحراف ـ والمسخرة لأن تخدم إيديولوجيات أكثر تخلفا.

ومن هنا، يتحتم الاعتراف بأن "أبا عبد الله"، يمنح الأولوية لهذه العملية المهمة التي تشكل الامتحان الأكثر قَطْعًا والذي يواجهه العالَم الإسلامي على الدوام من جهة أخرى : استكشاف حياة الناس الواقعية واستخلاص في نفس الوقت، القواعد الصورية لضمان تنظيم مجرى الوقائع.

وهذا يعني أن مفكرنا ينتقل من غير انقطاع، من أوضاع منغمسة في سياقها التاريخي، ويهيمن عليها الواقع الاجتماعي الحسي، إلى عمليات تركيبية صورية ـ إن صح القول ـ تطغى عليها عملية التنظيم المنطقي عند ملتقى طريقين : بين ما هو تقليدي، وما هو عقلي. وفي هذا المجال، فلا بد من أن يكون العقل الأداةَ الأساسية للعمل. وهو الأمر الذي يعمل على تقدّم مشكل النظام الأساسي، لمن هو أهل لإصدار حكم.

وإن نحن انطلقنا من مصدر تقليدي، فلا بد من أن نتساءل عن صحة سلسلة التواتر الخاصة بهذا المصدر، وعن قيمة مضمونه أمام تجربة زمان الناس الواقعي. وانطلاقا من هنا، فإن ما نسميه بعلم أصول الدين، يفرض نفسه بصفته شرطا، من شأنه أن يُضفيَ الشرعية على القيام بالحكم. وحاصل الكلام، هو أن السؤال الذي كان سيطرح هو : من هو الذي يرخص له صياغة حكم ؟

إن هذا التساؤل يقيم حاجزا ضد تأويل النصوص التقليدية على الهوى، وهو يتم تأويله باعتباطية كثيرا أو قليلا، وهي نصوص كانت لها الغلبة في مختلف العصور بحجة أو بأخرى، والتي كانت تحاول إخضاع الأحكام لمآرب خاصة. هذه هي مثلا، نتيجة الخلط بين المصلحة السياسية، والكلام المقدس.

يكتب "ابن مريم" في كتابه "البستان" أن "الشريف" كان يروّض طلبته على توضيح الأسئلة التي كانت غامضة. لقد كان الدليل والحجة يشكلان فيما كتب، الأساس الذي كان لا بد من أن يهتدي إليه كل استدلال. ولا يعقل، إن كان الفقهاء من كل فج عميق، داخل الديار المغاربية، "يوجّهون له الأسئلة المعضلة" من دون سبب، وهي أسئلة كان العصر يطلب بإلحاح، معالجتَها بصورة قاطعة، خشيةَ التحجُّر الاجتماعي.

فما كان سر "الشريف" ؟

إن شهادة يحي المطغري، وهو واحد آخر من أهل سِيَر العصر، له دلالة بذاته: "من بين المسالِك التي توصل إلى الحقيقة، فإن "أبا عَبد الله" يختار الأحسن. وعلمه الشاسع يشمل علوم الدين، بقدر ما يشمل المنطق، والحساب، وعلم الهيئة (الفلك)، والهندسة، والموسيقى، والطب، والتشريح، والفلاحة. وكان أميرا للمدرسة المالكية ؛ وكان يملك من الذكاء، والعلم، والتبحر في المعرفة، ما يمكّنه من وجود حلّ غير مسبوق "للمشكلة التي كانت تَطرأ.

هكذا إذن، لمْ تكنَ قراءة المصدر التقليدي من طرف هذا الأستاذ المفكر، ساذجة إذ أنه كان يقيم على الدوام همزة وصل بين كلام الماضي والكلام الذي يعمل على إظهار العصر الجديد. وإذا وقع له أن وقف ضد شكل من أشكال التفكير الذي تلجأ إليه فئات من الجهابذة المستنكفين، فليس ذلك لمجرد إرضاء نزواته الشخصية، ولا لمصلحة طائفية من شأنها إضفاءُ الشرعية لإيديولوجيا مجموعة على حساب أخرى، وإنما لأنه يعتقد اعتقادا عميقا، أن الفقه هو أيضا، فكر حيّ يخضع لحركة التاريخ، وأنه في أية لحظة من اللحظات، تتحتَّم الاختياراتُ، والقرارات على المجتمع.

إننا لنراه : إذا كان "أبو عبد الله" يُعَدّ كمجتهد، ويسمح لنفسه بالتملص من رأي أسلافه، فذلك لكونه ينعم بالقدرة على الإبداع، من دون أن ينفصل على الدوام، عن مبادئ القانون الأساسية. وهو إلى جانب ذلك، كان يسهر على

التمييز بين مقاربة صنفيْن من العلماء : "مؤولي القانون الأحـرار، ومؤولي قضية فقهية خاصة ".

وأكيد أن تاريخ المدرسة العقلانية في تلمسان، سيُحوّل إلى حساب هذا المفكر المتضلع، إسهامين لهما أهمية عظيمة، بالنظر إلى نقده لمضامين المعرفة :

الأول هو تعيين الغرض الذي تسعى العلوم إلى بلوغه : وهو يكمن في إعادة تنشيط المذهب السني المالكي، بشقيه الجُنيْديّ والأشعريّ في الديار المغاربية، مع تغاضي المقابلة بين خطابين متناقضين، أحدهما متساهل، يؤدي إلى التراخي وإلى دولة فوضوية، والآخر في غاية التشدد، ينتهي إلى شلَل كل مَوْرِدٍ تَنْبَجِس منه الحركة.

الثاني هو توفير وسائل تحقيق هذا الغرض مع تدقيق ثلاث نقاط منهجية : أولا، تحديد ما يعني هذا اللفظ أو هذا المفهوم، تحديدا دقيقا، في تحليل حالة فقهية مثلا ؛ ثم وضع نظرية عامة لحالات تُرَتَّب حسب مقياس التشابه أو الاختلاف فيما بينها ؛ وأخيرا، بناء نظرية عامة لمبادئ الاستدلال الذي يمكّن من حل الحالات التي تُظهرها الحياة الراهنة للناس ولتاريخهم.

والشيءَ الذي يجب تسجيله بشأن "أبي عبد الله"، هو أولا، ما أوحي إلينا من السياق الثقافي الذي على ضوئه يتعلل رد فعله وتفسيرُه. ولا بد من القول بأن الوضع الذي كان له الظهور في تلمسان وفاس وتونس في ذلك الوقت، هو أن المغاربيين كانوا لا يَحْصُرون اهتمامَهم إلا في قواعد اللغة، والفقه أو تفسير القرآن. فالعالم في علم العقيدة أو في الفقه، لم يكن في أغلب الحالات سوى مقلدٍ امتثاليٍّ، تنحصَر جهودُه في جمع "أحكام فقهية".

وفي المنظور، فإن لفظ عالم لا يعكس إطلاقا معنى "العِلم الإبداعي". ومن ذلك، فلقد كان الأمر للوصولَ إلى السلطة الفكرية الزمانية، يعتمد أكثر على التقوى منه، على العلم.

والفضل الأكبر الذي يعود إلى "أبي عبد الله"، بعد فضل أستاذه "الأبلي"، هو كونُه أعاد تقدير العلوم العقلية، ليصنع منها الأداة التي من شأنها أن تكيّف الفكر الدينيّ مع الحركة التاريخية للمجتمعات.

تقرير باربديث Barbedette
حول هجرة تلمسان لسنة 1911

أ.د. بشير يلس شاوش
جامعة السانية، وهران–الجزائر

ملخص

عرفت تلمسان سنتي 1910 و1911 هجرات سرية مكثفة للعائلات التلمسانية نحو بلاد الشام. حددت الصحافة عددهم بـ 1200 شخص من أصل 25000 قاطن بمدينة تلمسان وضواحيها وهو الأمر الذي جعل السلطات الاستعمارية تتحرك لتطويق الحادث وتبحث عن خلفيات هذه الظاهرة التي أمر الحاكم العام للجزائر بفتح تحقيق حولها. تضمن تقرير باربديث "Barbedette" نسبة إلى رئيس لجنة التحقيق، 32 صفحة أوعز فيه أسباب الهجرة إلى عدد من الشخصيات الفاعلة في المدينة من بينهم: المفتي جلول شلبي الذي حذر من خطر العيش وسط المشركين، وعدد من شيوخ الطريقة الدرقاوية منهم الشيخ كزبون والشيخ ابن يلس، والشيخ الهبري المتواجد بالمغرب والذي وفّر للمهاجرين الإطعام والإيواء ووسائل السفر إلى بلاد الشام. أما عن أسباب الهجرة، فمنها ما أقرّها التقرير بعد مناقشة مستفيضة بين أعضائه ومنها ما رفضها مثل الخدمة العسكرية الإجبارية، وقانون الأهالي، ونظام الضرائب العربية، والحراسة الليلية،وتمثيل الأهالي في الهيئات المنتخبة، والأزمة الاقتصادية في منطقة تلمسان، وسمواليهودي وغيرهم من الأجانب على المسلمين، ونظام المحاكم الجزائية، وتعليم الأهالي.

كشفت ظاهرة الهجرة التي عرفتها مدينة تلمسان عورة النظام الاستعماري بشكل عام، فبادر البرلمان الفرنسي بعد تلقيه معلومات حول الموضع، باستجواب الحاكم العام في جلسة عقدت يوم 31 ديسمبر 1912، فتح على إثرها نقاش حول حقيقة النظام الاستعماري في الجزائر.

الكلمات الدالة: الهجرة السرية، العائلات التلمسانية، الشام، الاستعمار.

مقدمة

عرفت مدينة تلمسان سنتي 1910 و1911 هجرات سرية مكثفة للعائلات التلمسانية إلى بلاد الشام بعد أن باعت ممتلكاتها بأثمان بخسة. اختلفت المصادر حول تقدير عدد المهاجرين. حددهم تقرير (جرمان صاباتيي) Sabatier Germain مثلا بما يزيد عن 800 شخص، أما صحيفة L'Echo d'Oran (صدى وهران)

فحددتهم بـ 1.200 شخص. كما اختلفت الآراء حول الأسباب التي حملت هؤلاء إلى أن يتركون ممتلكاتهم ويغادروا عائلاتهم. بعض المحللين الفرنسيين أرجعها إلى أسباب دينية بحتة، ومنهم من أرجعها إلى التجنيد العسكري الإجباري، أوإلى قانون الأهالي، إلخ. والحقيقة أنه لا يمكن إرجاع ظاهرة بهذا الحجم والخطورة إلى عامل واحد، وإنما تضافر هذه العوامل كلها هي التي أملت على هؤلاء موقفهم وسلوكهم من النظام الاستعماري تعبيرا عن مقاطعته. وأهم مؤرخ اهتم بهذه الظاهرة هو: شارل روبيرأجرون(Charles Robert Ageron).[1]

زاد عدد سكان تلمسان المسلمين حسب إحصائيات 1906 عن 25 ألف نسمة: 14 567 نسمة كانوا داخل أسوار مدينة تلمسان (intra muros) و10 966 نسمة بضواحيها. كان "أهالي" تلمسان مؤطرين بعدد من الزوايا حددتهم إحصائيات السلطات الاستعمارية سنة 1910 بسبع زاويا[2]، أصبحت كلها خاضعة لمراقبة مشددة من طرف السلطات الاستعمارية المحلية التي كانت تعدّ كل ستة أشهر تقريرا عنها وعن شيوخها وأعيان تلمسان. وعند الاطلاع على هذه التقارير من سنة 1907 إلى غاية 1912، لم يتجلّ أي حدث منبئ بما سيجري ابتداء من سنة 1910. بالعكس كانت هذه التقارير كلها "إيجابية"[3] تشير إلى وضعية هادئة.

لقد جاءت المفاجأة من الصحافة المحلية عندما كشفت جريدة Le Courrier de Tlemcen (بريد تلمسان) بتاريخ 22 سبتمبر 1911 نبأ رحيل العديد من العائلات

1- Charles Robert AGERON, L'exode de Tlemcen de 1911, Annales, Economies, Sociétés, 1967, n° 05, p. 1047 à 1066.
يذكر شارل روبير آجرون أن الهجرة نحو أرض الإسلام بدأت منذ السنوات الأولى من الاحتلال سنة 1832 ثم تواصلت سنة 1836 و1837 و1849و1860 و1870 و1871 و1874 و1875 إلخ. وأن كل أنحاء البلاد عرفت نفس الظاهرة. راجع ص. 1049 وما بعدها

2 - وهذه الزوايا هي:
- الزاوية القادرية الكوروغلية: مقدمها قارة وزان حمو بن محمد، تم هدمها بعد نزع الملكية للمنفعة العامة لفتح الشارع الوطني،
- الزاوية المدنية: مقدمها بورصالي العربي ولد محمد ولد جلول،
- الزاوية الدرقاوية: مقدمها يلس شاوش حاج محمد بن حاج علال، والزاوية الدرقاوة الهبرية: المقدم أوزين الحاج عبد القادر،
- الزاوية العيساوية: منعها في سنة 1909 من ممارسة شعائرها بسبب عروضها التي تقلق السلطات الفرنسية،
- الزاوية الطيبية، والزاوية التيجانية، والزاوية الكرزازية.

3 - Rapport 2ème semestre 1911, Les Archives d'Aix-en-Provence.
Rapport de l'administrateur détaché sur les confréries religieuses des communes de pleine exercice de l'arrondissement de Tlemcen (Sous Préfecture de Tlemcen), 2ème semestre 1910: «La situation exposée dans mes rapports semestriels de 1909 ne s'est pas sensiblement modifiée, les mokaddem des différentes confréries observent une attitude des plus respectueuses vis-à-vis des autorités et montrent en toutes circonstances leur désir de ne commettre aucun acte, de ne se livrer à aucune manifestation extérieure qui n'ait pas reçu au préalable notre approbation. Pendant le semestre écoulé les différentes confréries religieuses qui ont des représentants dans l'arrondissement se sont livrées à leurs pratiques ordinaires sans attirer l'attention des autorités…»
«Les ordres religieux que comptent des adeptes dans les communes de plein exercice de l'arrondissement n'ont au cours du semestre écoulé donné lieu à aucune remarque défavorable» Rapport 2ème semestre 1911, Les Archives d'Aix-en-Provence.

التلمسانية إلى المشرق[4]. وتبعا لذلك أمر الحاكم العام للجزائر بتاريخ 30 سبتمبر 1911 السلطات المدنية والعسكرية توقيف كل من يحاول مغادرة الجزائر، وتطبيقا لهذا الأمر تم القبض على العديد من الفارين من بلديات تلمسان والرمشي وندرومة وسبدو.

كما اهتمت جريدة L'Echo d'Oran بنفس الحدث عندما أوفدت مبعوثا لها إلى تلمسان وهوالصحفي: Eugène Gross (ايجان غروس) للتحقيق في الموضوع، فنشرت له مقالا مطولا بتاريخ 14 أكتوبر 1911 عالج فيه أسباب الهجرة وقدر عدد المهاجرين بـ1200 شخص واصفا الظاهرة بـ "وباء الهجرة". (épidémie de départs)

أدت هذه الحملة الإعلامية إلى تحرّك السلطات السياسية لتطويق الحادث والبحث عن الأسباب التي جعلت مئات الجزائريين يتخلون عن ممتلكاتهم ويغادرون نهائيا عائلاتهم. وكان أول جهاز رسمي تدخل، هوالمجلس العام لعمالة وهران (le Conseil général du département d'Oran) الذي كلف رئيسه السابق (صاباتيي) بالتحقيق في الموضوع.غير أن التقرير الذي أعدّ عالج ؛ حسب السلطات السياسية الفرنسية؛ أسباب الهجرة بنوع من الاستخفاف ولم يكن له صدى كبيرا. أخذت بعد ذلك السلطات المركزية بزمام الأمور فأمر الحاكم العام للجزائر بإجراء تحقيق آخر عين له لجنة ترأسها النائب (بربارديث) Barbedette Frederic

1 - تقريـر جرمان صاباتيي (28 أكتوبر 1911)

بعد التحقيق ميدانيا في الموضوع، حرر صاباتيي، تقريرا تلي على مجلس عمالة وهران خلال الجلسة المنعقدة بتاريخ 28 أكتوبر 1911. أكد التقرير ظاهرة الهجرة وقدر عدد المهاجرين بـ: 800 شخص. أكّد التقرير عدم نية المهاجرين في العودة إلى ديارهم بدليل أن بيع الممتلكات كانت بأبخس الأثمان (الربع من قيمتها الحقيقية). وعند تطرقه لأسباب الهجرة، أرجعها إلى تشكيلة المجتمع التلمساني المتكون من فئتين: الكراغلة الذين هم من أصل تركي، والحضر من أصل عربي أوبربري. وأن الفئة الأولى التي حافظت على علاقاتها مع السلطات التركية هي التي كانت المحرك لعملية الهجرة. وبذلك استبعد جميع الأسباب التي تقدم بها "الأهالي" واعتبرها غير جدية لكون السلطات الاستعمارية الفرنسية، حسب اعتقاده، ضحت دمائها وأغدقت أموالها على الجزائر. غير أن المجلس لم يقتنع بهذا

4 - Sous prétexte de conscription «nombre de familles, et des plus notables, de notre ville abandonnaient notre si belle colonie pour s'enfuir vers une autre patrie… l'exode des indigènes causera à notre colonie un préjudice fort considérable sous tous les rapports car malgré tout l'indigène n'est pas à dédaigner… Nous avons besoin des indigènes et nous devons empêcher leurs départs». Le courrier de Tlemcen du 22 septembre 1911.

التقرير وطلب بفتح تحقيق آخر حول الموضوع.
أمر الحاكم العام للجزائر(لوتو) Lutaud بتاريخ 15نوفمبر1911 بتشكيل لجنة كلفها بالانتقال إلى تلمسان لدراسة أسباب الهجرة وإعداد تقرير مفصل حول الموضوع. تشكّلت هذه اللجنة من خمسة أعضاء كلهم من الأوروبيين[5] يترأسهم باربداد وهوعضوفي المفوضية المالية La délégation financière. انتقلت هذه اللجنة إلى وهران يوم 16 نوفمبر ثم إلى تلمسان يوم 17، وبدأت أشغالها يوم 18 نوفمبر 1911. اتخذت من إحدى قاعات بلدية تلمسان مقرا لها واستدعت عددا من الشهود من بينهم رئيس بلدية تلمسان والمنتخبين الأوربيين والأهالي والمحامين والتجار وأعيان المدينة وضواحيها. كما نشرت اللجنة لافتة في مدخل البلدية تدعوفيها كل من يريد الإدلاء بشهادته أن يتقدم أمامها.

- مضمون تقرير لجنة باربديث

كان هذا التقرير، بالمقارنة مع تقرير صاباتيي، أكثر دقة، وأكثر جدية من الأول بالرغم من أن المقاربة الاستعمارية كانت هي المهيمنة. استمعت اللجنة إلى العديد من الأشخاص من أهالي تلمسان وأوروبيين ومسئولين للتعرف على أسباب الهجرة. يتضمن التقرير 32 صفحة حدّد فيه الأطراف المحركة لهذه الهجرة وعرض الأسباب التي أدت إليها وناقشها. يلاحظ أن معدي التقرير أبقوا على بعض الأسباب وكتموا أسبابا أخرى لأنها تتنافى مع المصلحة الاستعمارية.

- الأطراف الداعية للهجرة

من بين الأطرف التي دعت للهجرة المفتي شلبي جلول الذي كان يحذر في خطبه بالجامع الكبير بتلمسان منذ سنة 1908 المسلمين من خطر العيش في وسط "المشركين". وعملا بهذا المبدأ أرسل ابنيه اللذين كانا في سن الخدمة العسكرية إلى المشرق بدون ترخيص من السلطات الفرنسية وهذا خوفا من أن يجندا ضد إخوانهم المغاربة.
وأشار التقرير إلى دور الطريقة الدرقاوية في الدعوة للهجرة والتي كان على رأسها الشيخين : كزبون وابن يلس. تقدم الشيخ كزبون في سنتي 1903 و1904 بخمسين طلب رخصة للسفر إلى المشرق لكنها رفضت كلها. وفيما يخص الشيخ ابن يلس الحاج محمد[6] الذي ورد اسمه خمس مرات في تقرير (بربادیث)، تقدم هوالأخر في

5 - تتشكل هذه اللجنة من موظفين ساميين الأول مستشار مساعد للحاكم العام للجزائر والثاني رئيس ديوان الحاكم العام، ومن موظفين أحدهما مترجم.

6 - وردت في بطاقة المعلومات الخاصة بالشيخ بن يلس المحررة من طرف السلطات الاستعمارية بتاريخ 6 ديسمبر 1910 المعلومات التالية: أنه تم تعيينه كمقدم على الزاوية الدرقاوية من طرف الشيخ محمد الهبري من بني زناسن منذ 16 أو 17 سنة، وأنه لم يتحصل على الترخيص من الحاكم العام للاجتماع في الزاوية إلا بتاريخ 3 أكتوبر 1910، وأن هذا الترخيص يقتصر على الاجتماع من أجل الذكر ولا يشمل التعليم، وأن عدد المنخرطين فيها 300 عضوا، وأنها الزاوية الوحيدة التي كانت تستقبل النساء.

سنة 1908 بالعديد من الطلبات (لم يحدد التقرير عددها) إلى السلطات الفرنسية قوبلت هي الأخرى بالرفض. كما أنه حاول مرتين مغادرة الأراضي الجزائرية إلا أنه لم يفلح إلا في المرة الثالثة عندما تمكن من الالتحاق بجبل طارق. وكان الطرف المدعم لحركة الهجرة الشيخ الهبري الذي كان متواجدا بالمغرب وذلك بتوفيره الإيواء ووسائل النقل للمهاجرين في طريقهم إلى المشرق عبر المغرب. والجدير بالملاحظة أن الزوايا كانت تشكل التنظيم الوحيد في المجتمع الجزائري الذي كانت له القدرة على التصدي فكريا وسياسيا للنظام الاستعماري وهذا بحكم عددها وانتشارها على مستوى البلاد بكامله وكذلك بسبب نشاطاتها التعليمية من أجل المحافظة على الهوية الجزائرية. صنفت هذه الزوايا الأوروبيين المحتلين، ضمن " المشركين" الذين لا يجوز التعامل معهم ودعت إلى مقاطعتهم. ونظرا للخطورة التي شكلتها هذه الزوايا على النظام الاستعماري، كانت محل مراقبة مشددة من طرف مختلف السلطات. أصدر الحاكم العام للجزائر، المدعو CHARON (شارُو)، بتاريخ 31 مايو1849 منشورا يأمر فيه محافظي عمالتي وهران وقسنطينة بمتابعة نشاطات الزوايا التي وصفها بالعائق الرئيسي في وجه الهيمنة الاستعمارية. ولمقاومة هذا التنظيم وللحد من مخاطره حدد الوسائل الواجب استعمالها لمواجهتها[7].

وفي سنة 1897 فتح ملف الزوايا من جديد فأعدت دراسة معمقة حول الزوايا بغية التحكم فيها والسيطرة على شيوخها. أجريت هذه الدراسة بإيعاز من الحاكم العام للجزائر (جول كامبون) Jules Cambon وتم نشرها في شكل مجلد تحت عنوان: " Les confréries religieuses musulmanes"[8].

حللت هذه الدراسة وضعية الزوايا بالنسبة لكل منطقة من مناطق البلاد من حيث أنواعها، وعددها في كل منطقة، وعدد المنخرطين فيها، وطرق تمويلها والنشاطات الدائرة بداخلها[9] كما ترجمت إلى اللغة الفرنسية المدائح للتعرف على مضمونها ومقاصدها. وانتهت هذه الدراسة باقتراح جملة من الحلول ترمي

7« Un des premiers mystères à pénétrer, c'est celui qui enveloppe encore aujourd'hui l'organisation des sectes religieuses auxquelles nous avons constamment vu jouer le rôle principal dans les révoltes depuis la conquête, et qui, par la solidarité qui unit leurs membres dans tous les pays musulmans, forment les obstacles les plus sérieux que nous avons à vaincre pour nous établir convenablement dans le pays ». « Presque tous les indigènes sont affiliés à un ordre religieux », circulaire du GGA n° 673 du 31 mai 1849.

8 - Sous le patronage de JULES CAMBON, Gouverneur général de l'Algérie, OCTAVE DUPONT ET XAVIER COPPOLANI, Les confréries religieuses musulmanes, Alger, 1897. L'étude tente de démontrer l'importance du rôle des confréries et la nécessité de le contrer: « Il est avéré que la force religieuse, mue par les confréries, est dans ce pays, la seule force qui soit encore capable de remuer les masses, nous devons chercher à nous en emparer, pour en faire un auxiliaire dans l'accomplissement de notre pénible tâche. », p. 281 ; ou encore: « Les confréries sont les véritables ressorts de la société musulmane. », p. 283.

9 - أحصى التقرير عدد الزوايا بـ 349 زاويا، و295.189 عضو منخرط رسميا، ص, 214. انظر ص. 276.

في نهايتها إلى تفتيت الزوايا (désagrégation des confréries) من أجل التحكم فيها. وتكمن هذه الحلول على الخصوص في سياسة الإغراءات بمنح شيوخ الزوايا قدرا من الحرمة الرسمية المتمثلة في "البرنوس الأحمر" و"الأوسمة"، ومنحهم قيادة الدواوير وأضفت عليهم السلطات الإدارية نوعا من المصداقية تعزّز بها سلطتهم تجاه بني جلدتهم. كما تكمن هذه الحلول في السيطرة على الأماكن الدينية عن طريق مساهمة الإدارة في بنائها أو ترميمها، أو بناء زاوية محاذية لها حتى يتسنى لها وضع قدم لها داخل الزاوية[10] المناوئة للاستعمار وبالتالي السيطرة على قيادتها[11].

وتطبيقا لهذه السياسة، أخضعت هذه الزوايا لنظام قانوني صارم يتمثل في الترخيص المسبق لنشاطاتها من قبل الحاكم العام للجزائر نفسه (الترخيص بفتح الزاوية، الترخيص بنوعية النشاط، حظر التعليم والاكتفاء بالذكر، الترخيص بتحصيل الزيارة، الترخيص للسفر[12]، الخ). كما فرضت عليها رقابة مشددة كلفت الإدارة المحلية بممارستها وتقديم تقرير كل ستة أشهر للسلطات المركزية حول نشاطات هذه الزوايا وتقارير أخرى عن أعيان بعض شيوخها يقومون بدور المحرك الرئيسي في عملية الهجرة. لقد أكدت الدراسة التي أجراها Octave dupont et Xavier Coppolani على دور الطريقة الدرقاوية على الخصوص في مقاومة الهيمنة الاستعمارية[13]، لكن تقرير (بربابديث) وإن أشار هو الآخر إلى هذا الدور إلا أنه سكت عن الدوافع التي أدت بها إلى انتهاج هذا الموقف الجذري.

---

10 - «Après avoir capté la confiance des directeurs de ces zaouia, en faisant preuve de bienveillance, on pourrait les amener en les subventionnant, au besoin, à édifier, au nom de l'Etat, un bâtiment contigüe à leur sanctuaire – bâtiment qui deviendrait la base des opérations de nos agents en vue de substituer, progressivement, notre action sur la masse, à celle du santon qui la dirige… Nous mettrons ainsi un pied dans la maison sans crainte de blesser le fanatisme farouche de ceux qui en ont la garde.», Les confréries religieuses musulmanes, ouvrage précité, p. 285.

11 - «Constituer un clergé régulier entièrement entre nos mains… qu'il nous sera possible de destituer nous-mêmes ou de (le) faire destituer par leurs chioukh».

12 - يجدر من أن مقدم الزاوية الدرقاوة الهبرية، الشيخ أوزين الحاج عبد القادر، حكم عليه بالسجن سنة 1892 بسبب مرافقته للشيخ الهبري إلى الحج دون رخصة إدارية.

13 - Parlant des Derkaoua, il est écrit: « Les Derkaoua, association mystérieuse de fanatiques redoutables, ennemie de tout pouvoir et qui ont souvent une grande influence par leur vie austère et leur zèle exagéré pour la pratique de leur religion ». « A l'ouest, les Darkaoua avec leurs zaouïa jalonnées sur la frontière marocaine, poursuivent leur œuvre d'obstruction intellectuelle, multiplient le nombre de leurs affiliés et nous suscitent sans cesse des ennemis ; les Ziania et les Kerzazia, tout en se montrant dociles lorsqu'il s'agit de percevoir la ziara dans l'étendue de notre territoire, se maintiennent dans une prudente réserve ». « … Dans tous les mouvements insurrectionnels dont l'Algérie et le Maroc ont été le théâtre depuis la formation de la confrérie, on a trouvé la main de ces sectaires farouches, de ces hommes en haillons, ces puritains de l'Islam, ces derouichs fanatisés par des prédications ardentes que sont les Chadelïa-Derkaoua. », Les confréries religieuses musulmanes, ouvrage précité p. 504 et 505.

- أسباب الهجرة

استعرض التقرير مختلف الأسباب التي طرحتها الأطراف التي استمتعت إليهم اللجنة، وناقشها ورد عليها. ويمكن تلخيص هذه الأسباب في دوافع مباشرة تتمثل في رفض التجنيد العسكري الإجباري، ودوافع غير مباشرة أفرزتها طبيعة النظام الاستعماري القائم على التمييز العنصري الذي كان يعاني منه المجتمع الجزائري.

- الدافع المباشر: الخدمة العسكرية الإجبارية

صدر بتاريخ 17 جويلية 1908 مرسوم تضمن تحديد قوائم الإحصاء للشباب المسلمين الذين يتراوح سنهم بين 18 و25 سنة للتجنيد العسكري الإجباري. وقد أثار هذا المرسوم غضب المسلمين الجزائريين، ولمقاومته تظاهر يوم 19 ديسمبر 1908 أكثر من 2.000 شخص أمام دائرة تلمسان للتعبير عن رفضهم للتجنيد الإجباري، وأودع المتظاهرون في نفس الوقت 321 طلب جواز سفر للسماح لهم بمغادرة الجزائر في اتجاه سوريا مع عائلاتهم. ولتهدئة الوضع ادعت السلطات الفرنسية أن ما قامت به ليس تجنيدا وإنما مجرد عملية إحصاء من أجل دراسة الموضوع.

ويرجع سبب موقف الجزائريين من التجنيد الإجباري، رفضهم الخدمة العسكرية تحت راية "المشركين"، وتخوفهم من المصاعب التي سيتلقونها عند ممارسة شعائرهم الدينية، وقد يأتي يوم يلزمون فيه بتصويب أسلحتهم ضد إخوانهم المسلمين. وسبق لوزير الحربية التعقيب على الدعوى للهجرة بزعمه عدم استعداد "الأهالي" للهجرة الجماعية تاركين عائلاتهم وأموالهم[14].

بعد تحذيرات المفتي شلبي جلول المسلمين من خطر العيش في وسط "المشركين" ودعوة الطريقة الدرقاوية مريديها إلى الهجرة، وقع نهاية سنة 1910 حدث مهم تمثل في المغادرة المفاجئة وبدون جواز سفر لـ "قايد" لم يذكر اسمه صحبة 27 شخصا. وفي نفس الفترة غادر السيد لخضر "قايد" دوار الشولي هو الآخر مع زوجته وأخته و11 طفلا في اتجاه سوريا. شكل هذا الحدث مفاجأة بالنسبة للسلطات الاستعمارية على اعتبار أن "القايد" كان يحظى بثقة كبيرة لديها. وترجع أسباب رحيله حسب التقرير إلى معتقداته الدينية، ورفضه المساهمة في وضع القوائم الإحصائية للشباب المطالب بالخدمة العسكرية. كما كان لهذا الحدث أثر كبير على سكان تلمسان وضواحيها بالنظر إلى وضعيته والامتيازات الخاصة التي كان يتمتع بها، وكذلك بسبب المراسلات التي بعثها إلى أهله يذكر فيها حسن

14 - « Craintes puériles, menaces vaines ! Quel indigène consentira à abandonner définitivement sa famille, son foyer et ses biens pour fuir l'étranger ? ».

الاستقبال والمساعدات التي حظي بها من طرف السلطات التركية بسوريا، وعبّر عن استعداد هذه الأخيرة في استقبال مهاجرين آخرين. كما سجلت هجرة 17 شاب من بينهم ابنان لمفتي تلمسان في سن الخدمة العسكرية. وارتفعت وتيرة الهجرة السرية بصدور مرسوم ثان في 28 فبراير 1911.

بعد عرضه لهذه الوقائع المرتبطة بالتجنيد العسكري، خلص تقرير (بربراديث) إلى نتيجة مفادها أنه يحق للسلطات الفرنسية إلزام رعاياها، بما فيهم المسلمين، بتأدية ضريبة الدم، أي الخدمة العسكرية الإجبارية. هذا من الناحية المبدئية، لكنه دعا في نفس الوقت إلى جعل هذا التجنيد اختياريا، إلا إذا كانت المصالح العليا للدولة تقتضي غير ذلك. أما عن التجنس الجماعي بالجنسية الفرنسية للـ "أهالي المسلمين" كتعويض عن الخدمة العسكرية الإجبارية، فإن تقرير (بربراديث) رفضه رفضا قاطعا[15].

- الدوافع المترتبة عن النظام الاستعماري القائم على التمييز العنصري

تكمن في (قانون الأهالي) وفي التمثيل السياسي للأهالي وحق التعليم وبصفة عامة في المركز القانوني والاجتماعي للمسلم في بلاده.

- **قانون "الأهالي"**: وهو قانون وضع خصيصا للـ" الأهالي" المسلمين أنشئت بموجبه عدة أصناف من المخالفات رتب لها نوعان من العقوبات: غرامة يتراوح مبلغها بين فرنك واحد و15 فرنك والحبس من يوم إلى خمسة أيام. تطبق هذه العقوبات بصفة آلية بمجرد معاينة الخطأ من طرف الإدارة وحسب إجراءات تنعدم فيها حقوق الدفاع. دعت لجنة التحقيق إلى إلغاء هذه العقوبات بالنسبة للبلديات كاملة الصلاحيات (البلديات الحضرية حيث مستوى التعليم مرتفع) والإبقاء عليها بالنسبة للبلديات المختلطة (أي الريفية).

- **المحاكم الجزائية**: تتشكل هذه المحاكم في غالبية الأحيان من أعضاء مسلمين أميين ليس بإمكانهم متابعة المناقشات والتماسات النيابة العامة، الأمر الذي جعل رئيس المحكمة يتصرف لوحده في القضايا المطروحة.

15 - « Quant à la naturalisation collective des indigènes… comme compensation possible au service militaire obligatoire, la commission ne saurait l'admettre à aucun prix ». La commission nommée par le ministre de la guerre a exprimé la même attitude: « l'incorporation des indigènes algériens ne pourra, jamais, nous devons l'espérer, avoir pour conséquence leur admission aux salles de vote ». p. 47. Dans sa déposition devant la commission, le préfet d'Alger déclarait: « leur rêve serait grâce à la puissance du nombre, de noyer les voix françaises, d'accaparer toutes les fonctions électives et de reconstituer une sorte de principauté ou de république arabe ». p. 48. « La naturalisation collective des indigènes, avec maintien du statut personnel, aurait pour conséquence inéluctable à bref délai, l'exode de presque tous les français ». p. 48. Et le rapport BARBEDETTE se termine par cette conclusion: « C'est en conférant l'intégrité du droit électoral aux africains sous Caracalla, que l'empire romain a achevé sa décadence et sa ruine ».

- **الضرائب العربية** : التي أصبحت ترهق كاهل المسلمين لكونها تشكل في حقيقتها ضرائب على رأس المال وليس على الدخل الذي ينتجه رأس المال كما تطبق بطرق غير عادلة مما يؤدي إلى إفقارهم.

- **الحراسة الليلية** : تفرض البلدية على "الأهالي" الحراسة الليلية الإلزامية والمجانية مرة كل ثلاثة أشهر. الأشخاص الذين ليس لهم ممتلكات يحرسون أملاك الغير بدون مقابل وهذا بعد أوقات عملهم المرهق. دعت لجنة التحقيق إلى إلغائها لانعدام تأسيسها قانونا.

- **تمثيل الأهالي في الجمعيات المنتخبة** : وهو تمثيل ضعيف جدا بالمقارنة مع المحتلين الأوروبيين واليهود. اكتسب الأوروبيون من غير الفرنسيين الجنسية الفرنسية بصفة آلية الأمر الذي سمح لهم بالمشاركة في جميع الانتخابات. في حين لا يمكن في انتخابات المجالس البلدية أن يتجاوز عدد ممثلي المسلمين 6 أعضاء مهما كان عدد سكان البلدية المسلمين، كما لا يمكن لهم المشاركة في انتخاب رئيس البلدية.

كما تظلم المسلمون الجزائريون من سمو اليهودي وغيرهم من الأوروبيين على المسلمين بحيث تم تعيين الكثير من اليهود ضمن رجال الشرطة البلدية بتلمسان، وعند وجود نزاع بين يهودي ومسلم يدان هذا الأخير تلقائيا[16].

- **تعليم "الأهالي"** : تظلم "أهالي" تلمسان المسلمون من رداءة التعليم. اعتبرت لجنة (بربارديث) التعليم أخطر مشكل مطروح في الجزائر، فتساءلت بداية عن نوع التعليم الواجب تلقينه للـ "أهالي" المسلمين. وانتهت إلى نتيجة أنه ليس من مصلحة فرنسا أن توجه أبناء "الأهالي" إلى التعليم الثانوي، ولا إلى التعليم العالي، بل لا بد من تلقينهم حب العمل اليدوي واحترامه لأن الفجوة الفكرية والحضرية بين الأوربيين و"الأهالي" الجزائريين كبيرة جدا لا يمكن تغطيتها في

16 - « Il est inadmissible que nous, enfants du pays, nous ayons une situation inférieure au point de vue des impôts, de la justice et de la représentation dans les assemblées élues à celle des juifs, des anciens esclaves et des étrangers, ces derniers venus. », Rapport BARBEDETTE, p. 32.

جيل واحد وبالشهادات[17].

- **الأزمة الاقتصادية لمنطقة تلمسان** : منذ تمديد خط السكك الحديدية إلى غاية الحدود المغربية، فقدت مدينة تلمسان مركزها التجاري الهام والمتميز لفائدة وهران. ضف إلى ذلك عجز الوحدات الصناعية الصغيرة المحلية من مواجهة المؤسسات الأوربية. لقد جاء في تقرير (بربابديث) على سبيل المثال من أن سعر الجلابة المصنعة في تلمسان يتراوح بحسب جودتها بين 10 و18 فرنك، بينما تلك المصنعة في أوربا لا يزيد سعرها عن 5 أو 6 فرنك. وبذلك يكون مآل المنتج المحلي الإفلاس والفقر.

يلاحظ على تقرير (بربابديث) أنه بالرغم من تفهمه لبعض المعانات التي اشتكى منها "أهالي" تلمسان واقتراحه حلولا لها، إلا أنه بقي متمسكا بالثوابت الأساسية التي يقوم عليها النظام الاستعماري والمتعلقة بحق التعليم والحقوق السياسية (حق الترشح وحق التصويت على مختلف المستويات) الذي تمسك بتضييق نطاقها.

الخاتمة

كانت لظاهرة الهجرة بالحجم الذي عرفته مدينة تلمسان نتيجتان على الأقل لابد من الإشارة إليها. أولا، أنها كشفت حقيقة النظام الاستعماري القائم على التمييز العنصري ومحاولة محو الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، وهذا خاصة عندما تناولت الصحافة المحلية والمركزية هذا الموضوع وأعطت له صدى واسعا على المستوى الوطني والدولي. وهو الأمر الذي اضطر المؤسسات السياسية المحلية والمركزية الاهتمام بالموضوع، كتدخل مجلس عمالة وهران ثم الحاكم العام للجزائر. وتعدى بعد ذلك المشكل حدود الجزائر نظرا لخطورة الحدث فوصل صداه إلى البرلمان الفرنسي بباريس الذي بادر باستجواب الحاكم

17 - «Espérer que l'instruction donnée dans nos écoles puisse, en quelques années combler l'abîme qui sépare les mentalités française et musulmane, constitue une des plus funestes illusions que des théoriciens de la raison pure aient jamais enfantées. On fera d'un indigène algérien, grâce à sa vive intelligence, à ses facultés de mémoire remarquables, un bachelier ou même un docteur, on n'arrivera pas, dès la première génération, à lui inculquer les habitudes, les formes de la pensée, la logique, le caractère qui sont chez nous le fruit d'une suite infinie d'influences ancestrales. Ne pouvant songer à faire franchir aux indigènes, d'un seul bond, les étapes qui séparent la mentalité française de la mentalité arabe, il ne semble que nous ayons avantage à orienter trop brusquement le plus grand nombre d'entre eux vers l'enseignement secondaire, ni vers l'enseignement supérieur. Ce que nous devons développer sur toute la surface du pays, dans les douars comme dans les villes, c'est la connaissance du français, l'écriture, la lecture, le calcul et, par-dessus tout, le goût et le respect du travail manuel. Au lieu d'augmenter le nombre des diplômés dont beaucoup seront condamnés à devenir des déclassés et des mécontents, armons les indigènes pour la lute économique, apprenons leur ce qui est aujourd'hui indispensable pour gagner leur vie dans un milieu de libre concurrence », Rapport BARBEDETTE, p. 40.

العام في جلسة يوم 31 ديسمبر 1912 حول هجرة تلمسان. فتح البرلمان نقاشا حول الموضوع وقيمت خلاله السياسة الاستعمارية ووجهت لها انتقادات شديدة لكن دون وضع اقتراحات ملموسة من شأنها تغيير طبيعة النظام الاستعماري.
أما النتيجة الثانية فتمثلت في الطابع السياسي للهجرة وعزم الجزائريين على الدفاع عن هويتهم العربية الإسلامية. وبذلك استخدمت الهجرة كسلاح سياسي سلمي في غياب شروط المقاومة المسلحة وحرمانهم من الوسائل القانونية لدخول المعترك السياسي المحظور عليهم.

المراجع

1 - Charles, Robert Ageron (1967). L'exode de Tlemcen de 1911. Annales, Economies, Sociétés, n° 05, p. 1047 à 1066.
2 - Charles, Robert Ageron(1968). Les algériens musulmans et la France (1871-1919). Tome 1 et 2, PUF.
3 - Charles, Robert Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. Tome II.
4 - Octave, Dupont et Xavier, Coppolani (1897). Les confréries religieuses musulmanes. sous le patronage, Jules Cambon, Gouverneur général de l'Algérie, Alger.
5 - Les Archives d'Aix-en-Provence.

الملحق

منشور شارو بتاريخ 31 مايو 1849 يأمر فيه محافظي عمالتي وهران وقسنطينة بمتابعة نشاطات الزوايا

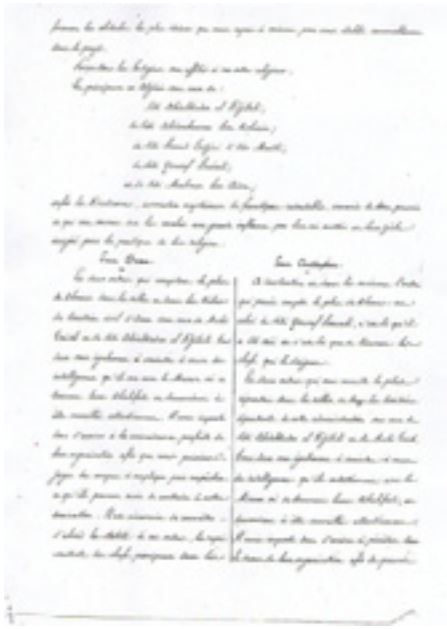

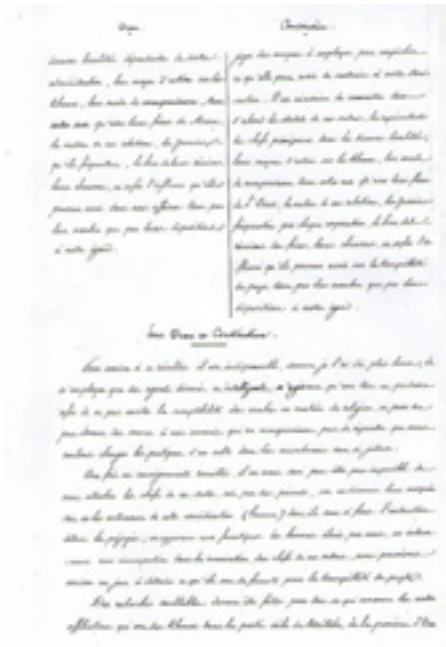

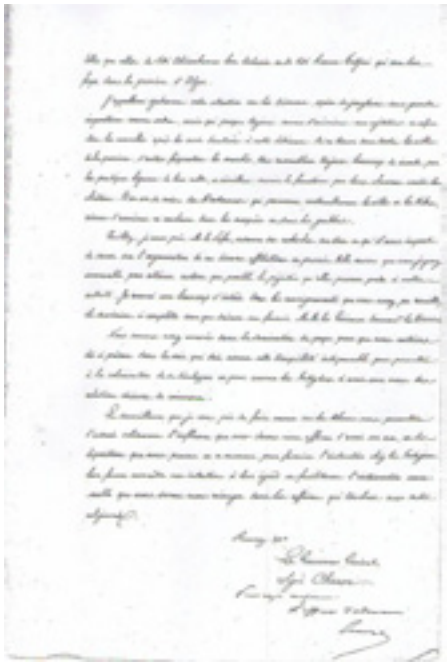

مكانة الجزائريين في الحركة الفكرية (التصوف) ببلاد الشام مهاجرو تلمسان أنموذجا

سهيل الخالدي
كاتب وباحث – دمشق

ملخص

يتناول هذا البحث الدور الذي قام به المهاجرون الجزائريون (التلمسانيون أنموذجا) من تلمسان وضواحيها في بلاد الشام حيث كان لهم دور في الجانب الديني والثقافي، اضطلعوا به ضمن دورهم في الفكر القومي العربي الإسلامي. لقد صنع الجميع من سوريين ومهاجرين جزائريين التاريخ السوري- الجزائري المشترك خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد، وصاروا مواطنين سوريين بقدر ما هم جزائريين. والملاحظ أن الشام عرفت التصوف القادم من بلدان المغرب العربي وفي طليعتها الجزائر، تصوفا نضاليا ضد الظلم والغزو الأجنبي، وليس وسيلة تخدير للجماهير كما أراده ويريده السياسيون في الأمس واليوم.

الكلمات الدالة: المهاجرون التلمسانيون، الشام، التصوف.

1 -الدور الفلسفي والسياسي والشعبي للتصوف في العالم الإسلامي

بدأ التصوف الإسلامي على يد نخبة من الفلاسفة الدينيين يقضون وقتهم في تأمل الخالق ويسعون إلى مزيد من المعرفة عنه عبر الارتباط الروحي. ومن أمثال هؤلاء الحلاج. وكانت العزلة والبعد عن الناس ومباهج الدنيا ومكاسبها الطابع الأساسي لهؤلاء العابدين فاكتسبوا إعجاب ومحبة وثقة الناس وتبجيلهم العالي، وقد أثرى هؤلاء بتأملاتهم وأشعارهم الكثير من الجوانب الروحية للإسلام، وكان تأثيرهم في الناس عظيما. فالتصوف يعتبر جزءا أساسيا في التراث الإسلامي، والاهتمام به قديم، وتناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري وغيرهم، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن خلدون، وتجادل فيه فقهاء ومستشرقين. والتصوف ليس ظاهرة إسلامية خاصة فقد عرفته ديانات سابقة مثل المسيحية والهندية والفارسية والفلسفة اليونانية. وبشكل خاص الديانات الفرعونية حيث يعتقد البعض أن مصر هي منشأ التصوف والتصوف الشعبي بشكل خاص باعتبار أن المصريين كما قال المؤرخ اليوناني هيرودوت أكثر شعوب الأرض تدينا.

وقد ارجع بعض المؤرخين مصطلح "التصوف" إلى رجل زاهد متعبد في الجاهلية كان يلقب بـ: (صوفة) واسمه هو الغوث بن بركان أو في رواية أخرى الغوث بن مر، كما أشار الزمخشري في أساس البلاغة، والفيروز آبادي في قاموسه المحيط إلى أن قوماً في الجاهلية سموا بهذا الاسم وكانوا يعبدون الله في الكعبة ومن تشبه بهم سمي صوفي. ومنهم نشأت فئة الحنفاء مثل ورقة بن نوفل. ولا يزال هناك خلاف واسع حول التسمية في اللغة العربية.

(وقد اختلف في أصل كلمتي صوفية وصوفي، فقد أطلقت الأولى على هذا العلم والثانية على المتحقق به، واستعملت كلمة تصوف للدلالة على السلوك... وكلمة متصوف للدلالة على السالك في الطريقة).[1] ويرى البعض أن التصوف علم فلسفي لا يعتمد التجريب مثل باقي العلوم بل يؤمن بالحدس، لذلك فهو لا يستخدم مناهج الفلسفة في العقل، ولا مناهج العلماء (الملاحظة والتجربة)، بل هو منهج يعتمد الكشف أي المعرفة المباشرة بالله دون وسائط وبالتالي فهو عطية إلهية لا ينالها من لم يعطها له الله مهما كانت معرفته أو مكانته، وحتى يمكن للصوفي أن يحظى بالكشف والمعرفة المباشرة من تدريب نفسي شاق وطويل لا يقوى عليه إلا القلة القليلة من المباشرين وبعد كل هذا الشقاء لا يضمن المتصوف أنه وصل إلى الكشف. ويقوم هذا التدريب النفسي والبدني المعجز على قواعد ثلاث هي:

- الزهد، بما يعنيه من ترك الدنيا بكل متاعها ومتعتها وحالها وقالها والتفرغ للآخرة.
- الولاية، وهي تشبه فكرة الإمامة في المذهب الشيعي، والولاية تبدأ من النقابة وصولا إلى درجة الغوث؛ حيث الكرامات والخوارق والمسؤولية على حفظ الكون كله وليس المجتمع فقط. ومن هنا كانت للولي في أي طريقة صوفيه سطوته. حيث يكاد يكون نسخة ما من الفرعون المقدس أو نسخة قريبة من الألوهية كما في الأديان اليابانية حيث أن الملك هو سليل الإله (الشمس) فلا أحد يخرق إرادته.
- المحبة، وهي محبة الله بل الذوب فيه، ومحبة الناس كل الناس بدءا من الزملاء في الصوفية والتفاني من اجلهم وهذا يعني مجموعة لا تنتهي من خصال التسامح.

- نشأة التصوف

نشأ التصوف الإسلامي كعلم مدون بعد نشوء وتدوين العلوم في الصدر الأول كعلم النحو وعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين؛

1 - فاطمة، الحسنية اليشرطية (د. ت). رحلة إلى الحق. (د.ط)، نسخة موجودة في مكتبة الأسد بدمشق تحت رقم30148 ص 17.

والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض الميراث" وغيرها.

وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

– الحارث المحاسبي، المتوفى سنة 243 هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.

– أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة 277 هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله.

– أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفي سنة 378 هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف.

– أبو بكر الكلاباذي، المتوفي سنة 380 هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.

– أبو طالب المكي، المتوفى سنة 386 هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.

– أبو قاسم القشيري، المتوفى سنة 465 هـ، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.

– أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505 هـ، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر كتب التصوف ومن أجمعها. ومن المعروف أن الغزالي اعتكف في دمشق بالجامع الأموي في الزاوية المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه.[2]

ويرجع المتصوفة أورادهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الصحابة فيقولون انه كان يخص بعض أصحابه بورد يتفق مع درجة الصحبة وحال الصاحب، وخاصة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي اختصه بورد النفي والإثبات، وأبو بكر الذي اختصه بورد الإسم المفرد ثم أخذ عنهما بعض من التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية. حتى التقتا عند الإمام أبي القاسم الجنيد، ثم تفرعتا إلى الخلوتية، والنقشبندية. واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة: الرفاعي، الجيلاني، البدوي والدسوقي الذين شيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم. وتوجد اليوم طرق عديدة جدًا في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة. إضافة إلى أوراد أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية والتي تعتبر أوراده جزءًا من أوراد أي طريقة موجودة اليوم.

ومن الملاحظ إن التصوف انتقل إلى بلاد المغرب العربي والأندلس من المشرق،

2 - ابو حامد، الغزالي. إحياء علوم الدين. (د.ت) م1، ط3، ص5، دار الفكر، بيروت.

لكنه ازدهر فيها سواء لجهة توسعه أو لجهة عمق تأثيره في الناس خاصة في القرن السابع الهجري على يد محيي الدين بن عربي الذي أثرت كثيرا في الحياة الصوفية في المشرق العربي بعد هجرته إلى دمشق. وكان المشارقة يكنون احتراما عاليا لمتصوف آخر سبقه في العهد الأيوبي هو أبومدين شعيب الذي اثر في الحياة الصوفية في المشرق بعد إقامته في القدس.

وأحب أن أشير هنا إلى حقيقة يقفز عنها كثير من مؤرخي هذا الزمان من مغاربة ومشارقة وأوروبيين نصارى وهي أن التصوف في الأندلس والمغرب العربي له تأثير كبير في الفكر المسيحي الأوروبي في فترة من الفترات، وهو ما يظهر جليا في كتابات ريموند ليليو المتأثر بابن عربي، كما تأثر به الإيطالي دانتي في الكوميديا الإلهية.[3]

2 - التصوف في الجزائر وتأثيراته

بدأ التصوف في الجزائر أو ما يعرف قديماً بالمغرب الأوسط، تصوفاً نظريا نخبويا، ثم تحول إلى تصوف شعبي عارم ابتداء من القرن العاشر الهجري، متخذا بعدا اجتماعيا وذلك بسبب الظروف السياسية التي عاشتها بلدان المغرب العربي في القرون الثلاث السابقة، فكلما اضطربت السياسة أو غابت، يحل الدين محلها لينظم حياة الناس، عملا بقاعدة الطبيعة تكره الفراغ، وكان من أوائل أوتاد المتصوفة العمليين الشعبيين في الجزائر أبو مدين شعيب بن الحسن الذي ارتحل إلى القدس مجاهدا. وقد عرفت طريقته المدينية شهرة واسعة في الجزائر وسائر بلدان المغرب العربي وانتسبت كثير من العائلات لها، وتسمت باسمها سواء بلقب مديني أومدني ثم ازدادت نشاطاً على يد أبو الحسن الشاذلي تلميذ ابن مشيش، وصارت تعرف بالطريقة الشاذلية. وكان لتعاليم الشاذلي في الجزائر الأثر الأكبر بحيث يكاد البعض يجزم أن معظم الطرق التي ظهرت بعده تصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الشاذلية التي لا يزال الناس يتسمون بها اسما شخصيا أو لقبا عائليا. وليس في الجزائر بلدة ليس لها زعيمها الصوفي ومدرستها الصوفية التي تلتف حول الزاوية مركز القيادة السياسية والاجتماعية والدينية. والكثير من القرى والبلدات والأعراش سميت باسم (سيدى....) فلا احد يذكر اسم الصوفي الولي مجردا دون سيدي. معظم هؤلاء الأسياد من أعلى جبال جرجرة في الشمال إلى أقصى قصور الصحراء في الجنوب ينتسبون إلى بدايات عهد المرابطين حيث الساقية الحمراء ووادي الذهب وشنقيط، وكلهم ينسبون إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حسينيين وحسنيين لا فرق بين عربي أو بربري. وقد ظل

3 - علي، أحمد (1989). الأندلسون والمغاربة في بلاد الشام في نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن العاشر الهجري. ط1 ، ص 178، دمشق.

الوضع قائما قرونا بعد زوال دولة المرابطين والموحدين. ولا يزال شيخ الزاوية في أي منطقة من الجزائر كما في بلدان المغرب العربي هو المؤثر الحقيقي في الناس. لذلك يلجأ إليه الساسة والموظفون. وهي ظاهرة تعم الوطن العربي كله تقريبا. فهذا الوطن لم تستطع هذه الدول القائمة فيه منذ قرون أن تمنعه من أن يكون زاوية كبيرة. لذلك يعاني الساسة العرب معاناة شديدة مع هذه الزاوية، فهم حتى الآن لا يعرفون مداخل هذا المواطن فيلجأون إلى المتصوفة الذين يتربعون في قلوب الناس بمن فيهم أولئك الذين لا يظهرون أي تدين في حياتهم اليومية. قضى على أمل اللآئكيين في أن تكون لهم الكلمة العليا في كل بلدان المغرب العربي بما فيها الجزائر ذات التأثير القوي، ليس في هذه المنطقة التي تتوسطها بل حتى في أفريقيا جنوب الصحراء التي ينتمي كثير من ناسها إلى طرق صوفية ذات منشأ جزائري. ولعل هذا التأثير الجزائري الصوفي في أفريقيا جنوب الصحراء هو الذي دفع بعض مؤسسات البحث في الولايات المتحدة ألأمريكية أن تسعى لاقتناء ما تستطيع من المخطوطات العربية والإسلامية التي بين يدي الناس وفي المساجد والزوايا، لدراسة عمق تأثير التصوف الجزائري خصوصا والمغاربي عموما في المجتمعات الإسلامية، عربية وغير عربية، ووضع الإستراتيجيات التي تناسب المصالح الأمريكية في هذه المناطق.

3 - التصوف والسياسة

المتصوفون من المغرب العربي وخاصة من أهل تلمسان ذات العلاقة المتينة بالأندلس وبالمشرق العربي عبر عدة قرون؛ هم الذين أعطوا حركة التصوفية في الوطن العربي والعالم الإسلامي محتواها المقاوم للغزو الأوروبي وحققوا خطوة نوعية في موضوعة الدين والسياسة، بل ربما يمكنني أن أجازف وأقول أنهم قاموا بإعادة تموقع المشهد الديني داخل المشهد السياسي في منطقة المغرب العربي وانتقلوا بطرقهم التصوفية المسيسة إلى المشرق. وكان إشتغال المتصوفة بالسياسة شيئا لم يعرفه المتصوفون في المشرق العربي منذ عهد الحسن البصري في القرن الثاني للهجرة الذي رفض مقاومة طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي فشكل ذلك بداية خضوع التصوف للساسة، أما أبو حامد الغزالي فقد تقدم خطوة إلى الأمام في الخضوع للسلطة باعتباره نشأ في بلاط أحد الوزراء السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية، وألف كتابا ضد الحركة ألإسماعيلية أسماه "فضائح الباطنية" لحساب الخليفة العباسي المستظفر بالله الذي لا يكاد التاريخ يذكره وفي ذات السياق كتب كتابه تهافت الفلاسفة والذي رد عليه أهل المغرب العربي بكتاب "تهافت التهافت" وبلغ التداخل بين السياسة والتصوف أوجه في المغرب العربي حيث أسس المتصوفة دولتين على الأقل هما دولة المرابطين

ودولة الموحدين. وفي العصر الموحدي في المغرب الذي يقابله العصر الأيوبي- المملوكي في المشرق. قرب صلاح الدين الأيوبي المتصوفة واستعان بهم لحث الناس على الجهاد. وهكذا جاءت فرصة كبيرة للمتصوفة في الوطن العربي أن يكونوا جزءا مهما من الحياة السياسية سواء في المشرق أو في المغرب على أرضية مقاومة الغزو الصليبي مشرقا وتفكك المغرب العربي والأندلس إلى طوائف.

وكعادتهم أراد الساسة الرديئون استغلال تأثير الدين في الناس لحسابهم، فلم يسلم المتصوفة من تدخلاتهم حتى أولئك الصوفيين الذين يعلنون بعدهم عن السياسة. وشهد التاريخ العربي الإسلامي في المشرق أو في المغرب علاقة شد وجذب بين أهل الساسة وأهل التصوف، ولأنك تزع بالسلطان ما لا تزع بالقرآن كانت الغلبة لأهل السياسة فانقسم المتصوفة وقامت بينهم معارك كبيرة، أشعل معظمها أهل السياسة الذين مالوا إلى هذا الجانب أو ذاك ؛ ليس حبا فيه بل لإضعاف الطرف الآخر حتى يخضع أكثر فأكثر الطرف الذي يقربونه إليهم، فاتهمت الطرق الصوفية بعضها بعضا وشن كل طرف هجومه على الآخر. واتخذت هذه الهجومات في أحيان كثيرة طابع استعداء السلطة والناس على الطرف الأخر فاتهمه تهما شتى اقلها الزندقة والإلحاد، وأوصلوا العديد منهم إلى أعواد المشانق. ولعل أخطر ما في حروب المتصوفة هذه هو ما جرى في القرن التاسع عشر الميلادي حين استطاعت قوى الغزو الفرنسي في الجزائر والبريطاني في السودان من اختراق بعضها وتحريض كلا منها على ألآخر. فقامت هنا وهناك معارك طاحنة كان المستفيد الوحيد منها الاحتلال الأجنبي.

ولم تفعل قوى الغزو الاستعماري جديدا سوى إعادة اكتشاف الماء الساخن؛ إذ أنها تعلمت من سلطة الاستعباد العثماني التي سبقتها، فهذه السلطة، وخاصة في عهدها الطوراني أوغلت في استثمار الحركات الصوفية في الوطن العربي مشرقه ومغربه لتثبيت حكمها الذي أفرغه الطورانيون الأتراك من مضمونه الإسلامي وحولوه إلى استعباد قومي واضطهاد عنصري، أثبت التاريخ في وقت لاحق انه لا يختلف عن الاستعمار الأوروبي إلا بدرجة أو درجتين.

وكان الناس في العالم الإسلامي، خاصة منذ أواخر العهد المملوكي في المشرق وعهد الطوائف في المغرب. قد فقدوا الأمل في الإصلاح السياسي، فتوجهوا إلى المتصوفة بحثا عن مخرج. فصارت هذه المدارس الصوفية حركات شعبية مؤثرة على الناس، فخافتها الطبقة السياسية، فاخترقتها -وخاصة الدولة العثمانية- تفاديا لخطورتها وصولا إلى انضمامها إلى صف الدولة، فمثلا أن أول ما فعله السلطان سليم العثماني حين وصوله دمشق هو أنه زار قبر محي الدين بن عربي وبنى عليه المقام الكائن في جبل قاسيون بحي المهاجرين والذي ما زال ماثلا حتى اليوم والذي دفن فيه الدمشقيون بجوار ضريح بن عربي الأمير عبد القادر الجزائري

تعظيما لهذا الأمير الصوفي المجاهد.

4 - التصوف في الشام

حتى الآن لم أجد في المكتبة العربية كتابا يبحث في التصوف باعتباره ظاهرة قومية عربية رغم أنه أهم الدلائل على وحدة الفكر القومي العربي الإسلامي وتفاعله مشرقا ومغربا، فمعظم الكتب الموجودة تبحث في التصوف من وجهة نظر قطرية محضة، سواء في مصر أو غيرها من الأقطار العربية، رغم أن مؤلفي هذه الكتب القطرية لم يستطيعوا تجاوز حقيقة أن أكثر المتصوفين النافذين في مصر أو الشام هم من أصول مغاربية فأسماء مثل: سيدي بومدين بن عربي، عبد القادر الجزائري، بن يلس، الهاشمي التلسماني لها رنين خاص عند الناس في المشرق العربي، وبالتالي نسأل لماذا لم يدرس هؤلاء على هذه الأرضية القومية من طرف الباحثين في جامعاتنا سواء كانت مشرقية أو مغربية ؟

وأعتقد أن هذه القومية العربية الإسلامية المقاومة للظلم والطغيان، والاحتلال التي يتصف بها التصوف العابر للأقطار العربية هي نفسها السبب الذي يقف وراء تجاهله، فهي صفة لا تريدها أنظمة الدول القطرية القائمة، التي تريد من التصوف أن يكون أداة من أدوات خدمتها وتبرير أفعالها وإطالة عمرها، كما لا تريده الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي تسعى اليوم لإعادة توظيف التصوف ليكون عامل فرقة ليس بين العرب فقط بل بين المسلمين في كل أنحاء العالم، خاصة منذ حادثة11سبتمبر2001 في نيويورك حيث صارت الإستراتيجية الأمريكية ترمي (إلى تعزيز التصوف في وجه الجماعات والتنظيمات السياسية ذات ألإسناد الإسلامي)[4].

ويبدو أن المهتمين بالشأن الإسلامي في الجزائر على وجه الخصوص من المتصوفين والسلفيين قد وقعوا في شرك الإستراتيجية الأمريكية واندلعت بينهم مماحكات فكرية وتهم متبادلة حتى على صفحات الصحف مما حداني إلى كتابة مقال في جريدة الجزائر نيوز بعدد الخميس 25 نوفمبر 2010 تحت عنوان "تلمسان المقاومة والتصوف"، قلت فيه: "وصلتني دعوة كريمة من الجهات القائمة على تنظيم فعاليات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011، وتأملت هذه الدعوة التي حدد أصحابها لي موضوعاً يتعلق بهجرة التلمسانيين إلى الشام وكنت قد اهتممت بموضوع أثر التلمسانيين في المشرق العربي منذ أربعة عقود حين زرت تلمسان مع مجموعة من الصحفيين العرب في تربص يديره الزبير سيف الإسلام، أحد رواد الصحافة الجزائرية.

ولاحظت في تلك الزيارة تقارباً بين لهجة تلمسان ولهجات بعض المدن المشرقية،

4 - علي، حسن عمار (2007). الصوفية والسياسة في مصر. ط2، ص 203، القاهرة.

كدمشق والقدس وخاصة لجهة قلب القاف إلى الهمزة، والمخارج الرقيقة لمعظم الحروف.

وزادني تعلقاً بالبحث بعض العادات الأخرى سواء الهندسة المعمارية التي برز تأثيرها في روايات محمد ديب ثم في روايات واسيني الأعرج، وكذلك الاهتمام بالياسمين، وغيرها من مفردات الثقافة التلمسانية المتشابهة مع مثيلاتها المشرقية، إلى أن قرأت ذات يوم أن العقال الذي يضعه رجال الشام والجزيرة على رؤوسهم، جاءهم من تلمسان، حيث وضعت النسوة التلمسانيات عصابة سوداء فوق غطاء الرأس الأسود حداداً على سقوط الأندلس، وهي عادة تعود اليوم بأشكال جديدة على رؤوس بعض النسوة.

ثم عثرت عند أحد باعة الكتب القديمة على حيطان دمشق على ديوان شعري لشاعر يدعى الشاب الظريف محمد العفيف التلمساني، فأهديته إلى أخي الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السائحي، فمن أحق منه بمثل هذا الكتاب وهو الباحث في شعر وحياة ابن تيارت القريبة من تلمسان "أبو بكر التيهرتي".

وقادني كل ذلك إلى بحث أثر أهل المغرب العربي وخاصة الجزائريين في الثقافة في المشرق العربي. وكلما قطعت خطوة ازددت عجباً، فالسائد عند كثير من الباحثين الجزائريين الذين يعتمدون المصدر الفرنسي، أن المشارقة هم أصحاب التأثير الأكبر في الثقافة في الجزائر، حتى أن مصطفى الأشرف تحدث في كتابه "الجزائر: الأمة والمجتمع" عن قومية شرقية وعرفت أن تلمسان تبدو وكأن المصادر الفرنسية ما زالت تشن عليها حروب الأندلس الشهيرة وعزلها تماماً عن نشاطها الحضاري.

وانكشفت الوقائع. لأن الزمن كشاف بطبعه. فزاوية المغاربة في القدس ثم حارة المغاربة التي يشن عليها الصهاينة اليهود حرباً خاصة، هي في الأصل بناها سيدي بومدين شعيب التلمساني، وحركة التصوف في بلاد الشام تكاد تبدأ من عند هذا الرجل الذي أسس حركة صوفية واسعة مقاومة للغزاة الصليبيين وامتدت لتقاوم ظلم الحكام المحليين. وامتد أثر التلمسانيين وثقافتهم إلى القاهرة وغيرها من حواضر بلاد المشرق العربي شامية وغير شامية.

وحين انحرفت الطرق الصوفية عن الأصل الذي نبتت فيه، وهو مقاومة الغزو الأجنبي والظلم المحلي ردحاً طويلاً من العهد العثماني. جاء إلى الشام عام1911 مهاجراً من تلمسان الشيخ محمد بن يلس ومعه تلميذه محمد الهاشمي، فإذا بالشوام يلتفون حوله، فقد جاءهم قامة عالية في التصوف والمقاومة حتى أن الطريقة الشاذلية الدرقاوية انتشرت من جديد انتشاراً واسعاً، وليس سراً أن الدولة العثمانية ومن بعدها الاحتلال الفرنسي ضيقا على الرجلين. وبالمقابل ازداد عدد مريديهما وتلاميذهما تزايداً مقلقاً.

وأنا أتتبع سيرة هذين التلمسانيين وأثرهما الثقافي الديني في المنطقة، زرت أمكنة وصورت مقابر، ومن أطرف ما عثرت عليه صورة للشيخ محمد الهاشمي تعود إلى خمسينيات القرن العشرين تظهره وهو في الثمانين من العمر يتدرب على السلاح مع شبان في عمر أحفاده، وقد نشرت إحدى الصحف صوراً له وهو في ساحة التدريب مع مانشيت يقول لا مستقبل للاستعمار بين شعب يحمل مسنوه السلاح.

إذن، أليس من حقنا أن نسأل ونبحث ونعمق البحث في دور تلمسان في ثقافة المقاومة للغزو والظلم مغرباً ومشرقاً الممتدة منذ ستة قرون؟ أوليس من حقنا أن نشكك في هؤلاء وأولئك الذين يضعون ويصنعون الحواجز بين الجزائر والثقافة العربية سواء على مستوى الكتاب والصحيفة والاقتصاد والسياسة وحتى الدين، وأنهم يقومون بتدمير ممنهج للثقافة الجزائرية وامتداداتها وتأثيراتها. ثقافة تشكل أدق جزئيات العقلية الجزائرية، وهي مقاومة الغزو والظلم؟

أوليس لنا أن نأمل بأن تكون فعاليات تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية، إعادة تجديد لعنصر وقيمة المقاومة في هذه المدينة، فهي إن لم تفعل ذلك سينطوي عامها كعرس لا يلبث أن ينساه الناس بعد أن هدروا فيه ما لهم ووقتهم.

وفي الحقيقة يظهر الفكر القومي العربي الإسلامي وتفاعلاته بين المشرق والمغرب، في أبهى تجلياته. في مصر والشام، وفي الشام كان للمتصوفة دور كبير خاصة في عهد المماليك، فالملك الظاهر بيبرس كان يعتقد صوفيا اسمه خضر بن موسى المهراني وبنى له زوايا في دمشق وحمص وحماة وبعلبك وغيرها، وأخذ يشركه في أمور الدولة ثم انقلب عليه. ورغم تقلب المماليك في مواقفهم من المتصوفين إلا أن مكانة المتصوفين كانت كبيرة عند الشوام خاصة وأن التصوف صار في نظر المشارقة هو الموقف ضد الظلم وضد الطغيان سواء في المشرق أو في المغرب والذي مثله ذلك الصوفي القادم إلى دمشق مهاجرا من فساد ملوك الطوائف، محي الدين بن عربي الذي أجله وقدسه العرب الشوام لدرجة أنهم لم يأبهوا لأقوال فقيه الشام ابن تيمية الذي كفره، ولا أقوال العديد من الفقهاء في المشرق والمغرب مثل إبراهيم البقاعي في كتابه "تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي" وأبو حيان الأندلسي، وتقي الدين السبكي وعيسى بن مسعود الزواوي وابن إياس في تاريخ مصر، وبن نور الدين في كتابه "كشف الظلمة عن هذه الغمة". وحين فتح السلطان سليم العثماني الشام وأراد التقرب من قلوب الشوام أمر ببناء مقام كبير على قبر محي الدين بن عربي حيث (اعتقد السلطان سليم العثماني أن شفاعة وبركة ابن عربي هي التي أدت إلى انتصاراهم- أي العثمانيين - على البيزنطيين وفتح القسطنطينية، لأن ابن عربي نفسه قد تنبأ بهذا الفتح وهذا ما حدا بالسلطان سليم أن يأمر ببناء مسجد ومدرسة حول

تربة ابن عربي ورتب الأوقاف عليهما).[5] بل انبرى كثير من المثقفين الشوام وغير الشوام للدفاع عن ابن عربي والرد على متهميه مثل نصر المنبجي وأسعد اليافعي وبهاء الدين الكازروني وكمال الدين الزملكاني والصفدي والكتبي.

لقد انقسم الفقهاء الشوام انقساما ظاهرا حول ابن عربي لكن الجموع الدمشقية لا تزال منذ ذلك الوقت تزور كل يوم جمعة مقامه تبركا به ويوزع الميسورون منهم الصدقات وخاصة الخبز على الفقراء وأطلقوا على تلك المنطقة التي فيها القبر من جبل قاسيون حي الشيخ محي الدين. ولا يزال الناس على عادتهم حتى يومهم هذا لم تنقطع أسبوعا واحدا رغم ما مر على دمشق من صروف وظروف، لأن ظاهرة التصوف في بلاد الشام تشمل العديد من المجالات، ولعبت دورا أساسيا في تحديد ملامح هذه المنطقة من الوطن العربي، ما دام التصوف يقوم بدور شعبي منذ قرون، وكان ابن عربي ممثلا للكفاح ضد ظلم الحكام وطغيانهم. واستطاع سليم العثماني أن يستميل قلوبهم فعلا باهتمامه بشيخهم الأندلسي الذي صار دمشقيا.

لكن الساسة العثمانيين الذين قامت سياستهم لقرون عديدة على إستغلال الدين، وبالتالي المتصوفين والفقهاء لصالح إستغلال دماء العرب لصالح حروبهم وتوطيد سلطانهم، وإقصائهم عن العمل السياسي وشؤون الدولة سواء في الشام أو غير الشام وظهر جيل من الصوفية يمالىء الحكام ويستفيد منهم على حساب الناس وفقرهم وتبادل الصوفية والولاة العثمانيين المنفعة واستفاد كل من الآخر، فالسلطة شجعت التصوف ورأت في التفاف الناس وازدحامهم حول المشايخ فرصة سانحة لتجنيدهم أو تحييدهم على لأقل بينما وجد المشايخ في هذا مسألة تحقق لهم المكسب المادي والحظوة لدى الحكام فصاروا في ركابهم وأمنوا على تصرفاته.[6]

ففي دمشق القرن التاسع عشر حينما عجزت الدولة العثمانية تماما عن إيجاد أية حلول لمشكلات المجتمع السياسية والإقتصادية والخدمية، ناهيك عن المشاكل الناجمة عن الكوارث مثل الجفاف والفيضانات والزلازل مهما صغرت، وأعطت الإنطباع بأنها تهيئ البلاد للإحتلال الأجنبي الذي شملت تدخلاته حتى الحياة اليومية للناس في الأسواق والعلاقة بين الفئات ؛ وجدنا ازدهارا للطرق الصوفية ويمكنني تصنيفها إستنادا إلى كتاب قهوجي في ثلاثة أصناف:

1. فئة العابدين وهم الذين انقطعوا للعبادة في الزوايا والتكايا وسيطر بعضهم على الأسواق ومشيخات الحرف وادعوا الانحدار من السلالة النبوية واعتقدهم الناس فخلط هؤلاء الناس بين التدين والخزعبلات التي يعود بعضها إلى العهود الوثنية.

5 - علي أحمد، مرجع سابق ص 184.

6 - الصوفية والسياسة، مرجع سابق، ص70.

2. فئة المتصوفين الاجتماعين وهم أتباع الطرق الصوفية ومريدوها ونشطاؤها الذين كانوا يجدون في حلقات الذكر والرقصات والأناشيد متنفسا عن كروبهم اليومية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها؛ فهربوا من ضيق دنياهم إلى رحابة دينهم.

3. فئة المنتسبين، وهم فئة من الدمشقيين ومن الغرباء لها مصادر معيشة ثابتة من وظائف حكومية مدنية أو عسكرية أو من عقاراتها الفلاحية أو من تجارتها أو من مكانتها العشائرية ؛ لكنها انتسبت إلى هذه الطريقة الصوفية أو تلك ودعمتها بالمال عينا ونقدا خاصة في مناسباتها ومواسمها تزلفا وتملقا، وطلبا لدعم هذه الطرق لها عند الناس، الذين ينخرط عديد هم في هذه الطريق أو تلك سواء كانوا تابعين أو مريدين. [7]

وهكذا يمكن القول أن الطرق الصوفية كانت في واقع الحال جمعيات مجتمع مدني ديني بإمكانها أن تحرك المجتمع، وقتما تشاء وكيفما تشاء، مما جعلها دائما تحت أعين الدولة التي أحكمت عليها قبضتها وجعلتها امتدادا سياسيا وعقائديا واستخباراتيا لها.

وقد ارتبطت الصوفية في بلاد الشام بمن حملوها معهم من مناطق أخرى، فارتبطت الطريقة الشاذلية مثلا بهجرة الجزائريين إليها في القرن التاسع عشر بقيادة الأمير عبد القادر وكان للمهاجرين المغاربة دور أساسي في نشر الطريقة الشاذلية في سورية وفي دمشق أولا.[8]

وهنا يكمن السؤال الذي تهرب منه الباحثون: لماذا أثر المغاربة عموما والجزائريون خصوصا كل هذا التأثير في حركة التصوف في سورية بدءا من دمشق؟

لا أحد يريد البحث لأن الكل يتهربون من الإجابة التي يعرفونها فهذا التأثير يدل على واقع الترابط القومي والشعور بوحدة الثقافة والمصير؛ فالتصوف في بلاد المغرب العربي يتصف بصفتين أو سمتين أساسيتين رغم بعض الإنحرافات هنا وهناك:

أولاهما: أنه صاحب تاريخ نضالي ضد الظلم والطغيان المحلي والإحتلال الأجنبي فالشيخ عبد الكريم المغيلي في منطقة توات جنوب غربي الجزائر، هو الذي تصدى لمحاولة التغلغل الأوروبي –اليهودي إلى غرب وأواسط إفريقيا عام1492 وكان شيوخ الطرق : الجازولية والقادرية والتيجانية والشاذلية والسنوسية

7 - العسكري، عبود عبد الله (2006). تاريخ التصوف في سورية : النشأة والتطور الزمان والمكان. ط1، ص 112،دمشق.

8 - محمد، رضا قهوجي، العلامة الهاشمي مربي السالكين، النسخة التي بين يدي أهداني إياها مشكورا الشيخ محمد أبي الهدى اليعقوبي، وهي خفل من إسم المؤلف وراء على غلاف الكتاب الخارجي أو الداخلي، لكن محمد عبد الله الجزائري كاتب المقدمة ينبه إلى نفسه وإلى محمد رضا بشير القهوجي في الوقت عينه في صيغة تلبسه لأتبين أنه تأليف مشترك، فأثرت استعمال إسم القهوجي دمشق 2004 دون ذكر الناشر وقد أشارت بعض المواقع على الأنترنيت أنه من نشر دار النمير في دمشق فراجعت هذه الدار فلم تعرف الكتاب، ص157.

بالمرصاد لأوروبا وحركاتها الاستعمارية منذ القرن لخامس عشر الميلادي، بل أن هذه الطرق هي التي نشرت الإسلام في أفريقا جنوب الصحراء وليس الدولة العثمانية ولا دولة المماليك والطوائف قبلها وهذه الطرق الصوفية هي (التي جعلت من القرن التاسع عشر كاملا حقبة من الجهاد المتواصل، في محاولة لأحباط الموجة الإستعمارية الثانية)[9].

وإذا كانت الزاوية القادرية برآسة محي الدين بن المصطفى هي التي كانت تقود نضالا سلميا ضد الحكم العثماني في الجزائر، فإنها هي التي قادت المقاومة الشعبية الجزائرية ضد الغزو الفرنسي.

والزاوية التيجانية في تونس هي التي تصدت لزيادة الضرائب عام 1863 وقامت بثورة بزعامة "الشيخ علي بن غذاهم". ثم ترسخت في مطالع القرن العشرين بهجرة أهالي تلمسان بقيادة "الشيخ محمد بن يلس". وهذه المسألة غير مدروسة جيدا لا في تاريخ الجزائر ولا في تاريخ الشام، وهو تقصير أراه فظيعا، وغير مبرر،فقد ارتبطت القادرية (وهي طريقة الأمير عبد القادر) والشاذلية في الجزائر، بمكافحة الإحتلال الأجنبي، فبانت وكأنها امتداد لمقاومة العرب المسلمين في اسبانيا من جهة وامتداد للدول الإسلامية في المغرب العربي من مرابطين وموحدين، وحين وصل هؤلاء المهاجرون الجزائريون وطريقتهم الشاذلية إلى دمشق كانت الذكرى الطيبة للمتصوفين المغاربة وخاصة محي الدين بن عربي وبومدين شعيب لا تزال على شفاه الشوام. فقد كان للمغرب العربي تأثيره الديني الكبير على المشرق العربي.

وفي هذه النقطة بالذات لابد من الإشارة إلى أن بعض الطرق الصوفية لم تقف الموقف نفسه ضد الاحتلال كما ضد الظلم والاضطهاد المحلي، فبعضها وقف جنب الاحتلال، وبعضها تقلب في مواقفه، وبعضها انشق عن بعضه. لكن السمة الغالبة لحركات التصوف في الجزائر وعموم المغرب العربي كانت حتى القرن التاسع عشر مواقف جهادية ضد الأجنبي ومواقف رافضة للظلم والاضطهاد.

ثانيهما : هذه السمات فهي أن الطرق الصوفية في المغرب العربي كانت طرقا إنتاجية تعتمد على نفسها وتعلم مريديها وأتباعها الاعتماد على النفس في الزراعة والتجارة والصناعة، فالتيجانية ومنافستها القادرية كانتا تعتمدان على التجارة بين المغرب العربي وإفريقيا جنوب الصحراء وذلك عبر مراكزهما في بوسمعون وعين ماضي وتماسين وفاس وغدامس وجات وتوات وايجيل واعتمدت الطريقة السنوسية العمل التطوعي الشعبي وكان يوم الخميس هو عمل تطوعي جماعي بأرض الزاوية التي تهتم أيضا بتربية المواشي التي كان لها نظام هندسي اقتصادي يشمل المتاجر والحرف إضافة إلى المدرسة والمسجد.. وأي دارس لنظام

9 - علي، حسين عمار. مرجع سابق، ص 180.

الزوايا في المغرب العربي يجد أنها بنيت على مواقع استراتيجية زراعية وصناعية وعسكرية وسياسية. بل إن الزاوية لعبت دورا في نقل المجتمع البدوي نحو التمدين حيث استقرت القبيلة حول الزاوية وهكذا نجد اليوم في الجزائر على وجه الخصوص أن العروش تقوم حول تلك الزوايا، فلكل عرش زاويته ولكل زاوية عرشها. وبالتالي فإن الزاوية مقر الطريقة الصوفية تعتد على المجتمع وليس على الدولة، وهي مسؤولة عن هذا العرش أمام الله والمجتمع وليس أمام الدولة.

طبعا لا يتفق هذا الاعتماد على النفس وأسلوب الاكتفاء الذاتي مع الساسة الذين سيطروا على الوطن العربي من ترك وأوروبيين وأنظمة مصنوعة على المقاس الأوروبي، الذين يريدون من العربي والمسلم أن يكون مستهلكا لا منتجا، لا يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، بل يعمل فقط لآخرته كأنه يموت غدا، لذلك سعت هذه القوى لأن تعتمد الزوايا والطرق الصوفية جميعا عليها، وقد نجح الساسة في ذلك كثيرا. وإن وجدنا في الجزائر خلال القرن العشرين أن شخصية مثل عبد الحميد بن باديس يحاول الاستفادة من تجربة التاريخ الصوفي في نضاله الديني ضد الاستعمار الاستيطاني فيقيم المدارس والمساجد معتمدا على الشعب نفسه وليس على إعانات الدولة الاستعمارية. وحافظ على مسافة بينه وبين الطرق الصوفية خاصة منها المخترقة من طرف السلطة الإستعمارية. لقد كان ابن باديس واعيا للفكر الإسلامي وآلياته الاجتماعية بما فيها التصوف وواعيا لمتطلبات معركة المواجهة مع الاستعمار من إعداد جيل ممتلئ بوطنيته وثقافته ودينه وعصره.

5 - دور أهل المغرب العربي في تصوف الشام

هذه السمعة النضالية للتصوف في الجزائر والمغرب العربي هي التي حملها المتصوفون الجزائريون إلى بلاد الشام في القرنين التاسع عشر والعشرين، فاستقبلوا استقبالا كبيرا حيث أحيوا ذكريات النضال في القرون الخوالي، إذ يعرف الدارسين لتاريخ المغرب العربي مع المشرق حقيقة سعى ويسعى مثقفو الاستعمار إلى طمسها، وهي أن أهل المغرب العربي (بربرهم وعربهم) أصحاب هوى شامي واضح، فإن تنصر أهل الشام تنصروا وإن تعرب أهل الشام تعربوا، فهم في حالة حنين وشوق دائم للشام منذ العصور التاريخية الكنعانية الفينيقية الأولى. أي منذ أن أخرجهم داوود الملك منها حين قتل قائده طالوت ملكهم جالوت وانتقلوا إلى شمال إفريقيا ولم يملكوا عليهم أحدا منذ ذلك الوقت، فهؤلاء الكنعانيون الذين تسميهم الأدبيات العربية العماليق سكنوا فلسطين، وهم الذين بنوا القدس حيث أن هذه القدس حسب علماء الآثار والأنثربولوجيا

ليست أورسالم أو أورشليم التي يدعيها اليهود، ويقولون أن معبدهم فيها. فالقدس مدينة كنعانية بناها هؤلاء الكنعانيون البربر حوالي عام 3000 ق م، فقد كان البربر الكنعانيون الفينيقيون هم أهل فلسطين وأصحابها وكانت لهم مملكتهم بقيادة جالوت الذي تغلب عليه طالوت لحساب الملك – النبي داود فأجلاهم عن مدينهم يبوس التي هي القدس[10].

ووصلوا بقيادة أفريقش بن صيفي عبر مصر إلى بلاد المغرب التي سميت افريقية، وقد أسر البربر هذه الفعلة لليهود.

فما أن تولى الفرعون البربري (شيشنق) السلطة في مصر، حتى استفاد من انقسام مملكة سليمان، فهاجمها وهدم المعبد الذي بنوه في القدس، واستولى على كل ما فيه، وقتل رحب عام ابن الملك النبي سليمان الذي أنجبه داود كما تقول التوراة من التي كانت لأوريا الحثي[11]، ولم يقف شيشنق عند قتل الحفيد رحب عام بل هدم المعبد واستولى على كل ما فيه كما تقول التوراة[12]. في محاولة واضحة لاستئصال شأفة اليهودية بل انه وحد مصر والمغرب مع الشام والجزيرة العربية تحت عرشه.

وفي التاريخ العربي الإسلامي سر البربر حديث الدين الإسلامي عن القدس واعتبارها قبلة الإسلام الأولى فذهب وفد منهم إلى الرسول الكريم، وفي عهد معاوية سرهم جدا أن تكون القدس هي مدينة البيعة للأمويين ففي عام 40هـ/661 م، أخذ معاوية بن أبي سفيان فيها البيعة ثم اختار دمشق عاصمة لخلافته، وكرر المسألة سنة 72هـ/691 م سليمان بن عبد الملك وأخذ البيعة فيها، وبنى بالقرب منها في الرملة قصره الشهير، وهكذا فالقدس وسائر الشام هي موطن الهوى القومي للبربر المغاربة عبر العصور والدهور مختلطا بالهوى الديني. وظلت القدس والشام كله هدفا لكل الرحالة المغاربة فهي دائما موجودة في كتاباتهم وكتبهم كما نرى ذلك عند ابن بطوطة في كتابه الأشهر، والمقري في كتابه (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) وابن مرزوق التلمساني في مخطوطه (عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمعت من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز) وغيرهما كثير ويلاحظ المرء وهو يقرأ التاريخ الديني للمشرق العربي، تأثيرا كبيرا لرجال الدين المغاربة على المشارقة، مما حدا بعضهم إلى القول: "المشرق ارض الأنبياء والمغرب أرض الأولياء".

وتعني كلمة مغربي لدى المشارقة رجلا صادقا في دينه، حاذقا في دنياه، شجاعا في

10 - أحمد، سوسة (1985). العرب واليهود في التاريخ. وزارة الإعلام، ط 5 ، ص127، بغداد.

11 - الكتاب المقدس. العهد القديم، سفر الملوك الأول، الإصحاح 14، الآيات28-25. ولفائدة القارئ الجزائري نقول أن عنوان "الكتاب المقدس" تعني أنه يضم أسفار التوراة الخمسة التي تعترف بها الديانة المسيحية زائد كل الأناجيل باستثناء ما يعرف بإنجيل برنابا.

12 - المرجع نفسه، سفر أخبار الأيام الثاني،الإصحاح6، الآيات 12-10.

جهاده، صعبا في مزاجه. وتتجلى هذه النظرة أكثر في الأمثلة الشعبية المشرقية التي تتناول المغربي ونظرتهم إليه، والمغرب في نظر المشارقة هو ذلك الذي يشمل ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وشنقيط، وتشكل هذه النظرة ثقافة متكاملة اعتقد أنها بحاجة إلى دراسة تاريخية – اجتماعية عميقة من طرف الباحثين في المشرق والمغرب على حد سواء.

لما لها من قيمة في الهوية الوطنية القومية الدينية والثقافية للطرفين المغربي والمشرقي وبالمقابل فإن البربر المغاربة نظروا دائما إلى المشرق العربي باعتباره الأصل، وهي نظرة تتفق تماما مع نظرة الحضارات المتوسطية كلها من أوروبية وغير أوربية والقائلة بان لكل إنسان وطنان،الشام وطنه الأول.

لذلك ما أن طلب صلاح الدين ألأيوبي معونة أمير المؤمنين أبو يعقوب المنصور الموحدي حتى كانت فرصة للناس لأن يستجيبوا للنداء ويصنعوا مرة أخرى في المشرق تاريخا نضاليا مجيدا فقد جهز المنصور أسطولا بحريا كبيرا لمنازلة الجيوش الصليبية في المشرق، بالضبط كما طلب صلاح الدين الذي اهتم بالمعركة البرية وحسم الحرب.

وهنا علي أن أعرب عن اعتقادي بأن الفكر الإسلامي يعرف أزهى حقباته حين يمتزج بهموم الناس السياسية والاجتماعية. وفي تجربة الوطن العربي التاريخية نجد انه حين عبر المتصوفة عن الناس والتصقوا بهم وقادوهم في النضال ضد الظلم أقاموا أهم وأزهى عصور المغرب العربي سياسيا واجتماعيا، وحين قاوموا الاحتلال الأجنبي بقيادة الأمير عبد القادر صاروا نموذجا يحتذى لدى شعوب العالم كلهم حتى غير المسلمة، وفي مصر حين التصقوا بهموم الناس في زمن رئيسها جمال عبد الناصر عاشوا أزهى عصورهم فيها، حتى أن عبد الناصر كرر أسلوب الظاهر بيبرس وكان لديه صديق صوفي منهم يبثه همومه ولواعجه الشخصية.

6 - أهل تلمسان في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية

أسكن الناصر صلاح الدين الأيوبي أعداداً من أهل المغرب العربي في بيت المقدس بعد انتصار المسلمين في معركتي حطين وفتح بيت المقدس، في مساكن بجانب الحائط الغربي للمسجد الأقصى المعروف بحائط البراق. وحين سئِل صلاح الدين من قبل حاشيته عن سبب إسكان المغاربة بهذه المنطقة، أي عند السور الغربي للمسجد الأقصى، وهي منطقة سهلية يمكن أن يعود منها الصليبيون مجددًا، أجاب بقوله: "أسكنت هناك من يثبتون في البر، ويبطشون في البحر، من أستأمنهم على هذا المسجد العظيم". ومشى ابنه الأفضل نور الدين خطوة أخرى في هذه السياسة حين أوقف قرية "عين كارم" الشهيرة بمياهها وأشجارها غربي القدس التي تقوم عليها اليوم الجامعة العبرية، وقرية "إيوان" التي تقع

داخل المدينة العتيقة حيث حدها شرقا حائط البراق.

وكان من هؤلاء المجاهدين الصوفي أبو مدين [13] شعيب الذي دفن ذراعه التي قطعت أثناء قتال الصليبيين قرب حائط البراق، وأقام بجانب البراق مدرسة، وأوقف سكنا للقادمين من المغرب العربي، وهكذا نشأت حارة المغاربة كوقف منذ 583هـ/1187م، وقد سجل هذا الوقف رسميا حسب الأصول الشرعية وأعيد تدوين وصية الوقف عدة مرات وأقدم نسخة موجودة منها الآن تعود إلى العام 666هـ/1267م.وقد أنشأ احد أحفاد بومدين شعيب في 29 رمضان عام 720هـ الموافق 3 نوفمبر تشرين ثاني1320م أوقافا وزاوية أسميت باسم بومدين شعيب الجد[14].

وهكذا توسعت حارة المغاربة وامتدت مساحة خمسة وأربعين ألف هكتار ابتداء من حائط البراق، وفي الوثائق أن شخصيات من تلمسان حضرت إلى القدس الشريف بقيادة محمد العشعاشي عام 1952 في مسعى للحفاظ على هذه الحارة وأوقافها. وجرت عدة محاولات في هذا الشأن سواء قبل استقلال الجزائر أو بعده، وتطرقت إلى هذا الموضوع في موقع آخر. لكن الذي يهمني أن أخلص إليه أن بومدين شعيب دشن في الشام بدءا من القدس التي كانت تتبع الحكم الأيوبي في دمشق، الصوفية المجاهدة المقاومة للغزو الأجنبي. فأثر كثيرا في عقول الناس ووجداناتهم. ولا يزال كفاح العرب، المسلمين ضد الاحتلال الأجنبي بقيادة صلاح الدين زهوه وبعده الديني مرجعا للمناضلين ضد الصهيونية والإستعمار من عرب ومسلمين في أنحاء العالم.

ولم يتوقف تأثير التلمسانيين المتصوفين في الشام عند أبي مدين شعيب فقد جاء بعده آخرون ومنهم : العفيف التلمساني والشاب الظريف وآخرين.

أ – العفيف التلمساني

يخلط بعض الناس بين العفيف التلمساني الأب وبين ولده محمد فكلاهما صوفي وفقيه. وأما الأب فهو تلميذ مباشر لبن عربي واعتنق مذهبه الصوفي مما جر عليه العديد من التهم والمشاكل، وهو الذي ذكره الحافظ بن كثير"أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله العابدي الكرمي–ألأصح الكومي– ثم التلمساني(610 ـ 690هـ) الشاعر المتقن المتفنن في علوم، منها: النحو، والأدب، والفقه، والأصول، وله في ذلك مصنفات، وله شرح مواقف النُفَّري، وشرح أسماء الله الحسنى، وله ديوان مشهور، وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض".

13 - هو أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري الأندلسي الأصل. ولد بإشبيلية بالأندلس سنة 509 للهجرة، وتعلم في فاس، وإستقر في بجاية مدة معتبرة في حياته، ومات ودفن في تلمسان.

14 - الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، ج2، ص378.

ويقول عنه علي أحمد في كتابه "الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام" : "عفيف الدين سليمان التلمساني المتوفى سنة 690هـ/1291م الذي التقى بالقاهرة بأبرز تلامذة ابن عربي..... وقد تتلمذ التلمساني على ابن عربي بعد أن وصل إلى دمشق ويبدو انه كان من المتعمقين بمذهب أستاذه بدليل انه شرح عدة مؤلفات له، إضافة إلى ذلك فقد كان من الشخصيات المعروفة بدمشق على هذا الصعيد..."[15].

ويبدو أن العفيف التلمساني الأب هذا، كان قد جال عدة بلدان في أوروبا وفي المغرب وعاش فترة في مصر ثم انتقل إلى دمشق، وله كتب وجد بعضها في مكتبة الظاهرية بدمشق التي أسسها الشيخ طاهر الجزائري بعد خروج الأتراك منها في القرن العشرين الميلادي.

وقد اتهم ابن تيمية، عفيف الدين التلمساني بالزندقة والإلحاد تماما، كما اتهم ابن عربي أستاذ التلمساني بتهم مماثلة لأنه يقول بوحدة الوجود والحلول وهو ما ينكره ابن تيمية، والملاحظة التي يجب إيرادها هنا بل دراستها أن المواطنين العاديين الشوام لم يعبأوا كثيرا بكلام ابن تيمية عن ابن عربي، والعفيف التلمساني رغم سطوة وتأثير ابن تيمية في الفقهاء، وزاد هؤلاء من تبجيلهم لأبن عربي حيث دفنوه في قاسيون قريبا من مرقد النبي ذي الكفل، وأطلقوا على المنطقة اسم الشيخ محي الدين..ثم ردفنوا تلميذه العفيف بالقرب منها، وأطلقوا عليها إسم العفيف ولا يزال الاسم يطلق حتى الآن، حيث يوجد جامع العفيف أيضا، ولصديقنا المفكر ألإسلامي الكبير المرحوم مولود قاسم حكايات كان يرويها لنا حين كان يزور دمشق زمن الثورة، ويزور قبر الأمير عبد القادر في مقام ابن عربي أثناء الثورة، وهي الزيارات التي ألهمته فكرة نقل رفات الأمير عبد القادر التي اقترحها على الرئيس احمد بن بلة حين كان مستشاره، ونفذت في عهد الرئيس هواري بومدين عام 1966، رغم أن فكرة نقل رفات الأمير عبد القادر إلى الجزائر راودت المحتلين الفرنسيين قبل ذلك بعقود.

ب- الشاب الظريف

أما الشاب الظريف فهو العفيف الابن واسمه محمد ويلقب بشمس الدين ولم يكن ليخرج عن طريقة والده في كل شيء تقريبا كالتصوف والشعر والعمل في الإدارة،وكأنه صورة طبق الأصل عنه، وإن كان لم يصل إلى مستوى والده في التبحر في مذهب ابن عربي، عندما وافته المنية وهو ابن ثلاثين عاما ودليل ذلك أنه لم يوصف بالأوصاف التي وصف بها والده كالزندقة وغير ذلك[16]. ويبدو أنه كان اشعر من والده وكان صاحب نكتة وظرافة ولهذا عرف بالشاب الظريف

15 - علي، أحمد. مرجع سابق ص 178.

16 - المرجع نفسه، ص 179.

محمد العفيف، وقد وجدت له ديوانا في مكتبة الظاهرية السالف ذكرها صورته وقدمت نسخة منه لأحد الباحثين الجزائريين عله يرى فيه شيئا.
وظل المغاربة وبالخصوص التلمسانيين منهم يلعبون دورا في الحياة الإدارية والثقافية الدينية في بلاد الشام كما في مصر. وإن تراجع هذا الدور في العهد ا لعثماني. ولكننا فجأة نرى هذا الدور الديني للجزائريين يتعاظم في الشام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي،ليبرز في النصف الأول من القرن العشرين دور التلمسانيين منهم.

7 - الدور الصوفي للعائلات الجزائرية المهاجرة إلى الشام في القرن التاسع عشر

إن دور المهاجرين الجزائريين منذ 1847 في الحياة الصوفية في دمشق وسائر بلاد الشام كان دورا كبيرا ورأينا في بحوث سابقة[17] أن العائلات المهاجرة إلى بلاد الشام كانت على رأس حركة الفكر القومي العربي ألإسلامي، وكان من رموزها الشيخ طاهر الجزائري وابن أخيه سليم الجزائري، كما رأينا دورهم في التعليم الذي برزت فيه عائلتا المبارك والهاشمي.
كما برز ت عائلات جزائرية أخرى في حركة التصوف الديني سواء كانت هجرتها من منطقتي بجابة وتيزي وزو وما حولهما أو من منطقة الغرب الجزائري من وهران وتلمسان وما حولهما. ومن المعروف أن المهاجرين الجزائريين عام1847 كانوا في معظمهم من أتباع الطريقة الشاذلية القادرية ومنهم الأمير عبد القادر والطريقة الشاذلية البكرية الخلوتية التي يرأسها شيخ الزاوية الرحمانية المهدي السكلاوي وكان من أتباعه فيها الشيخ المبارك من دلس، واحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير في منطقة حمزة (البويرة) التي كانت قاعدة للمجاهدين في منطقة الزواوة التي تضم ما يعرف اليوم بتيزي وزو وبجاية.
وقد قام هؤلاء بدور ثقافي وديني في الشام امتد لشمل حالة من النهوض السياسي وقيادة حركة الفكر القومي العربي في وجه الإستعباد الطوراني ونوايا الدول الأوروبية الكبرى لاستعمار المنطقة وزرع الفتنة بين النصارى والمسلمين. وقد بدأ دور المهاجرين الجزائريين الصوفي والتعليمي في الشام على يد محمد المهدي السكلاوي الذي اتخذ مجلسه في حارة الخضرية وبدأ التدريس فيه. وكان مريدوه من علية القوم بدءا من والي الشام المشير احمد عزة الذي تنبأ له السكلاوي بالشهادة وكان ذلك حيث مسح به العثمانيون السكين واتهموه بالتقاعس عن إخماد فتنة 1860 وشنقوه وهو صائم.

17 - أنظر كتابنا، إشعاع المغرب على المشرق. دور المهجرين الجزائريين في بلاد الشام، دار الأمة، 2001.

- الأمير عبد القادر وعائلته

لعب الأمير عبد القادر دورا تصوفيا كبيرا في بلاد الشام بعد وصوله دمشق في 1856، والكل يعلم أن حياة الأمير عبد القادر بدأت دينية تصوفية في زاوية والده بالقيطنة الذي لم يكن يعده لا للسياسة ولا للقتال، ولكن الأقدار شاءت غير ذلك. ويبدو أن تصوف الأمير عبد القادر قد بدأ رسميا من المشرق أو انه استغرق فيه تعبدا وتقية، إذ يتحدث جواد المرابط في كتابه "التصوف والأمير عبد القادر" أن: "تصوف الأمير مر بمراحل ثلاث كانت أولاها في بغداد حين زار مع والده قبر عبد القادر الجيلا ني وأخذا الإجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الأشراف. والمرحلة الثانية في سجن امبواز التي حولها الأمير بقوته النفسية والدينية وصبره واحتماله إلى خلوة صوفية انتهى بها إلى الأفق الروحاني بوقدة الإضطرار والشوق. أما المرحلة الثالثة فهي، عندما سافر حاجا سنة 1279 هـ حيث أقام في مكة سنة ونصف مقبلا على العبادة وحيث التقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية وتتلمذ عليه..."[18].

ومعروف أن الأمير عبد القادر أسهم جديا في إدخال الطريقة الشاذلية اليشرطية إلى عكا بفلسطين حين توسط لدى الباب العالي أن يكون منفى شيخ هذه الطريقة من تونس إلى عكا وقد نجح بذلك ودخلت الشاذلية اليشرطية فلسطين فعلا. بل تقول فاطمة اليشرطية أن علاقة مصاهرة كانت تربط عائلاتها وعائلة ألأمير (وكانت أختي السيدة عائشة زوجة للأمير مصطفى الحسني شقيق الأمير عبد القادر..)[19].

ورغم أن كتبا كثيرة عربية وغير عربية تحدثت عن تصوف الأمير عبد القادر وانخراطه في الطريقة الشاذلية القادرية وغيرها من الطرق، إلا أننا رأينا في مثل هذا الزمان، خاصة في هذه الأيام التي تتبادل فيها السلفية المتطرفة والصوفية المستنهضة بإمكانيات فئة بعض السياسيين، وبعضا من عائلة الأمير ينفون عنه التصوف. وذهبت بديعة الحسني بعيدا جدا في تشويه تاريخه واتهمت هنري تشرشل بالكذب في تاريخه[20]، كما أنها سفهت كتاب ولده محمد عنه.[21] بل أنها نفت أن يكون كتاب المواقف من تأليف الأمير، ولست أدري ماذا ستفعل بأشعار الأمير الصوفية. هل ستقول أنها وضعت عليه ونسبت إليه. فيتحول هذا الأمير ومعه تاريخ الجزائر والكفاح القومي العربي والجهاد الوطني الإسلامي إلى كذبة كبرى ابتلعناها جيلا بعد جيل طوال القرنين الماضيين. وقامت عائلة الأمير في

18 - جواد، المرابط. التصوف والأمير عبد القادر الحسني ، دمشق دار البقظة، 1966، ص 28.

19 - فاطمة، الحسنية اليشرطية. مصدر سابق، ص148.

20 - انظر كتاب بديعة الحسني ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير لهنرى تشرشل.

21 - انظر كتاب بديعة الحسني دراسة لكتاب تحفة الزائر.

دمشق برفع دعاوى ضدها وتقول أنها ليست من عائلة الأمير ولا من سلالته ولا من سلالة إخوانه. وبديعة محسوبة على السلفيين وتوجهاتهم.

وفي اعتقادي بان التشكيك في صوفية الأمير عبد القادر هي جزء من عمل سياسي منظم في هذه الأيام غايته إبعاد الصوفية التي يراد تجديدها عن النضال القومي والجهاد الديني بإبعاد رموزها ومجاهديها الذين ابلوا أحسن البلاء في الدفاع عن القومية العربية والدين الإسلامي، بالعمل قبل القول وفي طليعة هؤلاء الأمير عبد القادر الذي يحدد بنفسه في (المواقف) الطريق الذي وصل عبره إلى المطلق إذ يقول في المواقف (وكنت ممن رحمه الله تعالى، وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم على طريقة الجذبة لا عن طريق السلوك...)[22]

ولعل ما أورده الأمير في المواقف عن موضوعات حيرة الوجدان كما هي عند ابن الفارض، وحيرة العقل كما هي عند ابن عربي والرازي وأحواله في هاتين الحيرتين، هو كلام يصعب على صاحبه أن ينسبه إلى غيره، فالحيرة هي الدرجة السادسة من التصوف حيث تليها درجة الفقر والفناء في المطلق ولا اعتقد أن أحدا غير من عاش هذه الحيرة يستطيع الكتابة فيها وعنها، فكيف له وهو على هذه الدرجة من التصوف والفكر أن ينسب حاله ومقاله لغيره لقد كان الأمير عبد القادر متصوفا ما في ذلك من شك، لكنه لم يكن مغرقا فيه سواء في الجزائر أو في تركيا أو خلال سنواته الأولى في دمشق إلى أن اضطر لاستخدامه كتقية من القوى العثمانية والأوروبية التي أخذت تشدد رقابتها عليه تخوفا من مشروعه القومي العربي الذي ظهرت علاماته عام 1860.

ولعل تظاهر الأمير بالإغراق في التصوف لم يكن إلا جزءا من الخطة التي رسمها لنفسه لمواجهة الضغوط عليه...)[23]

وهناك عدد من أفراد عائلة الأمير خاصة من إخوانه وأولادهم ممن عرفوا بالتصوف مثل أخيه السعيد وولديه مرتضى وعبد الباقي، وأخيه احمد الذي كان مولعا بالتصوف وكان من أتباع الطريقة الشاذلية القادرية (وقد جلس للتدريس في داره ثم في جامع العناية الذي كان يقع في باب السريجة، وكان احمد يعتبر من العلماء الزهاد، ومهتما بالحديث الشريف...)[24].

وكثير منهم ممن نجد ترجماتهم عند الحصني في منتخبات التواريخ لدمشق والحافظ في تاريخ علماء دمشق وعند خلدون مكي حفيد عبد الباقي بن السعيد الذي ذكرنا.

---

22 - عبد الله، عبود العسكري. مصدر سابق ص78.

23 - أبو القاسم، سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرو الإسلامي، ج 5، ص550.

24 - المرجع نفسه ص527.

- عائلات وأعلام أخرى

وليست عائلة الأمير وحدها من الجزائريين التي أسهمت خلال القرن التاسع عشر والعشرين في المشهد الصوفي في بلاد الشام. فهناك متصوفون آخرون، فنجد في دمشق مقدم الطريقة الخلوتية الرحمانية محمد المهدي السكلاوي الذي يترجمه صاحب حلية البشر ويقول عنه شيخ الطريقة "...أنه معدن السلوك والحقيقة، صاحب الفيوضات الإلهية والكشوفات الربانية، العارف بالله والمقبل لكليته على مولاه، المرشد الإمام والمسلك الهمام. واستقام في حارة الخضيرية، وكان يقيم الأذكار ويسلك المريدين.[25]

وكذلك آل المبارك وأشهرهم في التصوف الشيخ الطيب المبارك الذي اعتقده الناس ونجد في فلسطين ما يشبه التسلسل الزمني لدخول التصوف من المغرب العربي- في ستينيات القرن التاسع عشر نجد دخول الشاذلية اليشرطية إلى مدينة عكا، تلك المدينة التي كان الأمير عبد القادر الجزائري قد اختارها لمنفاه من خياراته الثلاثة بعد مكة والإسكندرية، وهناك أقوال عن سبب وصول الشيخ علي نور الدين اليشرطي إلى فلسطين، فالبعض يقول أن والده كان قائدا كبيرا في الجيش التونسي، وحاول الاستيلاء على السلطة وفشل فتوسط الأمير عبد القادر لنفيه إلى عكا، والبعض يقول إنها الصدفة فقط فقد كان الرجل في الحج ثم قصد زيارة القدس عن طريق ميناء يافا فتعرض مركبه إلى أنواء. فطلع إلى عكا وكان قد مرض لشدة ما أصابه من ألأهوال والعناء فذهب منها إلى ترشيحا لتبديل الهواء[26]. لكن فاطمة اليشرطية وهي ابنة علي المذكور توحي بأن عكا كانت منفى للسياسيين الذين تغضب عليهم السلطة العثمانية لأنها مركز امني عسكري كبير وبالتالي فهي تضم كثيرا من كبار القوم المبعدين.

وكانت عكا في ذلك العهد مركز القيادة العليا للجيش التركي في سائر أنحاء فلسطين ترابط فيها فرق كاملة العدة والعدد ويسكنها كثير من أمراء الجيش وقواده وضباطه وعائلاتهم، وكثير من الحكام المدنيين الذين يتولون إدارة الأحكام المدنيين،كما كانت من البلاد التي يرسل إليها المبعدون السياسيون من الآستانة وكافة البلاد الخاضعة للحكم العثماني، فكان منهم العظماء والكبراء والوزراء والعلماء الأعلام ومشاهير الأدباء[27].

ومع أني لا اعتقد بان رجل دين صوفي يختار مدينة هذه أوصافها مكانا لدعوته إلا إذا كان ذلك من باب الخيار الوحيد. ويبدو أن علي نور الدين اليشرطي لم يستكن في عكا سواء كان منفيا إليها أو ساقته لها الأقدار وظل يجهر بالعداء

25 - عبد الرزاق، البيطار (1992). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ط2، ج3، ص 1326، بيروت.

26 - المصدر نفسه، ص1065.

27 - فاطمة، الحسنية اليشرطية، مرجع سابق ص148.

للدولة العثمانية فنفته إلى قبرص (ولم يزل بها ثلاثة أعوام إلى أن تداخل في إحضاره الأمير عبد القادر الجزائري فاستجلبه إلى الشام)[28].

وكان ذلك في حدود سنة 128هـ أيام ولاية رشدي الشرواني، لكن ما إن استبدل ذلك الوالي حتى رجع اليشرطي إلى موقفه المضاد من العثمانية فاستحضره الوالي الجديد إلى الشام مع نحو عشرين من جماعته أتوا أمورا مذمومة ومعتقدات مشؤومة وأراد نفيه إلى فزان.

فبذل الأمير عبد القادر رجاء لحضرة الوالي المرقوم أن يجعله محبوسا في داره وأن يسمح عن نفيه رحمة لذله وانكساره فحقق الوالي رجاءه لما له عنده من الفضل والجاه، أما جماعته فإنه نفاهم إلى فزان وأذاقهم الذل والهوان.[29]

لكن فاطمة اليشرطية تصوغ تداخل الأمير وتوسطه، صياغة أخرى إذ تقول انه بعد عودته من قبرص "ذهب إلى دمشق بدعوة من ألأمير عبد القادر الحسني الجزائري المغربي ونزل ضيفا على ذلك الأمير الكريم"[30].

وتكشف اليشرطية في هذا النص أن احد إخوان الأمير كان متزوجا من أختها عائشة وهو مالم يذكره أحد من الذين أرخو ا لعائلة الأمير، ولكنها تكشف في هذا الكتاب عددا من أتباع اليشرطي في فلسطين فتورد إسم محمد الدلسي.[31]

في مدينة صفد والإسم بهذه الصيغة يكون اسم كبير عائلة الدلسي في تلك المدينة والتي تحدثنا عن هجرتها بقيادة زعيمها احمد الطيب بن سالم خليفة الأمير في برج حمزة (البويرة اليوم).

ويبدو أن أساليب التهم التي تتبعها الدول العربية اليوم لمعارضيها المتعلقة بوطنيتهم وشرفهم وسلوكهم هي أساليب متوارثة من العهد العثماني حيث يورد البيطار ان اليشرطي وجماعته، اتهموا بأنهم يقومون تحت غطاء التصوف والتدين بكل الموبقات حتى الزنا بالأمهات. ولكنه يؤكد انه ما علم عنه سوى ما يوجب الكمال "وحاصل الكلام في سيرة هذا المترجم المفضال فإنها اختلفت فيه أقوال الرجال، فمنهم من طعن به وزاد، ومنهم من برأه من كل مايوجب الملام والفساد، وإن الحق يقال ما علمنا منه سوى ما يوجب الكمال"[32].

وخلال قراءتي لكتاب اليشرطية عثرت في صفحة 198 على أنشودة أحفظها عن أمي عن أبيها تقول: "ياكوكب العصر يانور بارينا، لولاك لم يسر نور الهدى فينا قد كنت أهواها من قبل مجلاها، والقلب ناجاها في طورسينينا".

---

28 - عبد الرزاق، البيطار، مصدر سابق ص1066.

29 - فاطمة، الحسنية اليشرطية، مرجع سابق ونفس الصفحة.

30 - المرجع نفسه، ص 198.

31 - المرجع نفسه، ص 198.

32 - عبد الرزاق، البيطار، مصدر سابق ونفس الصفحة.

فإذا بهذه الأنشودة هي من أناشيد الطريقة الشاذلية اليشرطية وأوردتها المؤلفة بالكامل، واعتقد أن ذلك يعني إنها كانت منتشرة في صفوف الجزائريين المهاجرين، ونجد في أواخر القرن التاسع عشر متصوفا جزائريا من غربي الجزائر يدعى عبد الباقي الشعشاعي هاجر إلى المشرق، والتقى في مدينة نابلس بالشيخ اليشرطي وسلك في الطريقة، وقد مكث في نابلس وأنجب زوجته ابنه البكر محمد الذي عرف في الجزائر بسيدي الشيخ محمد النابلسي، ويبدو أن محمدا هذا ظل يتنقل بين فلسطين والجزائر حتى توفي في الجزائر عام 1927[33].

وفي ثلاثينيات القرن العشرين نجد الشيخ الهلالي عميمور يدخل الطريقة الشاذلية العليوية بعد زيارة قام بها إلى فلسطين في تلك المرحلة الشيخ احمد العليوي واخذ عميمور الطريقة على يديه[34] والشيخ الهلالي عميمور كان مجاهدا مع الحاج أمين الحسيني قائد النضال الوطني الفلسطيني وخاصة في لجنة القدس العربية، وكان متنقلا بين القدس وغزة.

- عائلة اليعقوبي

وأما في دمشق ومشهدها الصوفي فإننا نجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عائلة اليعقوبي، ومؤسس هذه العائلة في الشام هو محمد الحسن بن محمد العربي اليعقوبي، المهاجر من آيت سعادة في ولاية بجاية، ولاتزال هذه العائلة موجودة في ذات المنطقة. هاجر عام1847مع أحمد بن سالم، والمهدي السكلاوي ومحمد المبارك وغيرهم في الهجرة السياسية العربية الأولى في التاريخ المعاصر التي عرفت بـ(هجرة العلماء) وسكن في حي السويقة قرب باب المصلى، وكان عالما عارفا، دفن في جبل قاسيون بجوار المقام المنسوب لنبي الله ذي الكفل[35].

وقد برز من عائلة اليعقوبي في جانب التصوف عدة أسماء منها محمد مزيان بن محمد الحسن الذي توفي عام 1902 وكان عالما زاهدا وكان نسابا عالما بأنساب بيت النبوة وكان نقشبندي الطريقة. وأما محمد الشريف بن محمد الصديق بن محمد الحسن اليعقوبي فأخذ الطريقة الشاذلية عن خاله محمد المبارك الدلسي وخلفه في زاويته واخذ النقشبندية عن عمه محمد مزيان الذي اشرنا إليه، وعرف عنه تأسيس المدارس في بيروت ودمشق وترأس الكلية الشرعية التي شارك في تأسيسها في بيروت إلى أن توفي. وهو قائد فرسان الجزائريين الذين تصدوا للجنرال غورو في معركة ميسلون 1920 تحت قيادة يوسف العظمة.[36] كما برز

33 - العشعاشي، مصطفى. السلسلة الذهبية بتعريف رجال الطريقة الهبرية الدرقاوية - عن الإنترنيت.

34 - نفسه.

35 - مقابلة شخصية أجريتها مع الشيخ محمد أبي الهدى اليعقوبي في منزله بحي المهاجرين شارع خو رشيد بدمشق بتاريخ 2010.04.11.

36 - الفرفور، محمد عبد اللطيف صالح (1986). صفحات مشرقات وظلال وارفات من حياة العلامة الكبير السيد الشريف الشيخ إبراهيم اليعقوبي، ط1، ص19، دمشق.

منهم أخوه اسماعيل. وأنجب اسماعيل ولده المعروف في دمشق الشيخ إبراهيم وأنجب إبراهيم محمد أبا الهدى...إلخ.

7 - تجدد دور التلمسانيين في التصوف في بلاد الشام خلال القرن العشرين الميلادي

لم يتوقف دور التلمسانيين في حركة التصوف ببلاد الشام عند القرون الوسطى حسب التصنيف الغربي للقرون التاريخية، بل نجده قد تجدد في القرون الحديثة والمعاصرة وخاصة في القرن العشرين حيث نجد شخصيات صوفية تلمسانية لها بالغ الأثر في هذه الحياة. ومن هذه الشخصيات: محمد بن يلس التلمساني، أحمد بن محمد بن يلس ومحمد الهاشمي التلمساني.

أ- محمد بن يلس التلمساني

تعتبر عائلة بن يلس من العائلات العريقة في دمشق. وقد هاجرت عائلة بن يلس مع شيخها محمد إلى دمشق من تلمسان في أواخر عام 1911 للميلاد، واشتهرت منذ يومها الأول بالتصوف.

والشيخ بن يلس هو محمد بن شاوش (ويكتبها المشارقة شاويش وهي لفظة تركية تدل على مرتبة صف ضابط في الجيش العثماني وفي الحياة المدنية تدل على مرتبة رئيس مجموعة عمالية أو مراقب عمل) بن يلس ولد في الجزائر سنة 1847. وتظل حياة الشيخ بن يلس في الفترة 1847 - 1911(غير معروفة لدينا...)[37].

ونحن لا نعلم عنها الكثير، فقد فرطت النخبة الجزائرية. وهكذا فرضت النخبة الجزائرية في بعضها، ومن هؤلاء الذين فرطت بهم وبتاريخهم الشيخ محمد بن يلس، فضاعت الفترة الجزائرية من حياته وهي الفترة الأطول. وحفظ لنا المشارقة الفترة الدمشقية منها وهي الأقصر(1911 - 1927) ولكنها أنصفته وأشارت إلى تاريخه في الجزائر بقولها أنه كان مرا على الإستعمار الفرنسي في الجزائر، فنحن نعلم من مؤرخيه المشارقة انه نزل حين وصوله مع عائلته إلى دمشق بحي السويقة في جامع عز الدين، ثم انتقل إلى منزل الشيخ محمود أبو الشامات، واستقر في منطقة الصمادية حيث أسس زاوية وأقام دروسا وحلقات علمية.

ولما دخل الفرنسيون دمشق قارعهم وكان مرا عليهم رغم كبر سنه[38]. وقد سجنته فرنسا مطلع الاحتلال الفرنسي لسورية فهاجت دمشق حتى أطلق سراحه، وقد حاولت أن أترجمه في كتابي "الإشعاع المغربي في المشرق" المطبوع في الجزائرسنة

37 - أبو القاسم، سعد الله. مرجع سابق.

38 - الصواف، محمد عدنان (2004). موسوعة الأسر الدمشقية. دار الفكر، ج3، ص665، دمشق.

1997 منتظرا أن يصحح لي احد من عائلته أو أي من مثقفي تلمسان وشيوخها وللأسف لم استلم من احد لا تصحيحا ولا إضافة حتى الذين كتبوا عن الطرق الصوفية بما فيها الطريقة الشاذلية الدرقاوية لم يضيفوا شيئا، وكان ولا يزال يهمني في سيرته أمران :

أولهما : إن بعض المصادر الدمشقية تقول أنه كان يعد في الجزائر قبل هجرته منها إلى ثورة على فرنسا... وهذه المعلومة تحتاج إلى إجابة على أسئلة القصة كلها متى وأين وكيف ولماذا ومن...؟

ثانيهما : موقفه من الثورة السورية التي انطلقت ضد فرنسا في أواخر أيامه 1925 - 1927 وعلاقته بقائدها العسكري في الغوطة الأمير عز الدين الجزائري، فمعروف إن عائلة ألأمير عبد القادر التي تولى بعضها الكتابة عن تاريخها، وتاريخ الأمير عز الدين ضربت صفحا عن كتابة تاريخ الجزائريين في دمشق من غيرها سواء كان بن يلس أو المبارك أو أي من العائلات الجزائرية وهي مثلبة كبيرة لكتاب هذه العائلة سواء الأمير سعيد بن علي أو بديعة الحسني أو غيرهما، وكذلك فإن الذين تناولوا الكتابة عن الثورة السورية الكبرى والحركة الوطنية السورية، ولا زالوا يكتبون. إنما يكتبون من وجهة نظر تدعي العلمانية وهو ادعاء يقتضي إقصاء دور الفئات الدينية في تحريك التاريخ وهو ما يعاني منه تاريخنا العربي في المغرب والمشرق على حد سواء. ومن تلك الفئات المقصاة فئة الطرق الصوفية بسلبياتها وإيجابياتها وشيوخها ورجالها. لذلك لم أجد ما يكفي عن موقف بن يلس ضد الفرنسيين في الشام، كما هو الحال مع موقفه ضدهم في الجزائر. وهو نقص تتحمله عائلته بالدرجة الأولى هنا وهناك، ويتحمله مؤرخو الطرق الصوفية وأدعياء العمل الإسلامي السياسي والديني بالدرجة الثانية، ويتحمله بالدرجة الثالثة مؤرخو حركة التحرر القومي العربي بتجلياتها الوطنية المحلية ويتحمله با لدرجة الأساسية من أخفى الوثائق أو أتلفها من قوى استعمارية ومحلية.

هجرته إلى الشام ونشاطه فيها

هاجر الشيخ محمد بن يلس إلى الشام عبر البحر عن طريق طنجة في سبتمبر أيلول 1911.كان الشيخ محمد بن يلس من أشهر رجال الطريقة الشاذلية الدرقاوية في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعشرية الأولى من القرن العشرين، ولكن هذا الفرع الدرقاوي لم يكن معروفا في الشام فاكتفى بتدريس الشاذلية الأصلية في جامع عز الدين وفي بيته ثم في زاوية الصمادية بحي الشاغور، وكان له تلاميذ نذكر منهم: محمد الهاشمي، محمود السيد، محمد كيوان، احمد القصيباتي، احمد التلمساني واحمد الشميساني. كما كانت له ديوان شعر أيضا.

توفي الشيخ محمد بن يلس بدمشق يوم الثلاثاء 26 ديسمبر 1927م أي في ذات العام الذي انتهت فيه الثورة السورية الكبرى ولكن المصادر لا تحدثنا كثيرا عن دوره في هذه الثورة سوى بإشارات عابرة وهو ما يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب.

ب- احمد بن محمد بن يلس

ولد في تلمسان سنة 1317هـ، وهاجر مع والده محمد بن يلس سنة 1327هـ وظل ملازما لوالده في زاوية الصمادية إلى أن أنشأ مدرسة بمنطقة مئذنة الشحم في دمشق وهذه المئذنة التى لا تزال قائمة حتى اليوم منذ العهد الأموي وهي التي تم الاتفاق على إبقائها من المسجد الذي تم هدمه في حارة النصارى بدمشق مقابل هدم الكنيسة التي أدخلت في المسجد الأموي مع البقاء على قبر يوحنا المعمدان (النبي يحيى) الذي لا يزال قائما وسط المسجد. قرب هذه المئذنة بنى احمد بن محمد بن يلس مدرسته التي اسماها مدرسة الإرشاد والتعليم.وقد زار تلمسان. كما كانت له مجالس ذكر في زاوية والده يقرا فيها همزية البوصيري وبردته. ومن مؤلفاته نذكر الحدائق الوردية في الدروس التوحيدية، المنتخب من كلام العرب، العقد الثمين في سيرة سيد المرسلين، المجموعة السنية في أوراد السادة الشاذلية الدرقاوية التلمسانية.

وتوفي بدمشق سنة 1379 هـ ودفن بمقبرة باب الصغير قرب والده.[39]

ج- محمد الهاشمي التلمساني

ليس هناك كتاب صدر في الشام عن الحياة الدينية والوطنية في سوريا بدءا من العشرية الثانية للقرن ألعشرين إلا وتحدث عن الشيخ محمد الهاشمي التلمساني. وكنت أتفهم أن تتحدث عنه تلك الكتب التي تحمل وجهة نظر دينية فالرجل كان له شانه الديني.. ولكني تريثت حتى أفهم سر حديث الكتب السياسية الوطنية عنه... إلى أن عثرت على صور له وهو يتدرب على السلاح في صفوف المنظمات الشعبية التي تكونت في سورية بعد العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 وكان قد أسن حتى أن صحيفة سورية كتبت تحذر المعتدين من هذا الشعب الذي هرع فيه شيخ في التسعين من العمر هو محمد الهاشمي للتدرب على السلاح. (انظر الصورة رقم 54). وعرفت أنه شارك في عام 1920، في معركة ميسلون ضد جيش الاحتلال الفرنسي الذي يقوده الجنرال غورو، فقد كان رحمه الله يكره الاحتلال بكل أشكاله الثقافية والإقتصادية وينبه على ذلك دائما وكأنه شاب يعيش عصره، ولما ندبت الحكومة الشعب أيام العدوان الثلاثي على مصر وما أكثر ما يبيت لهذه ا لأمة، أسرع الجميع وعلى رأسهم العلماء وأهل الفضل على التدرب على السلاح، ونظمت المقاومة الشعبية وكان الشيخ رضي الله عنه

39 - سطيح، الحافظ وزميله. تاريخ علماء دمشق، دمشق ط1، ج1، ص 427.

من الأوائل في هذا الميدان،وصورته مع إخوانه شاهدة على ذلك، بل قام بحراسة حيه في المهاجرين وكان عمره قد جاوز السبعين.[40]

ولد محمد بن احمد بن الهاشمي بن عبد الرحمن بن بوجمعة الهاشمي يوم السبت 22 شوال 1298 هـ/1881م في مدينة سبدو التابعة لمدينة تلمسان. وكان والده من علمائها وقاضيا فيها، فلما توفي ترك أولادا صغارا، وكان محمد أكبرهم سنا.

بقي الشيخ مدة من الزمن ملازما للعلماء، قد انتظم في سلكهم جادا في الازدياد من العلم، ثم هاجر مع شيخه محمد بن يلس إلى بلاد الشام احتجاجا على قانون التجنيد ألإجباري الذي فرضته فرنسا على الجزائريين. يقول أبو القاسم سعد الله (وكانت هجرته مع شيخه محمد بن يلس، أثناء الرعب الذي أصاب تلمسان، وكل الجزائر، من فرض التجنيد الإجباري على الشباب، وابن يلس هو شيخه في الطريقة الدرقاوية.)[41]

قامت الدولة العثمانية بنفيه إلى أضنه في تركيا ووبقي شيخه ابن يلس في دمشق. وأطلقت سراحه بعد سنتين فعاد إلى دمشق، والتقى بشيخه ابن يلس من جديد. وسكن في السويقة حي الجزائريين التاريخي بدمشق وعمل حارسا ليليا في سوق مدحت باشا وفي بعض الشركات الحكومية[42]، ثم انتقل إلى حي المهاجرين قرب مقام محي الدين بن عربي.

وفي بلاد الشام لم تكن علاقته طيبة مع الدولة العثمانية وليس لدينا ما يوضح علاقته مع حكومة الملك فيصل التي جاءت بعدها وأما علاقته مع الإحتلال الفرنسي لدمشق فقد كانت دائما متوترة إذ شارك الرجل ضدها في معركة ميسلون عام 1920.

شيوخه في الشام: تابع أخذ العلم عن أكابر علماء دمشق، ومن أشهرهم المحدث الكبير بدر الدين الحسني، والشيخ أمين سويد، والشيخ جعفر الكتاني، والشيخ نجيب كيوان، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ محمود العطار وأخذ عنه علم أصول الفقه، والشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافي وأخذ عنه الفقه المالكي، وقد أجازه أشياخه رحمهم الله بالعلوم العقلية والنقلية.

أما من ناحية التصوف فقد أذن له شيخه محمد بن يلس بالورد العام، لما رأى من تفوقه على تلامذته، من حيث العلم والمعرفة والنصح لهم وخدمتهم. ولما قدم المرشد الكبير أحمد بن مصطفى العلوي من الجزائر لأداء فريضة الحج، نزل في دمشق ربيع 1930 / 1348 هـ وأذن لمحمد بن الهاشمي بالورد الخاص، تلقين الاسم الأعظم، والإرشاد العام نشاطه نشر الطريقة الشاذلية الدرقاوية في دمشق وحمص

40 - الحسني، محمد عدنان المجد (2003). فيض الإله العلي في ترجمة سيدنا الهاشمي، ص9، دمشق.

41 - أبو القاسم، سعد الله. مرجع سابق.

42 - محمد، رضا بشير قهوجي. مرجع سابق ص81.

وحماة وحلب وغيرها في سورية والعراق ولبنان وفلسطين والأردن حتى عرفت باسمه ووصلت إلى تركيا وأوروبا وأمريكا[43].

نشاطه:

كان بيته قبلة للعلماء والمتعلمين والزوار، لا يضجر من مقابلتهم، ويقيم –مع ضعف جسمه– حلقات منتظمة دورية للعلم والذكر في المساجد والبيوت، ويطوف في مساجد دمشق يجمع الناس على العلم وذكر الله والصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ولم يزل مثابراً على همته ونشاطه ودعوته حتى أيامه الأخيرة.

اشترك محمد الهاشمي عام 1946 في تأسيس رابطة العلماء التي رأسها أبو الخير الميداني وكان عضو مجلس شبوخها وحين انتخب الشيخ محمد الكتاني رئيسا لها انتخب الهاشمي نائبا للرئيس وشارك في مؤتمر هذه الرابطة عام 1957 الذي عقد خصيصا لنصرة الجزائر وكانت له اليد الطولى في تأسيس دائرة أرباب الشعائر الدينية التي لازالت قائمة حتى اليوم وقد ترأسها فترة من الزمن.كما سعى لبناء مسجد الرضوان في حي المهاجرين.[44]

عايش الشيخ الهاشمي ظروف سورية منذ الحرب العالمية الأولى : هزيمة الدولة العثمانية، الحكومة العربية بدمشق، الاحتلال الفرنسي1920، الثورة السورية الكبرى 1925 - 1927 والمقاومة الشعبية السياسية للاحتلال الفرنسي، استقلال سورية 1946، حرب فلسطين 1948، الانقلابات العسكرية المتتالية في الخمسينيات، الوحدة السورية– المصرية 1958وانفصالها في ايلول1961، كما عايش الثورة الجزائرية 1954 - 1962 التي كانت محركا أساسيا للحياة السياسية الشعبية في سورية، ولابد انه كانت له آراء لكننا لا نعرف أن أحدا سجلها أو كتب عنها. كانت لد دروس ومجالس علمية يومية كثيرة في عدة مساجد وأحياء دمشقية مثل الأموي،الشامية،المهاجرين، نور الدبن، النقاشات...إلخ.

كان للشبح محمد الهاشمي التلمساني تلاميذ كثر في بلاد الشام وفي تركيا وغيرهما ومن تلاميذه في سورية محمد سعيد البرهاني، وعيد القادر عيسى الحلبي، ومحمد النبهان الحلبي، هاشم السيد الدوماني، هاشم الخطيب، محمد سعيد البرهاني، إبراهيم اليعقوبي، يحي بستنجي، مصطفى تركماني، وسعيد حوى وغيرهم كثير من مشاهير العلماء والمتصوفة في بلاد الشام وكل المنطقة.

مؤلفاته:

1ـ مفتاح الجنة شرح عقيدة أهل السنة.

2 – الرسالة الموسومة بعقيدة أهل السنة مع نظْمها.

43 - أبو القاسم، سعد الله. مرجع سابق، ج7ص139.

44 - محمد، بن عبدالله المجد الحسني. مصدر سابق ص 5.

3 ـ البحث الجامع والبرق اللامع والغيث الهامع فيما يتعلق بالصنعة والصانع.
4 ـ الرسالة الموسومة بسبيل السعادة في معنى كلمتي الشهادة مع نظمها.
5 – الدرة البهية.
6 ـ الحل السديد لما استشكله المريد من جواز الأخذ عن مرشدين.
7 – القول الفصل القويم في بيان المراد من وصية الحكيم.
8 ـ شرح شطرنج العارفين للشيخ محي الدين بن عربي
9 ـ الأجوبة العشرة.
10 ـ شرح نظم عقيدة أهل السنة.

توفي محمد الهاشمي يوم الثلاثاء 12 من رجب 1381هـ الموافق 19 كانون الأول 1961م، وصُلي عليه بالجامع الأموي، ثم شيعته دمشق تحمله على الأكف إلى مقبرة الدحداح وبني له قبر خاص وضعت عليه يافطة تحمل عبارة مقام الشيخ محمد الهاشمي وقد زرت قبره في تسعينيات القرن العشرين وصورتها ثم زرتها العام 2010 فوجدت قبورا أخرى بجانب قبره داخل المقام نفسه وصورته ثانية.

د- أحمد الهاشمي التلمساني

هو ابن الشيخ محمد الهاشمي المذكور ولد في سبدو عام1909م (1327هـ) في سبدو أي قبل هجرة والده إلى دمشق عام 1911. أخذ عن الشيخ جعفر الكتاني والشيخ بدر الدين الحسني وأتقن الفرنسية، وظل يعمل في سوق الخياطين بدمشق إلى أن تفرغ لخدمة والده.

كان يزور أقاربه في الجزائر بين فترة وأخرى، يحسب من المتصوفين لكنه لم يصل إلى شهرة والده، ولم أعثر له على مؤلفات توفي بدمشق سنة 1978.[45]

الخاتمة

وفي الختام لا بد لي من القول إن إسهام العلماء الجزائريين في جانب التصوف من الحياة الفكرية والعقلية في بلاد الشام كانت إسهاما عريقا حيث يمتد إلى العهد المملوكي الأيوبي، كما أنه إسهاما متواصلا لم ينقطع بل تجدد في منتصف القرن التاسع عشر حتى سبعينيات القرن العشرين للميلاد. وبالإضافة إلى العراقة والتواصل فإن تأثير العلماء الجزائريين في التصوف ببلاد الشام ارتبط بقوة بالجهاد ضد الغزاة الصليبيين وضد المستبدين الطورانيين من الأتراك العثمانيين، ثم ضد الدول الاستعمارية الأوروبية وبالتحديد فرنسا وبريطانيا والحركة الصهيونية.

وأبرز البحث عدد من أسماء هؤلاء العلماء المتصوفة ومؤلفاتهم وأدوارهم

45 - مطيع، الحافظ وزميله. مصدر سابق، ج2، ص719.

السياسية والجهادية والتعليمية ومناظراتهم الفكرية على مر القرون. وبذلك رآهم البحث صناعا للوعي في المشرق العربي فالتطرف الجهادي الذي أبلو فيه كان رافدا قويا لعلماء جزائريين آخرين جاهدوا في صناعة الفكر القومي العربي الإسلامي في كل المنطقة من الوطن العربي من أمثال الأمير عبد القادر والشيخ طاهر الجزائري والشيخ بن يلس المهاجر من تلمسان حيث يبرز علماء تلمسان نموذجا قويا للتصوف الجهادي في بلاد الشام، وقد أعطاهم الباحثون الدمشقيون حقهم بما ألفوه من كتب عنهم وحفظوا تراثهم.

المراجع

1 - أحمد، علي(1989). الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن العاشر الهجري، ط1، دمشق.

2 - البيطار، عبد الرزاق حسن (1992). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ط 2، بيروت.

3 - الحافظ، سطيع وزميله. تاريخ علماء دمشق، دمشق 3 أجزاء.

4 - الحسني، محمد عدنان المجد (2003). فيض الإله العلي في ترجمة سيدنا الهاشمي، دمشق.

5 - سعد الله، أبو القاسم (1996). تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت.

6 - سوسة، أحمد(1985). للعرب واليهود في التاريخ. وزارة الإعلام، ط 5. بغداد.

7 - الصواف، محمد عدنان(2004). موسوعة الأسر الدمشقية، دار الفكر، ط2 ، دمشق.

8 - العسكري، عبد الله عبود. تاريخ التصوف في سورية : النشأة والتطور، دمشق 2006، ط1.

9 - عمار، علي حسن. الصوفية والسياسة في مصر، القاهرة 2007، ط2.

10 - الغزالي، أبو حامد (د.ت). إحياء علوم الدين، دار الفكر، ط1، بيروت.

11 - الغرفور، محمد عبد اللطيف صالح (1989). صفحات مشرقات وظلال وارفات من حياة العلامة الكبير السيد الشريف الشيخ إبراهيم اليعقوبي، ط1، دمشق.

12 - قهوجي، محمد رضا بشير(2004). العلامة الهاشمي مربي السالكين. دمشق.

13 - المرابط، جواد (1966). التصوف والأمير عبد القادر الحسني. دار اليقظة، دمشق.

14 - الشيرطية، فاطمة الحسنية (د.ت). رحلة إلى الحق.

كتاب "المواهب"

ومخالفات الملالي لشيخه ابن يوسف السنوسي التلمساني[1]

د. جمال الدين بوقلي حسن
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان– الجزائر

ملخص

إن المخطط الذي ألفه محمد المَلالي في مناقب شيخه ابن يوسف السنوسي التلمساني (المتوفى في 1490 م)، والذي اعتمدنا عليه في إعداد هذا المقال، ما يزال مخطوطا ينتظر من يحقّقه. تمكن أهمية المخطوط في فن تقديم السير، وما ترتب عنها من أخبار عن حياة الناس التاريخية والاجتماعية والثقافية الذين عاشوا في عهد المؤلف.
القصد من هذا المقال، هو إبراز مخالفات التلميذ لشيخه، أهمها :
–أولا، اختزال مناقب شيخه في كلمة "وليّ" ؛
–وثانيا، طمس خصوصيات شيخه المعروف بشغفه بالتوحيد وسعيه إلى نشر هذه التعاليم بين سائر فئات المجتمع، ودعوته إلى تدريس المنطق، وطريقته العقلية في تأويل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومنهجيته العقلانية في تناول المسائل الإلهية ؛
–وثالثا، مخالفاته لشيخه في مفهوم الذكر، وفي محاربة التقليد.
هذا على الرغم من أنّ الملالي معروف بتقصير ذاكرته، وغياب التعليل في تقديم بعض الأخبار التي ينقلها، ولجوؤه المكثف للاستطرادات في كتاباته. ومع ذلك، فإن الملالي ساهم في إنقاذ تراث السنوسي من التلف والنسيان.
الكلمات الدالة : السيرة، التقصير، الحذر، الأمانة.

مقدمة

لا يخفى أن ما تتناقله كتبُ السير والتراجم من أخبار، ينطوي على كثير من المحاسن في الحفاظ على المخزون التاريخي وتحصينه من التلف، خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بالتراث وبالشخصيات الفاعلة فيه. وبقدر تعدُّد هاته الكتب واختلاف مشاربها، تَثبُت مصداقية أصحابها في نقل الخبر ؛ إلا أن هذا الخبر، عندما ينفرد به مصدر واحد ووحيد، سواء كان هذا المصدر كتابا أو شخصا عاين الموضوع، فإن مجال البحث العلمي فيه، يضيق، ولا يتسع للبحث الاستقصائي الحقيقي.

1 - توفي في سنة 1490.

لقد نقل عدد من أهل السير، أخبار ابن يوسف السنوسي التلمساني، وساهموا في التعريف به، إلا أن خطابهم أضحى مجرد نسخة واحدة، ما دام المشرب الذي نهلوا كلّهم منه، وحيدا وفريدا ؛ وفي هذه الحالة، تتقلص مساحة نقد المنقول فيها، وتترجح اضطرارا، مصداقيتُه باعتباره نسخة فريدة، لا تنافسها وثيقة أخرى غيرها.

ولكن أحيانا، لا يدري الباحث في هذا الميدان، من أين يأتيه الخبر المغاير لهاته النسخة، ولا كيف يتقدم إليه، من داخل الكتاب أو من خارجه. وهـذا هو شأن كتاب "المواهب القدوسية في المواهب السنوسية" للملالي تلميذ السنوسي.

ولعل عملية تقويم عام لهذا الكتاب، تفيدنا في التمييز ـ في خطابه ـ بين ما هو صادق، وما هو غير ذلك. وقبل التطرق لهذه العملية، من المفيد أن نعرض باختصار حياة مؤلِّفه.

I- حياة المؤلف، شخصيته ومؤلفاته

لا نعرف الكثير عن صاحب المواهب ؛ وكل ما نعرفه، هو فقط، ما يمكن استنتاجه مما طالعناه بين السطور في بعض كتب السير التي لم تتعرض صراحة، ولا مباشرة لترجمة الرجل، وما وقفنا عليه مما قرأناه من مؤلفاته المتوفرة. والمتوفر لدينا، لا يتعدى كتابين: كتاب "المواهب" و"شرحه لعقيدة شيخه الصغرى".

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني، ينحدر من "ملالة"، وهي من ضواحي مدينة بجاية، استقر مع والديه بتلمسان، ولد فيها، وترعرع في بيت متواضع ومحافظ، يميل إلى حب الأولياء الصالحين والمتصوفة ؛ وتعلم بها العلم على علمائها، أبرزهم محمد بن يوسف السنوسي وأخوه علي التالوتي. وانحصرت حياته في اقتفاء طريقة الأولياء والمصلحين، وحبِّه لهم. ويُعتبر الملالي في مجال علاقات الدارس بشيخه، التلميذَ الدائم للسنوسي، وكذا ذراعَه اليـمنى، والصاحب الأمين[2] له الذي يرافقه مرارا وعلى مدى الأيام، إلى الطبيعة، وخاصة في أعالي سهول وجبال جنوب تلمسان الصحراوي. فكان يحب التفسّح مع شيخه، وأحيانا بمعية والده عمر الملالي. وكان أكثر أصحاب الشيخ وتلامذته قربا من عائلته، من حيث إنه كان يدخل بيته، ويكلم أهله في أثناء حياته وبعد وفاته[3]. ومن مؤلفاته كتاب "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية"[4] وكتاب

2 - ويبدو ذلك من خلال قوله: " إني تكلمت في هذا، دون أصحاب سيدي الشيخ، ولست بأفضلهم " (خاتمة كتاب المواهب).

3 - قال: "وأخبرَتني السيدة الفاضلة الخيِّرة، عائشة زوجة الشيخ رضي الله عنه، قالت لي حفظها الله تعالى: أقام سيدي أبو القاسم الكنابشي عندنا في الدار شهرا كاملا، وهو يقرئ الشيخ ـ تعني زوجها ـ كتابا في التوحيد، بدأه عليه من أول الشهر، وختمه في آخر يوم من الشهر، رحمهما الله تعالى ورضي عن جميعهم". (المواهب، ص. 32-31).

4 - محمد الملالي، المواهب القدوسية في مناقب السنوسية، مخطوط لمصطفى العشعاشي.

"شرح العقيدة السنوسية"[5] ؛ الأول خصصه لشيخه تبركا به، وتعبيرا عن محبته له، وتخليدا لمناقبه العالية. ولقد ألفه سنة 897 هـ في أوائل جمادى الآخرة، أي بعد حوالي سنتين من وفاة شيخه. أما الكتاب الثاني، فوضعه استجابة لبعض المحبين، ويشرح فيه العقيدة الصغرى لشيخه والمشهورة بـ"السنوسية"، شرحا مختصرا "يغنيهم وغيرهم من المبتدئين عن فهمهم "[6]. وبهذا الكتاب، يعتبر الملالي من أوائل الشارحين لهذا المتن. وعن وفاة محمد الملالي هذا، يذهب الأستاذ أبو القاسم سعد الله، إلى أن الغالب عنده، هو أنه عاش عقدا أو عقدين في القرن العاشر، اعتبارا من دعوى ابن مريم صاحب "البستان" مُفادها أنه كان تلميذا للملالي[7].

II- مقاييس تقويمنا للكتاب

لا يمكن في مجال التقدير الصحيح، أن توزن الأشياء بدون وحدات قياسية مناسبة ومحدَّدة، اللهم إلا إذا كان الغرض من ذلك، مجرد اجتهاد اعتباري بعيد عن الأحكام التقريرية. ونحن هنا، لا نبتغي دراسة كتاب المواهب ولا فحصَه، وإنما نود الوصول ـ عن طريق قراءته ـ إلى تقويم أخباره من الجانبين الإيجابي وغير الإيجابي. ولهذا الغرض، ارتأينا أن نردّ مقاييس تقويمه إلى ثلاثة:

1 – الأول داخلي يتمثل في الكتاب نفسه، موضوع التقويم ؛

2 – الثاني خارجي يتمثل في آثار السنوسي المكتوبة ؛

3 – وأما الثالث، فإنه أيضا خارجي، إلا أنه يتمثل في الواقع الاجتماعي للعصر، عبر تقاليد الناس في أسلوب كتابتهم ومنهجيتهم، وما ألِفوه من قيم ومفاهيمَ.

فالمقياس الأول، هو المعيار الداخلي الكفيل بأن يزن الأخبار على لسان صاحب التأليف (أي المترجِم)، كأن يؤكد الخبر بنفسه أو يتردد في مصداقيته أو يثير عندنا الشك، أو يحملَنا على بعض الاستنتاجات.

والمقياس الثاني، ينحصر فيما تركه المترجَمُ من آثار مكتوبة تشهد على عدد مؤلفاته وموضوعاتها، وأفكار صاحبها. وقد يتسع هذا المقياس، ليشمل مصادر أخرى إن وجدت[8].

وأما المقياس الثالث، فإنه يكشف عن الذهنية التي دأب عليها الناس في عصر المترجِم (موضوع الترجمة)، في مجالات دينية وفكرية وثقافية، أي في ميولهم

5 - محمد الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 22.

6 - محمد الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة الأولى.

7 - د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط. 2، ج. 1، 1985، ص، 68.

8 - والمقصود بهذه المصادر، ترجمات أخرى مستقلة عن الترجمة موضوع التقويم، أو بعض الآثار التي يكتبها مقرّبون من صاحب الترجمة كتلامذته مثلا.

واعتقاداتهم، وفي منهجية تواصلهم ولغتهم، وكذا في طبيعة انشغالاتهم. وعلى ضوء هاته المقاييس، نتساءل ما هي مزايا الكتاب، وما هي المؤاخذات التي يمكن أن توجه له ؟

III- مزايا كتاب "المواهب القدوسية في مناقب السنوسية"

لقد تحدث الملالي فيه عن شخص هو ابن يوسف السنوسي، عالم التوحيد ومعلم العقائد الدينية ؛ وتشهد على وجوده وأعماله وأفكاره، مؤلفاتُه التي تختزنها الرفوف والمكتبات، ويثبتها على مر العصور، الدارسون لها، والمهتمون بها، والمعجبون بها. وقدَّم هاته الأخبار، بأسلوب يعبر عن روح العهد الذي عاش فيه، ولا تبتعد كثيرا عما أَلِفه الناس من معتقدات.

إن المكانة المتميزة التي يحتلها هذا الكتاب، والتي جعلت الباحثين يسعون بإلحاح إلى طلبه، إنما هي كونه المصدر الأساسي الوحيد الذي تَكفَّل بتقديم سيرة ابن يوسَّف السنوسي. وهو المشرب الأول الذي نهل منه عمداء المترجمين للشيخ السنوسي، وعوّلوا عليه في أخباره ؛ ويبدو أن الغرض من هذا التأليف هو استجابةٌ لما كان يكنّه المؤلف لأستاذه من تقدير وتبجيل، وشهادة للمنزلة التي كان يتبوؤها في مجال العلم والصلاح. ولولا هذا الكتاب، ما كان الشيخ ليذكَر اسمُه، في أمهات التراجم بالقدر الذي وصلنا به. ولم تعُد بعدَ هذا، كتب السير والتراجم تتعامل مع الشيخ السنوسي إلا على أساس تناقل هذه الأخبار جملة أو تفصيلا، تبركا بذكره أو لضرورة قاموسية معجمية. وتناولها المستشرقون وغيرهم قديما وحديثا. ومن أشهر ما تناولت هاته الأخبار عن الرجل، "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي، و"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "لابن مريم، و"دوحة الناشر "لابن عسكر، و"تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم محمد الحفناوي، و"كشف الظنون "لحاجي خليفة، و"إيضاح المكنون" لإسماعيل باشا، و"دائرة المعارف الإسلامية"، و"الأعلام"، و"معجم المفسرين"، و"معجم المؤلفين"، و"معجم المطبوعات العربية ".[9]

وهو كتاب لا يفيد فحسب، في معرفة ترجمة الشيخ السنوسي، وإنما يفيد أيضا، في إلقاء أضواء على الفترة التاريخية التي عاصرها الرجل، في شتى المجالات التعليمية والاجتماعية والسياسية والدينية والأخلاقية والفكرية. فهو يهم رجل الدين، بقدر ما يهم أيضا، المؤرخ، وعالم الاجتماع، وعالم التربية، ورجل السياسة، والمفكر، فضلا عن السينمائي.

9 - جمال الدين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع، 2003، ص. 316-315 .

هذا باختصار، بعض ما يزخر به، كتاب "المواهب" من فضل ومن سموٍّ، بعد الأخذ بالمقاييس الثلاثة الخاصة بتقويمه. إلا أن الاستمرار في تطبيق هاته المقاييس على هذا الكتاب، ولكن من زاوية أخرى ـ وهي زاوية اختبار بعض الأخبار الواردة في المصنف ـ سيوقفنا على جملة من الهفوات التي بها نؤاخذ صاحبه.

IV- المؤاخذات التي توجه له

أولا: اختصاره للسنوسي في مجرد وليّ من خلال نزعة الملالي الصوفية:

بادر الملالي في مقدمته للكتاب، برسم الطريق الذي يجب على القارئ أن يسلكه لقراءة السنوسي، وحدد له الزاوية التي يتحتم عليه أن ينظر منها إليه، وهي أن ملمح الرجل الذي يليق بمقامه، هو أنه مجرد ولي صالح تابع لزمرة المتصوفين العابدين. وضمَّنها الحديث عن أحوال أولياء الله في الدنيا، وزِيارتهم ومجالستهم ومحبتهم، قصد تقوية قلب سالك طريق الآخرة. ولعله من الأسباب التي أملت عليه هاته المنهجية، أنه كان ينظر إلى شيخه من هذه الزاوية، وأن العصر الذي عاش فيه، فشت فيه موجة الزهد والتصوف والانسحاب من الدنيا. يقول الملالي: " الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بأنوار معرفته، وأزال حجاب الغفلة حتى شهدوا عظيم جلاله وعظمته [...]، فإني عزمت في هذا التقييد المفيد، [...] أن أذكر فيه جملا من فضائل شيخنا الإمام البالغ في التحقيق، والورع منتهى المرام، قطب الوجود، البركة الشاملة لكل موجود، وروح خلاصة أهل الإيمان، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن، يَتقرب إلى الله تعالى به كل صديـق، ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق، وهو إمام المتقين، سلطان العارفين، وقدوة السالكين، ومنقذ الصالحين، صاحب الإشارات العلية، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأسرار الربانية، والهمم العرشية والأنوار المحمدية، منشئ معالم الطريقة بعد خفاء آثارها..."[10].

ويقول أيضا: "وما حَمَلَني على وضع هذا التقييد المفيد إلا كثرة محبتي لهذا السيد الشريف الذي قيَّدنا بجميل إحسانه إلينا، وأفاض من بركاته وأنواره علينا".

ويضيف أيضا: "فإذا نظر العاقل اللبيب فيما حوته هذه المقدمة، فلا يمل النظر فيما بعدها، بل يتلذذ القلب بها، وبما بعدها ويفرح بذلك غاية الفرح إلى آخر الكتاب إن شاء الله تعالى".

وبعد كلام عن الأولياء الصالحين الذين مسحوا أيديهم من الدنيا، وأقبلوا على التصوف وًالممارسات الروحية، يقول: "فهكذا كان حال الشيخ سيدي ومولاي محمد بن سيدي يوسف السنوسي رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به، وجمعنا

10 - المواهب، مقدمة الكتاب.

معه في أعلى الفردوس".

وتشتمل المقدمة على عشرة أبواب وهي:

الباب الأول: في التعريف بأشياخه

الباب الثاني: في كراماته، ومكاشفاته

الباب الثالث: في علمه وزهده، ووعظه وورعه، ورفع همته وحلمه وصبره، وسراد طريقته وشمائله

الباب الرابع: في عدد تآليفه، وما قيل في بعضها من الشعر، وما حدثنيه بخبر بعض تآليفه

الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبيين معناها، وأزال ما ظهر من إشكال فيها

الباب السادس: في تعبيره لما أشكل من الأحاديث النبوية، وما استنبط منها من الأحكام الشرعية

الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق

الباب الثامن: في ذكر أوراد حض عليها جل تلامذته، وأصحابه، وذكر أدعية حسنة، كتبت بخطه

الباب التاسع: في وفاته، وما اتفق له في أيام مرضه رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به آمين

الباب العاشر: في ما قاله من الشعر، أو قيل فيه.

والتقصير الذي نسجله، ونحن نقف أمام هذه القائمة من العناوين، ونستقرئها من أولها إلى آخرها، هو أن الملالي لم يخصص بابا واحدا حول علم التوحيد الأشعري الذي أفنى السنوسي عمره في إحيائه ونشره، والذي طارت شهرته به. وأنه بالغ في الباب الأول (أي في التعريف بأشياخه)، وأطنب في حديثه عن إبراهيم التازي الذي ألبس السنوسي الخرقة ... وبالقياس إلى غيره من الشيوخ ؛ لقد خصص له حوالي (227) سطرا، وحوالي (173) سطرا لمن بعده في الاهتمام، وهو علي التالوتي أخو السنوسي من أمه، وأفرد للباقي الأعظم ما لا يتجاوز (9) أسطر فقط. وكأن التكوين الذي شكل شخصية السنوسي هو بالدرجة الأولى التكوين الصوفي، وأن المؤثرات التعليمية التي جاءت على يد شيوخه الآخرين، لا معنى لها[11]. وهذا تقصير من المؤلف التلميذ.

هذا فضلا عن مبالغته أيضا، في ذكر الخوارق ورد نسبتها كلها إلى شيخه، عندما

11 - يبدو أن الذي تأثر به في مجال التوحيد، هو الشيخ العالم أبو القاسم الكنابشي. يقول الملالي: " قرأ عليه وأخوه سيدي علي التالوتي - رحمة الله عليهما، وقدس روحيهما، وبرد ضريحيهما - كتاب " الإرشاد " لأبي المعالي في التوحيد، وأجازهما في جميع مروياته، وكتب في ذلك بخطه رحمه الله تعالى ". (المواهب، ص، 45).

تطرق في الباب الثاني لكراماته ومكاشفته. وواضح أن هاته المبالغة، ناتجة هي أيضا، عن إيمان الملالي بشيء من الشعوذة والاعتقاد العميق بالخوارق خارج سياقها، وعزوفه عن العقليات[12].

ثانيا: وترتب عن هذا، طمس خصوصياته التي يتميز بها، كشغفه بالتوحيد وسعيه إلى نشره وتغلغله في سائر فئات الناس، ودعوته إلى تدريس المنطق، وطريقته العقلية في تأويل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومنهجيته العقلانية في تناول المسائل الإلهية. وإذا كان الملالي يشير إلى هاته الجوانب التي تعرِّف بشيخه، فإنه فيما يبدو، لا يتعدى المسح السطحي في الإشارة إليها، وكأنها أمور ثانوية بالنسبة إلى مقامات التصوف.

فعندما يتحدث عن علم التوحيد السنوسي، فإنه يصنفه ضمن "العلوم الظاهرة"، في حين أن هذا العلم هو ـ عند صاحبه – من العلوم العقلية ما دام موضوعه يتعلق بالإلهيات، فضلا عن أنه يمهد للاهتداء إلى ما يسمى بالمعارف الباطنية. وبتعبير آخر، إن علم التوحيد مرحلتان متكاملتان، يمكن أن نقول عن الأولى بأنها مرحلة نظرية ومجردة، تتناول ذات الله وصفاته وإرسال الرسل، والثانية بأنها ذوقية عملية، تبيح لصاحبها ممارسة التوحيد بكل كيانه بلحمه ودمه. ولم يكن قصد السنوسي مجرد الدخول في عالم البواطن (أي بغير عتاد)، بقدر ما كان يُعدّ القاعدة الأساسية لفهم التوحيد النظري أولا، والتدرج على أساسها، نحو المكاشفة أخيرا[13].

يقول السنوسي: "وكيف يصح لناظر أن يقول إن الإيمان يجب أولا، قبل النظر، ولا يصح في المعقول إيمان بغير معلوم، وذلك الذي يجده المرء في نفسه حُسْنُ ظَنٍّ بمخبره، وإلا فإنْ تطرق إليه التجويز أو التكذيب، تطرق"[14].

ومن الأشياء الغريبة، أن يطلعنا الملالي عن بعض الأحداث المشكلة، التي كان يُفترض أن يشارك فيها أو يأتي بحل لها دون الرجوع إلى استشارة شيخه. ومن

---

12 - ومن نسْبه الكرامات للسنوسي دون أن يثبتها الشيخ، وتدل مع ذلك، على ظاهرة عادية: " ومن مكاشفاته أيضا، وقد شاهدتها منه عيانا، ما اتفق له يوما، وذلك أنا خرجنا معه يوما، إلى الصحراء على عادتنا معه، فأدركنا وقت الظهر، فبحثنا على الماء يمينا وشمالا، فلم نجده. ثم دخلنا في جنان كبير، فبحثنا فيه على الماء، فلم نر له أثرا، وأيسنا من وجود الماء، فقال أبي حفظه الله تعالى للشيخ: ما في هذا الجنان أثر من آثار الماء. ثم قال للشيخ: نبحث عن الماء خارج الجنان. فقال الشيخ: "ولعلنا نجد الماء في هذا الجنان". فقال له والدي: ما فيه شيء. ثم قال لنا الشيخ: جيئا معي ونمضي على هذا الطريق، لعلنا نجد عينا من ماء. وكان هذا الطريق صغيرا جدا تحت أشجار وشوك عظيم، فأبى والدي، فمضى الشيخ وحده، وهو يمشي منحنيا ظهرُه من كثرة الشوك والأشجار، فغاب عنا، فلجأنا إلى اتباعه مع الظن بأنا لا نجد ماء. فتتبعناه، فلما وصلنا إليه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وجدناه جالسا على عين ماء باردة، وهي في موضع خفي ؛ فتبسم رضي الله تعالى عنه، وقبلت يده وتعجبنا من عظيم مكاشفته رضي الله عنه، ونفعنا به. (المواهب، ص، 67).

13 - يقول الملالي: " أما العلوم الظاهرة، فقد فاز منها بأوفر نصيب، وحاز في الفروع والأصول السهم والتعصيب، ورمى إلى كل فضيلة ومكرمة بسهم مصيب، ولهذا كان رضي الله عنه لا تتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدث معك فيه، حتى يقول السامع، إنه لا يحسن غير هذا العلم لاسيما علم التوحيد، وعلم المعقول. وقد شارك الفقهاء في هذه العلوم الظاهرة، ولم يشاركوه في العلوم الباطنة،... (المواهب، ص، 99) ليس ثَمَّ علم من العلوم الظاهرة يورث المعرفة بالله تعالى والخشية منه، والمراقبة له إلا علم التوحيد. (المواهب، ص، 113)".

14 - السنوسي، شرح العقيدة الصغري أو أم البراهين، ص، 114.

ذلك، لقاؤه بيهودي يدّعي بأن نبوءة النبي محمد صلى الله عليه وسلم غير مذكورة في التوراة. ولإقناع اليهودي بخطأ ادعائه، رجع الملالي إلى شيخه يطلب منه الدليل، والدليل هو قوله: "ارفع له،"شرحنا على قصيدة سيدي أحمد الجزائري"، أو "شرحنا على عقيدتنا الوسطى"، واسرد له عليه تلك النصوص المنقولة من "التوراة"، ومن سائر الكتب الماضية." قال الملالي: "فرفعتُ له شرح الشيخ على القصيدة المذكورة، وسردت عليه جملة منها، وهو ساكت. ثم سردت عليه نصا آخر، وهو ما جاء في "السفر الخامس من التوراة".[15]

وهنا، نتساءل: لماذا لم يتجرأ الملالي في الرد على اليهودي في مسألة كان قد عالجها شيخه، في أكثر من مصنف ؟ ألم يكن ذراعه اليمنى في مجالساته ومصاحباته ؟ ألم يكن جديرا بتولي هاته المهمة تخفيفا عن شيخه. فهل خدعته الذاكرة إلى درجة أنه يسكت عن محتوى الجواب، وقد أورده الإمام السنوسي من خلال دروسه وكتاباته ؟ وهل كان يدرك إدراكا جيدا، كل مضامين هاته الدروس وهاته المؤلفات ؟

ومن ذلك أيضا، أن والده ـ " لما قرأ على الشيخ رضي الله عنه، عقيدته الصغرى، وختمها عليه بالتفسير غير ما مرة، رأى أنه قد ثقل عليه درسها، وحفظها لكبره، وكثرة همومه. فطلب من الشيخ رضي الله تعالى عنه، أن يجعل له عقيدة أصغر من الصغرى بحيث يمكن درسها وحفظها. فعمل له هذه العقيدة، وكتبها له بخطه[16] ".

والذي كان يُفترض في هذا الموقف، أن يوجَّه الطلبُ للملالي الابن لقربه منه، وترويجا واحتراما للشيخ، الذي تشغله أعباء. وهنا، نتساءل أيضا: هل كان الابن عاجزا إلى هذه الدرجة، ليستجيب لوالده، أم الأمر يتعلق مسبقا بتبرير ضرورةٍ بيداغوجية، تدخل في نطاق النسق التربوي الشامل للسنوسي ؟

ومن ذلك أيضا، تكليف السنوسي بعض الطلبة دون الملالي، بمهمتي إقراء بعض العلماء لكتاب صعب ألفه، وتقدير صداه. جاء في المواهب أن الشيخ ألف شرحا وضعه "على نهج طوالع البيضاوي ؛ بل أصعب، ولم أر هذا الشرح ؛ إلا أن الشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه، أخبرني به وبهذا الكتاب، وقال لي، هذا الكتاب وهو على نهج البيضاوي[17] ؛ بل كلام البيضاوي أسهل بالنسبة إلى هذا الكتاب. قال، وكلامه صعب في غاية الصعوبة. قال، وشرحته بكلام صعب، إلا أنه أبين من هذا المشروح. قال، ولما شرحته،÷ رفعه بعض الطلبة لبعض من عاصرنا من العلماء. قال، وأوصيت الطالب ألا يقول لأحد فلان،

15 - محمد الملالي، المواهب، مخطوط، ص، 103.

16 - محمد الملالي، المواهب، مخطوط، ص، 242.

17 - هو عبد الله بن عمر المتفلسف الذي توفي على ما قيل قبل سنة 1282 م. من جملة مؤلفاته " منهاج الوصول إلى علم الأصول "، و"طوالع الأنوار " في الإلهيات. ولقد انتقد السنوسي مؤلف الطوالع بشدة، لخلطه علم التوحيد بالفلسفة.

يعني نفسَه، هو الذي شرح هذا الكتاب. قال لي، فقال الطالب للعالم، يا سيدي أحب أن أقرأ عليك هذا الكتاب المشرقي مع شرحه. قال، فقال له العالم، وهل شرَحه أحد ؟ قال، نعم. قال، فأخرجه إليه، وأراه إياه، وظن العالم أن هذا الشرح قديم، ولم يعلم بأنه شرحي. قال، فقرأ الطالب عليه شيئا من هذا الشرح. فقال له العالم، أعد عليّ قراءته. فأعادها، فلم يفهمه هذا العالم ؛ قال، فقال له العالم، هذا الشرح لا يفهمه إلا الذي وضعه، وأنا لم أفهم ما يقول شارح هذا الكتاب، الله يرحم هذا الشارح ؛ أو كما قال. هكذا، حدثني الشيخ بهذا الكلام، وهو بالمعنى، ولم أتحقق عين كلامه، لطول العهد به، وسمى لي الشيخ رضي الله عنه هذا العالم، ولا يسعني تعيينه.

قلت، ولا شك أن هذا العالم عارف بالعلوم العقلية والنقلية، وقد حضرت مجلسه مرات كثيرة، فما رأيت أحفظ، ولا أذكى منه، ومع ذلك لم يفهم كلام الشيخ رضي الله تعالى عنه "[18].

ومما يثير الحيرة، هو أن التلميذ المقرب إلى الشيخ، هو الأوْلَى والجدير بهذا النوع من التكليف. فهل كان الطالب المختار المكلف أقرأ من غيره للكتاب الصعب، وأكثر إدراكا لمحتواه ؟ وإذا كان من المحتمل جدا، أن يكون هذا الكتاب على نمط المتفلسفين، فإن الأقدر بهذه المهمة والأجدر هو من يرضى بالتعايش بين التصوف والتفلسف. ويبدو أن قلب الملالي الذي كانت تغمره قوة النزعة الصوفية، يضيق بهذا التعايش.

ثالثا : مخالفاته لشيخه في مفهوم الذكر، ومحاربة التقليد

1 – استبدل الملالي مفهوم الذكر، بمفهوم التصوف، مع علمه أن السنوسي يفضل التعبير عن حياته الذوقية بمصطلح "الذكر" عن مصطلح "التصوف"، لأن الذكر في رأي الشيخ، مفهوم أبسط من مفهوم التصوف وأغنى وأوضح ؛ ومن الآيات التي يذكرها وتناسب المقام، قوله تعالى: "ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن"[19] ؛ وقوله تعالى: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[20]. وإنِ الشيخ استعمل لفظ التصوف اضطرارا، فذلك لتعلق الأمر بالحديث عن حياة غيره الذوقية بلغتهم ومفرداتهم، أو بغرض تنبيههم وتحذيرهم[21]. ومن هنا، يمكن القول إن الملالي تأثر بنزعة المتصوفة على

18 - محمد الملالي، المواهب، مخطوط، ص، 252.

19 - الزخرف، 36 ؛ نصرة الفقير، تحقيق تابع لكتاب " الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد "، لـ جمال الدين بوقلي حسن، 1985، ص، 414.

20 - سورة ق، 37 ؛ السنوسي، نصرة الفقير، ص، 425.

21 - جمال الدين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وغي الواقع، 2003، ص، 549. لقد تكررت كلمتا (الذكر) و(ذاكر) أكثر من ستين مرة وتركزت في أوراق لا تتعدى العشر. (المصدر نفسه، ص، 548).

حساب طريقة شيخه مع "الذاكرين".
والغريب أيضا، هو أنه يتابع شيخه في مسألة الذكر، عندما يؤلف الملالي شرحه لعقيدة شيخه الصغرى. ولعل متابعته له، ناتجة اضطرارا عن كون مقطع متن العقيدة يحمل فعلا، مفهوم الذكر ومشتقاته ويتكرر أربع مرات[22]. وكان لا يمكنه التملص من هذه التبعية.

2 – وهو على الرغم من أنه في " المواهب"، سجل بوفاء تصدي شيخه للتقليد، إلا أنه خالفه ـ هو وكثير من رفقائه في الدراسة ـ في التطبيق ليسقط في الاتباعية: إنه يبدي الاتباعية لشيخه في بعض الأمور، وخاصة في اختصاره شرحا، لصغرى السنوسي. وهنا، نتساءل: وهل كان في حاجة إلى شرح مختصر للعقيدة السنوسية تنازلا لطلب بعض المحبين، وشيخُه كان قد ألف شتى المتون في العقيدة لكافة فئات الناس، للخواص والمتوسطين وكافة العوام من أعقلهم إلى أبسطهم، ومن العجزة والنساء إلى الصبيان والإماء والعبيد ؛ وأنه على الرغم من إشارته إلى ما يوحي بمرحلة الربوبية التي تسبق مرحلة العبودية عند السنوسي، إلا أنه مر على هذه المرحلة الأولى والأساسية، مر الكرام في كتابه المواهب، وغيَّبها في شرحه المختصر للعقيدة السنوسية، وكأنه يسعى فقط، إلى إبراز مقام العبودية باعتبارها عند الملالي أكبر أهمية، لأنها تتعلق بالتصوف ؛ وكل ذلك، لأن الملالي كان بدون شك، يكتب عن شيخه بعيون الأولياء وقلوب أصحاب الأحوال.
يقول الملالي: "وقال [السنوسي] رضي الله تعالى عنه، في قوله سبحانه وعلا، (مَلِكِ يَوْمِ الدين)، ما نصه، لما عرف سبحانه بما يجب الإيمان به من العقليات، عرف تبارَك وتعَالى هذا الوصف، لما يجب الإيمان به من السمعيات، إذ العقل غايته أن يحكم بجوازها، ولا طريق له بدون الشرع، إلى معرفة ثبوتها أو نفيها.
وقدم سبحانه النوع الأول على الثاني، لتوقف صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين هم الطرق لمعرفة السمعيات، على معرفة المولى تبارك وتعالى طريقها البرهان العقلي[23].
ولنا كذلك، أن نسأل: لماذا عند كلامه عن العبودية، لم يذكر الملالي قبل ذلك الربوبيةَ، احتراما لمنهجية شيخه ؟[24] وفي الجواب، يبدو لنا، كأنه مصرّ على أن يختار من كلامه، ما يفيد التصوف[25].
وكان الملالي فعلا، يكتب عن شيخه بعيون الأولياء وقلوب أصحاب

22 - محمد الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 26.

23 - المواهب، ص، 263.

24 - المواهب، ص، 179.

25 - المواهب، ص، 183.

الأحوال ؛ يقول: "وفي تأخير الخطاب بالعبادة عما أرشد سبحانه إليه، من معرفته بما يجب له، وما يستحيل، وما يجوز، تنبيه على أن أول ما يجب على المكلف، إتقانه معرفة مولاه العظيم جل وعلا، ثم بعد ذلك، يتوجه إليه بالعبادة، إذ على قدر معرفته بمولاه تبارك وتعالى، يكون حسن عبادته جل وعلا"[26].

ويقول الملالي: "وقوله، (فَقُلْتُ لاَ شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ) يعني، فقلت بقلبي لمّا أن عَرفْتُه بالبرهان القاطع، وتميَّزَ لي عن كل ما سواه: لا شكَّ ولا رَيْبَ أنت يا مولاي هو الموصوفُ بهذه المحاسن التي أبْصَرَتْهَا بالبرهان عَيْنُ قَلبِي. وإنما رَتَّبَ القَوْلَ على رؤية القلب ـ وهي معرفتُه بالله تعالى ـ تنبيهًا على أنّ حصول الإيمان هو عند حصول المعرفة، لأنّ الإيمانَ ـ على الأصح ـ هو حَديثُ النَّفْس التابع للمعرفة.

ويحتمل أن يكون مرادُه برؤية عَيْنِ القَلْبِ، المَعرفَةُ الذوقِيَّةُ الَتي هي آخر مَقامَاتِ السالكين، فيكون حينئذ معنى قوله، (أَنْتَ أَنْتَ) أي أنتَ الآن بحَسَبِ المَعرفة الذوقية هو أنْتَ أوَّلاً، بحسب المَعرفَة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقَلية "[27].

والملاحظ هنا، هو أن الملالي يتفادَى بلورة وصف (معرفة الله بالبرهان)، كمقام للربوبية.

رابعا: تقصير الذاكرة وغياب التعليل وكثرة الاستطرادات

1 - التردد في ضبط الأخبار

إن الملالي يعترف بضعف ذاكرته في كثير من الحالات، ويعبر عن ذلك ببعض العبارات التالية:

وأظنه قال ؛ أو كما قال ؛ والله أعلم بذلك كله ؛ ونقلته بالمعنى ولم أتحقق عين كلامه لطول العهد به ؛ ربما ؛ قول يقرب من هذا ؛ كلام يقرب من معناه ؛ يشتبه علي أنه قال ؛ وأظنه قال لي ؛ وفي هذا الدعاء بعض زيادة، وتعيين، لأني نقلته من حفظي ؛ قلت، والدعاء الذي ذكره الشيخ رضي الله تعالى عنه قبل هذا، أن فيه بعض زيادة وتغيير لأني نقلته من حفظي. وهكذا...

ومن تقصيره في ذكر مؤلفاته، لم يذكر "المناقب الأربعة" ولا "نصرة الفقيَّر في الرد على أبي الحسن الصغيَّر" على الرغم من أنه يكشف في "المواهب" أن بعض ما كتبه ابن صعد هو من تقييدات السنوسي التي راسل بها تلميذه ابن صعد ؛ ويعبر عن هذه المراسلة في قوله:

"وحدثنا شيخنا سيدي محمد السنوسي رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وكتب به إلى سيدي محمد بن صعد حفظه الله تعالى الذي ذكر في كتابه المسمى بـ"روضة

26 - المواهب، ص، 266.

27 - المواهب، ص، 388.

النسرين" [جملة كافية من الأخبار]، وبعضهما متقارب"[28].
أما رسالة "نصرة الفقير" فإنها تنصاغ في روح فكر الشيخ ومذهبه الأشعري، ونُسَخُها المخطوطة منتشرة في بعض مناطق البلاد العربية[29].

2 - تقصيره في الدفاع عن شيخه، وفي التعبير الأمين عن بعض مقاصده
– لم يوضح الملالي بالدقة الكافية لماذا كان السنوسي منبوذا وسهما لإساءات الناس ـ وخاصة الخواص منهم ـ التي كان يعاني منها، والتي كانت تطال عرضَه وشرفه وكتاباتِه الابتداعية. ويكتفي مثلا بالقول: "فتجده لا يحقد على أحد، ولا يظهـر العبوسة في وجه من أساء إليه، بل إذا لقيه الرجل الذي تكلم في عرض الشيخ، بدأه الشيخ بالسلام، وفاتحه بالكلام والتحية والإعظام، ولا يُظهر له ما يدل على الملام"[30]. وبقوله أيضا: "لما ألف بعض عقائده، وأظهرها للوجود بنيَّة نفع المسلمين، أنكر عليه بكثير ممن لا يعرف قدره من علماء زمانه، وتكلم في عـرضه ونسبه، بعضُهم إلى ما لا يلـيق بقدره، ورأوا بزعمهم، وفساد خيالهم أن ما فعله الشيخ من إظهار العقائد من أكبر البدع، وأن ترْك ذلك هو الورع. فلما سمع الشيخ بذلك، تغير تغيرا عظيما، وبقي محزونا كئيبا نحو من ثلاثة أيام"[31]. ويقول أيضا: "المبدع لا بد من أن يتحلى بالصبر عن الأذى [...] ولهذا كان رضي الله تعالى عنه، يفضل بعض من أساء إليه على بعض من يمدحه. ولقد حدثني رضي الله عنه عن بعض علماء زمانه من الذين كانوا يذمّونه، ويسيئون إليه كثيرا"[32].
وأمام هذا المشهد المُهين، نتساءل: هل كانوا يؤذونه لمجرد ممارسته علم الكلام أو لكونه خلع على هذا العلم الطابع العقلاني مع العلم أن الطابع العقلاني في عصره، كان يعني ممارسة المنطق الأرسـطي وشيءٍ من التفلسف؟ ألا تكون الأسباب في ذلك، أبعد من هذا الميدان، بحيث يرجع الأمر إلى تحصين المدرسة ـ التي كان يدعو إليها ـ من خلط الدين بالسياسة ؟ ثم كيف يقدحون في عرضه، ويستمد نسبه الشريف من جهة أم أبيه ؟
ولم يسلم أيضا، من آفة التقصير، حتى في شرحه للعقيـدة السنوسية أي خارج "المواهب". ويُلاحظ ذلك، في التعبير عن الارتقاء إلى الغاية السامية التي كان يستهدفها شيخه في مسألة الإيمان الحقيقي. ففي قوله عن الشهادة: "ولعلها

28 - محمد الملالي، المواهب، ص، 60-45.
29 - وقد حققنا هذه الرسالة، ضمن كتاب " الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ".
30 - المواهب، ص، 194.
31 - المواهب، ص، 194.
32 - المواهب، ص، 211.

لاختصارها مع اشتمالها على ما ذكرناه، جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام، ولم يقبَل من أحد الإيمان إلا بها"، فإن الشيخ بالنظر إلى مذهبه العقلاني الشامل، لم يكن يقصد بالقلب هنا، ما يفهمه أهل التصوف أي مجرد مصدر للذوق والمكاشفة، وإنما التقاء العقل المفكر، بالقلب الذواق ؛ وهذا يعني أن من يمارس هذا اللقاء، فإنه في الوقت الذي يُقبِل فيه على المكاشفة، فإنه لا يتجرد عن مكتسبات العقل العقدية التي يسميها السنوسي بالربوبية، لأنه لا عـبودية بدون ربوبية. ومن هنا، فإنه لا يسقط في الغفلة، ولا في الشطحات، ما دام واعيا بالتوحيد النظري.

ويقول الملالي تعقيبا على شيخه: "ليس المراد بالإسلام في كلام الشيخ، الإسلام الشرعي، بل مراد الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام، وهو الانقياد والإذعان بالقلب لامتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه"[33]. والتقصير هنا، واضح من حيث اختزال القلب في الاستسلام دون سابق معرفة بالتوحيد النظري.

هذا، وفي الوقت الذي يقول فيه السنوسي: "فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان"، يقول الملالي: "اعلم أنه يجب على كل مكلف أن ينطق بهذه الكلمة المشرفة مرة في العمر، وينوي بها الوجوب. وما زاد على المرة، فهو مستحب"[34].

فإذا نحن اقتصرنا على تحليل هذين القولين دون غيرهما، فإننا نلاحظ تفاوتا بين مفهومي(العقـل) و(التكليف)، وبين (الواجب) و(المستحب)، وبين (الاستحضار العقلي للعقيدة) و(النية بوجوب الشهادة)، وكذا اختلافا في مدة المداومة على الذكر.

(فالعاقل) لدى الشيخ يقابله التلميذ بـ(المكلف)، و(يكثر من ذكرها) يقابلها بـ (مرة في العمر)، و(مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان) يقابلها بـ (ينوي بها الوجوب. وما زاد على المرة فهو مستحب). ومصدر الخلاف بين الرجلين في اعتقادنا، ينحصر في كون الشيخ يركز على مقام الربوبية قبل العبودية، وفي كون التلميذ يميل كثيرا إلى العبودية حيث يرى مُدركُها أسرارا ربانية وعجائب نورانية.

3 – هذا فضلا عن وقوعه في استطرادات كثيرة تأخذ العشرات من الصفحات التي معظمها تدخل في نطاق تدعيم النـزعة الصوفية التي ليست قريبة من سيـاق مذهب السنوسي. ونقدر عدد هاته الصفحات بالقياس إلى الكتاب، بحوالي 20 % على أساس أنها تمثل 64 صفحة من مجمل (333) صفحة ينطوي عليها الكتاب.

33 - الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 26.

34 - الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 27.

ومع ذلك، ومن المحتمل ـ وهو احتمال ضعيف ـ أن يكون كتاب "المواهب" بكل هاته المؤاخذت، قد ساهم في إنقاذ تراث السنوسي من التلف والتغييب، إنقاذا مقصودا أو غير مقصود ؛ وذلك، لأن الملالي، شاءت الصدف أن يقدم شيخه وليا صاحب كرامات، متصوفا زاهدا تبعا لمقاييس العصر الذي كان فيه، روح الاعتقاد في الخرافات والميل إلى الخوارق، منتشريْن. وبهذا، تكون قد تهيأت للشيخ الأسباب المواتية لاحتضان أخباره ؛ فلو كان الملالي قد عكس الصورة الكلامية الحقيقية والمنطقية والفلسفية التي كان يحملها فكر الشيخ، لكان المجتمع يضطهدهما معا أي هو وشيخه. يقول الملالي، في خاتمة مقدمته للمواهب: "ولكن جعلت ذلك لتعلموا محبتي لسيدي الشيخ، وليتأدب معه من لم يره، لئلا يتكلم في حقه بما لا ينبغي رحمة الله تعالى، ونفعنا به".

المراجع

قائمة المخطوطات

1 – الملالي، محمد. المواهب القدوسية في مناقب السنوسية، مخطوط في حوزة مصطفى العشعاشي.

2 – الملالي، محمد. شرح العقيدة السنوسية، مخطوط رقم (KA – 4- 16/20)، خـزانة المخطوطات للشيخ الموهـوب بن الحبيب، بجاية.

قائمة المراجع

3 – بوقلي، حسن جمال الدين (2003). ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع. ANEP، ص.315 - 316، الجزائر.

4 – سعد الله، أبو القاسم (1985). تاريخ الجزائر الثقافي. ط.2، ج.1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

5 – السنوسي، ابـن يوسف. شرح العقيدة الصغرى أو أم البـراهين عن محمد الدسوقي، حاشية على شرح أم البراهين، المطبعة الميمنية، مصر.

6 – السنوسي، ابن يوسف (1985). نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير. تحقيق تابع لكتاب "الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد"، لـ جمال الدين بوقلي حسن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

7 – القرآن الكريم على قراءة ورش.

نشاط فرحات عباس بتلمسان: 1943 - 1945

د. مصطفى أوعامري
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر

ملخص

لعبت تلمسان طيلة فترة الحركة الوطنية، دورا جوهريا بالنسبة للمنطقة الغربية في الحركة المطلبية الرامية إلى إدخال إصلاحات جذرية على النظام الاستعماري. من بين الذين اتخذوها منطلقا لنشاطهم السياسي الزعيم فرحات عباس. فمنها روّج للبيان الجزائري ثم لأحباب البيان والحرية، فكانت تلمسان التي ربطته بأعيانها روابط قوية، محطة انطلاق ونقطة إشعاع في الغرب الجزائري لنشاطه السياسي ما بين 1943 و1945.

الكلمات الدالة: الحركة الوطنية، النظام الاستعماري، البيان الجزائري.

مقدمة

تعد منطقة تلمسان من أهم مناطق الغرب الجزائري التي ساهمت في المقاومة السياسية الوطنية وفي الثورة التحريرية، وكانت محطة هامة لقادة الحركة الوطنية الجزائرية من خلال زياراتهم المتكررة لها؛ ومن هؤلاء القادة فرحات عباس. أحاول في هذه الدراسة، واعتمادا على وثائق أرشيفية، تسليط بعض الأضواء على نشاط فرحات عباس بمدينة تلمسان أ ثناء الحرب العالمية الثانية بعد نزول الحلفاء بالجزائر، ومدى تجاوب أهاليها للبيان الجزائري، وحركة أحباب البيان والحرية.

1 - التعريف بحزب البيان الجزائري

لقد أيد فرحات عباس والنواب المسلمون الجزائريون، وخاصة المستنيرين منهم مثل ابن جلول، فرنسا في صراعها مع ألمانيا وتطوعوا إلى جانبها في الحرب مقابل تحقيق مطالبهم السياسية. غير أن حكومة فيشي خيبت آمالهم.[1] وبعد احتلال أقترح نزول الحلفاء للجزائر بالجزائر في 8 نوفمبر 1942، وتحريرها من سلطة فيشي، كثفت الأطراف المتحاربة دعايتها تجاه الجزائريين، من أجل كسْبهم إلى

1 - يلاحظ ذلك في موقف الحاكم العام " أبريال " Abrial من رسالة فرحات عباس الموجهة إليه في 16 ديسمبر 1941، وخاصة الموقف السلبي للماريشال بيتان من تقرير عباس المطول والذي أرسله له في 10 أبريل 1941: طالع النص الكامل لهذا التقرير عدا المقدمة في كتاب :

- Abbas, Ferhat (1981). De la colonie vers la province, le jeune algérien (1930) : suivi de rapport au Maréchal Pétain, avril 1941, éd. Garnier frères, Paris.

صفها في الحرب، خاصة وأن شمال أفريقيا أصبحت إحدى جبهاتها الرئيسية، كما أن المعارك كانت تجري على مشارف الحدود الشرقية للجزائر.

وفي هذه الظروف، وبعد النداء الذي توجه به "دارلان" Darlan في 11 ديسمبر 1942، والمتعلق بعملية تجنيد المسلمين، تحرك النواب وعلى رأسهم فرحات عباس،الذي وجه مذكرة في 20 ديسمبر 1942 إلى السلطات المسؤولة بالجزائر من فرنسيين وحلفاء وبوجه خاص الأمريكيين، ويربط فيها مشاركة الجزائريين في الحرب بعدة شروط منها "عقد مؤتمر يحضره النواب، والممثلون المؤهلون لكل الهيئات الإسلامية"، "ووضع قانون أو نظام سياسي واقتصادي واجتماعي جديد للجزائر"، "مبني على العدالة الاجتماعية"، و"يضمن التحرر السياسي للمسلمين". [2] غير أن السلطات الفرنسية رفضت استقبال هذه المذكرة التي أشركت دولا أخرى في حل المشكل الجزائري، وحاولت تهميش فرنسا. كما رفضتها بقية دول الحلفاء أيضا، واعتبرتها من اختصاص فرنسا.

هذا ما جعل فرحات عباس يرسل مذكرة مماثلة إلى السلطات الفرنسية في 22 ديسمبر من نفس السنة، بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات.[3] وفي نشاطه هذا، تلقى تشجيعا من ممثلي حزب الشعب الجزائري، وطلبوا منه العمل من أجل إطلاق سراح مصالي الحاج.[4] غير أن الإدارة الفرنسية في الجزائر، لم تعر مطالب الجزائريين أي اهتمام، بدعوى الانشغال بالحرب.[5]

وأمام هذا الرفض، لجأ فرحات عباس ومجموعة من النواب إلى توسيع حركتهم للضغط على السلطات الفرنسية.ووقع تقارب في وجهات نظر قادة التيار الوطني تمخض عنه الاتفاق على بعض المواقف المبدئية، ونشر بيان الشعب الجزائري الذي كلف عباس بتحريره.[6] مجسدا فيه مطالب الشعب الجزائري في تقرير مصيره.

---

2 - Ageron, Charles Robert (1979). Histoire de l 'Algérie contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954, t. II, éd. P.U.F , p 558, Paris.

انظر أيضا :

-. Histoire du nationalisme algérien, question nationale et politique algérienne (1919–1951). t. 2, éd. S.N.E.D, p. 640, Alger.

وكذلك :

-Julien, Charles André (1972). L'Afrique du nord en marche, nationalisme musulman et souveraineté française, 3ème éd., Julliard, p. 245, Paris.

3 - Ibid.

4 - Kaddache, Mahfoud, op. cit., p. 641.

5 - كان يمثلها الجنرال جيرو Giraud كمسؤول أعلى لدى الحلفاء، وبيروتون Peyrouton كحاكم عام على الجزائر منذ 17 يناير 1943، وبيرك Berque كمسؤول على الشؤون الأهلية في الحكومة العامة:

- Charles André Julien, op. cit., p. 245

6 - Abbas, Ferhat (1981). Guerre et révolution d'Algérie : la nuit coloniale. t. I, p. 140. Ed. Julliard, Paris.

بخصوص البيان يقول فرحات عباس: "إن البيان تمت المصادقة عليه بالإجماع في فبراير 1943 من طرف ممثلي الشعب الجزائري الذين كانوا موجودين بالعاصمة، ولما لاحظت بأن ذلك غير كاف، جبت الجزائر لعرضه على كل من كان يتولى مسؤولية باسم الشعب الجزائري، من أجل الموافقة عليه".[7]

وفي هذا الإطار يندرج تنقل فرحات عباس إلى الغرب الجزائري، في ربيع 1943، حيث أنه في 23 مارس وبرفقة جمام محمد؛ رئيس جمعية الطلبة المسلمين، ومعبد؛ مدرس بمدينة المحمدية، انتقل إلى مدينة سيدي بلعباس واتصل بـ "لالوت محمد؛ مستشار عام، وطالب جيلالي المدعو "دجي طالب"؛ ممثل قديم للاتحاد الشعبي الجزائري، وهو الحزب الذي شكله فرحات عباس قبيل الحرب العالمية الثانية، وكان قبل ذلك قد التقى مع "عباسة "بمدينة مستغانم".[8]

ويشير أحد تقارير الشرطة إلى أن "عباس"، انتقل إلى مدينة وهران في 25 مارس 1943 قادما إليها من المحمدية، مرفوقا بالشخصين الذين تم ذكرهما، وقد اتصل بـ "حاج حسن باشتارزي بن عودة "؛ مستشار عام ونائب مالي، وبأخيه مصطفى؛ تاجر، وابن شيحة قويدر؛ أخ المستشار الوطني ابن شيحة يوسف. وفي اليوم الموالي، قام بزيارة خاطفة إلى مكي؛ نائب شيخ بلدية وهران ومدير جريدة صدى وهران " Echo L d'Oran"، وبعد ذلك عاد إلى الجزائر العاصمة على متن سيارة خاصة. [9]

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الشخصيات التي وقعت على وثيقة البيان مثل "طالب عبد السلام" من مدينة تلمسان، و"عدة شنتوف" من مدينة معسكر[10]. يمكن القول بأن فرحات عباس قد زار هاتين المدينتين أيضا.

ولقد وافق "بيروتون" Peyrouton على أخذ البيان بعين الاعتبار، واتخاذه كقاعدة لوضع قانون أساسي للجزائر مستقبلا بعد نهاية الحرب ، كما وعد بتشكيل لجنة لوضع مشروع للإصلاحات التي يمكن تحقيقها فورا..[11] وفي إطار

7 - ibid., p. 142- 143.

8 - Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), mars1943.

9 - Archive Wilaya d'Oran (A.W.O), boîte 4480, rapport n° 1272, du 30 mars 1943.

10 - للاطلاع على قائمة الموقعين على البيان، انظر :

- Collot, Claude et Henry, Jean Robert (1981). Le mouvement national algérien, textes 1912 –1954, éd. 2 O.P.U., p. 164–165, Alger

قارن :

- Les amis du manifeste et de la liberté , textes fondamentaux, 1943-1945, publications des archives de la wilaya de constantine, N°12, novembre 1983. PP. 17- 18.

11 - Abbas Ferhat, op. cit. , p. 145.
- Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), avril 1943.

في الواقع فإن موقف بيروتون كان موقفا تكتيكيا ودبلوماسيا، فقد تظاهر بقبوله المبدئي للبيان، لكن في نفس الوقت، حاول أن يُفرغه من محتواه، حينما شكل لجنة لدراسة المسائل الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين ،وكأن مشكل الجزائريين هو اقتصادي واجتماعي قبل كل شيء، وليس سياسيا.

إعداد خطة الإصلاحات الجديدة، قام "فرحات عباس" بزيارة أخرى إلى الغرب الجزائري، حاملا معه عريضة بخصوص الإصلاحات التي يمكن إدخالها على نظام الحكم بالجزائر. ومن المدن التي زارها، مدينة سيدي بلعباس، وذلك برفقة "ابن دمراد" من تلمسان، مما يدل على أنه زار هذه المدينة الأخيرة أيضا [12] وغيرها من المدن الأخرى.

لقد أعد النواب خطة عمل جديدة للإصلاحات أو وردت في "بملحق" البيان في 26 ماي 1943. وفي غضون هذه أصبحت الجزائر تحت حكم اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني ممثلة في الجنرالين ديغول وكاترو.

الذي رفض البيان والملحق، لم يتخذهما حتى كقاعدة عمل،[13] واكتفت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، والتي أرادت أن تتكفل بالمشكل الجزائري بعيدا عن التأثيرات الأمريكية، بإصدار بعض القرارات الإصلاحية في أوت 1943 مخيبة بذلك آمال النواب الذين أصروا على التمسك بمطالبهم، وعدم التعاون مع الإدارة الفرنسية ما لم تراعي ما جاء في البيان مجسدين احتجاجهم في مقاطعتهم الجلسة الاستثنائية للمفوضيات المالية المنعقدة في 22 سبتمبر 1943.الأمر الذي انتهى باعتقال "فرحات عباس" و"السايح عبد القادر "في اليوم الموالي بتهمة الحث على العصيان المدني، والإخلال بالسير العام للمؤسسات العمومية، والإخلال بالنظام العام أثناء الحرب. [14]

ولقد انتشر خبر اعتقال "فرحات عباس"، و"سايح عبد القادر" بسرعة في الغرب الجزائري، وكان له وقع سيئ على الجزائريين المسلمين وأثار استنكار وغضب عناصر العلماء ومناضلي حزب الشعب الجزائري[15] الذين كانوا طرفا في البيان من خلال مشاركة ممثلين عنهم في اجتماع فبراير 1943. وتم التعبير عن ذلك التذمر بطرق شتى ووسائل مختلفة بمدينة تلمسان؛إذ ظهرت كتابات جداريه بالمؤسسات العمومية تطالب بإطلاق سراح "فرحات عباس" "والسايح عبد القادر"، وتحمل شعارات حزب الشعب الجزائري ليلة 26 إلى 27 سبتمبر

12 - إن الخطوط العريضة لنظام الحكم هذا، والتي كانت ضمن المطالب، هي :
1- يشمل الاقتراع العام كل الجزائريين (الأهالي).
2- يتم انتخاب الحاكم العام عن طريق الاقتراع العام.
3 - استقلال كامل للجزائر على غرار الدومنيونات البريطانية
- Archive Wilaya d'Oran (A.W.O),boîte 4480, rapport du sous-préfet de Sidi Bel Abbes, du 21. 4. 1943.

13 - إن هذه القيادة الجديدة لم تلتزم بأي شيء أمام الجزائريين، وجاءت عقب تحرير شمال أفريقيا من قوات المحور، وفي ظرف كان فيه الحلفاء يسجلون انتصارات متتالية، كما أنها وضعت حدا للصراع الذي كان موجودا بين الجنرال «ديغول» وجيرو.أمام هذه المعطيات الجديدة، التي كانت في صالح فرنسا، التي أعربت عن موقفها الصارم في عدم التفريط في مستعمراتها وبخاصة الجزائر: مصطفى أوعامري، الحركة الوطنية الجزائرية في القطاع الوهراني خلال الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2001، ص: 126.

14 - Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), septembre 1943.

15 - المصدر نفسه.

1943.[16]

كما استغل الوطنيون التجمع المنظم من قبل الحزب الشيوعي الجزائري في 26 سبتمبر 1943، تحت اشرف النائب "دوموسوا" Demesois، والذي حضره حوالي 900 شخص، في المطالبة بإطلاق سراح "فرحات عباس؛ صاحب البيان وزميله". وحاولوا أن يحولوا هذا التجمع لصالحهم، ويستشف ذلك من تقرير للشرطة إذ جاء فيه : "إن خطاب النائب دوموسوا قوطع عدة مرات من طرف حوالي 20 مسلما من الحضور، والذين استغلوا المقطع الذي أثار فيه الخطيب، مسألة الإفراج عن المعتقلين السياسيين، وطالبوا بتحرير فرحات عباس...، مما أوقع خللا بالتجمع....". [17]

وكرد فعل على هذه الأحداث أقدمت أجهزة الأمن الاستعمارية بمدينة تلمسان، على اعتقال عدد من الوطنيين، ووضعت كل من "درويش صقال" و"حاج سليمان قويدر" تحت الإقامة الجبرية، ولم تطلق سراحهما إلا في شهر ديسمبر 1943. [18]

لم تذهب هذه التضحيات سدى، فقد ساهم تحرك الوطنيين في مختلف أرجاء الوطن وضغطهم على الإدارة الاستعمارية، فضلا عن تراجع بعض النواب عن مواقفهم، في إطلاق سراح فرحات عباس وسايح عبد القادر في 30 نوفمبر 1943. [19] وأعقب هذا الإفراج خطاب ديغول بقسنطينة في ديسمبر 1943، والذي اعتبر بمثابة مشروع بلوم فيوليت جديد. وللرد عليه ومواجهته شكلت مجموعة من الشبان في مدينة تلمسان جمعية سرية، أطلقت على نفسها اسم "الجمعية الإسلامية" تضم مناضلين قدامى من حزب الشعب الجزائري وعناصر متعاطفة مع "فرحات عباس". وهدف مجموعات الشبان هو مساندة البيان والملحق وتحقيق المطالب الواردة فيهما. [20]

جسد "ديغول" مضمون خطابه بشكل جلي في أمرية 7 مارس 1944 مؤكدا على سياسة الإدماج، ضاربا بمطالب الجزائريين في البيان والملحق عرض الحائط، الأمر الذي دفع "فرحات عباس" إلى التحرك السريع والمبادرة بإنشاء حركة سياسية جديدة تحت اسم "أحباب البيان والحرية" أسبوعا بعد ذلك في 14 مارس 1944، مهمتها الفورية هي الدفاع عن البيان. ويقول "عباس" في هذا

16 - Archive Wilaya d'Oran (A.W.O), boîte 4477, rapport du sous préfet de Mostaganem du 8.10. 1943.

17 - Archive Wilaya d'Oran (A.W.O), boîte 4477, rapport du 27 septembre 1943.

18 - Archive Wilaya d'Oran (A.W.O),boîte 4480, rapport de police spécial du 10décembre 1943.

19 - Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), décembre 1943.

20 - المصدر نفسه، نشرية فبراير 1944.

الصدد : "بعد وضع النصوص، بقي علي أن أعيد الاتصال بمختلف التنظيمات، فالعلماء انخرطوا فورا، وكانت محادثاتي مع "مصالي الحاج"، رئيس حزب الشعب الجزائري مثمرة، أما فيما يخص الشيوعيين فقد رفضوا...وفضلوا إنشاء تجمع جديد "أصدقاء الديمقراطية والحرية" المؤيد لسياسة الإدماج".[21]

2 – الترويج لحركة أحباب البيان والحرية

من أجل الحصول على مساندة الفعاليات السياسية، والشخصيات الجزائرية، والدعاية "لأحباب البيان والحرية"، قام "فرحات عباس" بزيارة خاطفة إلى القطاع الوهراني في الفترة الممتدة ما بين 16 و20 مارس 1944؛ وقد استهلها بزيارة مدينة غليزان في 16 مارس، ومنها انتقل إلى مدينة تلمسان، أين اتصل في اليوم الموالي ببعض الشخصيات التلمسانية، مثل الشيخ "البشير الإبراهيمي"، "بوشامة"، والدكتور "مرابط". فنُظم على شرفه حفل استقبال في "نادي السعادة"، و"مدرسة دار الحديث" وبمقر الجمعية الكشفية المنصورة.[22]

وقد ألقى عدة كلمات بهذه المنابة دافع فيها عن البيان، وانتقد إصلاحات "ديغول" الهزيلة واعتبرها غير كافية، كما خاطب الشبيبة الجزائرية قائلا : "يوجد بينكم قادة الجزائر في المستقبل"، وحثهم على الرقي فكريا وخلقيا. وخلال زيارته لمقر الجمعية الكشفية المنصورة، أبدى اهتماما خاصا بهذه الحركة الشبابية، بصفته محافظا فيدراليا لفيدرالية الكشافة الإسلامية الجزائرية من جهة، ولأنها تضم طليعة من الشباب الوطني الواعي والمتنور من جهة ثانية، وطلب منهم تقديم المساعدات المادية وتشجيع حركة أحباب البيان والحرية.[23]

إن زيارة فرحات عباس لمدينة تلمسان، واتصاله بالشيخ "البشير الإبراهيمي "رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، ومرافقة هذا الأخير له "في جولته عبر مدن الغرب الجزائري لها دلالتها السياسية الواضحة، إذ تعبر عن مساندة الإبراهيمي الكاملة "لـ أحباب البيان والحرية". ومن البديهي أن يكونا قد تحادثا عن الخطوات الواجب إتباعها في المستقبل بخصوص المسألة الوطنية، وعن ضرورة تكثيف الجهود، والتنسيق فيما بينهما لتحقيق مطالب الجزائريين.بل إن "عباس"، وحسب "نشرية مركز الاستعلام والدراسات" فإنه كان يريد اصطحاب "الإبراهيمي" معه إلى قصر الشلالة، لمقابلة "مصالي" في إقامته الجبرية، [24] والتشاور معا في مستقبل الجزائر.

---

21 - Abbas Ferhat, La nuit coloniale, op. cit., p. 151.

22 - Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), mars 1944.

23 - نفسه.

24 - نفسه.

غير أن التقاء قادة التيار الوطني بهذا الشكل، أثار مخاوف الإدارة الاستعمارية وقلقها، كيف لا وهي صاحبة الشعار "فرق تسد". الأمر الذي جعلها تتحرك بسرعة؛ وبأمر من عامل وهران ، طلب محافظ شرطة غليزان من "الإبراهيمي" العودة إلى تلمسان في أقرب الآجال، بدعوى أنه لا يملك رخصة للسفر، وأن الرخصة الخاصة التي بحوزته، تسمح له بالتنقل في أيام الأحد وأيام الحفلات فقط. وحتى هذه الرخصة الأخيرة فإنها قد سحبت منه.[25] مثل هذه الإدارة الاستعمارية كعادتها لا تنقصها الذرائع والمبررات، ولا تحول بين تنفيذ أوامرها القوانين والمبادئ الديمقراطية.

وبعد هذه الزيارة الناجحة لتلمسان وللقطاع الوهراني، ومساندة الشيخ "البشير الإبراهيمي" و"مصالي الحاج "لعباس" في مسعاه الجديد، فضلا عن مساندة الشخصيات البارزة في الغرب الجزائري، والأوساط الشبابية، قدم القوانين التأسيسية لأحباب البيان والحرية " في 4 أبريل 1944 إلى عمالة قسنطينة، وإلى الحاكم العام بالجزائر.[26] وهكذا، أصبحت حركة أحباب البيان والحرية هي الشغل الشاغل " لـ" فرحات عباس.

وجاء انعقاد المخيم الكشفي الفيدرالي الأول من نوعه على المستوى الوطني، في مدينة تلمسان، في الفترة ما بين 23 و30 جويلية 1944 [27] فرصة كبيرة "لعباس"؛ نائب رئيس فيدرالية الكشافة الإسلامية، في الانتقال إلى المنطقة الغربية مرة أخرى، والاتصال بالفعاليات الوطنية والأوساط الشبابية، وشرح المطالب الوطنية. وهكذا، انتقل "عباس" مرة ثانية إلى مدينة تلمسان في الفترة مابين 28 و31 جويلية 1944، واتصل مرة أخرى بالإبراهيمي وزار رفقته المخيم الكشفي، وخاطب الشبيبة المسلمة الجزائرية من كشافة وطلبة، وعمل على تشجيعها ورفع معنوياتها، مركزا على أنها هي آمال الجزائر الجديدة، وعليها أن تعمل بإصرار وعناد لتحقيق مطالب الجزائريين.[28]

وخلال تواجده بالمخيم الكشفي، أظهر "عباس" نوعا من التصلب والجفاء تجاه الإدارة الاستعمارية، ويلاحظ ذلك من خلال تقرير عامل وهران إلى الحاكم العام والذي أورد فيه مقتطفات من تقرير رئيس دائرة تلمسان بهذا الخصوص، ومن بين ما جاء فيه : "أما فيما يخص فرحات عباس، بالرغم من أنه نائب رئيس فيدرالية الكشافة الإسلامية الجزائرية،... فإنه لم يبد اهتماما كبيرا باستقبال السيد

25 - نفسه.

26 - Mahfoud, Kaddache. op. cit., p. 669.

27 - Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), juillet 1944.

28 - مصطفى أوعامري، أضواء على النشاط الوطني للكشافة الإسلامية الجزائرية بعمالة وهران :-1939 1945، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 128، تونس، جوان2007، ص.103.

الوزير، لم يتناول الكلمة، وأصرّ على عدم الاتصال بالسيد الوزير قبل الغذاء، الذي حضره كمدعو".[29] إن تحجر الإدارة الاستعمارية، وسياستها الاضطهادية ضد قادة الحركة الوطنية ومناضليها، مع نكثها للوعود، وتغير الظروف الدولية، تعد من بين الأسباب التي جعلت فرحات عباس يغير سياسته اتجاه الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

وكان لهذه الإقامة القصيرة " لـ"فرحات عباس" في مدينة تلمسان، وتدخلاته أمام الكشافة الإسلامية، واتصالاته "بالإبراهيمي"، صدى إيجابي في الأوساط التلمسانية. ولقيت دعايته لحركته الجديدة ولإنشاء جريدة "المساواة Egalité تجاوبا كبيرا وتشجيعا من طرف هذه الأوساط، حيث حصل على عدد كبير من المشتركين في الجريدة، ووجد مساهمين كبارا لتمويلها.24

وهكذا، أنشئت جريدة "المساواة "[30] Egalité في سبتمبر 1944، وأصبحت لسان حال حركة "أحباب البيان والحرية"، وتقوم بالدعاية الواسعة لها وتنتقد السياسة الاستعمارية، وإصلاحاتها الهزيلة، من خلال المقالات العديدة التي كانت تنشرها. وتزامنا مع صدور هذه الجريدة في خريف 1944 بدأت تتشكل فروع ولجان الحركة في أوائل 1945، وقد ترأس اللجنة المحلية المحامي "بوكلي حسن عمر".[31]

أصبحت حركة أحباب البيان والحرية التي تزعمها فرحات عباس، والتي امتلك فيها حزب الشعب الجزائري نفوذا قويا، بمثابة جبهة وطنية حقيقية تضم مختلف التشكيلات السياسية الجزائرية الوطنية، والجمعيات الفاعلة بالجزائر. وعلى غرار مناطق الوطن، فقد ولد لدى الجزائريين بتلمسان الشعور بقوة معنوياتهم وذاتيهم المتميزة، وإيمانهم بالاستقلال وأخذت سلوكاتهم تتغير اتجاه الفرنسيين، وأصبحوا أكثر جرأة على التحدي والمواجهة؛ فبمدينة تلمسان مثلا، أحدث اعتقال أربعة أشخاص كانوا يوزعون منشورا تحت عنوان "الذكرى الثانية لبيان الشعب الجزائري" غليانا لدى الجزائريين، مما جعل السلطات الاستعمارية تفرج

---

29 - مصطفى أوعامري، الحركة الوطنية الجزائرية ... المرجع السابق، ص 160.

30 - هي جريدة أسبوعية باللغة الفرنسية، شعارها المساواة بين البشر والشعوب والأجناس، مديرها السياسي " فرحات عباس "، صدر العدد الأول منها في سبتمبر 1944 بالعاصمة، وتوقفت في ماي 1945. حققت نجاحا كبيرا، وأصبحت تصدر بالآلاف النسخ، إذ ذكر الكولونيل" كوهين " 30.000 Schoen نسخة. أما " ساراسان " P.E. Sarrassin، فتكلم عن 130.000 نسخة.

انظر :

- Aron, Robert et Lavagne, François et al. (1962). Les origines de la guerre d'Algérie, textes et documents contemporains, éd. Fayard, p. 98. Paris.

وأيضا :

- Mahfoud kaddache ,op.7001 .p ,.tic .

31 - اهتم بوكلي حسن عمر " بمطالب الجزائريين منذ سنة 1933، وكان ضمن الوفد الذي سافر إلى باريس خلال هذه الفترة ".

- Centre d'information et d'étude d'Oran (C.I.E), bull. n° 122, mars 1945.

عنهم.[32] وأثناء زيارة الحاكم العام "إيف شاتينيو" Yves Chataigneau للقطاع الوهراني أوائل مارس لوحظ غياب شبه تام للجزائريين في استقباله في أغلبية مدن الغرب الجزائري، بل حتى فرقة عيساوة، بمدينة تلمسان رفضت المشاركة في حفل الاستقبال.[33] يعبر هذا الأسلوب النضالي الجديد والمتمثل في مقاطعة القاعدة الشعبية للإدارة الفرنسية عن مدى درجة الوعي الذي بلغه الشعب الجزائري وتجاوبه الكبير مع الدعاية الوطنية.

كما أن حركة أحباب البيان والحرية تمكنت من تنظيم وتعبئة قاعدة شعبية واسعة حول فكرة استقلال الجزائر الذي جعلته مطلبها الأساسي، وهو ما عبرت عنه الجماهير الشعبية بحماس قوي في مظاهرات ماي 1945 – وأشرفت هذه الحركة على تنظيم موكب للمتظاهرين بمدينة تلمسان قدر عدده ما بين 1500و2000 متظاهرا جزائريا، جابوا شوارع المدينة، مرددين الأناشيد الوطنية، رافعين سبابة اليد اليمنى.[34]

الخاتمة

من خلال ما تقدم نلاحظ بأن مدينة تلمسان ظلت دوما تسجل ضمن جداول زيارات فرحات عباس للغرب الجزائري، خاصة وأن البشير الإبراهيمي، الرئيس الثاني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد أطراف التحالف الوطني كان مستقرا بها خلال الفترة المدروسة. كما أن دعاية عباس للبيان الجزائري، ولحركة أحباب البيان والحرية، لقيت تجاوبا كبيرا من طرف الأوساط التلمسانية؛ نظرا للتوجهات الوطنية لهذه الحركة التي اجتاحت دعايتها مدن وقرى وأرياف الجزائر، ونظرا للأطراف المشكلة لها، ودور حزب الشعب الجزائري في تفعيلها سياسيا.

المصادر

1 - Archive de la wilaya d'Oron(A.W.O), boîte 4477
2 - Archive de la wilaya d'Oron(A.W.O), boîte 4480
3 - Archive de la wilaya d'Oron(A.W.O), boîte 4063
4 - Centre d'information et d'étude d'Oran, (C.I.E.)1945 –1943.
5 - Les amis du manifeste et de la liberté, textes fondamentaux, 1943-1945, publications des archives de la wilaya de Constantine, n°12, novembre 1983.

32 - نفسه، نشرية فبراير 1945.

33 - أوعامري، مصطفى. الحركة الوطنية الجزائرية ... المرجع السابق، ص 180.

34 - أوعامري، مصطفى (جوان 2006). أضواء على مظاهرات ماي 1945 بالقطاع الوهراني، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 124، ص 15-14، تونس.

المراجع

1 - أوعامري، مصطفى (2006). أضواء على مظاهرات ماي 1945 بالقطاع الوهراني. المجلة التاريخية المغاربية، العدد 124، تونس.
2 - أوعامري، مصطفى (2007). أضواء على النشاط الوطني للكشافة الإسلامية الجزائرية بعمالة وهران -1939 1945، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 128، تونس .

3 - Ferhat, Abbas (1981). De la colonie vers la province, le jeune algérien (1930) suivi de rapport au Maréchal Pétain. avril 1941. éd. Garnier frères, Paris.
4 - Ferhat, Abbas (1962). Guerre et révolution d'Algérie : la nuit coloniale. t. I, éd. Julliard, Paris.
5 - Ageron, Charles Robert (1979). histoire de l 'Algérie contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération (1954), tome II, P.U.F, Paris.
6 - Aron, Robert et al. (1962). Les origines de la guerre d'Algérie, textes et documents contemporains, éd. Fayard, Paris.
7 - Collot, Claude et Henry, Jean Robert (1981). Le mouvement national algérien, textes 1912 –1954, 2ème ed O.P.U., Alger.
8 - Julien, Charles André (1972). L'Afrique du nord en marche, nationalisme musulman et souveraineté française, 3ème éd., Julliard, Paris.
9 - Kaddache, Mahfoud (1980). Histoire du nationalisme algérien, question national et politique algérienne, (1919 – 1951), 2ème éd. S.N.E.D, Alger.
10- Rouina, Karim (1992). Gouverneurs généraux de l'Algérie, 1830-1962, in Parcours n° 16-17.

تلمسان في العصور العتيقة

د. محمد الحبيب بشاري
جامعة الجزائر2

ملخص

تتوفر منطقة تلمسان على ظروف طبيعية ملائمة لاستقرار الإنسان، من تربة خصبة ومناخ من معتدل إلى جاف وثروة مائية معتبرة، مما ساعد على ازدهار الحياة بها منذ العصور الغابرة، وهو ما تؤكده المخلفات الأثرية التي عثر عليها في بحيرة قرار وبودغن وأوزدان. والتي تعود إلى آلاف السنين، كما تشير كل المعطيات إلى استمرار الحياة بها دون انقطاع، رغم صمت المصادر الأدبية. أما في العهد الروماني فقد تحولت إلى حلقة من حلقات خط الليمس الروماني، إذ أقامت بها السلطة الرومانية مركزا عسكريا لوحدة الاستطلاع البوماریة نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يسمح بمراقبة شرق موريطانيا الطنجية ومنطقة السهوب. وقد تحولت في وقت قصير من معسكر إلى مدينة واسعة احتوت على كل مقومات المدينة الرومانية. وفي المجال الديني انتشرت بها الديانة الوثنية التي تجسدت في عبادة الكثير من الآلهة الرومانية إلى جانب الآلهة المحلية، ومع نهاية القرن الثالث انتشرت فيها الديانة المسيحية انتشارا واسعا بعد سيطرة الوندال على إفريقية. ومن الناحية السياسية، يظهر أنها تخلصت من الحكم الروماني ابتداء من نهاية القرن الثالث بعد أن قرار روما الاحتفاظ بالمناطق التي تمثل مجالا حيويا فقط, وبذلك انتقلت تبعيتها إلى حكام محليين، وقد استمر هذا الوضع حتى الغزو الوندالي الذي لا نعرف إن مر بتلمسان أم لا.

الكلمات الدالة: العصورالعتيقة، العهد الروماني، خط الليمس، الديانة الوثنية.

مقدمة

برزت مدينة تلمسان في العصور الوسطى (بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر) كحاضرة كبيرة وعاصمة سياسية واقتصادية وفكرية للدولة الزيانية لكن بقي تاريخها القديم مجهولا لأسباب عديدة، منها استمرار الحياة في نفس المكان، فالمدينة الزيانية بنيت تقريبا على أنقاضها، وبالحجارة الرومانية، مما تسبب في اختفاء آثار الشعوب السابقة التي استقرت بالمنطقة. وكذلك عدم تركيز المؤرخين والجغرافيين الكلاسكيين على الجزء الغربي من الجزائر أو مقاطعة موريطانيا القيصرية بقدر تركيزهم على الجزء الشرقي منها، بسبب ما شهده هذا الأخير من أحداث سياسية وعسكرية خلال المراحل التاريخية السابقة (البونيقية والنوميدية

والرومانية)، وكذلك للدور الاقتصادي الذي لعبه في حياة المغاربة والقرطاجيين والرومان، لذلك لم نجد إلا الجغرافي بطلميوس الذي ذكر منطقة غرب موريطانيا القيصرية وبشكل مختصر، إذ اكتفى بالتكلم عن تضاريس الإقليم وتعداد المدن والقبائل التي استقرت بها. وقد سار المؤرخون والأثريون الغربيون المعاصرون على خطاهم فقد ركزوا على الشرق الجزائري(نوميديا وشرق موريطانيا القيصرية) وأهملوا القسم الغربي للأسباب المذكورة آنفا، رغم ما ضمّه من مدن كبرى مثل سيغا (Siga) عاصمة صفاقس، وما شهدته من أحداث، ومنها أسر الملك النوميدي يوغرطه. أما المؤرخون والجغرافيون المسلمون، فقد ركزوا على تاريخ المنطقة في الفترة الاسلامية، واهملوا الفترة العتيقة إذ لا نجد إلا بعض الاشارات العابرة من حين إلى آخر. نتيجة لكل ذلك لم يجد المؤرخون المعاصرون مادة كافية يعتمدون عليها في دراسة تاريخ منطقة تلمسان في العصور القديمة، وهذا ما سنحاول تناوله ولو باختصار في هذا البحث.

تلمسان بين الأسطورة والحقيقة التاريخية

تقع مدينة بوماريا (تلمسان) في أقصى غرب موريطانيا القيصرية، وهي تحتل موقعا استراتيجيا مهما بحيث تتوسط المنطقتين الساحلية في الشمال والأستبسية في الجنوب. وتقع بالقرب من الممر الطبيعي الوحيد الذي يربط موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية، وهو ممر تازة، كما أنها تشرف على المنطقة التي تتنقل فيها القبائل المورية، التي لم تكن تتردد في غزو الأراضي الشمالية

ومن الناحية الطبيعية تتميز منطقة تلمسان بظروف طبيعية ملائمة لاستقرار الإنسان، فهي تقع على السفوح الشمالية لمرتفعات تلمسان، هذه المرتفعات التي تحميها من الرياح الجنوبية الجافة، التي تؤثر سلبا على المزروعات، كما تجعلها في مأمن من غزوات البدو الذين يتنقلون في منطقة الإستبس[1]، وتتوفر على سهول خصبة يصل ارتفاعها أحيانا إلى 800 م.، مما منحها مناخا من معتدل إلى شبه جاف نسبيا، ومصادر مائية ساعدت على ازدهار الحياة بمختلف أشكالها النباتية والبشرية والحيوانية سواء مياه الأمطار التي تتساقط بمعدلات معتبرة، أو الينابيع الكثيرة بالإضافة إلى المياه الباطنية، وهذا ما سهّل تمركز الإنسان بها منذ العصور الغابرة، كما تدل على ذلك بعض المخلفات الأثرية، وربّما هذا ما جعل سكانها في العصور الوسطى ؛ مثل بقية شعوب العالم القديم ؛ يعطون مدينتهم أصولا أسطورية، فهم يعيدون تأسيسها إلى ما قبل النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلادي، حيث كانت حسبهم قائمة أيام النبي موسى عليه السلام الذي زارها

1 - شنيتي، محمد البشير(1999). الجزائر في ظل الاحتلال الروماني : بحث في منظومة التحكم العسكري الليمس الموريطاني ومقاومة المور، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 232.

صحبة الولي الصالح أو النبي الخضر، إذ يذكرون أنها كانت مسرحا لما جاء في الآية الثمانين من سورة أهل الكهف التي جاء فيها بعد باسم الله الرحمان الرحيم "... أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحا، فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربّك،...".

وفي هذا الشأن كتب القزويني[2]: "قرية صغيرة بالمغرب ذكروا أن القرية هي التي ذكرها الله تعالى في قصة الخضر وموسى، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما فوجدا جدارا يريد أن ينقض، فأقامه قيل أنه كان جدارا عليا عريضا مائلا فمسحه الخضر بيده فاستقام. وحدثني بعض المغاربة أنه رأى بتلمسان مسجدا يقال له مسجد الجدار يقصده الناس لزيارته". وهي نفس القصة التي ذكرها وفندها عبد الرحمان بن خلدون بقوله :"... ولم نقف على أخبارها (تلمسان) فيما قبل ذلك، وما يزعم بعض العوام من سكانها أنها أزلية البناء، وأن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أغادير منها، فأمر بعيد التحصيل لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو اسرائيل لم يتسع ملكهم لإفريقية وظلا عما وراءها، وإنما هي من مقالات التشيع المجبول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو علم أو صناعة..."[3].

وفي نفس الموضوع كتب عبد الباسط الظاهري بين1465 و1467 : " مسجد يقال له" مسجد الجدار" يزوره أهل تلمسان وعليه أنس وخفر، ويزعم أهل تلمسان بأنه مكان الجدار الذي أقامه السيد الخضر".[4]

ورغم أن القرآن الكريم لم يحدد المكان الذي وقعت فيه هذه الحادثة ولا تاريخها، ولا ماهية الشخصية التي اصطحبت النبي موسى عليه السلام، فقد تباينت آراء علماء الدين والمؤرخين في تفسير أحداث هذه السورة، لذلك اكتفوا بوضع فرضيات، فبالنسبة للمكان، حدده البعض ببحر الروم، وقيل بحر الأردن أو القلزم، وكذلك طنجة وإفريقيا وبحر الأندلس. لكن وبغض النظر عن كل هذه الفرضيات فالكل متفق على أن النبي موسى عليه السلام لم يزر المغرب، وبالتالي لا يمكن أن يكون ما ذكره سكان المنطقة حقيقة تاريخية. نفس الشيئ ينطبق على ما ذكر حول زيارة النبي سليمان الذي عاش في حوالي 1000 ق م لتلمسان.

---

2 - آثار البلاد و أخبار العباد، تصنيف الامام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني، مصر 1848، ص، 115.

3 - تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزائر، 0072 ج4، ص 258.

4 - مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط " الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، 1462 /1467، الجزء الأول، الورقة ة تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الجامعة اللبنانية، بيروت.

أما البكري فكتب بشأن تلمسان " فيها آثار قديمة وفيها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة وأكثر ما يوجد الركائز في تلك الآثار، وكان الأوائل (شعوب العصور العتيقة) قد جلبوا إليها الماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال... وفي الشمال من تلمسان جبل يسمى جبل البغل ينبعث من أسفله نهر سطفسيف (وادي مفروش)، ويصب في بركة عظيمة من عمل الأوائل، ثم ينبثق منها بحكمة مدبرة إلى موقع يسمى المهماز..."[5].

إن كل هذه الأساطير وما جاء على لسان البكري تؤكد شيئا واحدا هو أن المنطقة كانت عامرة بالسكان منذ أمد طويل، وهو ما تؤكده المخلفات الأثرية التي عثر عليها بمحيط مدينة تلمسان. ففي بحيرة قرار وجدت عظام حيوانات عاشت في المنطقة في عصور ما قبل التاريخ، منها الفيل(Elephas atlanticus) ووحيد القرن وفرس البحر والخنازير والحمار الوحشي، إلى جانب أدوات بدائية مصنوعة من حجر الصوان، استعملها الانسان في حياته اليومية، مثل المثاقب(Poinçon) والمكشاط (Grattoir) والكشاطات (Racloir) والشفرات[6]. ونفس الأدوات عثر عليها في مواقع أخرى، منها المويلح قرب لالا مغنية[7]. كما اكتشف الأثريون عددا كبيرا من الكهوف نحتها الإنسان، وسكنها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، منها أكثر من 100 كهف في بودغن ولالا ستي والقلعة وقرية بوبلان، ومن بين الأدوات التي احتوتها هذه الكهوف، صاقلة للحجر عثر عليها في باب القرمدين ومعاول مصقولة وجدت في بودغن و2000 قطعة مصقولة مختلطة بعظام بشرية تعود إلى العصر الحجري المتوسط في كهوف لالا ستي. أما موقع أوزدان فقد مدّنا بسهام تعود إلى العصر الموستيري (بين 40000 و25000 سنة) استعملها الانسان في الصيد[8]. لكن ولإسباب نجلها لم يعثر الأثريون على ما يدل على استمرار الحياة في المنطقة حتى الاحتلال الروماني. لكن هل يعني أن المنطقة هجرت كلية ؟ لا نعتقد ذلك، فبعض المؤشرات توحي أن الأهالي حتى وإن لم يستقروا بها، كانوا يترددون عليها. فقد أشار الجغرافي بطلميوس[9] إلى قبائل كثيرة كانت

---

5 - أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والغرب"، جزء من كتاب المسالك و الممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ص 76.

6 - Aumassip, Ginette (2001). L'Algérie des 1° hommes, p, 31.

7 - Gsell, S. (1979). Histoire ancienne de l'Afrique du nord. Onsabruck, t. I, p 189.
- Barbin , Bulletin d'Oran , 1910, PP, 82-83

8 - Pallary, P. (1895). Recherches palethnologiques effectuées aux environs d'Ouzidan , Bulletin de la société d'anthropologie de Paris, IV° série t. 6, p 91.

9 - ولد بطلميوس(Ptolemaeus Claudius) بمصر في حوالي 90 م. ومات في كانوبي في 168 م. له عدة مؤلفات في علم الفلك والجغرافيا، هذا الأخير الذي اعتمد في تأليفه على مصادر عديدة يعود معظمها إلى القرن الأول وبداية القرن الثاني ميلادي، ومن أهمهم مورنوس الصوري (Tyr de Murinus)، وبالتالي فهي مصادر تعود إلى ما قبل تأسيس المركز العسكري الروماني الذي حمل اسم بوماريا بعشرات السنين.

تستقر بالمنطقة، منها قبائل الهربدتاني (Herpeditanes) والصورس (Sôres) والتلادوسيين (Teladousien) والماكوزيين (Makhousien) وبافار الغرب، وغيرهم من القبائل المورية، وفي هذا الشأن كتب :" كانت المنطقة الغربية لموريطانيا القيصرية مأهولة من طرف الهربدتان (Herpeditanes) الذين يقيمون في سفوح جبل خالكورخية (Khalcorykhien) (جبال بني سناسن التي تمتد بين غرب موريطانيا القيصرية وشرق موريطانيا الطنجية)[10]، وجنوبهم نجد قبائل التلادوسين(Teladousien) وقبائل الصورس(Sôres) ثم المسايسليين..."[11]

من هذا يتضح أن عدة قبائل استوطنت المنطقة المنحصرة بين البحر الأبيض المتوسط في الشمال ومنطقة الإستبس في الجنوب، ووادي ملوشة في الغرب، وجبال بني سناسن ودردوس (جبال تلمسان) في الشرق، عشرات السنين قبل تأسيس الرومان لمركز بوماريا العسكري.

انطلاقا من هذا نتساءل متى وأين عاود الانسان الاستقرار في المنطقة ولماذا؟ وبماذا تميز المركز السكني الجديد؟

معروف أن منطقة المغرب شهدت في العصور التاريخية القديمة عدة تطورات أبرزها الصراع القرطاجي الروماني فيما عرف بالحروب البونية، والذي انتهى بسقوط قرطاجة تحت الاحتلال الروماني سنة 146 ق.م. ثم جاء دور نوميديا لتضم إلى الأملاك الرومانية سنة 46 ق.م. وبعدها بقرابة قرن سقطت موريطانيا سنة 40 م. هذه التي مهّد أغسطس لإحتلالها بإقامته عدة مستعمرات على ساحلها الغربي، منها قوراية (Gunugu) وتنس (Cartennae)، ومراكز أخرى داخلية.

وقد توسعت روما في الأراضي الساحلية والداخلية لقرطاجة ونوميديا، لكن اختلف الوضع في المنطقة الغربية، حيث انحصر توسعها في المنطقة الساحلية، وهي المنطقة التي حرصت روما على حمايتها من الخطر القادم من الجنوب والغرب، بإقامتها خطا دفاعيا (خط الليمس)، امتد من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي، ليقترب من الساحل في أقصى غرب موريطانيا القيصرية، لكن هذا الوضع جعل المراكز الرومانية الغربية تقع تحت تهديد القبائل المورية المنطلقة من الجنوب والغرب باستمرار، وخاصة قبائل بفار (Bavare) الغرب، مما دفع بالسلطة الرومانية إلى تدعيم وجودها في هذه المنطقة بإقامة بعض المستعمرات والمراكز العسكرية من بينها مراكز ألتافا (Altava، أولاد ميمون)، نومروس سيرورم (Numerus syrorum) (مغنية) و(بوماريا) (Pomaria) (تلمسان)، بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث ميلادي، على يد الإمبراطور سيبتموس سيفروس

10 - Mac, Carthy O. (1856). Algeria Romana, recherches sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les romains subdivision de Tlemcen, R.Af. n° 1, p 347.

11 - Ibid, p 352.

(Septimus Severus). لقد اختارت روما لهذه المراكز مواقع استراتيجية، بالاضافة إلى توفرها على مؤهلات اقتصادية.

مركز بوماريا

اعتقد الأثريون والمؤرخون لمدة طويلة أن مستعمرة تميكي (Timici) [12]، هي مدينة تلمسان وهذا لتشابه الإسمين، بينما أعادها الدكتور شو((Thomas Shaw إلى مدينة لانغيرا (Lanigara)[13] لكن الأثار التي عثر عليها في قاعدة منارة مسجد أغادير، التي بنيت بحجارة مباني رومانية أزاحت اللثام عن إسم مدينة تلمسان في العصر الروماني، إذ جاء في إحدى النقوش :

إلى الإله المقدس أولسوة (Aulisua) فلافيوس كاسيانوس قائد كتيبة الاستطلاعيين البوماريين	DEO SANCTO AVLISVAE FL. CASSI ANUS PRAE FEC. ALAE EXPLORA TORUM POMARIENSIUM

وفي نقيشة أخرى نقرأ :

إلى أولسوة الإله الذي لا يقهر قائد الجناح الاستطلاعي البوماري الغورديانـي.	DEO INVICTO AVLISVAE .... ALAE EXPL. PO MAR. GORDIA .NAE ET PROC AUG. N

12 - Marmol y carvajal , L'Afrique , traduction Nicolet Perrot , edit., L.Billaine , Paris, 1667, p,328 ;

لقد تأكد اليوم أن (Timici) تميكي هي مدينة عين تموشنت.

13 - (Château d'Isly)

أظهرت الأبحاث الحديثة أن هذه الأخيرة تقابل مدينة

Voyage dans la régence d'Alger, trad.de l'anglais par J.Mac Carthy, Tunis ,

ويدعم هذا الرأي نصبا ميليا عثر عليه في لالا مغنية جاء فيه :

الإمبراطور القيصر	IMP. CAES
ماركوس أورليوس سيفروس	.M. AVREL
	SEVERVS
.....	.....
التقي	PIVS FELIX
أغسطس السعيد	AVG. MILI
وضع هذه النصب الميلية	ARIA POSV
من طرف الوكيل المتسامح	.PER. P. FI
	.CLEMEN
من سير (Syr) إلى بوماريا	.PROC. S
XXVIII M.P	AN SYR POMAR
إلى سيغا XXXVI M.P	M. P. XXVIIII
	SIG. M. P. XXXVI

تؤكد المسافات الفاصلة بين مغنية وبوماريا والمقدرة ب 28 ميلا(42949 متر)، وبين مغنية وسيغا وهي 36 ميلا(53316 متر)[14] أن بوماريا هي مدينة تلمسان. أما عن تاريخ تأسيسها فإن نقيشة النصب الميلي المذكور تبرز أنها تعود إلى عهد الامبراطور اسكندر سيفروس (222/235)(Alexandre Severe م.)، فهي تعود إذا إلى الربع الأول من القرن الثالث ميلادي.

إن اختيار الرومان مكان إقامة بوماريا كمركز عسكري ثابت (Castra stativa) متقدم، لم يكن صدفة، بل جاء نتيجة أهمية موقعها الإستراتيجي، فهي تقع قرب ممر تازا الرابط بين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجة، وبالتالي فهي تؤمن الاتصال بين المقاطعتين. وكذلك تؤمن غرب مقاطعة موريطانيا القيصرية من خطر الأهالي، الذين لم يكونوا يترددون في الهجوم على المراكز الشمالية وخاصة قبائل البافار، وهي بذلك تدعم مجموعة المراكز العسكرية الأخرى التي أقيمت في الإقليم. كما تضمن تنقل البريد الروماني في ظروف السلم والحرب[15] ، خاصة أمام استحالة استعمال النقل البحري لفترة من السنة، لصعوبة الابحار.

وخلاصة القول، لا نعتقد أن الرومان غامروا بترك جزء من أراضيهم التي ضموها في سنة 40م. معزولا وتحت تهديد القبائل الموريةالمتواجدة بالمنطقة.[16] وهذا

14 - Ibid, p, 94.

15 - Carcopino (J). La fin du Maroc romain, Mel.archéo.et Histoire, 1940, vol, 57, pp. 357-358.

16 - M.de la Marinière, B. archéo., 1912, p, 164

ما يتأكد من خط الليمس الثاني الذي أقامه الرومان لتوفير الحماية للسهول العليا الغربية، فقد ربط أوزيا (Auzia)(سور الغزلان) بمدينة نومروس سيروروم (Numerus syrorum)(مغنية) عبر رابدوم(Rapidusm)(سور جواب) وأوسنازا (Usinaza)(سانغ) وكوهور بريوكوروم (Cohors Breucorum)(هنشير سويق) ثم ألا ماغنية (Ala Marnia)، (بنيان) فمركز لوكو(Lucu) (تيم زوين) وبعدها تساكورة (Tasaccora) (سيدي علي بوناب) فألتافا وأخيرا بوماريا[17].

كما أن لاختيار بوماريا كمركز حدودي أسباب اقتصادية، ذلك أن روما تعودت على ربط إقامة مراكزها العسكرية بالحيوية الاقتصادية للإقليم المراد مراقبته، لأنها لم تكن تضمن التموين لجيوشها، فقد كان على الجنود توفير غذائهم بأنفسهم، إما بالاحتفاظ بجزء من الضرائب التي يدفعها الأهالي، أو باستغلال الأراضي الزراعية الموضوعة تحت تصرفهم، وهذا ما يتوفر لدى مركز بوماريا الذي يتوسط أراض زراعية خصبة، فمعنى بوماريا باللاتينة هو البساتين.[18]

من كل ما سبق تتضح أهمية مركز بوماريا في المنظومة العسكرية الرومانية في حماية غرب موريطانيا القيصرية، سواء من خطر الأهالي المستقرين في الجنوب الغربي، أو تهديد سكان جبال الريف في الغرب.

وقد اعتبر الكثير من المؤرخين أن وحدة الاستطلاع التي تمركزت في بوماريا انفردت بتسميتها النادرة في تاريخ الجيش الروماني، إذ حملت اسم المدينة التي تمركزت بها وهو الجناح الاستطلاعي لبوماريا (Alae exploratores Pomarienses)، في حين جرت العادة أن تنسب الوحدات العسكرية إلى الأماكن الذي يجند فيها أفرادها[19] مثل:

الكتيبة الفلافية الإفريقية الأولى (Cohors I Flavia Afrorum)[20]. وقد جنّد أفرادها في مقاطعة إفريقية.

كتيبة الكالكيدونيين الأولى (I cohors de Chalcidonien) [21]. ينتمي أفرادها إلى مقاطعة كالكدونيا بآسيا الصغرى على سواحل مضيق البوسفور.

كتيبة تراقيا الثانية (II cohors de Thrace) [22]. جند أفرادها في مقاطعة تراقيا.

---

17 - Carcopino,(J), op cit, p, 362.

18 - شنيتي ، المرجع السابق، ص، 233.

19 - Cagnat (R). L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris, 1892, p, 249 ; Claude Briand-Ponsart , identité et culture dans l'Algérie antique, le Havre, 2005, p, 247.

20 - Benseddik (N). Les troupes auxiliaires de l'armée romaine en Mauretanie Cesarienne sous le haut empire, edit. SNED, Alger (sans date), p., 31.

21C.I.L., VIII, 17586; 17589.

22 - Benseddik (N). op cit, p., 43.

كتيبة الوزتانيين الثامنة (VIII cohors de Lusitanien)، التي جندت في مقاطعة لوزتانيا بالبرتغال اليوم.
الكتيبة الاسبانية (Cohors Hispanorum)[23] ، كما تدل تسميتها ينتمي جنودها إلى إسبانيا.
نعتقد أن نسبة وحدة الاستطلاعيين إلى بوماريا ليست فريدة، وأن روما احترمت مبدأ نسبة الوحدات العسكرية إلى مكان تكوينها، ولم تستثن من ذلك وحدة الاستطلاعيين التي تكونت في بوماريا لأنه حسب رأينا اعتمدت روما في تكوين هذه الوحدة على الموريين المنحدرين من المنطقة لمعرفتهم الجيدة بتضاريس المنطقة وسكانها، نظرا للوضع الأمني غير المستقر الذي كان سائدا في أقصى موريطانيا القيصرية على الحدود مع موريطانيا الطنجية، لتتعاون مع الوحدة المتمركزة في نومروس سيروروم (مغنية) ووحدة ألتافا[24] في صد أي خطر قد يأتي من الجنوب أو الغرب، ونستشهد على ذلك من تسميتها، ومن الإهداءات الموجهة للإله الموري أولسوة[25].
وإذا عدنا إلى مدينة بوماريا، فإن المؤرخين يعيدونها إلى المركز العسكري الذي أقيم على الحدود مع موريطانيا الطنجية، والذي تمركزت به وحدة الفرسان الاستطلاعية لبوماريا. وتدل القليل من الآثار التي كانت لا تزال قائمة في السنوات الأولى للإستعمار الفرنسي، أن المركز العسكري امتد على مساحة 7 هكتار. لكن وفي وقت قصير استقر بجواره عدد من السكان من الأهالي وقدماء الجنود لأسباب أمنية واقتصادية[26]. وبذلك تحول المركز العسكري إلى مدينة بلغت مساحتها أكثر من 16 هكتارا [27]، بقيت آثارها بادية للعيان عند دخول الاستعمار الفرنسي. فقد كتب ماك كارتي في سنة 1857 :" تمتد وسط منظر رائع آثار أطلق عليها العرب اسم "الحجارة الرومانية " لما ندرسها بدقة نتعرف على الأجزاء الأساسية للمدينة، التي كان مخططها مستطيلا متجها من الشمال إلى الجنوب يبلغ طوله 370 م. وعرضه 317 م. إنه يمثل المركز الثابت (Castra stativa)،

23 - Cagnat (R), op cit, p, 203.

24 - Claude Briand Ponsard,op cit, p, 248.

25 - C.I.L.VIII, 9906 ; 9907; 21704.

26 - نؤمن بفكرة أن الأهالي استوطنوا المنطقة منذ زمن طويل، خاصة أنها تتوفر على كل عوامل الاستقرار من أرض خصبة وثروة مائية ومناخ ملائم وثروة نباتية وحيوانية متنوعة، وهذا ما ابرزته لنا المخلفات الأثرية لعصور ما قبل التاريخ سواء في هضبة لالا ستي أو أوزدان وبحيرة قرار...

27 - Mac Carthy , op cit, p, 94 ; Le commandant de Pimodan , Oran , Tlemcen sud Oranais 1889-1900, Paris 1902, p, 41.

الذي يلامس طرفه الجنوبي الوادي الذي بني فوقه جسر صغير[28]. وقد كان يحيط بالمدينة سوران يفصل بينهما خندق، بني عليهما عدة أبراج مراقبة، منها ثمانية في السور الشمالي، وخمسة في السور الشرقي، ونتصور أن السورين الغربي والجنوبي الذين اختفيا، احتويا بدورهما على أبراج مراقبة. وقد عثر في أنقاض المدينة على أعمدة وبعض القطع من الرخام، كما كشف انهيار مسجد سيدي غلاي سنة 1912 على 14 جذع عمود رخامي طول كل واحد منها مترين، و14 أخرى مهشّمة، بالاضافة إلى ذلك عثر على بئرين وقنوات صرف، وأخرى لنقل المياه أطلق عليها الأهالي اسم "ساقية النصراني" [29] ربما هي نفس القناة التي تكلم عنها البكري.

يتضح من الآثار القليلة سالفة الذكر أن بوماريا احتوت ؛ بالإضافة إلى المؤسسات الإدارية الضرورية لتسيير مدينة رومانية ؛ على كل ما يتطلبه مركز حضري روماني، منها الفوروم بكل مكوناته كالمعبد والمتاجر والحمامات، وهذا ما كشفت عنه نقيشة وجدت بعارضة في جدار منارة مسجد أغادير، تنص على ترميم حمام مخصص للجنود، من طرف شخص يدعى كايكليوس إيوفنوس إذ جاء فيها:

CAECILIUS JOVINUS
BAL NEUM.CASTRORUM RESTITUTUM
C.VURANTE CAECILIO IOV, NO

إن كل العوامل سالفة الذكر أهلت بوماريا أن ترتقي إلى مصاف البلدات الرومانية (Respublica)، وهذا ما يبرزه نص نقش على النصب الميلي الذي عثر عليه بتلمسان، فقد جاء فيه:

أمر الإمبراطور أسكندر سيفروس حفيد الإمبراطور سيبتموس سيفروس بوضع النصب الميلي البروكراتور تيتوس إيليوس دكريانوس مدينة بوماريا	DIVI SEVERI.NE POS.MILIARIA NOVA POSUIT PERT.AEL DECRIA NUM PROC .SVVMR.P.P

28 - Mac Carthy (O), op cit , p, 95.

29 - Yahiaoui (Nora), op cit, p, 93.

حيث تعني الأحرف الثلاث الأخيرة (R.P.P.)(R(es) P(ublica) Pomariensium)، بمعنى بلدة بوماريا مما يدل على أن المدينة كان لها نفس النظام الذي ساد في المدن الرومانية[30] ومنها تمتعها باستقلال ذاتي ومالي[31].

إلى جانب الآثار سالفة الذكر، انتشرت حول مدينة بوماريا عدة نصب ميلية تشير إلى طرقات كانت تربط المدينة بمحيطها، مما ضاعف من أهميتها الاستراتيجية. إذ كانت نقطة انطلاق والتقاء عدة طرقات منها، طريق مينائي بورتوس ماغنوس ووهران عبر ألبولاي (عين تيموشنت)، وهو ما تؤكده بعض الآثار الرومانية، منها حنفية رومانية، يطلق عليها الأهالي اسم "حنفية الرومان"[32] وطريق سيغا وميناء بورتوس سيغنسيس(Portus Sigensis) عند مصب وادي التافنة[33].

كما تؤكد الآثار المختلفة لمراكز عسكرية ومستعمرات ونصب ميلية وجود طريق تربط بوماريا بمدينة روسوكرو (دلس) مرورا بمدينة معسكر وسيدي بلعباس[34]. بالاضافة إلى وجود طريق شمالية شرقية في اتجاه تبيداي (Tepidae بني صاف)، ومن المحتمل أنها تستمر في اتجاه تساكورا (Tasacora سيغ) وألاّ ملياريا و(Ala Miliaria بنيان)[35] بالإضافة إلى ربطها خط الليمس الساحلي بخط الليمس الداخلي[36].

الحياة الدينية في بوماريا

ساعدت نقيشتان اكتشفتا في تلمسان على التعرف على الاسم الروماني للمدينة العتيقة ؛ كما تمت الإشارة إلى ذلك فيما سبق ؛ في نفس الوقت عرّفتنا بإله أعتبر محليا في البداية، وهو الإله أولسوة (Aulisua)، إذ جاء في النقيشة الأولى:

30 - Piesse (L). Tlemcen, Revue de l'Afrique française et des antiquités africaines, 1888, t, 6 , p, 157.

31 - يستعمل للدلالة على مجموعة بشرية تتمتع باستقلال ذاتي ، (Res publica)بلدة إن مصطلح)
Gascou (J) ,L'emploi du terme Respublica dans l'epigraphie latine africaine, M.E.F.R.A ,1979 , Vol ,91,1,p, 384.

32 - De Tugny (M) , Antiquités romaines de la subdivision de Tlemcen (Algérie), congrès archéologique de France , 22° session , 1855, p, 480.

33 - Marçais (G), 1950, p, 8 ; Mac Carthy, p, 348.

34 - De Tugny (M) , op cit, p, 480.

35 - Gsell (S). Atlas Archéologique d'Algérie , f, 31, n° 56.

36 - Massiera (P). La voie romaine de Pomaria a Siga(Takembrit, S.G.A.O., t, 68, 1947, pp, 124-125.

إلى الإله المقدس أولسوة فلافيوس كاسيوس قائد كتيبة الاستطلاعيين البوماريين	DEO SANCTO AULISUAE FL. CASSI ANUS PRAE FEC. ALAE EXPLORA TORUM POMARI ENSIUM

ونقرأ في النقيشة الثانية:

إلى الإله الذي لا يقهر أولسوة ////////// قائد جناح الاستطلاعيين البوماريين الغوردية ووكيل سيدنا العظيم	DEO INVICTO AULISUA ////////// ALAE EXPL. PO MA. GORDIA NAE ET PROC AUG. N

لقد اعتبر أولسوة في البداية إلها محليا، إذ لم يعثر عليه إلا في مدينة بوماريا وعين كيحل، لكن تغير الوضع بعد أن اكتشف مذبح ونصب له في مدينة وليلي (Volubilis) بموريطانيا الطنجية على بعد 400 كلم من بوماريا[37]، مما يعني أن هذا الإله لم يكن إلاها محليا بل إقليميا. وفي هذا الشأن نتسائل عن أسباب وجود عبادة هذا الأله في منطقتين متباعدتين، دون غيرهما من المناطق، فهل كان الانتقال من بوماريا إلى وليلي أم العكس؟

ولماذا لم يوجد له أي أثر في المنطقة الفاصلة بين المدينتين، وهي كبيرة نسبيا (400 كلم) ؟ إن هذه الأسئلة تبقى اليوم بدون إجابة في انتظار العثور على آثار تدل على عبادة هذا الإله في غرب بوماريا أم في شرقها.

وقد حاول بعض الباحثين ربط عبادة الإله أولسوة بشعب بافار(Bavare) الغرب،

37 - Brahimi, Najet (2008). Volubilis approche religieuse d'une cité de Maurétanie Tingitane (milieu du 1° siècle / fin du 3° siècle ap.J.C), thèse de doctorat, université du Maine, p 297.

الذي يعيش بين ضفتي وادي ملوشة، وشعب الباكوات (Baquate) الذي يستوطن في منطقة وليلي[38].

والآن نتسائل عن شكل هذا الإله واختصاصاته، فبالنسبة للنقطة الأولى، عثر في وليلي على نصب يبرز في واجهته اليسرى الإله أولسوة واقفا فوق مصطبة، يرتدي قميصا قصيرا بأكمام طويلة، يحمل في يده اليسرى هراوة، وفي يده اليمنى قصبتين، يظهر أنهما تحملان سنابل غير محددة النوعية، وفي واجهته اليمنى يظهر حصان وقصبتان طويلتان[39]. ونشاهد في نصب ثان له، كبشا أمام مذبح مع نقش جاء فيه : أولسوة العظيم المقدس (Aulisua Augusto sacrum).

لقد ساد الاعتقاد لمدة طويلة أن أتباع أولسوة ينحصرون في أفراد الجيش، بحيث انحصرت أولى النقوش المكتشفة المرتبطة به، في إهداءات جنود وحدة بوماريا، لكن الوضع تغير بعد اكتشاف نقيشة مدينة وليلي بموريطانيا الطنجية، وهي عبارة عن إهداء مواطن من طبقة العامة جاء فيها: " قدم فالريوس فيكتور معتوق تورنو إسكافي في اليوم الثاني عشر من كلاند شهر سبتمبر قربانا إلى الإله أولسوة".

إن النقيشة الأخيرة غيرت رأينا في أتباع الإله أولسوة، وأظهرت أن هؤلاء لا ينحصرون في الجنود كما كان الإعتقاد سائدا، بل ينتمون إلى مختلف فئات المجتمع، وهذا ما أكّده غابريال كامبس، بحيث اعتبر أن اتباع الآلهة المورية لا ينحصرون في فئة معينة أو طبقة محددة، فمنهم الرومان والموريين، المدنيين والعسكريين[40].

أما بشأن اختصاصات هذا الإله، فإن الباحث لونوار(Lenoir)، وبالاعتماد على إهداء إسكافي مدينة وليلي المحدد بتاريخ 21 أوت، الذي يقابل تاريخ الاحتفال بالإله الروماني كونسوس (Consus)، المكلف بحماية البذور والحبوب المخزنة[41]، والذي يقدم له أتباعه المحاصيل المبكرة كقربان، وبالاعتماد على صورة أولسوة ويهو يحمل في يده قصبتين تحملان سنابل، وعلى صورة الحصان التي تظهر في نصب وليلي، اعتبر أولسوة إلاها للخصوبة والإنتاج والضامن للمحصول الجيد[42]. إن هذا الرأي محتمل خاصة أن بوماريا تعتبر منطقة زراعية مثل وليلي، نظرا لما تتوفر عليه من تربة خصبة وثروة مائية معتبرة تساعد على تنشيط الحياة الزراعية.

38 - Camps, G. (1990). Qui sont les dii mauri, Antiquités africaines, t. 26, p 13.

39 - Lenoir, M. (1985). Aulisua dieu maure de la fécondité, Africa Romana, p 296.

40 - L'inscription de Béja, p 240.

41 - Schmidt, Joël (1965). Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine, éd. Larousse, p 82, Paris.

42 - Yahiaoui, N. Les confins occidentaux de la Mauretanie cesarienne, p 100.

إلى جانب أولسوة وجدت في غرب موريطانيا القيصرية آلهة أخرى، احتفظت بأصالتها ولم تترومن ولذلك عرفت بالآلهة المورية (Dii mauri) [43] من بينها الإله أبادير (Abbadir) وأوزيوس (Auzius)، وكنافاري (Canapphari) وشالماك(Chalimace) وغورزيل(Gurzil)... التي مثلها مثل أولسوة عبدت من طرف الأهالي والرومان في نفس الوقت، وخاصة العسكريين منهم، الذين لم يكونوا يترددون في التوجه بالدعوات وتقديم القرابين إلى آلهة الشعوب التي يحاربونها لكسب حمايتها وضمان دعمها لهم لكسب الانتصارات[44]، لا سيما أن تعدد العبادات لدى السكان الأوائل كان ظاهرة عادية، وخاصة بالنسبة لسكان المناطق الخطرة مثل المدن الواقعة على خط الليمس، ومنها بوماريا وهذا لتدعيم حظوظهم في كسب الحماية من الأخطار المحدقة بهم[45].

وفي الأخير نستخلص من وجود الإله أولسوة، والآلهة المورية الأخرى مثل غورزيل (Gurzil) وباكاكس (Bacax)[46]، أن الآلهة المورية احتفظت بإفريقيتها من حيث التسمية، وبعدم اندماجها في زمرة الآلهة الرومانية (Pantheon)، مما حدى بالمؤرخين إلى إدراجها في قائمة الآلهة المورية (Dii mauri) الغير قابلة للرومنة[47].

ويظهر أن الديانات الوثنية استمرت منتشرة في غرب موريطانيا القيصرية حتى القرن الرابع ميلادي، حيث تأخر وصول المسيحية إليها، إذ لم تظهر آثارها إلا ابتداء من نهاية القرن الثالث ميلادي وبشكل محدود جدا، فأقدم النقوش الجنائزية المسيحية المكتشفة في منطقة الأندلسيات (Castra puerorum) تعود إلى سنة 289 م.، وفي مدينة أربال (Regia) إلى سنة 295 م. وفي مدينة ألتافا (Altava) (أولاد ميمون) إلى سنة 301 م. وفي مدينة نومروس سروروم (Numerus syrorum) (مغنية) إلى سنة 344 م. وفي بوماريا إلى سنتي 372/373 م[48]. ويمكن تفسير هذا الوضع ببطء انتقال العقيدة الجديدة من شرق المغرب إلى جزءه الغربي، وما يؤكد هذا البطء أن عدد أسقفيات غرب موريطانيا القيصرية لم

43 - Camps, G. (1990). Qui sont Les dii mauri ,Antiquités Africaines, vol.26, p 132.

44 - Camps, G. L'inscription de Beja, p 257.

45 - Ibid.

46 - El Ouazghani, Abderrahmane (2005). El mundo indigena y Roma en el Marruvecos antiquo, La religion durante los periodos preromano y romano, Granada, p 309.

47 - Camps, G. (1954). L'inscription de Beja et le probléme de Dii mauri, revue africaine n°, 98, p 253.

48 - Fevrier, P. A. Aux origines du christianisme en Mauretanie Cesarienne, Mélanges Ecole Française de Rome.

يتجاوز الخمسة عشر في بداية القرن الخامس[49]. لكن الأمور تغيرت بعد الغزو الوندالي لبلاد المغرب القديم، وسيطرته على شرق موريطانيا القيصرية ونوميديا وإفريقية البروقنصلية، إذ ارتفع عدد النقوش الجنائزية المسيحية بشكل ملفت للإنتباه، ففي سنة 549 بلغ عددها في بوماريا وحدها 651 نقيشة[50]، وتفسير هذا يعود إلى تحول مدن غرب موريطانيا القيصرية إلى ملاذ لمسيحيي إفريقية البروقنصلية ونوميديا، الفارين من اضطهاد الوندال الأريوسيين، خاصة في عهد الملك هونريك.

وقد ساعد لجوء المسيحيين إلى بوماريا على تأسيس أسقفية، مثلها رئيسها المدعو لوجنوس (Longinus) في مجمع قرطاجة لسنة 484 م، وهو الذي تعرض للنفي من طرف الملك الوندالي هونريك بسبب مواقفه المعارضة للأريوسية، صحبة العشرات من الأساقفة الكاتوليك الآخرين[51].

ويظهر أن انتشار المسيحية بغرب موريطانيا القيصرية لم يقض على العادات والتقاليد الوثنية إذ مزجت النقوش الجنائزية التي عثر عليها في بوماريا وبعض المدن القريبة منها، مثل ألتافا (Altava) ونومروس سيرورم (Numerus syrorum) وسوفار (Sufar) بين الوثنية والمسيحية، مما عرضها للنقد من طرف الكثير من المسيحيين في ذلك الوقت، حيث تبدأ بالتقرب إلى أرواح الموتى الأوائل (Diis Manibus Sacrum)[52]، وهي صيغة وثنية رومانية قديمة وهذا ما أثار أمتعاض القديس أوغسطين، الذي اعتبرها عملا وثنيا يجب التخلي عنه[53]. لكن يمكننا إعادة استعمال الموريين ومن جاورهم من الرومان هذه الصيغة إلى عدم تنصرهم بشكل كلي، لذلك احتفظوا بطقوسهم وتقاليدهم الوثنية.

نهاية النفوذ الروماني في بوماريا

عرفت الامبراطورية الرومانية ابتداء من منتصف القرن الثالث ميلادي أزمة سياسية حادة، بسبب الصراع على السلطة، وتدخل الجيش في تعيين من يراه مناسبا لخدمة مصالحه وليس مصالح الدولة الرومانية، ونتج عن هذا الوضع

49 - Notitia provinciarum et civitatum africae, www.documentacatholicaomnia.eu;
- Courtois, C. Les vandales et l'Afrique, p, 92.
- ورد في قائمة المقاطعات والمدن الإفريقية أسماء أبرشة غرب مقاطعة موريطانيا القيصرية، وهي كالتالي: لار كاستلوس (Lar Castellum)، كارتناي (Cartennae) (تنس)، كيزة (Quiza) تيغافا مونكيبوم (Tigava municipium) (الخربة)، كاستلوم تنجتانوم (Castellumtingitanum) (الشلف)، جبساريا (Gypsaria) ألا ملاريا (Ala Miliaria) (بنيان)، أكواي سرانسس (AquaeSirenses) (حمام بوحنفية)، نومروس سيروروم (Numerus syrorum) (مغنية).

50 - Fevrier, P.A., op. cit., p 778.

51 - Courtois Ch., op. cit., p 297.

52 - Ibid, p 784.

53 - Contre Fauste, trad. Sous la direction de M. Raulx, Bon le Duc, 1896, XX, 21.

أن تراجعت هيبتها في المقاطعات، وقد استمرت الفوضى منتشرة حتى وصول ديوقلسيانوس إلى العرش، وقد أدخل إصلاحات عميقة على السياسة الرومانية، ومنها التخلي عن كل المناطق الخطرة، خاصة تلك التي تقع على خط الليمس، والاحتفاظ فقط بالمناطق الخصبة، والتي يمكن الدفاع عنها وحمايتها بسهولة، ومن المناطق التي يظهر أن السلطة الرومانية انسحبت منها، غرب مقاطعة موريطانيا القيصرية، بما فيها مدينة بوماريا، وتبع ذلك تراجع مظاهر الحضارة الرومانية، وعودة الثقافة المورية والعادات والتقاليد المحلية، وزاد هذا الوضع تطورا مع الغزو الوندالي، حيث دخلت منطقة غرب موريطانيا القيصرية في مرحلة لا نعرف عنها الشيئ الكثير، حتى أن كريستيان كورتوا أطلق عليها" مرحلة الظلام الدامس"[54]، بسبب عدم توفر أي معلومات عنها.

يظهر أن بوماريا خضعت ؛ بعد انسحاب السلطة الرومانية منها ؛ إلى حكم زعماء موريين محليين، نجهل كل شيئ عنهم، واستمر الوضع على حاله حتى الغزو الوندالي سنة 429. وتدل المعطيات إن الملك الوندالي جنسريك انطلق من طريفة (Julia traducta) بجنوب إسبانيا ونزل بمدينة طنجة، ومنها توجه نحو نوميديا وإفريقية البروقنصلية في الشرق. وقد اختلف المؤرخون حول الطريق التي سلكها للوصول إلى هدفه، فالبعض يرى أنه سلك الطريق البحري، في حين يرى البعض الآخر أنه اتبع الطريق البري، لكن يبقى الطريق الأول غير مؤكد لبعض الأسباب، منها أن الوندال لم يملكوا أسطولا بحريا يستطيع أن يحمل الأعداد الكبيرة منهم. وثانيا أن الوندال لا يملكون خبرة واسعة في شؤون البحر، بالاضافة إلى ذلك، نعرف أن وجهة الوندال كانت المقاطعات الشرقية للمغرب القديم، فلو اتبعوا الطريق البحري لنزلوا في موانئ نوميديا أو إفريقية البروقنصلية، ليكونوا قريبين من هدفهم.

إن الأسباب سالفة الذكر تجعلنا نميل إلى سلوك الوندال الطريق البري، إذ نعتقد أنهم، بعد نزولهم بطنجة توجهوا نحو الشرق عبر ممر تازة في اتجاه نوميديا عبر مدن موريطانيا القيصرية، وبما أننا متأكدين من مرورهم بمدينة ألتافا، التي وصلوها بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من نزولهم بسواحل موريطانيا الطنجية[55]، لا نستبعد عبورهم مدينة بوماريا، التي لم يستقروا بها، إذ واصلوا طريقهم في اتجاه الشرق، حيث وصلوا إلى مدينة هيبون (عنابة) بين شهري ماي وجوان من سنة 430.

لقد عرفت موريطانيا القيصرية، خاصة الغربية منها تطورا سياسيا مهما بعد الغزو الوندالي لها تمثل في بروز كيانات سياسية تحولت في وقت قصير إلى ممالك مورية ونوميدية منها مملكة إيوداس (Iaudas) في الأوراس ومملكة كوتزينا

54 - Ibid, p, 162.

55 - Ibid , p, 162.

(Coutsina) بجنوب نوميديا ومملكة أنتلاس (Antalas) بجنوب شرق مقاطعة البيزاسوم، ومملكة تشمل الغرب الوهراني بغرب مقاطعة موريطانيا القيصرية، كان على رأسها الملك مازونا(Masuna)[56]، وهو ما تؤكده نقيشة عثر عليها في مدينة ألتافا جاء فيها:

" من أجل سلامة وأمن مازونا ملك شعب المور والرومان وبأمر منه شيدت هذه القلعة على يد مسيغفين (Masigivin) حاكم صفار وإيدير (Lidir) وكيل قلعة سفريانا(Severiana) وأكمل أنجازها ماكسموس (Maximus) وكيل ألتافا	Pro sal(ute) et incol(umitate) reg(is) Masunae gent(ium)/ Maur(orum) et pr(a)ef(ectu) de safar(?) Lider proc(uratore) cast(ra) severian(a) quem Masuna altava posuit / etMaxim(us) proc(urator) Alt(avae) perfec(it) (anno) PP(rovinciarum)(?) CCCCLXVIIII

يبرز من هذه النقيشة أن منطقة غرب موريطانيا القيصرية خرجت من السيطرة الرومانية، ولم تخضع للحكم الوندالي، بل خضعت لحاكم موري فرض سيادته على كل سكان الإقليم من موريين ورومان، وهو الوضع الذي استمر حتى الفتح الاسلامي، لأن البيزنطيين لم ينجحوا في فرض سيادتهم على كل أراضي المغرب القديم، بعد طردهم للوندال من المنطقة، إذ بقيت الجهات الغربية منه خارجة عن نفوذهم.

نستنتج مما سبق أن التاريخ القديم لمدينة تلمسان وكثير من مدن غرب الجزائر(موريطانيا القيصرية) يبقى محفوفا بالغموض، لعدم اهتمام المؤرخين والجغرافيين الكلاسكيين بهذه المنطقة، لأسباب سياسية وطبيعية وبشرية، كما أن استمرار الحياة في نفس المراكز تسبب في اختفاء الآثار المادية التي قد تساعد على نفض الغبار على تاريخ هذه الأماكن. لكن المؤكد أن تاريخ المنطقة عريق

---

56 - Camps (G). Rex gentium maurorum et romanorum , Recherches sur les royaumes de Maurétanie des VI° et VII° siècle, Antiquités africaines, t.20, 1984 , p, 183.

لقد اختلف المؤرخون في تسمية هذه المملكة، فمنهم من أطلق عليها اسم مملكة ألتافا نسبة للمدينة التي عثر فيها على النقيشة التي تذكر الملك، لم مازونا (IIIV.L.I.C, 5389). بينما أطلق عليها كريستيان كورتوا اسم المملكة الوهرانية Courtois (Ch) , op cit , p, 333, note, 9

ينحصر الاختلاف حول الاسم بل شمل كذلك حدودها، فالبعض أوصل حدودها الغربية حتى مدينة وليلي بموريطانيا الطنجية، Carcopino (J), Le Maroc antique , 2° edition 1948, p, 294;

وفي الشرق مدّت حدودها حتى منطقة الأوراس، و قد اعتمد أصحاب هذا الرأي على ما ذكره بروكيبوس II, 13,19 في مؤلفه " حرب الوندال ضد ملك الأوراس إيوداس (Ortaias) مع القائد أورتياس (Mephanias)ابن مفانياس ((Massonas) من تحالف قائد موري يدعى ماسونا لإتهامه بقتل والده مفنياس، وبالتالي وقع ربط الملك الموري مازونا باسم ماسوناس الذي يظهر أنه كان يحكم منطقة قريبة من الأوراس،

Procope, Guerre des vandales, II, 13,20.

يعود إلى ما قبل التاريخ، وهذا ما دلتنا عليه الأدوات الحجرية التي عثر عليها في ضواحي تلمسان كما لا نعتقد أن مكانا بقدراته الاقتصادية الزراعية الواسعة من جهة والاستراتيجية من جهة أخرى لم يجلب اهتمام الإنسان، مثل صفاقس ملك نوميديا الغربية وبوخوس ملك موريطانيا...

أما من الناحية الاجتماعية والدينية، فنعتقد أن معظم سكان المدينة ومحيطها كانوا من الموريين، وأن الرومان لم يفدوا عليها بكثرة، نظرا لصعوبة تضاريسها من جهة، ولبعدها عن المراكز الرومانية الكبرى في المغرب القديم كقرطاجة وكيرتا والقيصرية، من جهة أخرى، وكذلك لانعدام الأمن بسبب التهديدات المستمرة التي كانت تكونها القبائل المتنقلة بجوار خط الليمس، مثل البافاريين، مما نتج عنه تأخر وصول المبشرين المسحيين إليها، وهذا ساعد على محافظة الموريين لتقاليدهم الموروثة، والرومان الذين يعيشون بجوارهم على ثقافتهم الوثنية، وهو ما تجلى من كثرة النقوش الجنائزية التي استمرت تحمل الصفات الوثنية. كما أن وقوعها في أقصى الغرب هو الذي سمح لها بأن تتحرر من الاحتلال الروماني دون أن تسقط حتى السيطرة الوندالية قبل غيرها من المناطق الأخرى.

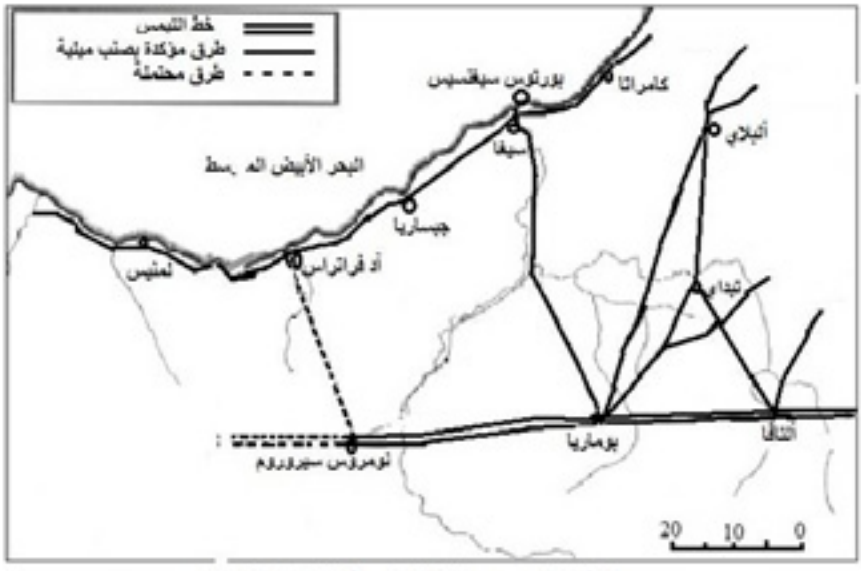

طرقات غرب موريطانيا القيصرية في العهد الروماني ،

Yahiaoui (N), Les confins de la Mauretanie Cesarienne, p, 176

مخطط لمركز الكتيبة الاستطلاعية لمدينة بوماريا حسب جوزيف كنار

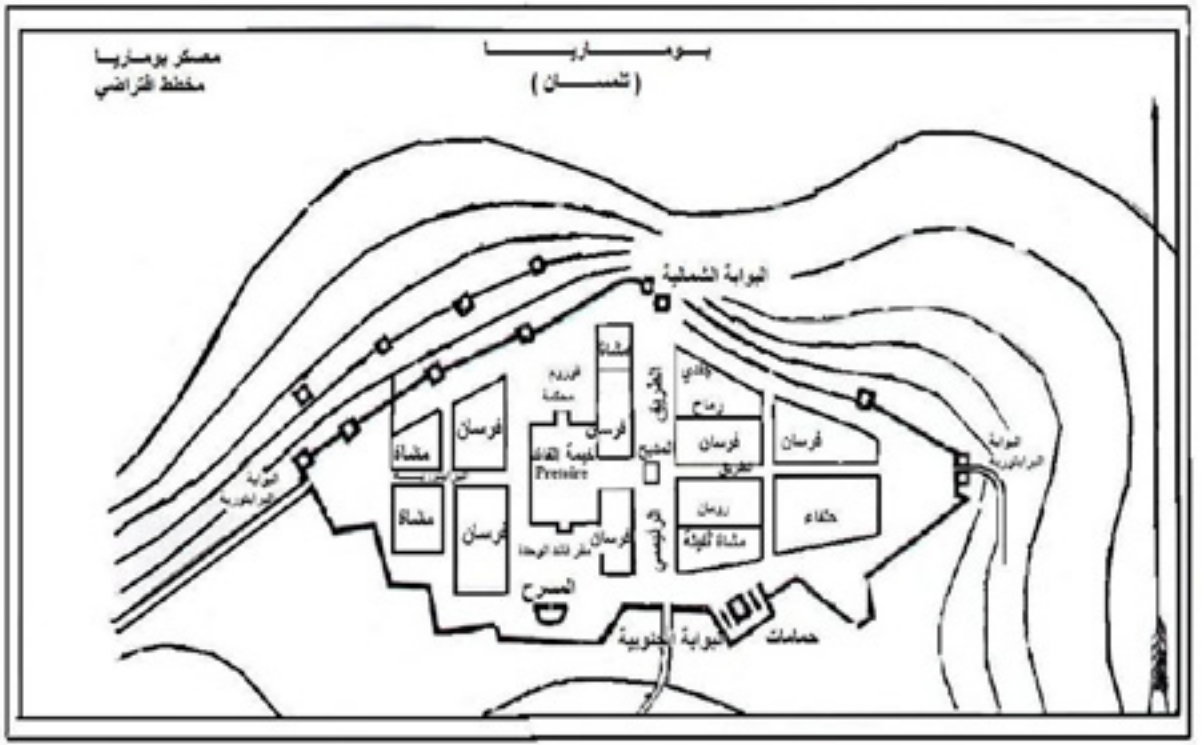

مخطط مركز الكتيبة الاستطلاعية لمدينة بوماريا حسب جوزيف كنار

Ghomari(Fouad), La Medina de Tlemcen, l’heritage de l’histoire , 2007, p,13

شعوب غرب موريطانيا القيصرية حسب ما ورد في كتاب " الجغرافيا " لبطلميوس[1]

قبائل غرب مقاطعة موريطانيا القيصرية

Yahiaoui(Nora), Le confins occidentaux de la Mauretanie Cesarienne, p. 170

المراجع

1 - شنيتي، محمد البشير(1999). الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري، الليمس الموريطاني ومقاومة المور، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

2 - القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (1848). آثار البلاد و أخبار العباد، تصنيف، مصر.

3 - ابن خلدون، عبد الرحمان(2007). كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 4،

1- Laporte, J.P. (2003). Ptolemée et la Maurétanie Cesarienne. C.R.A.I., vol, 147, 1, p 181.

الجزائر.
4 – الظاهري، عبد الباسط (1467). مشاهدات وأخبار في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، الجزء الأول، الورقة à تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الجامعة اللبنانية، بيروت.
5 – أبو عبيد، البكري. المغرب في ذكر بلاد إفريقية و الغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد.

6 - Saint Augustin, Contre Fauste (1896). Notitia provinciarum et civitatum africae, trad. sous la direction de M. Raulx, Bon le Duc, www.documentacatholicaomnia.eu.
7 - Denis, Roques (1990). Procope, Guerre des vandales, II. éd. les belles lettres, Paris.
8 - Corpus Inscriptionum Latinarum (1881). l'Afrique romaine. t. VIII, Berlin.
9 - Aumassip, Ginette (2001). L'abbé Barges (J.J.) : Tlemcen. Journal asiatique, l'Algérie des 1erhommes, 3èmesemestre, t. XI, 1841.
10 - Barbin, (1910). Bulletin d'Oran.
11 - Benseddik, N. (s.d). Les troupes auxiliaires de l'armée romaine en Maurétanie Césarienne sous le haut empire. éd. SNED, Alger.
12 - Brahimi, Najet (2008). Volubilis approche religieuse d'une cité de Maurétanie Tingitane : milieu du 1er siècle/fin du 3ème siècle (ap.J.C). thèse de doctorat, janvier, université du Maine.
13 - Cagnat, R. (1892). L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs. Paris.
14 - Camps, G. (1990). Qui sont les dii mauri, Antiquités africaines, t. 26.
15 - Camps, G. (1954). L'inscription de Beja et le problème de Dii mauri. revue africaine n°.98.
16- Camps, G. (1984). Rex gentium maurorum et romanorum : Recherches sur les royaumes de Maurétanie des VIème et VIIème siècle. Antiquités africaines, t.20.
17 - Carcopino, J. (1948). Le Maroc antique, 2ème éd.
18 - Carcopino, J. (1940). La fin du Maroc romain : Mel. archéologie et histoire, v. 57.
19 - Claude, Briand-Ponsart (2005). Identité et culture dans l'Algérie antique : le Havre.
20 - Courtois, Ch. (1955). Les Vandales et l'Afrique. éd. du gouvernement Général de l'Algérie, direction de l'intérieur et des Beaux-arts, service des antiquités, arts et métiers graphiques, Paris.
21 - Fevrier, P. A. Aux origines du christianisme en Maurétanie

Césarienne, Mélanges Ecole Française de Rome.
22 - Gascou, J. (1979). L'emploi du terme Respublica dans l'épigraphie latine africaine. éd. E.F.R.A, vol. 91.
23 - Ghomari, Fouad (2007). La medina de Tlemcen : l'heritage de l'histoire.
24 - Gsell, S. (1997). Atlas Archéologique d'Algérie. 2ème éd., Alger.
25 - Gsell, S. (1979). Histoire ancienne de l'Afrique du nord. Onsabruck, t. I.
26 - Laporte, J. P. (2003). Ptolémée et la Maurétanie Césarienne. C.R.A.I. v.147, 1ère année.
27 - Lenoir, M. (1985). Aulisua dieu maure de la fécondité, Africa Romana.
28 - Mac-Carthy, O. (1856). Algeria Romana : recherches sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les romains subdivision de Tlemcen. R.Af. n° 1.
29 - Mac-Carthy, J. Voyage dans la régence d'Alger. trad. de l'anglais par Tunis.
30 - Marçais, G. (1950) Tlemcen : les villes d'art célèbres, éd. H. Laurens, Paris.
31 - Marmol, y. carvajal, (1667). L'Afrique. trad. Nicolet Perrot, éd. L. Billaine, Paris.
32 - M. de la Martiniere, Bulletin archéologique, 1912.
33 - Massiera, P. (1947). La voie romaine de Pomaria a Siga : Takembrit. éd. B.S.G.A.O., t. 68.
34 - El-Ouazghani, Abderrahmane (2005). El mundo indigena y Roma en el Marruvecos antiquo : la religion durante, los periodos preromano y romano. Granada.
35 - Pallary, P. (1895). Recherches palethnologiques effectuées aux environs d'Ouzidan. bulletin de la société d'anthropologie de Paris, IVème série t. 6.
36 - Piesse, L. (1888). Tlemcen. revue de l'Afrique française et des antiquités africaines, t.6.
37- Le commandant de Pimodan (1902). Oran, Tlemcen sud oranais 1889-1900, Paris.
38 - De Tugny, M. (1855). Antiquités romaines de la subdivision de Tlemcen, Algérie. congrès archéologique de France, 22ème session.
39 - Schmidt, Joël (1965).Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine, edition Larousse, Paris.
40 - Yahiaoui, Nora (2003). Les confins de la Maurétanie césarienne occidentale, thèse de doctorat.

التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان
من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي
(دراسة ميدانية)

د. سيدي محمد نقادي
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان–الجزائر

ملخص

إن هذا المقال هو نتيجة لعمل ميداني حول مدينة تلمسان، نضج خلال مدة طويلة من الزمن. ويبقى الهدف هو تبيان بأن :

1 – النسيج الحضري لـ "مدينة" مثل تلمسان يعتبر هو نتيجة التطابق بين الوظائف المختلفة التي تجعل تجمع سكاني يتحول إلى مدينة، حيث العلاقات بين سكانها تعكس الرغبة في العيش معا. إن هذه الحالة من علاقات بين السكان ورغبة هؤلاء في العيش معا جعلت مدينة تلمسان تساهم بفعالية في تكوين المجتمع المدني.

2 – إن تصميم المدينة الأصلي يهدف إلى الاستجابة إلى مطالب الحياة اليومية للفرد، الاقتصادية منها والثقافية وهذا ما نلاحظه عموما في المدينة المغاربية.

3 – إن المدينة ليست عبارة عن جمع مجموعة من التجمعات أو الأحياء وهذا بحكم الضرورة التي تستوجب عليهم العيش معا من أجل خلق علاقات مصلحية ؛ إنما المدينة هي في الأساس إنعكاس لمستوى حضاري وهذا ما نلاحظه في مدينة تلمسان.

الكلمات الدالة: عمران ، مدينة ، التطور، مجتمع مدني.

مقدمة

تسعى هذه الدراسة الميدانية حول التهيئة العمرانية لمدينة تلمسان خلال الفترة التاريخية الممتدة من تأسيس أغادير سنة 1079 م على يد يوسف بن تاشفين المرابطي إلى السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للمدينة إلى تحقيق ثلاثة أهداف أساسية هي:

1 - توضيح سياسة التعمير المعتمدة في مدينة تلمسان ومتابعة تطور العمارة عبر الزمان

2 - إبراز مكانة الجانب الروحي في هيكلة العمارة

3 - التأكيد على أن الهندسة المعمارية هي في حدّ ذاتها قيمة اجتماعية للهندسة المعمارية.

لتحقيق هذه الأهداف ينبغي علينا أن ضبط مفهوم الهندسة المعمارية: فهي تفيد عموما، فن البناء والإبداع، وخصوصا فهي تعبير خالص لمستوى حضاري للمجتمع الذي تبناها. لقد طورت كل حضارة نموذجا معماريا ميزها عن الحضارات المجاورة، ومن خلال مقاربة تحليلية ونقدية، مقارنة لفنّ العمارة يمكن تحديد المستوى الحضاري الذي حققته الجماعة المستغلة للنموذج الذي نحن بصدد عرضه. فإن تمكنّا خلال عرضنا من إثبات أن للقيم الاجتماعية دور في تحديد ملامح العمارة، تصير سياسة التعمير مرجعا قيميا وبالتالي تصير الهندسة المعمارية الإسلامية من الجماليات المتوجة لفن الحياة.

أولا: التصميم العمراني لمدينة تلمسان :

يتم تقديم التصميم العمراني لمدينة تلمسان من خلال :

1 - الموقع وأهميته
2 - تطور النيسج العمراني
3 - مميزات النسيج العمراني

نقدم من خلال الشكل (1) مخطط توضيحي يبرز مقطع شمال جنوب المدينة في سنة 806 م.

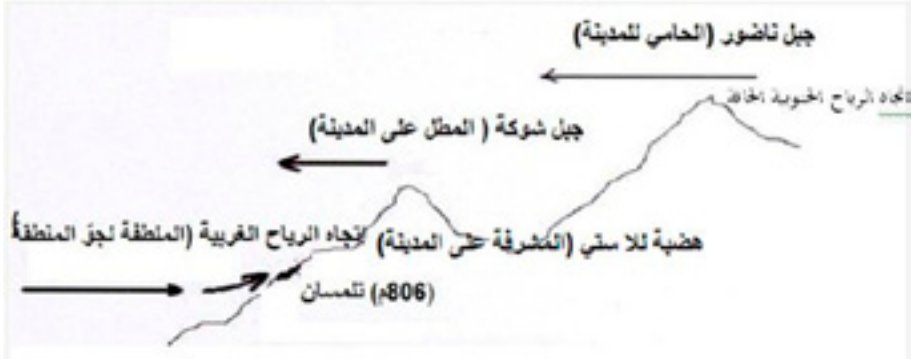

الشكل (1): مقطع شمال/ جنوب يبرز التضاريس

1. موقع المدينة وأهميته

تتجلى أهمية المدينة في كونها تتربع على السفح الشمالي من جبال سلسلة الأطلس التلّي، يرتفع موقعها بثماني مائة وستة أمتار (806 م) على مستوى سطح البحر. يحميها جبل شوكة، الذي تتكئ عليه من الرياح الجافة والحارة المحملة بالرمال الناتجة عن المناطق الجنوبية والسهبية، وفي الوقت نفسه فهي تستقبل الرياح الغربية المحملة بالرطوبة التي تلطف الجوّ وتضمن لها نسبة

معتبرة من التساقط (بين 600 - 700 مم/سنويا) وهي نسبة كافية لضمان غطاء نباتي كثيف ومتنوع مكّن السهل الذي تشرف عليه المدينة من إنتاج وافر للعديد من المحاصيل. ومن ناحية أخرى فإن الصخور المكونة للمنطقة (صخور مسامية) سمحت بتسرب المياه في جوف الأرض، فكثرت العيون والينابيع حول وداخل المدينة وفّرت هذه الظاهرة منسوبا معتبرا من المياه الصالحة للشرب وسقي البساتين، كما أن موقعها المحصن طبيعيا، رفع من قدراتها الدفاعية مما جعلها تصمد أمام حصار المرينيين لأزيد من ثماني سنين (من 1299إلى 1307)، وهو أطول حصار عرفته مدينة متوسطية خلال العصور الوسطى.[1]

إن هذه الوضعية المتميزة جعلت زوّارها يعجبون بموقعها الفريد، وبمناخها اللطيف وهوائها النقي ومائها العذب؛ إنها المدينة التي تسرّ الناظر وتشرح صدره وترفع قدره. إنها العروس على سفح جبل داخل صدفة مخضرة... نهيك عن المنظوم والمنثور فيها.[2]

2. تطور النسيج العمراني : (من الفترة المرابطية إلى بداية الاستعمار الفرنسي)

يوضح لنا الشكل (2) أهم فترات تعمير مدينة تلمسان

الشكل (2): مخطط يبرز فترات تعمير المدينة (تقرارت/تلمسان)

– عند دخول يوسف بن تاشفين المرابطي أقادير سنة 1079 م، ونظرا للعداء

1 - بن خلدون، يحي. بغية الرواد. ج 1، ص 125.
- انظر أيضا: تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الجليل التنسي ص 133.

2 - نحيل القارئ إلى قصائد الشاعر الفيلسوف محمد بن عمر بن خميس، ولسان الدين بن الخطيب، وما نظمه ابن مرزوق الكفيف، وأبي جمعة التلالسي، شاعر وطبيب أبي حمو موسى.

المزمن بين قبائل صنهاجة وزناتة، تبنى ابن تاشفين في الجهة الجنوبية الغربية من أقادير حيا سكنيا يأوي فيه أشراف المرابطين من قبيل صنهاجة. وأطلق على هذا الحي السكني الجديد اسم "تاقرارت" الذي سيكون نواة لمدينة تلمسان. الرقعة (I) من المخطط.

يمكن القول على هذا المستوى بأن مدينة تلمسان ستنشأ من حيّ سكني ولم تكن النشأة من تصور عام لهيكلة إجمالية للمدينة. تطور الحي السكني بسرعة إلى حي تجاري استحوذ على مقر الولاية ابتداء من الفترة المرابطية. الرقعة (II) من المخطط

– في عهد الموحدين (1147 - 1235 م)، توسعت رقعة المدينة من جهة الجنوب الشرقي مع احتفاظها بمقر الولاية. وعند ظهور خطر بني غانية الميورقيين الموالين للمرابطين، أعيد تحصين المدينة حتى صارت على حدّ تعبير عبد الرحمن بن خلدون "أمنع أمصار المغرب". أول مرة سميت فيه تلمسان بهذا الإسم كان في نهاية عهد الموحدين. الرقعة (III) من المخطط.

– مع تأسيس الدولة الزيانية سنة 1236م، رفع يغمراسن من شأن المدينة باتخاذها عاصمة لدولته في المغرب الأوسط، لذا وسع رقعتها من الناحية الشرقية تحسبا لاستقبال العائلات الأندلسية (تعمير المنطقة الموجودة بين المشور وحي الرحيبة). الرقعة (IV) من المخطط

– في سنة 1286م قام السلطان عثمان بن يغمراسن بعقد معاهدة تجارية مع مملكة أرغون تسمح بتشييد القيسارية بالحي التجاري المحاذي لمركز المدينة وغير بعيد عن المسجد الكبير. هذه العملية حفزت الجمهوريات المسيحية على التنافس على تشييد فنادق أخرى داخل المدينة.[3]

– ابتداء من 1307 م وبعد الحصار الطويل فرضت تلمسان نفسها كأهم مركز تجاري في طريق الذهب، مع زيادة ازدهار المدينة اقتصاديا وعمرانيا، إذْ قام أبو حمو موسى الأول بالتهيئة العمرانية للجهة الغربية من المدينة مع تخصيص الجزء الشمالي لقبائل الرحل، أما الجزء الجنوبي فقدمه للقبائل المستقرة من الجهات الشرقية للبلاد، وبالجزء الجنوبي شيّد أولى مدارس تلمسان.

– في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، ولما نجح البرتغاليون في تغيير طريق الذهب نحو المحيط الأطلسي، تعطل نشاط ساحة القوافل بمركز المدينة. تحتم إذاً على السلطة المركزية إيجاد حل لإنعاش اقتصاد المدينة المتضرر من نضوب معين الطريق الصحراوي. فالحل الذي اعتمدته السلطة تجسد في تعمير ساحة القوافل بالجالية اليهودية : فتمّ للمدينة استقطاب الأطباء (حتى صارت تلمسان عاصمة الطب بالمغرب الكبير)، والصناع المهرة في الحلي وفي ترصيع المعادن.

3 - Atallah, Dhina. Le royaume Abdalwadide, p.206.

فإن تمكنت المدينة نسبيا من الحفاظ عن نشاطها الاقتصادي، فإنها المدينة الوحيدة في الغرب الإسلامي التي سمحت للجالية اليهودية من السكن بمركزها.
ويمكن الإشارة على هذا المستوى أن الشرط الوحيد الذي وضع لهيكلة الحي اليهودي كمُنَ في الظاهر في تطبيق نص فقهي مفاده أن منازل اليهود تكون أقل ارتفاعا من مساكن المسلمين (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه). فتحايل البناؤون اليهود – وعلى الرغم من أن الحي يوجد في منطقة يرتفع فيها المستوى العلوي للمياه الجوفية إلى أن يقترب من السطح (Le niveau supérieur de la nappe phréatique est à moins de 3m) من تشييد حيّهم باحترام قواعد البناء بالنسبة لحجم الغرف من حيث ارتفاعها مع تجنب تسرب للمياه إلى المنازل. هو أمر لا زال يثير في الوقت الراهن حيرة المهندسين المعماريين.
– في أواسط القرن السادس عشر، يكتمل النسيج العمراني للمدينة من قبل العثمانيين الذين أعادوا استغلال الجزء الشمال الغربي من المدينة (حي باب الحديد) مع إعادة الإعتبار لضواحي المدينة (الحرطون، كدية العشاق وغرس الباي)، إلا أن المدينة بفقدانها مكانتها السياسية، ستضيّع أيضا مكانتها الاقتصادية، نتيجة اهتمام السلطة بأمور البحر، وبالتالي لم يطرأ الجديد في النسيج العمراني. رغم هذا ستحتفظ المدينة بمكانتها الثقافية.
عند احتلال المدينة سنة 1842، أدخلت السلطات العسكرية تغييرات جدرية على عمران تلمسان مستهدفة مقوماتها الأمية، فإخترقت الأحياء السكنية ودمرت المعالم الحضارية من مدارس ومساجد بدعوى تحديث النسيج العمراني. أما الأمر الذي أدّى إلى تحطيم البنية التحتية للتهيئة العمرانية القديمة كل هذا تجسد في سياسة توسيع الشوارع وسياسة نزع الملكية، من الإسكان[4]. نتج عن كل هذا زعزعة نسقية للمظهر العمراني، وانمحت بالتالي وظيفتا اتخاذ القرار والاقتصاد، ومن ثم صارت المدينة تدريجيا لا تفي بحاجات سكانها الذين تخلوا عنها فتسارع تدهورها.

3 . خصوصيات التعمير بمدينة تلمسان

– هي المدينة المغربية الوحيدة التي تكونت انطلاقا من حي سكني، رغم ذلك تمكنت نتيجة موقعها ونشاطها الاقتصادي من استكمال نمو عمرانها بكيفية مميزة. وكمثال عن ذلك لم يكن المسجد الكبير يتوسط المدينة، لكن التعمير التدريجي جعل منه نقلة محورية في مختلف أنشطة المدينة بمركز المدينة.
– المدينة المتوسطية التي تعرضت مرارا إلى الغزو والمحاصرة، وعدّ ابن مرزوق الخطيب في أواسط القرن الرابع عشر ثمانية وعشرين حصارا ومع نهاية القرن

4 - Lecoq, André. Tlemcen ville Française p. 158.

الخامس عشر وصل عدد الحصارات إلى ستة وثلاثين أما في عهد الأمير عبد القادر ففاق العدد الأربعين حصارا.

– لا تتجاوز المساحة الكلية للمدينة ثلاثة وأربعين هكتارا، فهي أصغر عاصمة بالغرب الإسلامي، إلا أن عدد سكانها مطلع القرن السادس عشر زاد عن مائة ألف نسمة؛ وبتعبير آخر نسبة الكثافة بالمنازل كانت عالية جداً...دون الشعور بالاكتظاظ.

– هي المدينة الوحيدة التي سمحت للجالية اليهودية من الاستقرار بمركز المدينة.[5]

إن أهمية الموقع وحيوية نشاطها التجاري والحرفي تسببا لها في محن كثيرة وعرضاها لمخاطر كادت أن تزيلها من الخريطة السياسية.

–كل هذه الخصائص التي ميزتها عن المدن المغربية، يُبْطل كل المحاولات الساعية في مقارنة نسيجها مع نسيج المدن والعواصم المغربية الأخرى.

ثانيا: هيكلة المدينة وتنظيمها الوظيفي

إن التفسير الوظيفي للنسيج العمراني لمدينة تلمسان نقدمه من خلال الوظائف الأساسية الثلاثة وهي وظيفية اتخاذ القرارات ووظيفة النشاط التجاري والحرفي ووظيفة الإسكان. [6]

1. **وظيفة اتخاذ القرارات:** تعتبر هذه الوظيفة مصدر السلطة وفي الحي المركزي للمدينة يوجد مقر السلطة المركزية أو اللامركزية بالإضافة إلى المسجد الجامع ومقر القاضي.

2. **وظيفة النشاط التجاري والحرفي:** إن هذا النشاط يحيط بالحي المركزي وينقسم إلى جزأين، الأول يُحاذي الحي المركزي، يتكون من أسواق عمومية وفنادق خاصة بالأجانب. ويتكون الجزء الثاني ضم الحرفيين. ونتيجة محاذاته للحي السكني فهو يحتوي أيضا على أزقة غير نافذة خصصت للسكن.وعلى هذا الأساس عُدَّ هذا الجزء بحيّ انتقاليا.

3. **وظيفة الإسكان:** يحيط الحي السكني بالحي الحرفي ويعد في مجمله أوسع الأحياء الثلاث. ويتوزع الحي السكني إلى حارات هي بمثابة فضاءات تتواجد فيها الخدمات الأساسية: الحمام والفران والمسجد وبعض الدكاكين. كل حارة تشرف على عدد من الدروب ومن الأزقة النافذة وغير النافذة.

---

5 - يشير التنسي في كتابه ملوك تلميسان إلى بناء سور المشور سنة 1446م من قِبل السلطان أحمد العاقل لكنه لم يربطه بقرار السلطان نفسه بتمكين الجالية اليهودية من الاستقرار بساحة القوافل

6 - المدينة الإسلامية، تأليف جماعي، ص 124.

الشكل(3) مخطط من انجاز الباحث يضبط مواقع الحرف (النصف الأول من القرن

نستخلص مما سبق ما يلي:

1. طبقت مدينة تلمسان وبداية العهد الزياني الهيكلة التي وضعها المعماري اليوناني هيبوداموس الميلاني Hippodamus بداية القرن الخامس قبل الميلاد بمدينة هليكارناس. لقد تم تقسيم المدينة إلى ثلاث أحياء بارزة، فاز كل حي بوظيفة معينة.

2. تخلى النموذج التلمساني عن الشوارع المخترقة للمدينة والمتقاطعة في مركزها، لعدم نجاعتها بالنسبة لمدينة مهددة باستمرار.

ومما يلاحظ أيضا على هيكلة المدينة، أن السور المحيط بها ليس له وظيفة دفاعية فقط، بل هو أيضا الحيز الذي يفصل المدينة عن أحوازها المباشرة (وهو الحدّ الفضائي للجهة التلمسانية في الوقت نفسه)؛ كما يرسمأيضا حدود الحزام الصناعي للمدينة، لا سيما تلك الصناعات الملوثة بضجيجها أو غبارها أو روائحها أو أحجامها.لم تهتد المدن الصناعية الغربية لذلك إلاّ خلال القرن التاسع عشر.

ب - الزخارف الجدارية ورمزيتها

إذا صحّ القول بأن واجهات المنازل والجدران الخارجية خالية من النوافذ فهي ليست خالية تماما من الزخارف التي لم توضع من أجل تجميل الجدران أو تنميقها، هي في واقع الأمر إشارات وضعت بطريقة ذكية، تنبه المار بأنه يقترب من حي سكني. لقد اختير مكانها بزوايا مميزة (Angles privilégiés)، إذْ بإمكان كل شخص عاد إنْ كان ينظر أمامه، يقع نظره على هذه الزخارف عفوياً. وحتى لا يحدث التباس للمار اصطلح على وضع هذه الزخارف حيث يشير اتجاه اليمين إلى الحي السكني، ويشير الاتجاه نحو اليسار إلى مركز المدينة، علما بأن الاصطلاح خضع للنص القرآني (أصحاب اليمين).

الصورة (1) نماذج أخرى مأخوذة من مناطقة متفرقة من المدينة المرابطية وكلها اعتمدت الاتجاه المصطلح عليه

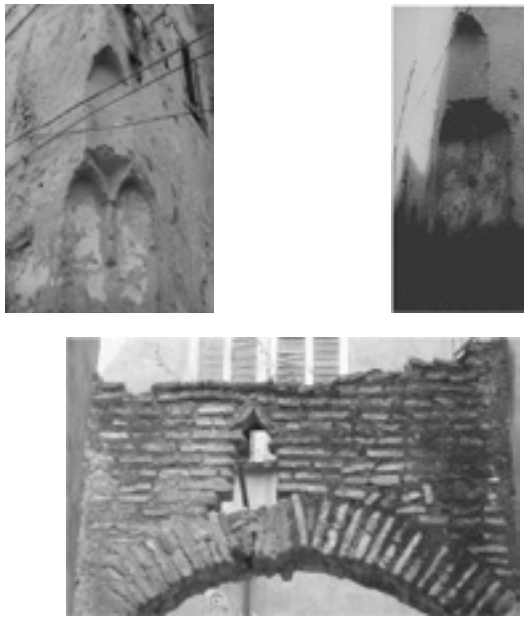

الصورة (2) نماذج أخرى تحمل رمزية الأمن وحراسة الأزقة ليلا : قوس الإضاءة

قوس رافد، تعلوه كوة الإضاءة، إشارة إلى حرص الجماعة على ضمان الأمن ليلا بالحراسة وإضاءة الأزقة. في النموذج المقدم، يوكل أحد المنازل لمراقبة الإضاءة الليلية. (النموذج الحجري الوحيد بالمدينة) أما النماذج العادية فهي عبارة خشبة تعلق بها وسيلة الإضاءة.

ج. رمزية القوس

رغم استعماله منذ عهد البابليين وشيوعه مطلع القرون الوسطى بأوربا، إلا أن الحضارة الإسلامية بتنويع نماذجه فرضته كعنصر أساسي في العمارة. لقد استخدم العارف المسلم القوس النصف دائري والمتعدي والمنكسر والمفصص والطولوني المعروف بأوربا بالقوس القوطي (Gothique)، والمغولي والرافد والبخاري.

لم يستعمل البناء المسلم القوس لميزاته التقنية فحسب بل لرمزيته أيضا، حتى صار لدى الجميع عنوانا لفن التعمير الإسلامي، (ألم يُسمي الغرب الزخارف التي بها منحنيات تشبه القوس بالأرابسك (arabesque).

للقوس في الغرب الإسلامي على الخصوص، دلالة الحظر (المنع والتحذير) وكأن القوس يشير إلى التحذير التالي: لا يسمح بالمرور أو الدخول إلاّ للساكن أو الغريب المرفق بأحد السكان. بجدر التنبيه هنا إلى أن شكل القوس وحجمه لهما دور في التحذير أو المنع.

الصورة (3) قوس متعد وحذوي يزيد ارتفاعه عن ستة أمتار، يشير إلى بداية منطقة سكنية. تنعدم الحوانيت بعد القوس

الصورة (4) مدخل درب السلسلة

أقدم حيّ بالمدينة العتيقة. تحتوي كل منازله على سكن الخدم (مصرية أو دويرة) وهو دليل على أن الدرب بُني لأعيان المرابطين.
كانت سلسلة حديدية تمنع مرور الدواب بوقت المقيل.
يشير السهم في أسفل الصورة لمساحة خصصت لوضع مواد البناء قبل نقلها إلى الدار المعنية بالترميم.

الصورة (5) مدخل درب السلسلة

نموذج آخر لمنزل من الأعيان
يمنع القوس الغريب من الاقتراب من عتبة البيت.
لاحظ: انعدام القوس بعتبة البيت
رأس الطفل بأسفل الصورة، هو بمدخل دويرة الخدم.

الصورة (6) سقيفة مقوسة: إشارة إلى درب غير نافذ، لا ينبغي للغريب عن الحي استعماله : إنه بحومة

الصور (7) سقيفة غير مقوسة: يسمح للمارة من استعماله دون حرج السقيفة: استعمال ذكي وناجع للفضاءات العلوية بعد استئذان المحتسبو القائمين على متابعة الخِطة

د. وحدة التجاور

مما يؤكد وحدة التجاور أن استغلال الأراضي يسير وفق خِطة عمرانية مضبوطة، جعلت من وحدة التجاور النقطة المحورية لتهيئة عمرانية مثلى داخل الحي السكني. تتألف وحدة التجاور من ثلاث منازل. عددها يحدد هيكلة الدرب أو جزء منه. إن الروابط المستحدثة داخل كل وحدة، جعلت مكانة الجار أقوى من مكانة الأقارب، وذلك طبقا لما ورد في الحديث النبوي الشريف: "لا زال جبريل يوصيني بالجار حتى ضننت أنه سيورثه."

ساهم هذا الموقف في اضمحلال تدريجي للنعرات العشائرية، وبالتالي مهّدت السبل لبناء مجتمع حضري.
إن تحديد عتبات المنازل على شكل مثلث جعل أبواب هذه المنازل غير متقابلة، ومع هذا يسرت هذه الطريقة اتصال النسوة فيما بينهن نتيجة ضيق المسالك.

الخاتمة

يعدّ النسيج العمراني لمدينة تلمسان نتاج تفاعل جيد بين مختلف الوظائف الموكلة لها. فالعلاقات المستحدثة بين مختلف العناصر المستعملة لهذا النسيج، تعبر عن رغبة أكيدة في العيش الجماعي.
يساهم هذا النسيج بقسط وافر في نشأة وتطوير المجتمع المدني. وما المدينة في هيكلتها العامة إلا استجابة لمطالب اجتماعية وثقافية وعقائدية واقتصادية للحياة اليومية داخل نسيج مدني.
فإن المدينة من هذا المنظور تعبير خاص يجسد المستوى الحضاري للجماعة القاطنة بها. أما هيكلتها العامة فهي في تحديث مستمر حتى تفي بمتطلبات السكان. المدينة كائن حيّ يسعى دوما على تحسين الأداء قصد تحقيق الانسجام والتواؤم.

المراجع

1 – تأليف جماعي(1976). المدينة الإسلامية. جامعة كامبردج، لندن.
2 - Dhina, Atallah)1984(. Les états de l’occident musulmans aux XIIème, XIVème et XVème siècles. éd. ENAL, Alger.
3 - Lecoq, André (1940). Tlemcen ville Française, Tanger.

النخبة التلمسانية ودورها الثقافي والسياسي والاجتماعي من نهاية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى

د. إبراهيم مهديد

جامعةالسانية، وهران- الجزائر

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى التأريخ للنخبة التلمسانية من خلال المعطيات التالية:
أولا: الأصول الاجتماعية والثقافية لهذه النخبة ومراحل تكونها التاريخي والتطور الذي عرفته في مسيرتها بفضل المؤسسات الثقافية والتربوية التي كانت منتشرة في مدينة تلمسان وضواحيها كالمساجد والمدارس والكتاتيب والزوايا...الخ.
ثانيا: الدور الذي قامت به هذه النخبة بمختلف توجهاتها سياسيا واجتماعيا وثقافيا أثناء الاحتلال الفرنسي وتحديدا خلال الفترة مابين نهاية القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى، عبر صحافتها وأنديتها وجمعياتها التي أسستها في إطار نضالها السياسي داخل الحركة الوطنية بمنطقة الغرب الجزائري بصفة عامة.
الكلمات الدالة: الأمة، النخبة، المؤسسات الثقافية والدينية، الحركة الوطنية، السياسة.

تمهيد

عندما يعالج المؤرخون وعلماء الاجتماع والسياسية نوعا من هذه المواضيع، يجب أن يراعى منهجيا دراسة التواصل والاتصال الثقافي في المجتمع الجـزائري وواقعـه لاحقا داخل المناخ الوطني مع ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتطوره في العقود اللاحقة.
فالبيئة الثقافية الجزائرية عانت كثيرا مثلما عانت الطبقات الاجتماعية هي الأخرى، إثر عمليات الاحتلال والغزو الفرنسي لمناطق البلاد، وبأساليب مختلفة. فالطبقة المثقفة الوطنية والبورجوازية كادت أن تختفي تحت ضربات المؤسسات الاستعمارية وسياسات الحكم في الجزائر طيلة فترة القرن التاسع عشر؛ وهي الطبقة التي حوت العلماء والقضاة والمفتين والأئمة والمعلمين وزعماء الدين والتجار. فالسياسة الاستعمارية «جففت الجزائر من طبقتها الوسطى التي كان من الممكن أن تلعب دورا حاسما في الاحتفاظ بالكيان الوطني، والقيم الثقافية والوجود السياسي للجزائر.
بل حتى أولئك البورجوازيون الذين تخلفوا سهوا في بلادهم كانوا قد أرغموا

إما على العيش الضنك وإما على الهجرة مؤخرا» [1].

فاللغة العربية، كمقوم من مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية حوربت بمختلف الأساليب والمضايقات الإدارية، وكان الهدف من هذه الحرب التي شنها الاحتلال الفرنسي. «على اللغة العربية طوال قرن وثلث، هو القضاء عليها تمهيدا للقضاء على الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي القضاء على الشخصية الجزائرية»[2].

فالثقافة العربية الإسلامية التي تعتبر ثقافة المجتمع الجزائري القومية عبر المراحل التاريخية السابقة هي مقوم أساسي للشخصية الجزائرية سواء بكونها ترتكز على الثقافة العربية التي تشكل اللغة العربية إطارها الصحيح، وهي اللغة التي تميزت بتاريخ قديم متصل الحلقات، أو بكونها ثقافة سايرت الحضارة ونظمها، وساهمت في الإنتاج الثقافي في ميادين الأدب والفلسفة والعلوم عموما في عصور الازدهار الفكري للعرب، أو بكونها ثقافة ذات تراث فكري خصب متأثر أشد التأثر بالقرآن والدين والشريعة الإسلامية التي تعتبر محك المجتمع وأساس ما كان يلقن ويدرس في حلقات وأطوار التعليم المختلفة [3].

وهذه الجذور الثقافية العميقة في المجتمع الجزائري تكونت في الأساس وتاريخيا –قبل وخلال الفترة العثمانية واستمرت في النهوض من بعد– نتيجة الدور الذي قامت به المؤسسات الثقافية والتربوية في ربوع الجزائر كالمساجد والمدرسة والكتاتيب والزوايا التي قامت بمهمة التعليم مشرفة على تلامذته وطلابه ومدرسيه، فكانت «أكبر مؤسسة تغذي هذه المؤسسات الثقافية هي الأوقاف– الحبوس–» [4]، التي كان من أغراضها توفير العناية بالمساجد والمدارس والمعاهد والزوايا. وإلى جانب هذه المؤسسات الثقافية التي تكفلت بقضية تعليم المجتمع وتثقيفه، «يدين هذا التعليم كذلك لجهود الأفراد والعائلات، لأن بعض العثمانيين كأشخاص والجزائريين اشتركوا على السواء في تأسيس المدارس والاعتناء بها، وكان هؤلاء يهتمون ببناء المدارس والمساجد بدوافع

---

1 - أبو القاسم، سعد الله (1969). الحركة الوطنية الجزائري 1930-1900. ط1، ص 71، بيروت.

2 - تركي، رابح (1975). التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1956-1930. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص325، الجزائر.

3 من أفيد ما يمكن الاطلاع عليه تحت هذا الطرح هو إنتاج :
- تركي رابح، المرجع أعلاه
- أبو القاسم، سعد الله (1981). تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الأول والثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الكعاك، عثمان (1957). مراكز الثقافة في المغرب من القرن 16 إلى القرن 19، معهد الدراسات العليا.

4 - حلوش، عبد القادر (1975). السياسة التعليمية في الجزائر 1914-1871. رسالة ماجستير، كلية الآداب، ص2، جامعة دمشق.

دينية ولخدمة العلم ولتخليد أسمائهم أحيانا أخرى» [5] .

1 - البيئة الثقافية في مقاطعة تلمسان

من المعروف تاريخيا أن التعليم في الجزائر كان منتشرا بشكل يشمل جميع المناطق الجزائرية وحتى النائية منها وخاصة داخل النواحي العريقة في الميدان الثقافي، كمدن تلمسان وندرومة ومعسكر ومازونة والعاصمة ولمدية وقسنطينة وغرداية والوادي وغيرها. ويقرّ الجنرال لويس رين Louis Rinn أنّ «التعليم الابتدائي كان منتشرا بينهم –أي الجزائريين– بمقدار انتشاره عندنا – في فرنسا– فتوجد المدارس للقراءة والكتابة في معظم الحواضر والقرى. فعملية مصادرة الأبنية الخاصة بالمساجد استنزفت بصورة خاصة كل موارد التدريس الذي يحوي من 2000 إلى 3000 صبي في كل مقاطعة؛ يتابع منهم عدد كبير 600 إلى 800 دراسته في علوم الفقه والشريعة والتفسير فيحصلون على لقب «العلماء»»[6]. إن مدن تلمسان ومازونة وقسنطينة وبجاية والجزائر العاصمة حوت قبيل الاحتلال الفرنسي مراكز لأكبر المعاهد العلمية والتربوية في الجزائر. غير أنه لا توجد ما نسميه «جامعة إسلامية» مثل الأزهر والقرويين أو الزيتونة، فعلى العكس كانت دروس الجوامع الكبيرة لتلك المدن الجزائرية تضاهي دروس الجامع الأموي والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها وتردد العلماء والمدرسين عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فضلا عن المساجد التي كانت تعتني بتلقين اللغة العربية لطلابها [7] .

وإذا كان التعليم العربي هو من أهم مقومات الثقافة العربية–الإسلامية داخل المجتمع الجزائري على غرار المجتمعات العربية الأخرى، فالدين الإسلامي يعتبر مقوما أساسيا للشخصية الجزائرية. ومن هنا يتجلى دور المساجد والزوايا التي أدت وظيفتها في نشر التعليم بجميع أنواعه وإلحاقها بالمدارس والمعاهد العليا مثل مازونة وبطيوة ومعسكر[8]، والجامع الكبير بتلمسان وجامع سيد لعريبي وزاوية الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري، وزاوية القليعة وملیانة وبني محي الدين وزاوية بني سلميان والجامع الأعظم بالجزائر العاصمة[9] ؛ أما شرقا فهناك جامع سيدي الأخضر بقسنطينة وزاوية سيدي عقبة بمدينة بسكرة

5 - نفس المرجع أعلاه، ص3.

6 - RINN, Louis (1882). Note sur l'instruction publique musulmane en Algérie. p10.

7 - سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص273.

8 - C. f. BERQUE J. (1978). L'intérieur du Maghreb entre le XVe et le XIXe siècle, éd. Gallimard.

9 - EMERIT, Marcel (1954). L'Etat intellectuel et moral en Algérie en 1830. in R.H.M.C, n° Juillet, p 204.

وزاوية ابن علي الشريف في جبال جرجرة وخاصة معاهد المساجد بوادي مزاب بالصحراء [10] .

وهكذا استفادت اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية من حفظ للقرآن الكريم وتفسير للحديث وعلوم الشرع واللغة من خلال قنوات عدة مثل المدارس القرآنية والوعظ والإرشاد في المساجد ومعاهد الزوايا، أو من خلال الهجرة لطلب العلم والرجوع إلى الوطن لتقلد مناصب التدريس والتبريز –والوظائف الأخرى– أو تلقي زيارة العلماء من ربوع المغرب والمشرق العربيين، بل للبقاء فترات طويلة والتنقل عبر ربوع المناطق والمدن الجزائرية. فالمصادر جميعها تشير مثلا إلى اشتهار تلمسان بمدارسها، بعثور الفرنسيين أثناء الاحتلال على حوالي خمسين مدرسة ابتدائية وثلاثة معاهد للتعليم «الثانوي» والعالي[11] كما وجد بنفس المدينة ثلاثون زاوية تؤدي وظيفتها التربوية والدينية وسط كثافة عمرانية بلغت 12.50012 .

واجتماعيا وداخل مقاطعة تلمسان – Subdivision de Tlemcen– دائما، تفيد بعض الوثائق بغنى المنطقة ثقافيا وعلميا والتي ظلت عليه – حسب ما نعتقد ولا نستثني المقاطعات الجزائرية الأخرى– ما بين فترتي الخمسينات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. وتحليل أحد الجداول الرسمية عن الحالة الثقافية والعلمية عن مقاطعة تلمسان مع منتصف 1854 – مستثنيا تلمسان[13] –، يساعد للوصول إلى بعض النتائج ومنها مثلا:

إن عدد القبائل التي حافظت على مدارسها القرآنية –رغم عملية الاحتلال– ووظفت دارين ومعلمين Tolbas للصبية والطلبة بلغ 56 قبيلة وعروش.

إن عدد التلاميذ والطلبة بدائرة تلمسان وحدها بلغ 367.

إن عدد الطلبة المتخرجين ليباشروا بدورهم التدريس ولمواصلة دراستهم العليا بلغ 91 طالبا في كل من نواحي الغزوات ومغنية وسبدو.

إن مواد التلقين والحفظ والدراسة ارتكزت –حسب الأطوار– من حفظ للقرآن الكريم وشرحه لغة ونحوا أو تحليلا «لألفية سيدي خليل»، و«ألفيته إلى علوم الفقه والأصول والشرع وعلم الميراث».

إن تكون النخبة الجزائرية من مدرسين وعلماء تم في حواضر ثقافية وعلمية مشهورة مثل «ترارة» و«ولهاصة» –اللتان ينحدر منهما خليفة الأمير عبد القادر

10 - Ibid.

11 -TURIN, Yvonne (1971). Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Ecoles médecines, religion 1830-1880, éd. Maspéro, p 127-131, Paris.

12 - Ibid.

13 - C.A.O.M, Cart 1J82. Les enseignants des écoles dans les tribus de l'arrondissement de Tlemcen. note de 7 pages datée le 13 juin 1854.

ومستشاره الأول سي أحمد البوحميدي- وتلمسان منها القاضي سي عبد القادر بن بشير مثلا وأولاد رياح وفيها فقيه المواريث سي محمد بن عزة وبني ورنيد وفيها المفتي سي محمد بن عبد الله وندرومة وفيها العادل سي محمد بن قانة . وهناك زاوية سيدي يعقوب ومازونة ومجاهر وبني يسنوس ودواير ولهشم شراقة وفقيق وأولاد سيدي الشيخ بالبيض.

أما الجدول التالي [14] من هذه الوثائق والذي أرخ في نفس الفترة فيحوي فئة العلماء الكبار من مفتيين وقضاة وطلبة التعليم العالي بالنسبة لمقاطعة تلمسان، ونلخصه كالآتي:

الفئات الدوائر	قضاة	مفتون	طلاب وعلماء
- تلمسان	12	4	24
- مغنية			2
- الغزوات			9
- سبدو			11
المجموع 62 عالم	12	4	46

ويفيد هذا الجدول هو الآخر بأسماء الفئات النخبوية في هذه المقاطعة وتكوينها العالي لغة، دين وشريعة، كما تتميز معها معاهد وجامعات تكوين هذه الفئات سواء في تلمسان وندرومة ومعسكر ومستغانم ومازونة من جهة، أو في فاس وتطوان وبني زناسن بالمغرب الأقصى؛ مما يوحي بغنى واتساع البيئة العلمية والثقافية داخل المجتمع الجزائري بالنسبة لهذه المقاطعة مع تأطيره العربي الإسلامي.

ووفقا لقانون 30 أكتوبر 1886 ومرسوم 6 ديسمبر 1887، تم إخضاع المدارس القرآنية إلى رقابة وتفتيش شديدين من قبل السلطات الفرنسية. وتخص هذه الرقابة بالدرجة الأولى الاتجاه الإسلامي [15].

وكانت المادة 48 من مرسوم 1892 قد أخضعت المدارس الخاصة الحرة الإسلامية لرقابة وتفتيش السلطات المبينة في المادة 9 من قانون 1886 ومرسوم

14 - أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس بفرنسا، علبة 1J82، قائمة القضاة والطلبة لدى القبائل بمقاطعة تلمسان، مؤرخة يوم 13 جوان 1854، 3 صفحات، من المفيد أن يطالع دور هذه النخبة الجزائرية لدى فريمو جاك:
- FREMAUX, Jacque (1933). Les bureaux arabes dans l'Algérie de la conquête. éd. Denoël, Paris.

15 - حلوش، عبد القادر. المرجع السابق، ص183.

1887؛ وتتمثل هذه السلطات في إشراف البلديات على هذه المدارس ذات التعليم الحر ومراقبة مدرسيها، لمحاولة معرفة الانتماء السياسي للقائمين على هذه المدارس.

إن كثيرا من هؤلاء كان ينتمي إلى طرق دينية يعتبرها الاستعمار ذات طابع سياسي مناهض لوجوده وبقائه في الجزائر. فكثيرا ما قامت الطرق الدينية نفسها بإعلان الثورة على الاستعمار، بل أن الأمير عبد القادر الذي قاد الثورة الشعبية ضد الاحتلال كان ابن زعيم ومنتمي إلى طريقة دينية، الطريقة القادرية، وإلى جانب ذلك قامت ثورات أولاد سيدي الشيخ عام 1864، وثورة الشيخ الحداد 1871، والشيخ بوعمامة عام 1881.

وما من شك أن هذه البيئة الثقافية الدينية والجو العلمي الذي عرفته منطقة القطاع الوهراني قد تأثرت ملامحها بما خلفه الأسلاف من علوم وتراث أدبي وديني ولغوي وفكري [16]، وأن استمرارية هذه البيئة قد ثبتت واستمرت – ولو بدرجة أخف داخل الأوساط الثقافية والعلمية في المجتمع نتيجة الواقع الاستعماري الفرنسي، وحلوله بالجزائر خلال القرن التاسع عشر– وذلك على مستويات عدة، من زوايا ومعاهد كبرى ومدارس حرة قرآنية وتنقلات للطلبة والعلماء. فما من شك مثلا أن محاضرات المؤرخ أبي راس الناصري وحلقات دروسه «بقاعة المذاهب الأربعة» حتى بداية القرن التاسع عشر قد تركت بصماته الفكرية والتراثية في ناشئة هذه المنطقة لاحقا – 780 طالبا من مختلف جهات الوطن والمغرب الأقصى– علما أن مكتبته عدت من بين أكبر المكتبات المتخصصة 3000 مؤلف، تلتها مكتبة الأمير عبد القادر الشخصية، تلك المكتبة التي استحوذت عليها فلول العسكر الفرنسي «بتا قدمت» يوم 10 مايو 1843.

فالتاريخ الثقافي للغرب الجزائري يشيد في النهاية بدور العواصم العلمية والثقافية كتلمسان ومازونة ومعسكر مثلا، وما خلفه العديد من الفقهاء والعلماء والمؤرخين من ثراث فكري، كصاحب «المعيار»[17] «الونشريسي» وما تركه من تآليف، لعبت دورها واحتفظت بقيمتها الدائمة؛ فإلى جانب موسوعته المعيار، ترك الونشريسي مساهمات أخرى تمثلت في «إيضاح المسالك على قواعد الإمام مالك» و«المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداة الموثق وأحكام الوثائق»، هذا المؤلف الذي يعرف مختصرا بـ «الفائق في الوثائق» رفقة

16طالع بتفصيل محتوى جزأي «تاريخ الجزائر الثقافي»، للأستاذ سعد الله أبو القاسم والذي نرى فيه غزارة المعلومات ودقة التفاصيل...؛ وفيما يتصل بمواضيع الفكر والتراث الجزائري قارن أيضا جاك بيرك :
- Berque, Jacque (1981). Bibliographie de la culture arabe contemporaine, éd. Sindbad, Paris.

17المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب.

«تعليق على مختصر ابن الحاجب» وأجوبة فقهية عرفت بتفاوي الونشريسي. ورفقة الونشريسي هناك علماء آخرون مثل أبو القاسم العقباني وابن مرزوق الحافظ. إذ لا بد من الإشارة أيضا إلى دور المعاهد في الشريعة والفقه الذي عرفتها مازونة [18] وما تركه صاحب «الدرر المكنونة في نوازل مازونة» يحيى بن عمران المغيلي 883هـ- 1478م وأحمد المغراوي 820 هـ. فما من شك أن بصمات جميع هؤلاء العلماء وغيرهم قد حظيت بالديمومة أمثال احمد المقري صاحب «نفح الطيب» والشيخ محمد بن أحمد الحلفاوي ومحمد بن ميمون مؤلف «التحفة المرضية في الدولة البكداشية» وابن سحنون الراشدي صاحب الشرح الأدبي-التاريخي الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني وغيرهم كالعالم المؤرخ أبي رأس الناصري المعسكري[19] صاحب «نفسية الجمان في فتح ثغر وهران» وهو المتوفى سنة 1823 عن عمر يناهز التسعين سنة، وصاحب الحلقات الفكرية والدروس العلمية «بقاعة المذاهب الأربعة» كما أسلفنا الذكر. فرفقة هذه الانتاجات التاريخية- الاجتماعية والمجالات الأدبية لدى الجزائريين خلال الفترة العثمانية وبداية مرحلة الاحتلال الفرنسي فإن العلوم الشرعية، أي الدراسات القرآنية كالتفسير والقراءات والحديث ودراسته بما في ذلك الإثبات والإجازات والفقه من العبادات والمعاملات «كالنوازل»، قد كثرت وسيطرت على الحيازة الفكرية حينئذ، «ولاشك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى أن كون القرآن والحديث كان المنبع الذي يستمد منه الجزائريون كل أنواع تفكيرهم وأنماط حياتهم»[20]، عندئذ ولاحقا.

2 - حركة المثقفين الجزائريين

كخطوة منهجية وتسهيلا للطرح والنقاش، علينا أن نسجل نقطة جوهرية وحساسة تتعلق بالطبقة المثقفة الجزائرية في القطاع الوهراني والجزائر عموما خلال العقود الأولى من القرن العشرين -بل وقبله بقليل-، إذ لا يجب حصر فئاتها في نظرنا واصطفاء دورها في «نخبة» كانت نتاج الثقافة الفرنسية المحضة والتي مثلت التيار الليبرالي لمطالب الجزائريين لاحقا . فرفقة ذلك، هناك صنف مثقف ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية أو مزدوجي اللغة تمثل في عناصر وأطر واعية قادت حركة النهضة في الغرب الجزائري منذ نهاية القرن 19 عشر

18بلحميسي، مولاي (1981). تاريخ مازونة. الجزائر.

19 - ولد محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري؛ طالع سيرة هذا العالم لدى سعد الله أبو القاسم، المصدر أعلاه، ص 360-357، وأيضا «مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي: أبو راس الناصري »، أنظر «أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر» الجزائر «الجزائر 1978، ص 83 - 103.

20أبو القاسم، سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص9.

وصولا إلى الاحتفال الاستعماري المئوي لاحتلال الجزائر وعقد الثلاثينيات وذلك على المستوى الثقافي والسياسي. وكان لوجود هذه الفئة الثانية من المثقفين، داخل تلك النهضة نتائج حاسمة، تمثلت في خلق توازن في القوى السياسية داخل الحركة الوطنية بالغرب الجزائري، بل وقلب الميزان لصالحها خصوصا بعد نجاح وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة خلايا نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري من بعد، داخل ربوع هذه المنطقة.

فالمثقفون Intellectuels والنخبة L'Elite والمتطورون Evolués كلها أسماء ترافقت في كثير من الكتابات والأدبيات المعاصرة داخل الهيسطوغرافية الحاضرة، فقلما لوحظت مميزات إحدى الفئات وخصوصيات الأخرى داخل التعريفات العديدة بالنسبة لهذه المفاهيم.

وإذا كان مصطلح «النخبة» قد انتشر في القرن العشرين خاصة ليغطي نشرات الصحف وغيرها «فإن الصحافة الفرنسية بجميع أشكالها وألوانها هي التي أطلقت إسم «النخبة» على جماعة من الناس، تمييزا لهم عن بقية أفراد المجتمع. وذلك تشجيعا لهم لمواصلة السير في طريق الإدماج والمطالبة بالجنسية الفرنسية، لأنهم الوحيدون القادرون على التأثير على زملائهم وإخوانهم كونهم يملكون قوة فكرية وثقافية تجعلهم في الصف الأول من المجتمع بل وفي طليعته، وبهذا يصبحون بحق الوسطاء النشيطين والفعليين بين المجموعتين من المتباعدين ثقافيا ودينيا»[21].

المعروف تاريخيا أن دور المدرسة الفرنسية كان أساسيا في تكوين فئة من «المتمدرسين» تربت تربية فرنسية خالصة وفي محيط وبيئة فرنسية بعيدة عن واقعها [22]، لم تنل من ثقافتها العربية الإسلامية إلا النذر القليل، الشيء الذي جعلها لا تميز بين ثقافتها وثقافة المستعمر. هكذا عملت هذه المؤسسة التعليمية لخلق «نخبة» مثقفة وتهيئتها، تكون قادرة على نشر أفكار التقدم الفرنسي وقضائه، «بصفتها برجوازية محافظة ترتبط بفرنسا أكثر فأكثر وتميز الطريق المتبع تحت السيطرة الفرنسية »[23].

إن المدرسة الفرنسية كانت تبحث في هذا الاتجاه على إقناع الجزائريين بكافة الوسائل بعظمة وقوة فرنسا –خوفا من تحول التيار الوطني ضدها– فوضعت الغاية التي هدفت إليها «أن الهدف المنشود ليس تكوين موظفين خاصين ولا تحضير مدرسين للتعليم العمومي، وإنما لتكوين رجال يساعدوننا على تحويل

21 حلوش، عبد القادر، المرجع السابق، ص 253 - 256.

22 حلوش، عبد القادر، المرجع السابق، ص263.

23 - Collona, F. (1975). Les instituteurs algériens 1883-1939. éd. O.P.U, p 82, Alger.

المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا» [24] .

أمام هذه المعطيات الاجتماعية التاريخية لتهيئة النخبة، علينا أن نقر أنها تكونت في المدارس «العربية–الفرنسية» والثانويات التي أنشئت بعد 1850 وغيرها من المعاهد الفرنسية التي منحت هذه «النخبة» مدخلا إلى الثقافة الأوربية كمدرسة «تكوين المعلمين» ببوزريعة.

إن الطرح يوحي بأننا بصدد تمييز شريحة من المجتمع الجزائري وهي «الشريحة النخبوية» ذات الثقافة الفرنسية التي انبهرت بالحضارة الفرنسية وراهنت على الفرنسية واقتنعت بضرورتها وإمكانياتها.

وفي خطوة أخرى نود مقاربة الصنف الثاني من المثقفين الجزائريين وهي الطبقة المتشبعة بالثقافة العربية الإسلامية أو هي مزدوجة اللغة والثقافة والوعي بالهوية الوطنية. «وهو صنف المتعلمين الذين استفادوا من فرص التعليم الفرنسي وإن بدرجات متفاوتة. لكنهم ظلوا متشبثين بمظاهر الشخصية الوطنية حريصين على عدم الانفصال عن قاعدتهم الاجتماعية، ويشمل هذا التمسك بالشخصية العربية الإسلامية مظاهر مختلفة، اجتماعيا وفكريا وسياسيا ؛ تمثلت كما يشير محمد الميلي في الحفاظ على طابعهم العربي الإسلامي في لباسهم وسلوكهم داخل المدرسة وخارجها، وتمسكهم الفكري والسياسي في تأييد الحركات الإصلاحية الدينية، وتأييد أي حزب سياسي وطني قد يظهر في المستقبل من جهة أخرى.

من بين الملاحظين الموجودين بالجزائر والقريبين من هذه الطبقة المثقفة هناك المستشرق «جورج مارسي» Géorges Marçais الذي كان مديرا للمدرسة العليا بتلمسان حيث اعتبر النخبة «أولئك الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية والذين يعرفون عن مؤلفي العصر الإسلامي الذهبي وعن كتاب التراث الفرنسي»[25]. أي تلك الجماعة التي درست كلا من الحضارة العربية والفرنسية.

وإذا حاولنا الاستناد في الطرح على هذه الازدواجية في الثقافة واللغة عند هؤلاء المثقفين، فإننا نلح من ناحية أخرى على «مفهوم» الوعي conscience الاجتماعي والسياسي الذي اتسمت به هذه الطبقة، وبمرور الزمن حيث التعبئة، أو الشعور بدورهم الهام الذي يلعبونه في شؤون بلادهم، وبصفتهم «أنتيليجانسيا» Intelligencia بالمفهوم الروسي أثناء تلك الفترة يواجهون مشاكل أمتهم الكبيرة.

وإن تتبعنا تاريخيا حقيقة بروز هذه الطبقة المثقفة، للاحظنا أنها كانت نتاج

24 - تورين، ايفون ، المجابهات الثقافية...، ص73.

25 - سعد الله أبو القاسم ، المرجع السابق، ص185.

الأسلوب التعليمي-المفروض فرنسيا- ووسط البيئة الثقافية التي احتضنته منذ منتصف القرن التاسع عشر والذي أدى نتيجة السياقات التكوينية إلى نوعين من المثقفين؛ مثقفي المدرسة الفرنسية ومثقفي المدارس والمعاهد القرآنية والجامعات الإسلامية. وحتى إذا حصل هذا الانقسام حقيقة فلا يجب أن ينظر إليه بصفة تفرع ثنائي، إذ يجب الأخذ في الاعتبار واقع المثقفين المتخرجين من المدارس الإسلامية الجزائرية -تلمسان، قسنطينة والعاصمة- أولئك الذين يشكلون عملية اتصال بين النوعين»[26] السابقين. وحتى مسألة الانقسام اللغوي عند المتفرنسين والمعربين يجب تفادي طرحها داخل علاقة معارضة، بل فهمها في سياق منافسة- تكاملية [27] .

فمن المسلم به أن اللغة الفرنسية هي لغة مؤسسات النظام الاستعماري والمهيمنة داخل الأوساط السياسية والاقتصادية مقارنة إلى اللغة العربية؛ إلا أن دور اللغة العربية لم يختف رغم تقلصه في المحيط الرسمي الاستعماري. فمن ناحية هناك ثبات واستمرارية هذه اللغة داخل بيئتها الثقافية العربية الإسلامية، ومن ناحية أخرى فإنها استطاعت مواكبة التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي حصلت طوال الفترة الاستعمارية الممتدة خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن 20 إن في مجال التكوين التقليدي والترجمة والإدارة، ومواكبة تيار النهضة والحداثة المسجلة في المغرب العربي الصحافة والخطابة، العرائض، الأندية والجمعيات اقتداء بما يحصل في المشرق العربي.

في الغالب كان التعليم السائد والمنتشر في ربوع المناطق الجزائرية هو التعليم العربي التقليدي الذي استمر في تأدية وظائفه. فحسب إحصاء 1871 كان عدد الزوايا بمؤسساتها الدينية والثقافية تقترب من الألفي زاوية تشرف على تعليم وتثقيف حوالي 28000 تلميذ من السكان [28]. كما كانت هذه المدارس التقليدية تكون وتحضر الطلاب للالتحاق في المستقبل بالمعاهد المشهورة مثل جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في مدينة فاس، وأحيانا أخرى إلى جوامع المشرق العربي في مصر وسوريا والحجاز.

3 - دور «المدرسة الإسلامية» بتلمسان

عندما نحاول ملامسة البيئة الثقافية التي حوت إلى حد ما عملية تكوين الناشئة الجزائرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين،

26 - DjeglouL, A. E. K. (1988). La formation des lettrés modernes algérien 1880-1930. in travaux du laboratoire d'histoire et d'anthropologie sociale et culturelle C.R.A.S.C Oran, O.P.U, n°04, pp7-9, Alger.

27 - Djegloul, A. E. K., op.cit.

28لورا- بوليوب ، الجزائر وتونس، ص251.

حتى تبرز وتتطور في شكل شريحة مثقفة ونخبوية، فمن الضروري التأكيد على الدور الذي لعبته المدرسة الإسلامية العليا بمدينة تلمسان Medersa de Tlemcen على غرار مدرستي قسنطينة والعاصمة انطلاقا من تاريخ تأسيسها.
فهي المدرسة التي «نشأت في شهر جويلية 1848 «بالعباد» قرب مسجد سيدي بومدين –في البداية– بهدف تعليم الشباب وخصوصا تكوين «الدرارين» بالنسبة للقبائل [العربية]، تفاديا من توجههم إلى زوايا منطقة القبائل حيث التعليم المناوئ لنا » [29]، قبل أن تتأسس نهائيا بقرار رآسي في 30 سبتمبر 1850 حيث اختصت بالدراسات التعليمية الهادفة إلى تكوين وتخريج موظفين تحتاجهم الإدارة الاستعمارية كالمفتي والعدول والمترجمين ومدرسي اللغة العربية.
ومن ناحية البرامج التي شملته هذه المدارس الإسلامية في مرحلتها التأسيسية 1848 - 1850 هناك «مواد التوحيد والفقه التشريعي والنحو واللغة» [30] ؛ قبل أن تصقل ببرنامج أكثر كثافة وفقا للمادة الرابعة من مرسوم 1876 التي حوت تعليم اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا والحساب وبعض مبادئ القانون الفرنسي كالقانون المدني، والجنائي والإداري، بالإضافة إلى تعليم اللغة العربية والأدب العربي وعلم التوحيد والقانون الإسلامي.
وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى مرسوم 21 نوفمبر 1883 الذي أعفى حكام المقاطعات العسكرية من مراقبة المدارس الإسلامية وإرجاعها إلى الحكام المدنيين Préfets، رفقة نقل تسيير هذه المدارس والإشراف عليها من طرف مديرية التربية. أما مرسوم 23 مارس 1895 الذي جاء تتويجا للتقرير الذي قدمه عضو من مجلس الشيوخ، «كومب» Combes حول «وضعية تعليم الجزائريين» فقد أتى بعدة إصلاحات وحدد مدة الدراسة في هذه المدارس بأربع سنوات عوض ثلاثة ؛ وتأسس إلى جانب ذلك قسم عالي «La Division Supérieure» تكون مدة الدراسة سنتان وهو ملحق بمدرسة العاصمة، أي ما يساوي في المجموع ست سنوات. وهذا القسم العالي مخصص فقط لعدد قليل من العناصر التي تثق فيها الإدارة الفرنسية، والذين تربطهم معها علاقات حسنة [31]، لأنهم سيتولون مناصب عالية ومهام في القضاء الإسلامي؛ ولا يلتحق بهذا القسم إلا الطلبة الحاصلون على «شهادة الدراسات» المتخرجون من المدارس الإسلامية الثلاث. كما تأسس بحكم هذا المرسوم صف جديد للصحة العامة وشعبة للتجارة لم يكتب لهما النجاح الكبير.

---

29 - Centre des Archives d'outre-mer à Aix-en Provence, cart 1J82, rapport sur l'école supérieure de Tlemcen.

30 -Idem.

31نشرة التعليم الأهلي، رقم 13، ص15.

ورجوعا إلى المنطقة الوهرانية –بعد هذا العرض التنظيمي للمدارس الإسلامية الثلاث– فإننا نرى دور المدرسة التلمسانية مهما للغاية سواء من الناحية الزمنية 1848 - 1912 وما بعد أيضا في استقباله لوفود الطلبة وتخرجهم، أو فيما يتعلق بالجانب التكويني لهم وهو التكوين الذي اقترب بيداغوجيا من التحديث في البرامج على الطريقة العصرية عبر المراحل التاريخية المعروفة.

إن المحلل للأرشيف والوثائق المتعلق بالمدرسة الإسلامية التلمسانية [32] يلمس جوانب عديدة بالنسبة للبيئة الثقافية والعلمية التي كانت تسير عليها المدرسة منذ بداية عهدها وبالنسبة للعلاقة المنسوجة بينها –كمؤسسة علمية وتربوية– وبين الزوايا الدينية التي كانت تزودها بأفواج الطلبة لفترة طويلة، مثل زاوية أولاد سيدي الطيب «بعمي موسى»؛ وفي مرحلة ثالثة هناك علاقة عضوية وتكاملية بين أساتذة الشريعة واللغة والفقه الذين ينتمون إلى هذه المدرسة والمدرسين Mouderres في مساجد المدن الكبرى كتلمسان، وهران، معسكر، بلعباس ومستغانم بصفتهم مفتين وأئمة ومعلمين داخلها، يمكن إلحاقهم كأساتذة بالنسبة للمدرسة التلمسانية من الإدارة الحكومية أثناء شغور المناصب؛ وفي حالات عديدة يُعيِّنُونَ في القضاء الرسمي بصورة عادية أو كمستشارين ومساعدين في بعض المهام العليا، مثلما حدث مثلا «لسي بوعلي الغوتي بن محمد»، المدرس بمسجد سيدي بلعباس عندما انتدب إلى مدينة طنجة المغربية ليساهم في تحرير جريدة «السعادة» [33] لستة أشهر ومنذ مايو 1904.

ونعتقد أن شريحة واسعة ورئيسية من الطلبة المتخرجين من هذه المدرسة استطاعت أن تحتل مكانتها في المجتمع الجزائري كوسيط داخل المؤسسات الاجتماعية والدينية والثقافية كإداريين وقضاة ومفتين ومدرسين وغير ذلك [34]. وإذا كانت أفواج الطلبة التي التحقت بالمدرسة حكرا على مدينة تلمسان في بداية عهدها 1848 - 1860، فإن فئات أخرى من مختلف مناطق القطاع الوهراني الساحلية والداخلية –من الزوايا وطلبة الأقسام الملحقة بالمساجد الكبرى في العمالة– أصبحت تتنافس على مقاعدها 1860 - 1880 قبل أن تمنح أولوية القبول داخلها للتلامذة الجزائريين المتحصلين على شهادات المدارس الفرنسية، أي أولئك المتخرجين من المدارس العربية الفرنسية Ecole Arabe-Française خصوصا بعد مراسم الإصلاحات التربوية

32منها مثلا أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس مع محفوظات رصيد «الحكومة العامة» تحت أرقام:
1.S24, 2.S24, 20J60 et 1J83

33 - مديرية الأرشيف بولاية وهران، علبة 4471، عرض عن وضع الأهالي السياسي، نوفمبر 1904.

34 - من ذا ضرورة بروز أبحاث جامعية عن هذه «المدرسة-المؤسسة» بالنسبة للتاريخ الجزائري داخل الحقبة الكولونيالية.

سنتي 1877 و1895.

معدل الطلبة المسجلين بالمدرسة الإسلامية بتلمسان			
الفترات التاريخية	المعدل	الفترات التاريخية	المعدل
1852 – 1848	25	1887 – 1883	44
1857 – 1853	35	1892 – 1888	26
1862 – 1857	51	1897 – 1893	38
1867 – 1863	60	1902 – 1898	33
1872 – 1868	55	1907 – 1903	47
1877 – 1873	53	1912 – 1808	56
1882 – 1878	50		

ونخلص فيما يرتبط بهذه المدرسة أن تلمسان كانت إلى ما بعد 1900 تقوم بدور هام «كعاصمة دينية في الجزائر» [35]، والتي استطاعت أن تكون دفعات من الطلبة ابتداء من 1848 متشبعة بالثقافة العربية الإسلامية، وملمة بالعلوم واللغة ومبادئ القانون «المدني» و«الجنائي» و«الإداري» الفرنسي. وبازدواجية ثقافة ولغة هـؤلاء الطلبـة فهم مطلعون بالطبع على الحالة السيئة التي يوجد عليها الجزائريون – نتيجة السياسة الاستيطانية الاستعمارية منذ 1830 – اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا. وهم على دراية رفقة زملائهم المتنورين من «صف المعلمين» وبعض «المثقفين التقليديين» كأبي بكر عبد السلام بن شعيب وأمحمد بن رحال الندرومي بما كان يجري رسميا في الجزائر من «تقصي البعثات البرلمانية» في المسائل التي تخص المجتمع الجزائري كما حصل مع «بعثة الثلاثة والعشرين» لجول فيري Jules Ferry سنة 1892، وبعثة 1900 وغيرها بدعوى ضرورة القيام بالإصلاحات في الجزائر.

4 - حركة الشبان الجزائريين بتلمسان

شكـل قسـم من تلـك الشريحة الهامة والمتميزة من خريجي المدرسة العربية– الفرنسية ومدرسة تلمسان الإسلامية مع قسم «من صف المعلمين» والجامعيين وما شابههم حركة «الشبان الجزائريين» في عمالة وهران، أو ما اصطلح على نعتهم لأول مرة في تاريخ الجزائر الثقافي والسياسي «بالشبان الأتراك» من طرف «المستشرقين» إدمان دوتي E.Doutté ووليام مارسي W. Marçais ؛

35 - AGERON, Ch. R. (1964). Le mouvement Jeune Algérien de 1900 à 1923. in études maghrébines, mélange Charles André Julien, éd. P.U.F, p 217-243, Paris.

وهما آنذاك أستاذان بالمعهد العربي-الفرنسين ومدرسان بالمدرسة الإسلامية التلمسانية. فهما اللذان لاحظا ذلك «التغير في الذهنية» لدى الشباب الجزائري وذلك «المجهود للإصلاح الديني» [36]، مما يوحي لنا بجدية النقاش العقلي داخل بيئتهم الثقافية مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين خصوصا بعد مجيئ شيخ جامع الأزهر «المصلح»، محمد عبده إلى الجزائر عام 1903.

وتكلم أيضا عن هذه النخبة من الشبان الجزائريين «المفكر المثقف» أبو بكر عبد السلام بن شعيب، الأستاذ بمدرسة تلمسان بمناسبة «أشغال المؤتمر العالمي لعلم الاجتماع الكولونيالي» سنة 1900 «بكونها نخبة جزائرية تملكت بعمق في اللغة الفرنسية بترددها على مدارس العاصمة أو على المدارس [«الإسلامية» العليا بتلمسان وقسنطينة والعاصمة] كما درست الآداب واللغة الفرنسية... [وغير ذلك من العلوم]...»[37] .

من جهة أخرى نتصور الجو الثقافي-السياسي الذي كان عليه الشبان الجزائريون سواء بمطالعتهم « للصحف والمجلات الصادرة في الجزائر أو المسموح بدخولها»[38] من الخارج، أو نشاطهم داخل «الأندية» و«الجمعيات» التي يؤسسونها، الأمر الذي سيبلور أفكارهم ويصقل آراءهم وينظم اتجاهاتهم السياسية اتجاه القضايا المختلفة التي يعاني منها المجتمع الجزائري.

وكما أسلفنا فإن الشريحة الثانية التي ستبلور تيار «الشبان الجزائريين» هي الأخرى، تمثل أولئك المدرسين Instituteurs وأعوان المدرسين وبعض الطلاب الثانويين وبعض الجامعيين والصناعيين، أي أولئك الذين استطاعوا أن يستفيدوا من السياسة التعليمية التي تبناها «الجمهوريون». وهي السياسة التي كان لها أصداء في الجزائر حيث استخدمت بعض الشخصيات نفوذها لمحاولة خدمة «التحرير الثقافي» للجزائريين أمثال جول فيري J.Ferry وأوغست بوردو A.Burdeauواميل كومب E.Combes وليبون بورجوا L.Bourgeois وألفريد رامبو A.Rambaud وغيرهم؛ إذ لم يكن الجمهوريون يرغبون في أن تصبح قضية تعليم الجزائريين من اختصاص الكولون، ولم يكن تصرف الجمهوريين بهذا الشكل من 1882 إلى 1892 وعلى رأسهم جول فيري نابعا من مبدأ «الحياد المدرسي الغالي على الجمهوريين بقدر ما يعبر في حقيقته عن وجود سياستين استعماريتين واحدة في باريس والأخرى في الجزائر»[39].

36 - Cf. Doutte, Edmond. L'Islam Algérien en 1900. in B.S.G.A.O, n° 1900.

37 - طالع تدخل هذا المثقف الجزائري داخل أشغال هذا المؤتمر حول : مسألة اندماج أهالي المسلمين بالجزائر مع الفرنسيين، من 6 إلى 11 أوت 1900.

38طالع مختلف التقارير و«العروض» عن «حالة الأهالي الذهنية» بين 1903 و1914، مديرية الأرشيف بولاية وهران ، علبة 4471 وغيرها.

39 - كولونا، ف.، مرجع سابق، ص39.

فمدرسة الجمهوريين تمثل سياسة الدمج وإلحاق المستعمرة بالوطن الأم في حين تمثل مدرسة الكولون سياسة الانفصال عن فرنسا والاستقلال بنفسها لأن القوانين المتعلقة بالأرض والقضاء والإدارة كانت تسير وفقا لمصالح هؤلاء الكولون، و»أن المدرسة كوسيلة للإدماج كانت تشكل خطرا عليهم» [40].

وفي مرحلة أخرى استطاعت هذه الشريحة من المثقفين النخبويين أن تبرز أيضا نتيجة سياسة الحاكم جونار «الأهلية» 1900 - 1911 التي كانت تهدف إلى جلب الطبقة المثقفة إلى فرنسا لبث «رسالة فرنسا الحضارية».

ولقد اقتربت هذه الجمعيات «الثقافية-السياسية» في أهدافها ونشاطها بعقدها سلسلة من المحاضرات الهامة، ومساعدة الشباب الجزائري على العمل، والتفكير، والعيش عيشة حديثة، أي القيام بجمع أولئك الجزائريين الذين يرغبون في تثقيف أنفسهم وتطوير أفكارهم العلمية والاجتماعية، وتكوينهم السياسي بمطالعة الصحف المختلفة وباللغتين، جزائرية كانت، مشرقية أو غيرها من صحف عواصم العالم.

إن الأندية والجمعيات الثقافية على مستوى الغرب الجزائري قد واكبت هي الأخرى النهضة «الثقافية والسياسية» التي كانت تجري في الجزائر، ومبكرا. فمنذ 1901 وجد بتلمسان «حزب [جماعة ؟] الحضارة والتقدم»[41]. ونفس هذه المدينة الحضارية والثقافية كانت السباقة على مستوى مدن القطاع الوهراني في رؤية مثقفيها يؤسسون «نادي الشبان الجزائريين» يوم 28 مارس 1910 حيث تشكلت اللجنة الإدارية من أستاذ وهو «أبو بكر عبد السلام بن شعيب»، ومدرس بوعلي غوتي وخوجا ابن تركية محمد وموظف بالبنك ابن دالي محمد وتاجر شلابي عبد الكريم مع ستة معلمين وهم بغشي محمد وابن اسماعيل محمد وبوعياد محمد وعبورة مصطفى وقلوش قادة ومسلي محمد. وعندما تجددت إدارة هذا النادي يوم 23 مارس 1912، طرأ تغيير على هيأتها بصعود أربعة تجار شلابي عبد الكريم، وابن عمر بن علي وديب يوب وخراجا الحاج، وثلاثة مدرسين بخشي محمد وابن اسماعيل محمد وعبورة مصطفى ومساعدي محام ابن ددوش مصطفى وويس غوتي، ومحامي طالب عبد السلام، ومحاسب ابن يادي محمد، وفلاح بربر بن علي وملاك مالطي محمد . وخلال سنة 1912 أسس المدرسون المسلمون بتلمسان دائما جمعية رياضية سميت «النادي المسلم التلمساني» ترأسه المحامي طالب عبد السلام.

إن محفوظات الأرشيف المنوطة بهذه الجمعيات والنوادي عبر جزائر ما قبل الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة ما بين الحربين والتي هي بصدد الترتيب

40 - المرجع نفسه، ص40.

41 - مينييه ج ، المرجع السابق، ص217.

النهائي لوضعها بين أيدي الباحثين [42] تؤكد مدى اتساع انتشارها مع مطلع القرن العشرين إن في المجال الثقافي-السياسي، الاجتماعي، الرياضي أو الديني les cultuelles عبر نواحي ومناطق الجزائر كلها، وذلك على مستوى الجزائريين والأوربيين؛ إذ شهدت مدينة وهران ميلاد «النادي الوهراني» عام 1911 من طرف اللجنة المشرفة على صدور «جريدة الحق الوهراني» وهو النادي الذي كانت تتردد عليه وتجتمع فيه أنتيليجانسيا القطاع الوهراني كأمحمد بن رحال الندرومي وغيره.

وعرفت هذه المدينة أيضا منذ مطلع القرن العشرين بداية النضال والصراع الاجتماعي الذي كان يؤطره مثقفو وبورجوازيو أنديتها بتوجههم نحو الشغيلة الجزائرية لتنظيمها، كما حصل مع الشاب «ابن سعد» وهو من أعضاء لجنة جريدة «الحق الوهراني»، المنشط الرئيسي بالنسبة «لجمعية التضامن الخيري الأهلية» من 1900 إلى 1930 [43]، و«العربي فخار» الذي ترأس «نقابة الشحانين الوهرانيين» وهي النقابة التي تأسست بين 1903و1904 [44]. وعندما ترعرعت جريدة «الحق الوهراني» أسس الشبان الجزائريون المنتمون إليها «جمعية المدرسين الأهالي لعمالة وهران" في مايو 1912 [45]، عرفت باسم «جمعية الصداقة" وكان على رأسها معبد بن عودة.

ونتيجة هذا النشاط الثقافي-السياسي كله وبروز هذه النواة من المثقفين الواعين من داخل البرجوازية الإدارية الجزائرية، رفقة بعض المدرسين ممن أفرزتهم البرجوازية الصغيرة مطلع القرن الجديد، هناك تبلور تيار سياسي مبكر، لخوض غمار "التحديث" والإلمام بمشاكل المجتمع و"عجزه" عندما استطاعت جماعة من النخبة تأسيس لسان لها بوهران، متمثلا في البداية في صحيفة "المصباح" El-Misbah برئاسة المدرس العربي فخار خلال شهر جوان 1904؛ رفقة بعض المدرسين والإداريين الجزائريين من القطاع الوهراني أمثال "حمدان بوركايب" و"غمري حميدة" و"ابن منصور الصنهاجي" وأمثال الذين كانوا يوقعون مقالاتهم وتدخلاتهم بأسماء مستعارة مثل "الحاج" و"ابن

---

42 - لم نستطع إقناع المسؤولين بمديرية أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس Aix-en Provence لتزويدنا بملفات عن هذه الأندية والجمعيات أثناء وجودنا بالمكان نهاية عام 1993، قصد استغلالها بشكل أوسع. فكانت حجتهم أن عملية الفرز والترتيب المنوطة بذلك الأرشيف لم تتم بعد، وسلمت لنا قصرا «محاولات جرد» أولية أفادتنا بوجود 13 رزمة من الحجم الكبير تمس فترة 1902-1953 بالنسبة للجزائريين والأوربيين والإسرائيليين، داخل القطاع الوهراني من رزمة رقم 3277 إلى رزمة رقم 3290، إذ حوت الرزمة الأولى منها أي 3277 حوالي 75 ملف خاص، لمختلف الجمعيات والنوادي.

43المصدر السابق.

44 - نفس المصدر أعلاه.

45 - جريدة «الحق الوهراني»، مايو 1912.

خلدون" و"علاء الدين" Aladin و"ميمون".

وتعد صحيفة "المصباح" أول جريدة تعبر عن تيار الشبان الجزائريين في الوطن. وبصفتها صحيفة مزدوجة اللغة. وكانت مقالاتها مختلفة في طروحاتها "للمواضيع" ولو أنها اتسمت بالتقارب في بعض المبادئ كالمطالبة "بالتقدم" و"العصرنة" و"التفتح" و"التعلم الفرنسي" ومحاربة "الكسل" و"الإجحاف" و"الخمول" و"العادات القديمة". كما وجهت عنايتها إلى مشكلة الشباب الجزائري لحثهم على التعلم. "لاسترجاع مكانتهم الضائعة"؛ ونصبت "المصباح" نفسها خلال هذه الفترة القصيرة من عمرها 1904 - 1905 صاحبة مهمة للدفاع عن المصالح المادية والمعنوية "لهذا الشعب العربي"، ناقدة الوضع السائد في الجزائر بسبب إجحاف الكولون وسياسة الإدارة الفرنسية الاضطهادية؛ بذلك احتل موضوع "الشباب العربي" المكانة الأولى في افتتاحية "المصباح" بتوجيه نداء له من طرف العربي فخار لِحَثِّه الخروج من سباته [46] مع مطلع هذا القرن الجديد والإقدام على استيعاب أفكار "التقدم":

"نتساءل أحيانا هل نملك المزايا الضرورية لنساهم في تطور المجتمع،"وبطرحنا هذا السؤال ننكر برضا الدور الكبير الذي لعبه آباؤنا في التاريخ. ورغم "انحطاط حضارتنا منذ عدة قرون فإنها لم تتلف نهائيا. أما تراثنا الثقافي فليباشر لأنه "لم يمت... أما تقاليدنا فإنها لم تتأثر قط وأقل منها معتقداتنا الدينية. ولنسأل أنفسنا: "ألسنا جديرين بمصير أفضل؛ إذا فالشعار الذي يجب أن يغرسه كل مسلم يكون "صديق "التقدم" حقيقة، هو تطوير حالته الذهنية والعلمية. فالإنجاز والهدف ليس من "دور المسلم وحده ولكنه فرنسي أيضا"[47] .

فالمحلل للخطاب الصحفي الذي تضمنته جريدة "المصباح" يجد المفارقة الكبيرة، وبعيدا كل البعد عن مطالب وآراء القسم الآخر من أعضاء جماعة النخبة المتفرنسة والتي تزعمت اللائكية و«ترك الدين» والمطالبة بالتجنيس أمثال بوضربة وديندان .

كما تؤكد "المصباح" على "القيمة الحضارية" التي يتميز بها الشعب الجزائري عندما "نقتنع أن قوة شعب هي ثقته بنفسه، هذه الثقة التي يستقيها عندما يشعر بقيمته"[48] الحضارية. وتتطلع من ناحية أخرى في أعدادها الأولى، إلى الدور الذي يجب أن يكون من نصيب المثقفين –أولا– ليلعبوه في حل "المسألة العربية"، أي مشاكل الشعب الجزائري، وهو «الذي تهاون ولم يعبر عن حقيقة

46 - «المصباح»، عدد 4 جوان 1904.

47 - «المصباح» عدد 10 جوان 1904.

48 - «المصباح» نفس المرجع السابق.

مشاعره أثناء اختيار نوابه وممثليه». ولهذا «يجب أن يسمع صوتنا» وحتى "نساهم في المناقشات الجادة التي تهمنا. متمنينا أن يؤخذ بآرائنا أكثر فأكثر، عندما يعبر عنها بنزاهة واحترام عرب متنورون وليبراليون"[49] . وكما تحاول "المصباح" إقناع السلطة الاستعمارية بهذا الدور المرجو، فإنها تؤكد حقيقة وجود هذه "الطبقة" من المثقفين الجزائريين الواعين و"العهد الجديد الذي حل"، "مما يترك للمسلمين الجزائريين إمكانية المساهمة في وقت قريب ونشاط في الإنجاز المشترك بتحمل نصيبهم من المسؤولية التي هي من حقهم"[50].

استطاع هذا الشباب النخبوي الواعي أن يعزز نضاله الوطني ابتداء من 1911 بتأسيس صحيفة ثانية باللغتين أيضا، وهي "الحق الوهراني"1911 - 1912. وهو المنبر الذي تحسس أكثر مشاكل ومصير الطبقة الشعبية، وتميز بخطه الوطني كما سنلمسه في المحور الوارد ومواقفه "الصادقة" في بعض القضايا المصيرية للمجتمع الجزائري مثل "التجنيد العسكري الإجباري" و"الحقوق السياسية"وغيرها؛ حيث استطاع هذا المنبر أن ينال ثناء وارتياح بعض المفكرين والصحفيين في القطر الجزائري ببروزه في أصعب مقاطعة استيطانية مثلها القطاع الوهراني؛ ومنهم عمر راسم الذي كان يحرر جريدة "الجزائر" الشهرية، ذات اللسان العربي والتي هدفت إلى توعية وتثقيف وتعليم الجزائريين عن الوضع العالمي: "القطر الجزائري منذ ترعرعت الحرية في جميع الأقطار امتدت أشجارها بالجرائد "التي تطعم أهلها بالأفكار الثاقبة والأقوال النافعة... قد نبغ ما بين أولاده من يستحقون "الشكر والثناء لأنهم سعوا في ترقيته والدأب عن مصالحه ودفع كل ما يكرهه ويحط "من فضيلته فلهم الشكر ولهم الثناء... قاموا بأمر عظيم طالما تمنته البلاد والعباد وهو "إنشاء جريدة "الحق" والتي لا تنطق إلا بالحق والتي لا تنهى إلا عن منكر ولا "تخاطب إلا بالصدق حتى نبين قبول كل مفكر عاقل وأخذت جلب بنيل كامل. إن هذه "الجريدة الصادقة هي أحق أن تكون لسان حال مسلمي شمال إفريقية لأنها أصدق "الجرائد لهجة وأهمها فائدة وأعظمها نفعا. إنها أحق أن تنشر وتقرأ والحق "إخوان...– يتبع– الجزائر رجب عام 1320، عمر راسم. [51]

خاتمة

إن هذه البرجوازية الجزائرية "الحضرية" رغم نسبتها الصغيرة وصحبة سكان المدن، هي التي ستلعب دورها خلال العقود التاريخية المقبلة في جزائر ما قبل

49 -»المصباح»، عدد 10 جوان و21 جويلية 1904.

50 -»المصباح»، عدد 2 سبتمبر 1904.

51 - «الحق الوهراني» عدد 29-22 جوان 1912.

الحرب العالمية الأولى وفيما بعدها، حيث أنها استطاعت أن تسترجع سياسيا ما فقدته القوى الريفية في السابق، الأمر الذي سيحفز على تغيير العلاقات السياسية الاقتصادية، داخل ما نسميه تبلور الوعي السياسي –الديني– والثقافي داخل المجتمع الجزائري وتدشين مرحلة حوار تاريخي تميزت به الحركة الوطنية الجزائرية خلال مرحلة تاريخية لاحقة امتدت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وإلى بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

أما الشريحة التقليدية من شيوخ الزوايا والمعاهد الدينية فلقد واضبت عموما مهمتها التثقيفية الدينية واللغوية وسط المجتمع الجزائري، ونراه دورا أساسيا وإيجابيا للمحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية وتعميق "الوطنية الجزائرية" كحقيقة منشودة تاريخيا.

المراجع

Archives

1- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H17, 9H18 et 9H20, surveillance politique des indigènes, 1926-1939.

2- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H35, étoile P.P.A, mouvement de nationalisme arabe.

3- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H46, Oulèmas 1934-1946, congrès musulman algérien, 1936.

4- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H46, cercles intellectuels, étudiants, élus 1934-1938.

5- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H47, nationalisme, mouvements, presse, Leaders, 1937-1938.

6- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H48, fédération des élus musulmans et Oulèmas, front populaire, département d'Oran.

7- Archives de la wilaya d'Oran, carton 2260, Publication du centre d'information et d'études, note sur l'Oranie, 8ème note, 1937.

8- Archives de la wilaya d'Oran, carton 2260, Publication du centre d'information et d'études, dossier étoile nord africain, 1936.

9- Archives de la wilaya d'Oran, carton 2260, Publication du centre d'information et d'études, note sur l'activité du P.P.A en 1941.

10- Archives de la wilaya d'Oran, carton 4475, surveillance politique des indigènes en Oranie, 1935, dossier sur le P.P.A, ordre général.

11- Archives de la wilaya d'Oran, carton 4475, surveillance politique des indigènes en Oranie, 1935, dossier sur l'E.N.A-P.P.A à Mostaganem.

12- Archives de la wilaya d'Oran, carton 4480, état d'esprit des indigènes en Oranie ,1937-1939.

Ouvrages

1- Ageron, Ch. R. (1979). Histoire de l'Algérie contemporaine : de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954. éd. P.U.F., Paris.
2- Bouguessa, K. (2000). Aux sources du nationalisme algérien, éd. Casbah, Alger.
3- Collot, Claude (1977). Les institutions algériennes pendant la période coloniale, éd. O.P.U, Alger.
4- Collot, C. et HERVY, J. (1978). Le mouvement national algérien : textes 1912-1954. O.P.U, Alger.
5- Jullien Ch. A. (1972). L'Afrique du Nord en marche, Paris, Julliard, .
6- Kaddache, Mahfoud (1980). Histoire du nationalisme algérien : question nationale et politique algérienne. éd. S.N.E.D, Alger.
7- Messali, Hadj (1982). Les mémoires (1889-1938). éd. J.C. Lattès.
8- Nouschi, A. (1962). La naissance du nationalisme algérien (1914-1954). éd. de minuit, Paris.
9- Stora, Benjamin (1969). Les sources du nationalisme algérien, éd. l'Harmattan, Paris.
10- Violette, Maurice (1991). L'Algérie vivra-t-elle? : Notes d'un ancien gouverneur général, éd. Alcan, Paris.
11- Zenati, R. (1938). Le problème algérien vu par un indigène. in Bulletin du Comité de l'Afrique Française.

قـــراءات

وقفة مع رجلين كبيرين أسهما في صناعة تاريخ الجزائر المعاصر

أ.د. عبد القادر هني
جامعة الجزائر2

عملاقان من عمالقة تاريخ الجزائر المعاصر، بل والتاريخ العربي الحديث والمعاصر اختارهما البارئ جلت قدرته إلى جواره في سنة واحدة هي التي نحن فيها، فطويت بفقدانهما صفحة تعج بالأحداث ميزت مراحل دقيقة من مراحل تاريخنا، منها ما هو مدون أذيع في الناس ومنها ما ينتظر أن تجود به الأيام بعد أن تحبره الأقلام. ولاشك أن هناك أسرارا أخرى بقيت حبيسة صدريهما رحمهما الله، وكانت ستلقي الضوء على كثير من بقع الظل لو أتيح لها أن تبلغ الشفاه فتتناولها الأقلام، فلنا أن نتحسر ونتألم على فقدانهما وعن عدم إنصافهما من بعض رفاق الدرب والتاريخ. فقد تحملا الضيم بصمت ودون صخب وظلا يحملان الجزائر وشعبها في قلبيهما، إنهما الرئيس المجاهد احمد بن بلة والمناضل الكبير والمجاهد عبد الحميد مهري، اللذان طواهما الموت، إلا إن التاريخ سيبقى يذكرهما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الرجلين من خيرة ما أنجب هذا الوطن ومن خيرة الذين هبوا للذود عن حيّاضه من اجل استقلاله غير مباليين إن كان الأجل سيمهلهما إلى أن تشرق شمس الحرية على ربوع الجزائر، فأحمد بن بلة الذي غادرنا غداة يوم الأربعاء 11 أفريل 2012 حمل قضية وطنه بين جوانحه وهو ما يزال في مرحلة الطلب، بل إن تمسكه بقيمه الدينية والوطنية وعزة نفسه هما اللذان غيرا مسار حياته، فهذا الرجل الفذ وهو تلميذ ثانوي متفوق في تلمسان لم يكن ليرضى الذل والخنوع ولا أن يحتمل الإهانة والشتم لاسيما إذا تعلق الأمر بمسائل ذات صلة بعقيدته فها هو ينتفض ويشتاط غضبا حين وقعت على مسامعه عبارة جارحة ومهينة من معلم متعصب يدور في فلك الاستعمار مؤداها "رسولكم محمد محتال" فقد مسته هذه العبارة في العمق كما قال هو نفسه، فغير مساره وقطع دراسته ليبدأ حياة نضال حافلة بالأحداث إلى أن استقلت الجزائر وكان أول رئيس لها.

أما الأستاذ المجاهد المناضل الكبير عبد الحميد مهري الذي التحق بجوار ربه بعد مدة زمنية قصيرة من سلفه بن بلة فإنه هو الآخر كان طودا شامخا بالنسبة إلى الثورة الجزائرية التي تعلق بها تعلقا كبيرا ولم يذخر من جهده شيئا للتعريف

بها وبث أفكارها في صدور الناس لاسيما بين إخواننا العرب، فعندما كان في دمشق ابتداء من1955 كان له الدور الأول في تشكيل شبكة تواصل مع الصحافة والجمعيات والأحزاب في المشرق العربي لضمان تفاعلها بحماس مع الثورة الجزائرية فهبوا لمباركتها ومساندتها. ولم يقتصر دور سي عبد الحميد على هذا الجانب التنظيمي والفكري الذي طاوعته فيه خطابته وفصاحة لسانه، إنما تجند أيضا للإسهام في الدعم المادي للثورة من خلال جمع الأموال ووضعها في بنوك بيروت وسويسرا، وكذا إيصال السلاح من سوريا وبغداد إلى الثوار. ولم يركن إلى الراحة بعد استرجاع الاستقلال فبالنظر إلى ثقله الفكري وثقافته الواسعة ومعرفته الثاقبة بشؤون التربية والتعليم فإنه بدأ مسيرة نضالية أخرى لا تقل أهمية من التي سبقتها وهي إعداد الأجيال لمعركة المستقبل والحفاظ على الاستقلال ومواصلة مسيرة البناء والتشييد من أجل جزائر قوية ضاربة الجذور في أصالتها تسع جميع أبنائها.

إن هذه الوقفة الموجزة مع الرجلين وهي وقفة لا تفي بحقهما، تعبر فحسب عن عرفان جامعة الجزائر2 وطاقم مجلة أفكار وآفاق بخصالهما ونضالهما من اجل تحرير الوطن وغرس قيم إنسانية عالية قائمة على الحرية والتعاون والتشارك مع الغير في بناء محيط إقليمي وعالمي آمن ومستقر.

أ - رحلة مع الرئيس احمد بن بلا

د. هاني سليمان
محامي- بيروت

صديق جمال عبد الناصر وابن مدرسته في العروبة.
بطل تحرير الجزائر، والراني لتحرير الأمة العربية من مخلفات الاستعمار وما يستتبعها من مظاهر التخلف والفقر والاستبداد. مع رحيل " أحمد بن بلا ". يحاول المرء استذكار محطات من علاقته بهذا الرجل وبتاريخه العظيم.

وهج ثورة الجزائر

كان ذلك سنة 1962 يوم استقلال الجزائر. كنا وأنا ابن الثانية عشرة، أقل من عشر طلاب يافعين أمام المدرسة في بلدتي، أهتف وهم يرددون " يا ديغول مالك عِنا خود جنودك وارحل عِنا ". كانت البلدة كغيرها في منطقة البقاع تتفاعل مع ثورة الجزائر تجمعاً وخطباً وتبرعاً بالمال وحلى النساء للثورة التي كانت "مفاجأة العروبة لنفسها".

ثورة المليون ونصف المليون شهيد، تشع في دنيا العرب والعالم لتصبح مثلاً على كل شفة، ودرساً لكل مناضل يريد أن يرى بلاده حرَّة عزيزة.

سجين من أجل سجين

تتوالى الأيام فإذا بالثورة التي رفعت " بن بلا " رئيساً للجزائر، تلتهم أبناءها واحداً تلو الأخر، وإذا بالقائد الرئيس سجيناً على مدى أربعة عشر عاما.

وفي نهاية السبعينات أطلقت جريدة " السفير " حملة إعلامية تضامنية مع الرئيس " بن بلا " تلقفها طلاب الجامعة اللبنانية.

وفي إحدى مناطق بيروت، حيث كنت أوزع بياناً باسم المنظمة الطلابية "كفاح الطلبة " يدعو للتضامن مع قائد ثورة الجزائر، إذا بمجموعة مسلحة آنذاك تعترضني، وإذ بداعية تحرير "بن بلا" من السجن يصبح سجيناً لعشرة أيام مجهول المكان والمصير.

زادتني هذه الحادثة ارتباطاً بهذا الرمز وبقضيته، وأنا لم أصافحه أو ألتق به بعدُ.

خرج " بن بلا " من السجن إلى منفاه في باريس، وذهبت أنا لإكمال الدراسة هناك.

في تلك المرحلة أحاطني ذلك الرجل الكبير بالكثير من العناية والاهتمام والتوجيه.

كان وقتاً ثميناً إن تَمضيَ معظم يومك مع هذه القامة الشامخة، التي تمثل أرقى قيم العطاء وأنبل صفات التضحية ونكران الذات.

حوار مع الذئب الناعم

قبل مناقشة أطروحة الدكتوراه التي أعددتها عن القواسم المشتركة في العادات والتقاليد في المجتمع العربي بعدة أيام، أبلغته أن اللجنة المشرفة على المناقشة تضم، إضافة إلى رئيس اللجنة، رئيسَ الجامعة التي سجلت أطروحتي فيها، وأستاذاً يهودياً، وآخر أمازيغياً من الجزائر، متأثراً بالحملة الغربية الداعية إلى التفرقة بين العرب والامازيغ مع العلم أن عدداً كبيراً من الامازيغ كانوا قادة في حركة تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي وقادة في نهضة الجزائر بعد الاستقلال. لقد وقعَ الأمازيغي في فخ التفرقة فأصبح واحداً من دعاتها.

بعد معرفة الرئيس "بن بلا" بأسماء أعضاء اللجنة ابتسم قائلاً : "هذه لن تسهل لك الطريق وستكون المناقشة أشبه بمعركة سياسية أكثر منها دفاعاً عن أطروحة أكاديمية، ويهمني أن أحضر المناقشة وان أكون إلى جانبك".

لقد تضمنت الأطروحة عباراتٍ عادةً ما نستعملها في أدبياتنا السياسية كعبارة الاستعمار الثقافي وعبارة المغرب العربي.

رئيس اللجنة الفرنسي الجنسية توقف عند تعبير "الاستعمار الثقافي" فاعتبره تعبيراً سياسياً ضمن أطروحة حقوقية، لكنه وقع في فخ السياسة عندما قال :

"تتهموننا بالاستعمار الثقافي ونحن نقدم لكم المعرفة وأنتم ترفضونها".
أما العضو الثاني الأمازيغي فقد علق بدوره قائلا: "من قال لك أن المغرب عربي.. هذه مسلمات عندكم لكنها مرفوضة عندنا، نحن نعتبر أن هناك استعماراً عربياً للمغرب".
أما العضو الثالث المنتمي الى الدين اليهودي فعلق قائلاً:"إنكم في جنوب لبنان تقتلون أبناءنا الجنود الذين يطاردون المخربين الفلسطينيين".
كنت مأخوذاً ومدهوشاً بما قالوا، وتحول الدفاع عن الأطروحة إلى دفاع عن القضية.
وبين الحين والآخر كنت التفت إلى الرئيس "بن بلا" فأراه صامتاً متوتراً وكأن ثورة تعتمل في داخله.
بنهاية المناقشة طلب الرئيس "بن بلا" الكلام وخاطب اللجنة قائلاً: "ان وجودنا في بلد الثقافة والديموقراطية هنا، يشجعنا أكثر فأكثر على الدفاع عن أرائنا، إن ما سمعته منكم يضاعف مسؤولياتنا لتوضيح موقفنا من قضايانا العادلة على قاعدة الحوار واحترام الرأي الآخر".

نجاح غير متوقع

وكما جمعتني بالرئيس "بن بلا" علاقة خاصة، لدرجة أنه كان يعتبرني واحداً من عائلته وأهل بيته، فقد حرصت على التعرف على واحد من قادة الثورة الجزائرية الأمازيغي المناضل "حسين أيت أحمد"، فكنت أزوره وأتناول وإياه قضايا سياسية متنوعة.
كنت أعرف أن بين الرجلين مسافة... وحتى جفاءً لم يصل حدّ القطعية، فلماذا لا ألعب دور الأخ الصغير الذي يجمع أخوته الكبار.
يــا لسخرية القدر، كيف تسير الايام... وكيف يدفع القهر في بلادي رجالاً قادوا ثورة ضد المحتل ليصبحوا لاجئين في بلد محتل.
لم أبادر إلاّ بعد أن لمست من الرئيس "بن بلا" شيئاً من عدم الممانعة.
" أحمد بن بلا " العربي الجزائري و"حسين أيت أحمد " الأمازيغي الجزائري، قطبا الثورة.. في باريس لا يلتقيان.
لقد وحدتهما الرؤية حول مواجهة الاحتلال، وابعدتهما عن بعضهما في كيفية معالجة واقع الجزائر بعد الاستقلال.
الرئيس " بن يلا " المهجوس بفكرة العروبة الجامعة كَحل لقضايا الامة ومنها الجزائر، و"حسين أيت احمد" الذي يعتبر أن الديموقراطيةً هي الحل السحري لمعضلة الجزائر.
كان واحدهما يكبرني بثلاثين سنة على الأقل، وكان " امتيازي " عليهما ربما صغر عمري تجاههما واني من مشرق العرب وبعيد عن مشاكل الجزائر.

كان علي ان أجلس مع كل واحد منها على حدة لأنقل اليه مودة الآخر واحترامه لتاريخه، وأن البعد بينهما في الرؤية لا يحول دون بذل الجهد لتوحيدها، أو على الأقل لإيجاد القواسم المشتركة بينهما.
لم تكن المهمة سهلة وبالمقابل لم تكن بالاستعصاء الذي لا يمكن تجاوزه.
وكما يقال : بعد جهد جهيد جرى الاتفاق على بيان مشترك تضمن مقدمة سياسية توليت صياغتها، تجمع بين العروبة والديموقراطية كحقيقتين متلازمتين، فيما توليا هما صياغة النص المتعلق بالجزائر.
كانت مناسبة اللقاء غداء مشتركاً في احد مطاعم باريس المعروفة.
لم يكن اللقاء سرياً، وهو لم يكن علنياً أيضاً، وبالصدفة يدخل الى المطعم الصديق العزيز الاستاذ طلال سلمان، والمحامي الدكتور حسن عواضة، ليتفاجأ وليباركا هذا الحدث الذي يفرح قلوب الجزائريين والعرب، فيلتفتُ إليَّ الاستاذ طلال بعد معرفته بمضمون البيان قائلاً: لقد فعلتها يا هاني على طريقتنا العشائرية فأخذ كل طرف حقه دون زيادة أو نقصان.

الكهل يهتف كالشباب لفلسطين

كان من دواعي اعتزازي أن يزورني الرئيس في غرفتي الوحيدة في ضواحي باريس ليرتاح ويجاملني في بعض القضايا ويستفسر عن الأوضاع اللبنانية والفلسطينية التي كنت أتابعها، ولقد أصر الرئيس أن تحتضن تلك الغرفة، بالرغم من ضيق مساحتها وتواضع أثاثها الاجتماعات التحضيرية لمسيرات التضامن مع الشعب الفلسطيني والتنديد بالاعتداء الصهيوني على لبنان سنة 1982.
ابن السادسة والستين كان يقود المظاهرات ويهتف كالشباب تحيا فلسطين... لتنتهي المظاهرة بكلمة منه داعمة للمقاومة ومحفزّة للشباب على الانخراط فيها.

الراجل اللي زهد بالحكم والملذات والزاهد اللي حكم ضد الهوى والذات

"أحمد بن بلا" قست عليه حكومات بلاده كثيراً واضطهدته أكثر، وأصعب صنوف الاضطهاد تلك المحاولات الرامية إلى جعله نسياً منسياً من ذاكرة الجزائر وتاريخها الحديث. فجاء تشييعه إشعاعا لأفكاره التي ناضل من أجلها.
دارة الراحل الكبير في الجزائر العاصمة هي كشخصيته الفذة فسيحة وبسيطة، ذكرتني بدارة الرئيس اليمني الراحل في مدينة "تعز" عبد الله السلال رحمة الله عليه، الدار البسيطة التي تعتز بانتمائها إلى روح الضيعة، وبمنزل الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، دارة متواضعة تدخل إليها من باب كبير لتُلفيَ نفسك في فناء اكبر يتسع لأفكارك ومخيلتك عن قصور الحكام المنهوبة من أموال الدولة والشعب، والمشيدة فوق تعب الكادحين وأوجاعهم.

من منزل " بن بلا " الى مدفنه... جموع كبيرة، نزلت إلى الشوارع تحت المطر. رجال كبار يبكون، ونسوة تزغردن في تقليد جزائري عريق يعلن زفة العريس إلى الجنة، وأطفال فضوليون سمعوا عن بطولة ومظلومية القائد ولم تسنح لهم الفرصة لرؤيته، وقادة ومناضلون من المغرب العربي.
قفلنا عائدين إلى منزل الرئيس وفي ذلك المنزل كان الصمت أبلغ من الكلام.

ب - عبد الحميد مهري

محطات ومواقف في مسيرته النضالية

أ. العايب معمر
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان-الجزائر

يعتبر المجاهد عبد الحميد مهري من الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر المعاصر، إعتبارا للدور الذي لعبه في النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، منذ انضمامه إلى حزب الشعب الجزائري مع نهاية أربعينيات القرن الماضي، وتبوئه لعضوية اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، والتحاقه بالثورة الجزائرية بعد اندلاعها، مما جعله مساهما فعالا في تنشيط معركة العمل الدبلوماسي والسياسي للثورة في مواجهتها للمناورات وألاعيب السياسة الاستعمارية الفرنسية، في هذا المقال نحاول تسليط الضوء على مسيرة المجاهد عبد الحميد مهري النضالية، ومواقفه وإسهاماته الجزائرية والمغاربية.

1 - المولد، النشأة والتكوين

تميزت المنطقة التي نشأ فيها المجاهد المرحوم عبد الحميد مهري، بتجذر مشاعر الرفض للوجود الاستعماري منذ عهد المقاومات الشعبية، وبالكثير من النشاط السياسي المآزر والداعم للقضية الوطنية خلال فترة النضال الوطني والثورة التحريرية، فأغلب الأعضاء البارزين للحركة الوطنية كانوا ينحدرون من الشرق الجزائري، وهذا ما ساعد على كثافة النشاط السياسي المناهض للاستعمار الفرنسي في الشرق الجزائري، هذه العوامل ساهمت بشكل مباشر في صقل مواهب المجاهد عبد الحميد مهري السياسية، وكانت من بين الدوافع الأساسية التي جعلته ينخرط مبكرا في صفوف حزب الشعب الجزائري.
في اليوم الثالث من شهر أفريل 1926 ولد المجاهد عبد الحميد مهري بمنطقة الخروب القريبة من مدينة قسنطينة، وبعد فترة وجيزة من تاريخ ميلاده اضطر والده الشيخ عمار العطوي، إلى الانتقال والاستقرار بمنطقة وادي

الزناتي ، حيث عين إماما لمسجد المدينة وساهم رفقة عبد الرحمن بلعقون في تأسيس مدرسة التهذيب، وهي المدرسة الأولى التي تكون فيها عبد الحميد مهري وأخذ فيها مبادئ اللغة العربية وقواعدها (النحو والصرف)، وتعلم فيها أيضا الحساب، عاش عبد الحميد مهري يتيم الأب والأم، فقد توفي أبوه سنة 1933 وعمره لم يتجاوز عشر سنوات وهذا ما جعله يكتسب شخصية قوية وصلبة معتمدا على نفسه في مواجهة محن السنين، وبالرغم من يتم الأب والأم إلا أن طفولة عبد الحميد مهري تميزت بالهدوء والخلق الحسن.

وأثناء مزاولته الدراسة بمدرسة التهذيب انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري، وكان من أبرز مناضليه في المنطقة، وشارك رفقة مناضلي حزب الشعب الجزائري بالمنطقة في تأسيس خلية سرية بمنطقة وادي الزناتي، كانت مهمتها التحضير لمظاهرات 8 مايو 1945، حيث كلف عبد الحميد مهري بكتابة اللافتات التي رفعت أثناء المظاهرات وكان مضمونها المطالبة بالحرية والاستقلال وتنفيذ وثيقة الأطلسي التي وعد بها الحلفاء الجزائريين أثناء نزولهم بالجزائر في خريف عام 1942.

وبعد مجازر 8 مايو 1945 الدامية وما خلفته من أثار مأساوية على منطقة وادي الزناتي على وجه التحديد، وفي الجزائر بشكل عام، كان لهذه الأحداث الدور البارز في تحديد مسار حياة المجاهد عبد الحميد مهري، حيث قرر عام 1947 التوجه إلى تونس لمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة بمعية رفقائه من الطلبة الجزائريين، وفي الزيتونة تفوق على أقرانه واحتل المراتب الأولى، والملاحظ أن عبد الحميد مهري كان كثير الشغف للتنقل والتعرف على حال البلاد العربية، فأثناء إقامته بتونس لطلب العلم كان كثيرا ما يغادر مقاعد الدراسة ليسافر باتجاه المشرق العربي، حيث قام بالعديد من الزيارات إلى كل من سوريا والأردن والعراق.

1.1 - الناشط السياسي

بعد قرابة الأربع سنوات قضاها المجاهد عبد الحميد مهري بجامع الزيتونة ينهل من مختلف علوم مشايخه عاد إلى الجزائر واستقر بالعاصمة، حيث أنتخب عضوا في اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية عام 1951، وخلال هذه الفترة نلاحظ إلى جانب عمله السياسي النضالي في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية، سخر قلمه الرصين للكتابة في جريدة المنار التي كانت تهتم بالشؤون السياسية والثقافية والدينية في الجزائر وباقي البلاد العربية والإسلامية، وكان يديرها الأستاذ محمود بوزوزو، حيث كتب فيها عبد الحميد مهري العديد من المقالات، تنوعت موضوعاتها ما بين القضايا الوطنية والعربية والمغاربية والدولية، وهي تدل على أن عبد الحميد مهري كان يملك ثقافة واسعة

وإطلاع دقيق على واقع الجزائر والبلاد العربية الإسلامية والمستجدات الدولية.

2.1 - ظروف التحاق عبد الحميد مهري بالوفد الخارجي للثورة الجزائرية بالقاهرة

اثر اندلاع الثورة الجزائرية في الفاتح نوفمبر 1954، شن البوليس الفرنسي حملة اعتقالات ومداهمات، استهدفت المناضلين البارزين في حركة الانتصار الحريات الديمقراطية وحسب شهادة محمد العربي دماغ العتروس وهو أحد رفقاء المجاهد عبد الحميد مهري، أنهم اعتقلوا رفقة مجموعة أخرى من المناضلين وزج بهم في السجن بتاريخ 22 ديسمبر 1954 ولم يفرج عنهم إلا مع أواخر شهر مايو 1955 والإفراج كان حسب شهادة العربي دماغ العتروس بحرية مؤقتة (مشروطة)، أما التراجم التي تناولت الشخصيات الجزائرية المعاصرة، فإنها تختلف مع شهادة العربي دماغ العتروس حول تاريخ اعتقال مهري وتذكر شهر نوفمبر 1954 تاريخ إلقاء القبض عليه وشهر أبريل من عام 1955 تاريخ خروجه من السجن، وتتطابق شهادة كل من بيير شولي pierre chaulet والعربي دماغ العتروس حول كيفية خروجه من الجزائر والتحاقه بالوفد الخارجي للثورة الجزائرية بالقاهرة، حيث يتفق الاثنان على أن ترتيب عملية تهريب مهري التي تمت بوثائق هوية فرنسية مزورة بمساعدة الأستاذ الفرنسي بونوا benoit الذي كان يعمل بكلية العلوم بجامعة الجزائر.

3.1 - عبد الحميد مهري ممثل مكتب جبهة التحرير الوطني بدمشق

الملاحظ أن قرار سفر عبد الحميد مهري إلى مصر جاء بعد استدعائه من قبل الوفد الخارجي للثورة الجزائرية للالتحاق بمكتب جبهة التحرير الوطني بالقاهرة، وهذا من أجل تعزيز الوفد الخارجي بالقدرات البشرية ذات الكفاءة والتي تملك معلومات وعلى معرفة بالبلاد العربية وسبقت أن أقامت في المشرق العربي، وبناء على هذه الاستراجية المنتهجة من قبل قيادة الثورة في القاهرة، فان مدة إقامة مهري بالقاهرة لم تدم طويلا حيث تم تعيينه ممثلا لمكتب جبهة التحرير الوطني بالعاصمة السورية دمشق، وتنفيذا لهذه المهمة سافر شهر جويلية عام 1956 إلى سوريا، من أجل كسب الدعم المعنوي والمالي السوري لصالح للقضية الجزائرية، وأثمرت هذه الزيارة بفتح مكتب لتمثيل جبهة التحرير الوطني بسوريا، واستطاع مهري بفضل معرفته المسبقة بسوريا وحنكته السياسية ونشاطه الدءوب في تعبئة الجماهير السورية لصالح القضية الجزائرية÷ والتضامن معها، فعلى المستوى الثقافي والعلمي فتحت الجمهورية السورية جامعاتها ومعاهدها أمام الطلبة

الجزائريين للالتحاق بها لطلب العلم والمعرفة، حيث بلغ عدد الطلبة المقيمين بدمشق حوالي 107 طالب جزائري، كلهم كانوا معفيين من دفع رسوم التسجيل، وذلك بعد الاتفاق الذي توصل إلى عقده السيد عبد الحميد مهري ممثل جبهة التحرير الوطني مع وزير التربية والتعليم السوري.

لم يقتصر الدعم السوري للثورة الجزائرية على الجانب السياسي والمعنوي، بل تعداه إلى الدعم المادي بما فيه المال والسلاح، وعلى هذا الأساس استطاع مكتب جبهة التحرير الوطني بدمشق بقيادة عبد الحميد مهري دائما، الحصول على وعد من رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي بتدعيم الثورة بالسلاح من مخازن الجيش النظامي السوري، مع تأمين طرق وصوله إلى الثوار في الجزائر، وبخصوص عمليات جمع الأموال لفائدة الثورة الجزائرية، يذكر المجاهد أحمد توفيق المدني وهو أحد أصدقاء عبد الحميد مهري، بأنه تم تشكيل هيئة شعبية بدمشق كلفت بجمع الأموال لصالح الثورة الجزائرية وتسليمها إلى مكتب الجبهة بالعاصمة السورية دمشق، الذي يقوم بدوره بضخها في الحساب البنكي الخاص بمكتب الجبهة بدمشق، وقد كان يشرف على هذه العملية الرئيس السوري شكري القوتلي شخصيا، ونظرا للمكانة التي احتلها وفد جبهة التحرير الوطني بسوريا عند الرئيس السوري، قام هذا الأخير بتسليم صك مالي بقيمة 1,800,000 ليرة سورية و132,13049 دولار أمريكي إلى السيد عبد الحميد مهري رئيس مكتب جبهة التحرير الوطني بدمشق.

استطاع السيد عبد الحميد مهري في الجمهورية العربية السورية، أن يكون شبكة من العلاقات مع كبار الشخصيات السورية من مختلف المشارب الفكرية والسياسية، وحتى بين وسط المجتمع الدمشقي، الذين مازالوا يحتفظون له في ذاكرتهم بمشاعر الصداقة التي ربطها مهري معهم، ومن أبرز الشخصيات السورية والعربية التي أرتبط مهري بصداقتها، نذكر على وجه الخصوص الرئيس السوري شكري القوتلي والسيد عبد الحميد سراج وزير الداخلية ونوري الأبرش رئيس لجنة دمشق لأسبوع الجزائر والمفكر العربي ميشيل عفلق، وأكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية وكمال حسني وزير التربية والتعليم وعبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية.

2 - إسهامات ومواقف عبد الحميد مهري المغاربية

أبدى المجاهد عبد الحميد مهري ميلا مبكرا للعمل السياسي المغاربي المشترك لمواجهة أساليب السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي، منذ التحاقه باللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية مع مطلع خمسينيات القرن العشرين، ولذلك ليس من الغرابة أن نجده يتأثر لاستشهاد البطل النقابي

فرحات حشاد، بعد اغتياله من طرف إحدى المنظمات الإرهابية الفرنسية، وخلد هذا الحادث في مقال نشره في جريدة المنار، وهذا دليلا على أنه كان منشغلا بما كان يقع من أحداث في المغرب العربي.

2.1 - علاقات عبد الحميد مهري بنشطاء لجنة تحرير المغرب العربي (دعاة العمل العسكري الموحد).

أما فيما يتعلق بنشاط وإسهامات عبد الحميد مهري المغاربية، فيمكن التأريخ لها أيضا مع بداية خمسينات القرن الماضي وفي هذا السياق يروي المرحوم المجاهد محمد بوضياف أنه بعد إعادة تنظيم المنظمة الخاصة عام 1952، أصبح نشطاء المنظمة في علاقات روابط مع حركات التحرر في تونس والمغرب، وضمن هذا الإطار أضاف بوضياف، أنه حل بالجزائر حينذاك ضابطان من منطقة الريف المغربي وهما: الهاشمي طود وحمادي الريفي، وكان الاثنين على اتصال بجهات ثلاث : الأمير عبد الكريم خطابي، ومصالح المخابرات المصرية وبعض ممثلي حزب الشعب الجزائري بالقاهرة، كلفهم الأمير عبد الكريم الخطابي رئيس لجنة تحرير المغرب العربي، بالإعداد لعمل ثوري منسق على مستوى الأقطار المغاربية الثلاث (الجزائر- تونس- المغرب)، واتصلا الاثنين بقيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ولكن هاشمي الطود حمادي الريفي لم يجدا التجاوب المطلوب ولم ييأسا، ولذلك اتصلا بطريقة غير رسمية بالأخ المجاهد عبد الحميد مهري عضو اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، الذي أستطاع أن يرتب لهما لقاء مع - المتحدث بوضياف - وحضر اللقاء الشهيد ديدوش مراد، وكان فحوى اللقاء حول بحث سبل وطرق عملية تنسيق الكفاح المسلح على مستوى المغرب العربي، وتحدث عبد الحميد مهري عن هذه القضية وأضاف أن هذا الاجتماع أفضى إلى اتفاق حول إعداد خطة عمل موحدة لإشعال الثورة في كامل المغرب العربي، وحسب الخطة فإن الكفاح المسلح ينطلق في خريف 1953 وتكون البداية من المغرب ثم تونس ثم يلتحق الجزائريون بإخوانهم المغاربة والتونسيين، غير أن انفجار مستودع صنع الذخيرة في الأوراس أجل الأمر إلى غاية نوفمبر1954.

2.2 - أسباب فشل مشروع الكفاح المسلح المغاربي المشترك حسب شهادة عبد الحميد مهري

يتفق أبرز الباحثين المختصين في تاريخ المغرب العربي المعاصر، على أن من بين أسباب فشل مشروع الكفاح المسلح المغاربي المشترك الذي كانت تدعو

إليه لجنة تحرير المغرب العربي بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، يعود إلى تلك التناقضات الإيديولوجية التي كانت موجودة بين أعضاء وقيادات مكتب ولجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة، حيث أن اللجنة لم تجد الدعم السياسي والإيديولوجي لتنفيذ مشروعها خاصة بعد منح فرنسا الاستقلال الذاتي للمغرب وتونس عام 1956، وما يفسر هذا هو قيام قيادة لجنة تحرير المغرب العربي إعادة تجديد ميثاق اللجنة شهر ابريل 1954، الذي كرس تراجعا عن أهداف الميثاق الأول اللجنة، ويؤكد المجاهد عبد الحميد مهري هذا الطرح حيث يقول: ((...أن جبهة التحرير الوطني وقعت مع بداية عام 1955، اتفاقا سريا تماشيا مع ميثاق القاهرة، مع علال الفاسي وصالح بن يوسف، حول انضمام ومشاركة تونس والمغرب إلى جانب الجزائر في الكفاح المسلح ضد فرنسا...))، وحول أسباب فشل هذا المشروع يذكر مهري أن هذا الاتفاق لم يكتب له النجاح، بسبب قبول الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة والملك محمد الخامس بالاستقلال المشروط لعام 1956، ويرجع مهري أن هذا السلوك التونسي والمغربي كان ناتج عن وجود اختلاف أساسي في تصور المعركة ضد الاستعمار مضيفا أن هذا الاختلاف كان قائما بين هذه الأطراف الثلاثة (حزب الدستور التونسي الجديد – حركة انتصار الحريات الديمقراطية – حزب الاستقلال المغربي) منذ الحرب العالمية الثانية بين قيادات مكتب المغرب العربي ولجنة التحرير، ويؤكد مهري أن حزب الاستقلال وحزب الدستور التونسي الجديد كانا يعتمدان على العمل السياسي في الداخل والخارج وخاصة باتجاه الرأي العام الفرنسي والعالمي، ويميلان إلى صيغة مرنة من الوحدة بين الأحزاب الوطنية في المغرب العربي تتجلى في مستوى الأهداف البعيدة أكثر مما تتجلى في مجال الإستراتيجية العامة للحركة، في الوقت الذي كانت فيه حركة انتصار الحريات الديمقراطية تعمل على توحيد المعركة في المغرب العربي والذي أتسم بأكثر راديكالية.

3 - الدور الدبلوماسي للمجاهد عبد الحميد مهري في تفعيل نشاط جبهة التحرير الوطني في المغرب العربي لصالح القضية الجزائرية

استطاعت جبهة التحرير الوطني أن تكسب الدعم وتلقى المساندة الشعبية بين أوساط المجتمع المغاربي خاصة بعد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956، الذي رسم إستراتيجية واضحة للعمل على مستوى المغرب العربي، فقد نص المؤتمر وهو ثاني وثيقة رسمية للثورة الجزائرية، بعد بيان أول نوفمبر 1954، على ضرورة تمتين جبهة المغرب العربي، كضرورة إستراتيجية في الحاضر والمستقبل.

وفق هذه الإستراتيجية دعمت جبهة التحرير الوطني بعد مؤتمر الصومام، بهيئات

جديدة تمثلت في المجلس الوطني للثورة الجزائرية (CNRA)، ولجنة التنسيق والتنفيذ (CCE)، التي أصبحت تعمل على مواجهة وإحباط مناورات السياسة الفرنسية في المغرب العربي، وذلك من خلال السعي لتوحيد المواقف السياسية بين مسئولي الأقطار الشقيقة (تونس- المغرب)، وكانت الخطط التكتيكية التي تتوخاها جبهة التحرير في هذا المجال هي تحقيق المطامح العميقة التي تحرك شعوب الأقطار الثلاثة إلى وحدتها.

وضمن هذا المخطط المتكامل اختارت قيادة الثورة المجاهد عبد الحميد مهري لعضوية المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ منذ عام 1956، حيث كلف بملف المغرب العربي والملاحظ أن اختيار مهري لهذه المهمة، لم يأت عفويا وإنما جاء لاعتبارات موضوعية تمثلت أساسا في معرفته واطلاعه على خبايا السياسة الفرنسية في المنطقة، وأيضا إلى تلك الشبكة من علاقات الصداقة التي كانت تربطه مع التونسيين والمغاربة منذ أن كان طالبا في جامع الزيتونة وفي القاهرة ودمشق بعد التحاقه بالوفد الخارجي للثورة، حيث كان تربطه علاقات صداقة مع أبرز الشخصيات المغاربية.

لذلك نلاحظ أن نشاط مهري سينتقل من المشرق العرب إلى منطقة المغرب العربي، ولعل ما يفسر هذا الانتقال هو أهمية المغرب العربي بالنسبة للثورة الجزائرية، خصوصا بعد تعثر محاولات الرئيس الحبيب بورقيبة والملك محمد الخامس، في إيجاد حل للقضية الجزائرية داخل الإطار الفرنسي المغاربي الذي كانت ترفضه جبهة التحرير، وكانت هذه المحاولات تتم دائما تحت الغطاء المغاربي، لكن بعد تطور الإحداث وتسارعها مع مطلع 1958 في المنطقة خصوصا مع اشتداد المعارك مع فرق الجيش الفرنسي على الحدود الجزائرية التونسية، والتي انتهت بمجازر ساقية سيدي يوسف فيفري 1958 وما تركته من أثار سلبية على العلاقات التونسية الفرنسية، وصولا إلى انقلاب جنرالات فرنسا على حكومة الجمهورية الرابعة، وعودة الجنرال ديغول إلى حكم فرنسا، وانتعاش مشروع الوحدة العربية الذي دعا إليه جمال عبد الناصر في المشرق العربي، ومعه ازدادت مخاوف الحبيب بورقيبة ومحمد الخامس من هذا المشروع الذي أصبح يهدد الدول القطرية في المغرب العربي، خاصة وانه يحمل أفكارا تتقاطع مع أهداف الثورة الجزائرية ونظرتها الوحدوية لمستقبل المغرب العربي، في هذا السياق دعا حزب الاستقلال المغربي إلى عقد مؤتمر مغاربي لمعالجة مشاكل المغرب العربي، فهل ستلبي جبهة التحرير الوطني هذه الدعوة؟ وما هي الأسباب التي كانت دافعا وراء هذه المشاركة؟

هذه الأسئلة أجاب عنها المجاهد عبد الحميد مهري باعتباره احد الأعضاء البارزين في الوفد الذي مثل جبهة التحرير الوطني في أشغال مؤتمر طنجة المغاربي، للإشارة

فان شهادات مهري حول هذا الموضوع والتي سيأتي ذكرها لاحقا، قد نشرت في العديد من الجرائد الجزائرية والمجلات العربية، ومضمون هذه الشهادات يمكن تناوله كما يلي :

3.1 - أسباب مشاركة جبهة التحرير الوطني في أشغال مؤتمر طنجة المغاربي-طنجة 30-27 أفريل 1958 حسب شهادة عبد الحميد مهري:

إن قبول جبهة التحرير الوطني دعوة المشاركة في مؤتمر طنجة المغاربي 1958، فجر رأيين مختلفين داخل قيادة جبهة التحرير الوطني، فالرأي الأول عارض حضور الجبهة المؤتمر على أساس أنه مؤتمر انفصالي وأن الثورة التحريرية ذات العمق العربي، لا يجب عليها أن تزكي نزعه انفصالية وهي إشارة إلى انفصال المغرب العربي عن المشرق العربي، ومن ذلك كانت حساسية النظام البورقيبي في تونس والملكي في المغرب من الثورة المصرية، ومشروع الوحدة العربية التي كان ينادي بها آنذاك الزعيم المصري جمال عبد الناصر، أما أصحاب الرأي الثاني وهم ينتمون إلى لجنة التنسيق والتنفيذ فكان لهم رأي آخر وهو ضرورة المشاركة في أشغال المؤتمر لسببين اثنين هما :

1. أهمية تونس والمغرب بالنسبة للثورة الجزائرية.
2. استغلال المؤتمر وتوجيهه لصالح الكفاح المسلح في الجزائر.

المجاهد عبد الحميد مهري أحد الوجوه السياسية البارزة والقريبة من أحداث هذه الفترة، لا ينفي أطروحة أصحاب الرأي الأول، حيث قال في إحدى شهاداته حول الملابسات التي أحاطت بمؤتمر طنجة 1958، وبهذا الخصوص أكد قائلا: ((...قد يكون هذا الشاغل موجودا بالفعل عند بعض القادة، لكن الاهتمامات الدافعة لعقد المؤتمر كانت أكثر اتساعا ومعظم هذه الاهتمامات متولد عن استمرار الحرب في الجزائر، وتفاقم خطر امتدادها إلى تونس والمغرب)).

ويضيف مهري المكلف بالشؤون الاجتماعية، عندما تحولت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى أقسام وزارية قبل انعقاد مؤتمر طنجة، حيث يرى أن منظور جبهة التحرير في المشاركة وحضور أشغال المؤتمر، كان ينطلق من أرضية مؤتمر الصومام 1956، الذي دعا إلى ضرورة إقامة علاقات مع حكومات المغرب العربي من جهة، ومع الأحزاب المغاربية من جهة أخرى، وفق متطلبات حرب التحرير التي تتطلب الحضور المكثف في منطقة المغرب العربي، وحسب هذا المنظور لخص مهري أهداف جبهة التحرير الوطني في المشاركة في أشغاله وعددها في النقاط التالية :

1 - تمتين التضامن ما بين الشعبين التونسي والمغربي والثورة الجزائرية.
2 - إثارة قضية وجود القوات المسلحة الفرنسية (القواعد العسكرية الفرنسية والغربية) في كل من تونس والمغرب، وتسخيرها في الحرب ضد الشعب الجزائري.

3 – المطالبة بجلاء القوات الفرنسية من تونس والمغرب، وهذا لتنشيط المعركة ضد كل مخلفات الاستعمار في المغرب العربي.
4 – التنديد بمساعدة الدول الغربية للاستعمار الفرنسي، وهذا من أجل تهيئة الرأي العام الدولي، لإدخال السلاح الوارد من الكتلة الاشتراكية، والذي قررت الجبهة السعي إليه منذ شهر أوت من عام 1957.
ومن هناك نقاط أخرى أكد عليها مهري أيضا، ويرى أنها ذات بعد استراتيجي ساهمت بشكل كبير في بلوغ الجزائر لنيل استقلالها :
1 – التمهيد لتشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) والإعلان عنها، وهو القرار الذي اتخذته لجنة التنسيق والتنفيذ قبل شهرين من انعقاد مؤتمر طنجة، وكان المؤتمر مناسبة سانحة للجبهة التحرير الوطني لاطلاع تونس والمغرب على قرار الجبهة بتشكيل حكومة مؤقتة واصدر المؤتمر توصية بهذا الشأن.
وبخصوص موضوع تشكيل الحكومة المؤقتة فان مهري ممثل وفد الجبهة في المؤتمر يذكر: ((أن جبهة التحرير الوطني لم تطلع الحكومتين التونسية والمغربية على القرار الذي أخذته قبل شهرين من انعقاد المؤتمر حول إنشاء الحكومة المؤقتة، حيث فضلت اطلاعهم على هذا القرار عن طريق الإيحاء بان يكون المؤتمر هو الذي يوصي بإنشاء حكومة جزائرية، وقد لجأ الوفد الجزائري إلى هذا الإخراج الملتوي حتى تضمن انطلاق الاعترافات بها بمجرد الإعلان عنها.)).
2 – المطالبة بعدم تسوية مشاكل الحدود بين الجزائر وجيرانها مع الحكومة الفرنسية، لما يتضمنه ذلك من اعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر، وضرورة تأجيل بحث هذه المشاكل، إلى أن تحل مع حكومة الجزائر المستقلة.
3 – المطالبة بالامتناع عن ربط أقطار المغرب العربي منفردة في المجال السياسية الخارجية والدفاع، واقتراح الصيغة الفيدرالية لإقامة الإتحاد بين الأقطار الثلاثة.
بعد الإعلان عن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية شهر سبتمبر 1958، كلف عبد الحميد مهري بحقيبة وزارة شؤون شمال أفريقيا، حيث استطاع أن يعالج بكفاءة عالية العديد من الملفات البالغة الدقة والحساسية، لارتباطها الوثيق بعلاقات مع الأنظمة الحاكمة في تونس والمغرب، ولعلى من أبرز هذه القضايا، مسألة تنفيذ قرارات مؤتمر طنجة التي أبدت تونس والمغرب في ندوة المهدية جوان 1958 تراجعا في تنفيذ ما اتفق عليه في طنجة، وتوتر علاقات جبهة التحرير مع الحبيب بورقيبة، عقب موافقة الحكومة التونسية على مرور أنبوب الغاز (أيجلي) على أراضيها، بعد امتناع طرابلس عن ذلك، وتوتر علاقات جبهة التحرير مع المملكة المغربية التي انساقت وراء المناورات الفرنسية، المتعلقة بالمفاوضات حول الحدود.
هذا بالإضافة إلى أن مهري بحكم تقلده لوزارة شؤون شمال إفريقيا كان غالبا ما

يشارك في العديد من اللقاءات الهامة التي جمعت ممثلي الحكومة المؤقتة والسفراء والمبعوثين الدبلوماسيين الأجانب للدول الكبرى المنشغلة بالمسألة الجزائرية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وغيرها من الممثليات الدبلوماسية المتواجدة في تونس والمغرب.

وفي التعديل الحكومي الأول للحكومة المؤقتة، عين مهري وزيرا للشؤون الاجتماعية، وحتى هذه الحقيبة في واقع الأمر كانت تعنى بالشأن المغاربي، على اعتبار أنها كانت تهتم بمشاكل اللاجئين الجزائريين الذين تضاعف عددهم في تونس والمغرب، مما جعل قيادة الثورة تخصص قطاع وزاري يهتم بالشؤون الاجتماعية لهذه الفئة والفئات الاجتماعية الأخرى داخل الجزائر.

التي أصبحت تتلقى المساعدات الإنسانية الدولية من طرف الهيئات والمنظمات العالمية ذات الطابع الإنساني على غرار منظمة الصليب الأحمر الدولي، ومنظمة الهلال الأحمر وغيرها من المنظمات الأخرى، لذلك كان من الضروري تخصيص وزارة للشؤون الاجتماعية، دورها تنفيذ برنامج الثورة الاجتماعي وتنظيم العلاقات مع المنظمات والهيئات الدولية، والسهر على حماية وتسيير مخازن المؤن والمساعدات الغذائية والطبية، المتواجد بالقواعد الخلفية للثورة في تونس والمغرب، وكان مهري الرجل المناسب في تسيير هذه الوزارة، التي واصلت أداء مهامها إلى أن نالت الجزائر استقلالها عام 1962.

تقـــاريـــر

تقرير حول تظاهرة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة 2011

نقدم فيما يلي تقريرين حول تظاهرة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة 2011، الأول يتضمن عرض موجز لكنه شامل لمختلف النشاطات والفعاليات التي عرفتها هذه التظاهرة المتميزة والتقرير الثاني يتعرض بالتحليل للفعاليات التي ساهمت بها جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان في إطار هذه التظاهرة.

أ – تلمسان تشعّ بثقافتها عاصمة للأمة الإسلامية على مدار 2011

أ. عبد الكريم أوزغلة
جامعة الجزائر2

عاشت تلمسان على مدار أيام العام الميلادي 2011 لا باعتبارها مدينة كبرى من مدن الجزائر وحسب، ولكن فضلا على ذلك، باعتبارها حاضرة من حواضر الإسلام وعاصمة ملهمة من عواصمه العريقة. وهو ما تطلب تسطير برنامج نشاطات ثري يسلط الأضواء على تاريخ تلمسان السياسي والثقافي والأدبي والفني ودورها في نشر الاسلام وتوطيد أركانه والإشعاع بأنواره مشرقا ومغربا عبر حقب التاريخ المتعاقبة.

ولتحقيق هذا الهدف السامي بالنسبة إلى الجزائر، نصبت وزارة الثقافة 12 دائرة تمثلت مهمتها في السهر على تنفيذ برنامج فعاليات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011.

أسهمت الدوائر المشكلة للجنة التنفيذية لفعاليات التظاهرة، حسب اختصاص كل منها، في إنجاح العرس الثقافي والفني لتلمسان والجزائر والعالم الإسلامي في عام 2011. وقد شملت هذه الدوائر:

– دائرة إصلاح وتعزيز التراث الثقافي والتاريخي، وتكفلت بعمليات ترميم مختلف معالم وآثار تلمسان كالدروب والمساجد العتيقة، وآثار المنصورة وضريح سيدي بومدين وقلعة المشور، وغيرها، التي تجاوزت في مجملها 80 معلما تاريخيا، تمثل مختلف الحقب التاريخية.

– دائرة مشاريع البنية التحتية، وساهمت هي الأخرى في تعزيز المنشآت الثقافية بتلمسان، من خلال إنجاز عدد من المرافق الجديدة، أبرزها قصر الثقافة بالإمامة، ومركز الدراسات الأندلسية، الذي يعتبر الأول من نوعه بالعالم العربي والإسلامي، وأيضا أروقة المعارض بالكدية، ومسرح الهواء الطلق، والمكتبة الجهوية التي أطلق عليها اسم «محمد ديب»، إضافة إلى قيامها ببعث بعض المرافق الأخرى، كقاعة سينما تشندرلي، ومدرسة تلمسان، ومتحف المدينة.

– دائرة الكتاب والأدب لقد دعمت المكتبة الوطنية بنحو 360 عنوان جديد، تم إصدارها وطباعتها تزامنا مع الحدث، منها كتب ومؤلفات تتحدث عن تاريخ حاضرة تلمسان، وشخصياتها، وأيضا عن مراحل من تاريخ الجزائر، خاصة وأن التظاهرة تزامنت أيضا مع خمسينية عيد الاستقلال.

– دائرة المسرح، أشرفت هذه الدائرة على تقديم نحو 40 عرضا مسرحيا، في شكل عروض شرفية، بمعدل عرض واحد كل أسبوع.

– دائرة السينما، وتكفلت هي بتجسيد برنامج العروض السينمائية، التي وصل عددها إلى 30 شريطا وثائقيا.

– دائرة المعارض، وأشرفت على سلسلة من المعارض الوطنية والدولية، التي أقيمت بمتحف الفن والتاريخ، وأيضا أروقة المعارض وقصر الثقافة.

– دائرة الملتقيات، وكانت بارزة من خلال تنظيمها لـ 14 ملتقى دولي حضره أكثر من 700 باحث. وأوضح سليمان حاشي رئيس هذه اللجنة أن الهيئة التي أشرفت على تحضير هذه الملتقيات ضمت إطارات من جامعة تلمسان، والمركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ والإنسان وتمحورت المواضيع الرئيسية التي تم تناولها بالدراسة والبحث حول تاريخ وحاضرة تلمسان، إضافة إلى علمائها وباحثيها ومفكريها وأدبائها، الذين تركوا بصمات خالدة في صفحات سجل تلمسان الحضاري. وهو ما سمح بنفض الغبار عن تاريخ حاضرة تلمسان، كما أضاءت جوانب أخرى عن حضارة الزيانيين كانت مجهولة لدى الجمهور، فضلا عن إبراز دور العلماء والفقهاء، والمثقفين التلمسانيين وكذا من مروا بتلمسان من أعلام الإسلام والإنسانية عبر العصور. وهو ما حدث على سبيل المثال، خلال ملتقى الأمير عبد القادر، الذي كشف عن أجزاء مهمة في تاريخ هذه الشخصية العلمية الصوفية، التي لا تزال محل بحث من قِبل أكاديميين وباحثين في عديد الجامعات العربية والأوروبية.

– دائرة التراث اللامادي والكوريغرافيا، التي تركت بصمة واضحة، في التظاهرة، من خلال عروض متنوعة حول التراث اللامادي وصلت

إلى 13 عملا، عرضت هي الأخرى شرفيا بدور العرض بتلمسان، إلى جانب مجموعة من الأنشطة خاصة «النوبة الأندلسية».

– دائرة المهرجانات والنشاط الثقافي الجواري، وبالنسبة لهذه الدائرة فقد ساهمت في إقامة السهرات الفنية في عدة ولايات شارك فيها فنانون معروفون، وآخرون شباب يمثلون مختلف الطبوع الموسيقية ببلادنا.

– دائرة الأسابيع الثقافية الوطنية والدولية، برزت نشاطاتها من خلال استضافة 28 دولة كانت بدايتها بتركيا، وخاتمتها بدولة فلسطين، إضافة إلى مشاركة 47 ولاية في 17 أسبوعا ثقافيا، نظمت بين قصر الثقافة ودار الثقافة بتلمسان، وكذلك كانت هنالك مديرية الاتصال وتكفلت بتدوين كل الفعاليات من خلال مجلة الجوهرة، التي صدر منها 27 عنوانا، باللغة العربية، و24 عددا باللغة الفرنسية والانجليزية، وكانت مجلة نصف شهرية، أرخت لكل الأنشطة، والبرامج، كما تضمنت حوارات مع عدة شخصيات، وأعضاء الوفود المشاركة في التظاهرة.

وفي تقييمه لفعاليات التظاهرة، التي أسدل عليها الستار رسميا في 25 أفريل 2012، أكد المنسق العام للتظاهرة، السيد عبد الحميد بلبلدية، أن التظاهرة كانت ناجحة بشهادة ضيوف تلمسان، مذكرا بأنه تم تنفيذ البرنامج المسطر في اختصاصات كل دائرة من دوائر التظاهرة بنجاح كبير.

ب- تلمسان عاصمةً للثقافة الإسلامية: مساهمة جامعة تلمسان

د. عبد المجيد بوجلة
جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان– الجزائر

إن حدثا كبيرا بحجم تظاهرة عاصمة الثقافة الإسلامية الدولية جعل مدينة تلمسان موضع العناية والاهتمام، حيث أصبحت مقصدا مفضلا للباحثين والمبدعين والمفكرين والفنانين... مما جعلها تستضيف على مدى سنة كاملة العديد من الوفود القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي وغير الإسلامي؛ كما رصدت لها الأموال اللازمة لتثمين وترميم التراث الأثري المتواجد بها والاستفادة من مشاريع جديدة ألبستها ثوبا ورونقا جديدا. نذكر في هذا الإطار إنجاز قصر للثقافة بهندسة معمارية أندلسية غاية في الجمال ومركز للبحوث والدراسات في الموسيقى الأندلسية، ومرافق فندقية جديدة بالمعايير الدولية على شاكلة الماريوت الدولية ومتحف جديد وإعادة إحياء قاعة سينما المدينة التي أصبحت تحمل اسم عبد القادر شندرلي.

وعن التظاهرة من حيث جوانبها التنظيمية فقد أُنشئت لجنة تنفيذية يرأسها المنسق العام للتظاهرة وتتفرع عنها عشر دوائر من بينها دائرة الملتقيات.
ولاعتبارات موضوعية عملت دائرة الملتقيات على التنسيق المباشر مع جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان وهذا فيما يخص التنظيم والإشراف على جريان هذه الفعاليات. مع العلم أن جامعة تلمسان عملت إلى جانب المساهمة في إنجاز هذه الملتقيات الدولية على تحضير برنامج علمي خاص بها بمناسبة هذه التظاهرة، شمل العديد من الملتقيات العلمية والأيام الدراسية. وبالإضافة إلى ذلك تم تنظيم عملية تواصل عن بعد بواسطة Visio-Conférences بين طلبة الجامعات الاسلامية وطلبة جامعة تلمسان، وذلك بهدف نقل الحقائق التاريخية والقيمية عن الحضارة الإسلامية وإبراز كيف ميزت ثقافة الحوار والتسامح مراحل كثيرة من الحضارة الإسلامية.
وإلى جانب هذه النشاطات العلمية خصصت جامعة أبي بكر بلقايد جانبا من برنامجها إلى :
– الكتب والاصدارات، حيث كلفت الجامعة عددا من الأساتذة بالتفرغ لتأليف كتب في موضوعات مختلفة ذات صلة مباشرة بتلمسان من جهة ومن جهة ثانية باشرت في تحقيق تجربة أولى من نوعها تقضي بإعادة طبع 200 عنوان في تاريخ الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وهي كلها من إنتاج المدرسة التاريخية الفرنسية كما تم جمع عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر العاصمة وعن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة التحرير التابع لوزارة المجاهدين وعن الجامعات الجزائرية المختلفة عددا معتبرا من الكتب أكثرها كتابات تاريخية تمثل المدرسة التاريخية الجزائرية.
– الأرشيف، حيث تم تقديم معرض خاص بأرشيف تلمسان ونواحيها المتواجد بأرشيف Aix –en- Provence، ومعرض للمخطوطات لأكثر من 200 مخطوط، ومعرض للصور اشتمل على أزيد من 8000 صورة لمدينة تلمسان ونواحيها ولمدن جزائرية.
– نشاطات خاصة بالطلبة، حيث أطلقت رئاسة الجامعة مع بداية التظاهرة إعلانا لطلبة الجامعة ممن يتمتعون بمواهب فنية خاصة بالعمل على تقديم أنشطة في فن الخط العربي – الكاليغرافيا– وفن الرسم والنحت والمسرح، والموسيقي.
– الأشرطة والأفلام الوثائقية، شهدت التظاهرة إنجاز العديد من المشاريع التي كانت تعرض أسبوعيا وفي مواعيد مختلفة لفائدة الجمهور العريض التلمساني والوافد من مختلف ولايات الوطن ومن الخارج، والجدير بالإشارة مشاركة جامعة تلمسان في إنجاز بعض الأشرطة الوثائقية التاريخية أبرزها الذي صور

مسيرة مدرسة دار الحديث بتلمسان التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وملحقتها مدرسة عائشة.

ونظرا لما شهدته تلمسان خلال سنة 2011 من تفاعل علمي وفني وثقافي عميق وثري، نجد الانطباعات التي عبر عنها الوافدون إلى تلمسان كلها إيجابية ؛ وهذا سواء من طرف ضيوف الجزائر الذين جاؤوا من أبعد الأمصار في إطار الملتقيات والمؤتمرات العلمية أو الأنشطة الفنية المختلفة للأيام والأسابيع التي نشطتها وفود دول كثيرة من ماليزيا إلى تطوان ومن كندا إلى أقصى أمريكا اللاتينية ومن أوربا والقارة السمراء أو من طرف المحليين الجزائريين وهذا ما جعل تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية بامتياز.

تقرير حول المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس (الدوحة 2012) من خلال الصحافة القطرية

د. محمد صالح بني عيسى

قسم العلوم السياسية، كلية الاداب والعلوم، جامعة الشرق الاوسط، عمّان – الاردن

المقدمة

في ظل هذه الهجمة الاستيطانية الشرسة، والتحديات الخطيرة التي تواجه المواطن المقدسي والمخططات التهويدية الاستعمارية الهادفة لطمس هوية مدينة القدس العربية، استضافت الدوحة وعلى مدار يومين مؤتمر الدوحة الدولي حول القدس بحضور أكثر من 350 من الشخصيات العربية والدولية يمثلون نحو 70 دولة بالإضافة إلى رموز وخبراء وباحثين ومؤرخين وقانونيين عرب وأجانب ينتمون لكافة الأديان السماوية.

وتأتي أهمية مؤتمر الدوحة من خلال الظروف الراهنة التي تمر بها المنطقة العربية والتحولات التي تعيشها دول المواجهة مع إسرائيل خاصة مصر وسوريا، وكان يتطلع الرأي العام العربي أن يسهم المجتمعون بالدوحة في التركيز على قضية القدس ووضعها في بؤرة الاهتمام الإقليمي والدولي بما يتناسب وحجمها الحقيقي، والتركيز على إبراز الحقائق التاريخية والجوانب القانونية حول مدينة القدس، والعمل على تعميق دور المجتمع المدني في الدفاع عن المدينة وحمايتها.

وعلى مدار يومي المؤتمر ناقش المجتمعون وضع القدس من خلال أربعة محاور أساسية تغطي كافة جوانب القضية وهي : القدس والقانون الدولي، القدس والتاريخ، القدس والاستيطان الانتهاكات الإسرائيلية، القدس ومنظمات المجتمع المدني. سعى مؤتمر الدوحة إلى إقرار حزمة من خطط التنمية للقطاعات المختلفة لتعزيز صمود المقدسيين، والتأكيد على دعم الدور المركزي لمدينة القدس ثقافياً وسياسياً واقتصادياً.

وبشأن التعويض لخسائر الاقتصاد المقدسي والفلسطيني التي بلغت نحو 48 مليون دولار وفقاً لآخر المؤشرات الاقتصادية، طرح المؤتمر ما أقره اجتماع القمة العربية في سرت من صرف 500 مليون دولار لتمكين سكان المدينة من الصمود والثبات والحفاظ على مدينتهم وهويتها العربية والإسلامية والمسيحية، فالأرقام تؤكد أن هناك تباطؤا كبيرا في تنفيذ هذه الالتزامات، والدول العربية أسهمت حتى الآن بمبلغ 37 مليون دولار فقط، أي بنسبة لا تتعدى 7 % من المبلغ المخصص. إلا أن دولة قطر سعت إلى المساهمة في صمود سكان مدينة القدس، وذلك من خلال اللجنة القطرية الدائمة لدعم القدس وهي لجنة تجتمع سنوياً

في الدوحة وتقر مساعدات للمؤسسات المقدسية الصحية والتعليمية، وتوجت تلك الجهود بمكرمة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر بإقامة وقفية لمدينة القدس وهي عبارة عن برج يتكون من 106 طوابق يبنى الآن في مدينة الدوحة وسوف يرصد ريعه لدعم المدينة المقدسة.

وتأسيسا على هذه الحقائق والشعور بأهمية جمع الأمة بكل طاقاتها وأطيافها حول قضيتها المركزية فلسطين، ودرّتها القدس عاصمة دولة فلسطين، انعقد في رحاب دوحة العرب، وبرعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني،"مؤتمر القدس الدولي السنوي العاشر"، بهدف وضع منهجية عملية وجادة لمواجهة أخطار العدوان الصهيوني المتكرر على القدس ومقدساتها الدينية الإسلامية والمسيحية، ولوضع الأمة أمام مسؤولياتها في التصدي بكل قوّة لهذه المخططات، يدفعها الى ذلك واجبها الديني والأخلاقي والوطني والقومي، وصولا إلى تشكيل حالة إسناد لهذه القضية المقدّسة، قضية القدس وفلسطين.

لمحة تاريخية

عندما جاء عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بنى على قبة الصخرة مسجدا انتهى العمل به عام 691 ميلادي وجعل القبة ذهبية كي تتميز عن قباب الكنائس المنتشرة في القدس، ثم بني الخليفة الوليد بن عبد الملك على الموقع العتيق للمسجد الأقصى عام 709، أي المسجد بوضعه الحالي، بحسب المؤرخ من القرن العاشر محمد بن أحمد شمس الدين المقدسى الذي ذكر إن القدس ازدهرت فى زمن الدولة الأموية فى مختلف الميادين وزارها معظم خلفاء بني أمية وعدد كبير من الخلفاء العباسيين وأقاموا في ساحات الحرم القدسي الشريف المدارس لتعليم القرآن الكريم وعلوم الدين، والبيوت للدارسين الذين يأتون من الخارج طلبا للعلم والمعرفة، وتم حفر عشرات الآبار لجمع مياه الأمطار، كما تم رصف طرقات المدينة بالحجارة وبناء الأسواق التجارية المسقفة وتشييد القناطر والقنوات لجرّ المياه من الآبار، إضافة لعدد من البرك والآبار لجمع مياه الأمطار، وما زال العديد من هذه العمائر موجودًا بالبلدة القديمة حتى اليوم.

أدى تفكيك الدولة الأموية 661 - 750م ولاحقا الدولة العباسية 750–878م إلى دويلات وإمارات متناحرة إلى ضعف الحكم العربي الإسلامي وفقدان الأمان والاستقرار في جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية الكبرى وبالتالي إلى ضعف العمل بالشريعة الإسلامية.

هذه الحال من ضعف الأمن والأمان الذي وصلت إليه الأراضي المقدسة كان ذريعة للأوروبيين الطامعين بالاستيلاء على الأراضي المقدسة فكانت سببا لنشوب الحروب الصليبية. انطلق الصليبيون في حملتهم الأولى سنة 1095

متوجهين إلى مدينة القدس، فوصلوها في سنة 1099 بعد خمسة قرون من حكم العرب المسلمين لبلاد الشام عموما والقدس بخاصة، وضربوا الحصار عليها فسقطت في أيديهم بعد شهر من الحصار، وقتل الصليبيون فور دخولهم القدس قرابة 70 ألفًا من المسلمين وانتهكوا مقدساتهم، استطاع صلاح الدين الأيوبى استرداد القدس من الصليبيين عام 1187 بعد معركة حطين، وعامل أهلها معاملة طيبة، وأزال الصليب عن مسجد قبة الصخرة، واهتم بعمارتها وتحصينها، لكن الصليبيين نجحوا في السيطرة على المدينة بعد وفاة صلاح الدين في عهد الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا إمبراطور روما وكانت القدس فى هذه الفترة قد ضعف شأنها وأفل نجمها وأصبحت مجرّد قرية عاديّة نظرًا لتراجع أهميتها الإستراتيجية، خصوصًا بسبب انهماك أولاد صلاح الدين بالنزاع فيما بينهم، وعدم تركيزهم على محاربة الصليبيين، وظلت القدس بأيدى الصليبيين 11 عامًا إلى أن استردها نهائياً الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 1244 تعرضت القدس لغزو التتار الخوارزميين عام 1244، الذين قضوا على القسم الأعظم من سكانها، ثم هُزم التتار على يد المماليك بقيادة سيف الدين قطز والظاهر بيبرس فى معركة عين جالوت عام 1259، وضمت فلسطين بما فيها القدس إلى السلطنة المملوكية التى حكمت مصر والشام بعد الدولة الأيوبية حتى عام 1517، وخلال هذه الفترة تعرّضت المدينة والمنطقة ككل لسلسلة من الزلازل وتفشّى فيها وباء الطاعون الأسود.

وقد دخلت جيوش العثمانيين فلسطين بقيادة السلطان سليم الأول بعد معركة مرج دابق فى سنة 1517، وأصبحت القدس مدينة تابعة للدولة العثمانية طيلة 400 سنة حتى سقوطها بيد قوّات الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى سنة 1917خلال الفترة الممتدة من عام 1831 حتى عام 1840، أصبحت فلسطين جزءً من الدولة المصرية التي أقامها محمد على باشا، وخلال هذا العهد أخذت الإرساليات والقنصليات الأجنبية تضع موطئ قدم لها في مدينة القدس، وفى سنة 1836، سمح إبراهيم باشا بن محمد علي، لليهود أن يعيدوا إنشاء أربعة معابد رئيسيّة، ومن ضمنها كنيس الخراب، كما استقر كثير من المصريين فى المدينة، وفى نفس الفترة قدمت وفود من المسلمين المغاربة واليهود من مدينة الجزائر وغيرها من مدن المغرب العربي، واستقرت فى القدس.

أخذت القوى العظمى فى العالم خلال عقد الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي تتدخل فى الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بشكل متزايد، بحجة حماية الأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وقد لعب القناصلة فى القدس دورًا كبيرًا في هذه المسألة. وفى عقد الستينيات أيضا أخذت المنازل تظهر خارج أسوار القدس بعد أن ازداد عدد سكان المدينة بفعل المهاجرين، ولإقامة منشآت أكثر

صحيّة مخصصة لاستضافة الحجاج المسيحيين، ومن المنشآت المهمة التي برزت خلال هذه الفترة، المجمّع الروسى سنة 1860، الذي خصص لاستقبال وإيواء الحجاج الروس الأرثوذكس.

سقطت القدس بيد الجيش البريطانى بقيادة الفريق أول إدموند ألنبى في سنة 1917، بعد أن تقهقر الجيش العثمانى مهزومًا أمامهم، وفى سنة 1922 منحت عصبة الأمم" حاليا منظمة الأمم المتحدة "، بريطانيا حق الانتداب على فلسطين وإمارة شرق الأردن والعراق، وأصبحت القدس عاصمة فلسطين تحت الانتداب البريطاني. منذ ذلك الحين دخلت فلسطين ومدينة القدس تحديدا فى عهد الانتداب البريطانى وكان من أبرز سماته زيادة أعداد المهاجرين اليهود إليها خاصة بعد وعد بلفور الذي أبرمته حكومة المملكة المتحدة مع ممثل الحركة الصهيونية، ثيودور هرتزل، مما أدى إلى استياء أهلها العرب من المسلمين والمسيحيين، فاندلعت الاحتجاجات في عامي 1926 و1929، وعُرفت الأخيرة بثورة البراق، فعمل البريطانيون على إخماد هذه الثورات، وساهموا فى جعل اليهود يستقرون فى المدينة عن طريق بنائهم لأحياء سكنيّة فى شمال وغرب المدينة، ولإنشائهم لعدد من مؤسسات التعليم العالي، مثل الجامعة العبرية ومستشفى هداسا.

أحيلت قضية القدس إلى الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، فأصدرت الهيئة الدولية قرارها في 29 تشرين الأول سنة 1947بتدويل القدس تحت رعايتها وإشرافها، وجاء في القرار أنه سوف يُطبّق طيلة 10 سنوات، وأنه بعد هذه الفترة سيتم إجراء استفتاء عام لتحديد نظام الحكم الذي يرغب أغلبية سكان المدينة بتطبيقه عليهم، إلا أن تطبيق هذا القرار لم يُكتب له أن يتم، فبعد أن أعلنت بريطانيا فى عام 1948 إنهاء الانتداب فى فلسطين وسحب قواتها، استغلت العصابات اليهودية المسلحة حالة الفراغ السياسى والعسكرى وأعلنت قيام دولة اسرائيل، فثار العرب عمومًا والفلسطينيون خصوصًا وأعلنوا الحرب على إسرائيل، ودخلت الجيوش العربية فلسطين ثم انسحبت من معظم المناطق التى كانت تحت سيطرتها وبقى الثوّار الفلسطينيون يخوضون معارك غير متكافئة مع العصابات الصهيونية المسلحة وبتسهيل من قوات الحلفاء "بريطانيا وفرنسا وامريكا".

كان من نتائج حرب سنة 1948 بين العرب والإسرائيليين أن استولت إسرائيل على ثلاثة أرباع أرض فلسطين التاريخية وقُسمت القدس إلى شطرين: الجزء الغربي الخاضع لإسرائيل، وسمي القدس الغربية، والجزء الشرقي الذي أخضع للإدارة الأردنية مع ما تبقى من أرض فلسطين التاريخية" حاليا الضفة الغربية لنهر الاردن"، بموجب قرار التقسيم الذي لم تلتزم به إسرائيل فاستولت على أجزاء أخرى من الأرض الفلسطينية خارج قرار التقسيم دون أن تفعل الدول

العربية شيئا سوى الشكوى الى عصبة الأمم حينذاك، فيما تم الحاق قطاع غزة إلى الإدارة المصرية، وفى شهر نوفمبر من نفس السنة، أقيمت منطقة عازلة بين شطرى القدس باتفاق بين الحكومة الأردنية وإسرائيل وجرى تعليم الحدود الفاصلة بين الشطرين على أن يبقى جبل المشارف "جبل المكبّر" تحت الاحتلال الاسرائيلى على الرغم من أنه يقع فى القسم الشرقى من المدينة، وبناءً على هذا، أقيمت الحواجز الاسمنتيّة والأسلاك الشائكة فى وسط المدينة ومرّت بالقرب من باب الخليل فى الجانب الغربى من البلدة القديمة، وأنشئت نقطة عبور شمال المدينة عُرفت بمعبر مندلباوم، وصارت العائلات المقدسية موزعة بفعل هذا القرار بين الشطرين.

خضعت أغلبية المواقع المقدسة في القدس للسيادة الأردنية، بما أن أغلبها يقع فى الشطر الشرقي من المدينة، فأجرت الحكومة الأردنية عددا من الإصلاحات والترميمات لمسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وسمحت للمسيحيين الأجانب بزيارة المقدسات المسيحية شرط خضوعهم للرقابة، أما اليهود فلم يُسمح لهم بدخول المدينة لاعتبارات سياسية وأمنية ودينية ومراعاة لمشاعر المقدسيين خاصة والفلسطينيين عامة. وأقدمت إسرائيل بعد قيامها عام 1948، على تدمير معظم القرى الواقعة غرب القدس، من أهمها: الملحة، ودير ياسين، وعين كارم، ولفتة، والقسطل، وأقامت مكانها العديد من المستوطنات التى أصبحت تشكل فيما بعد مناطق القدس الغربية، وهي: كفعات شاؤول، وحي كفعات مردخاى وبيت هيكرم، وجبل هرتزل، وكريات هيوفيل، وعميق زيفائيم، ويمين موشيه، وربحاميا، ونحلاؤوت، ومحانيه يهودا، ومئة سيعاريم، وروميما وكفعات رام.

أعمال المؤتمر

فقد اختتمت أعمال المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس التي استمرت على مدار يومين في العاصمة القطرية الدوحة؛ وقد طرحت اللجان الأربع المنبثقة عن المؤتمر الدولي حول القدس نقاشاتها حول القدس والتاريخ والقدس والقانون الدولي والقدس والانتهاكات الإسرائيلية ودور منظمات المجتمع المدني في الدفاع عن القدس وحمايتها.

وقد بحثت اللجنة الخاصة بدور منظمات المجتمع المدني في الدفاع عن القدس ثلاثة محاور:

- المحور الأول: يتعلق بدور الإعلام في خدمة قضية القدس إعلاميا والتصدي للانحياز للصهيونية في الغرب.

- المحور الثاني: يتعلق بحقوق الإنسان والبعد الديني.

- المحور الثالث: يتعلق بالتنمية.

وبشأن المحور الأول، اقترح المشاركون عددا من وسائل العمل لكشف الزيف الذي تقدمه بعض وسائل الإعلام الغربية حول القضية الفلسطينية وإنشاء مجموعات للتواصل الاجتماعي للإعلاميين لتبادل الأفكار. في حين بحث المشاركون فيما يخص المحور الثاني موضوع العنصرية الدينية التي يمارسها الإسرائيليون اتجاه المقدسيين والتي تمثل أحد أخطر أشكال العنصرية لأنها تتعلق بوجود الإنسان.

منوها الى إنه من الخطأ رفع منظمة الأمم المتحدة صفة العنصرية عن دولة إسرائيل، مضيفا أنه لا بد من التعامل مع إسرائيل بناء على هذه الصفة والعمل تحت هذا الشعار. ووجه دعوته لجميع الأحرار في العالم والنابذين للعنصرية للانضمام إلى دعوة المشاركين في مؤتمر الدوحة للدفاع عن القدس لمناهضة الممارسات التميزية والإقصائية التي تمارسها إسرائيل ضد المقدسيين بشكل خاص والفلسطينيين بشكل عام. أما بخصوص المحور الثالث الخاص بالتنمية، فقد تم الاتفاق على أن يعرض المقدسيون احتياجاتهم في مجال الصحة والتعليم والبنية التحتية وإعادة بناء البيوت المهدمة وترميم البيوت المتصدعة. في حين ناقشت لجنة التاريخ الوثائق الخاصة بالأرشيف العثماني التي تمثل وثائق مادية ثابتة تفيد بأنه ليس للإسرائيليين أي مبان أو تراث في مدينة القدس وهو ما يقتضي إعادة كتابة التاريخ حول مدينة القدس دون تزوير وتسويق لمفهوم الصهيونية وخداع العالم بفكرة الأرض الموعودة.

وقد شارك في هذه الجلسة نخبة مختارة من المؤرخين في العالم والقساوسة والحاخامات التي وجدت سبيلها في تبادل الآراء بشكل مفتوح وشفاف حول تاريخ المدينة المقدسة وتقييم مختلف وجهات النظر. وشدد المشاركون على أهمية أن تخرج هذه الوثائق التاريخية من مكنزها لإنارة الرأي العالمي بأن ما يجري من محاولات لطمس هوية القدس والاعتداء على الممتلكات الثقافية والتراثية من قبل الصهاينة يمثل جريمة لا بد للمنظمات الدولية المعنية بحماية التراث من اتخاذ الإجراءات والتدابير الكافية والضرورية لإيقافها.

وفي هذا السياق أشار الدكتور محمد الكحلاوي أمين عام اتحاد الأثريين العرب وأستاذ الآثار والحضارة في جامعة القاهرة إلى أن القدس هي مدينة محتلة وفقا لما جاء في جميع الوثائق الدولية، لافتا إلى خطورة المخطط الإسرائيلي الذي يسعى إلى تغيير ديمغرافية المدينة وزرع جغرافيا وتاريخ جديد وعزل المدينة عن أصحابها؛ وأضاف أن العالم يشهد الآن الإبادة للبشر والحجر.

ومن ناحيته قال البروفيسور انطونينو أستاذ التاريخ العربي بجامعة مدينة باليرمو الإيطالية إن القنصلية الايطالية قد لعبت دورا كبيرا في القدس وخاصة في السنوات الأولى من القرن العشرين وذلك بحكم العلاقات الوثيقة بين

الفاتيكان والمدينة المقدسة، مشيرا إلى الوثائق التي تمتلكها السلطات الإيطالية المؤرخة لعدد من الشخصيات التي عايشت فترة الحماية العثمانية. وأضاف هناك عدد من الوثائق التي تؤرخ لدور الصهاينة في إيطاليا والذي كان محدودا نظرا لقلة العنصر اليهودي هناك والقادم أغلبه من إسبانيا بعد الحملة الصليبية. حيث اقترح على اللجنة إنشاء تعاون بين الجامعات الإيطالية والعربية لإعادة كتابة التاريخ حول القدس والمقدسيين الذين تصورهم الكتابات الإسرائيلية على أنهم شعب خارج التاريخ، مناديا بضرورة إدراج هذا التاريخ الجديد في المناهج التعليمية في أوروبا.

ثمّن المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس اقتراح صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر الخاص بالتوجه إلى مجلس الأمن الدولي بغرض استصدار قرار يقضي بتشكيل لجنة دولية للتحقيق في جميع الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل منذ احتلال عام 1967 في القدس العربية، بقصد طمس معالمها الإسلامية والعربية. كما رحّب المؤتمر بدعوة سموه بجعل القدس وحريتها نقطة ارتكاز لكل الفلسطينيين والحفز لإتمام المصالحة الفلسطينية وإنهاء الانقسام وإعداد إستراتيجية شاملة وموسعة للقطاعات المختلفة والمشاريع التي تحتاجها مدينة القدس واستعداد دولة قطر للمشاركة بكل إمكانياتها في سبيل إنجاز هذه الإستراتيجية ووضعها موضع التنفيذ.

- توصيات نوقشت على هامش أعمال المؤتمر

1. الدعوة لإنشاء مركز معلومات لتوثيق الانتهاكات الإسرائيلية

دعت لجنة المجتمع المدني في المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس التي تضم خمسين ممثلاً يمثلون المنظمات غير الحكومية وعدد من الحكومات والخبراء في توصياتها التي رفعتها للمؤتمر إلى إنشاء مركز معلومات لتوثيق ونشر الانتهاكات في القدس والمتعلقة بسكانها وطابعها التاريخي بما في ذلك انتهاكات حقوق الإنسان وتدمير الممتلكات وتقيد حرية التنقل وتحطيم المؤسسات الاجتماعية وانتهاكات القانون الدولي المتعلقة بوضع المدينة حيث يساعد هذا المركز سكان القدس على أن يكونوا دعاة فعالين حول العالم وإلى إيلاء قضايا حماية الصحة والتعليم والسكن والتنمية الاقتصادية والتراث الثقافي للقدس أهمية شديدة معبرة في نفس الوقت عن القلق البالغ نحو الانتهاكات وعدم السماح بالوصول إلى الأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية.

كما ناشدت اللجنة منظمة اليونيسكو بأن يكون لها تواجد دائم في القدس

لحماية مواقع التراث العالمي والحفاظ على الطابع التاريخي للمدينة. وبهدف القضاء على عزلة المدينة القديمة دعت الى توفير الأموال لجهود إنقاذ الحياة ولتسهيل انتقال الفلسطينيين أبناء عام 1948 بين مدنهم ومدينة القدس وأن يسمح لهم بزيارة المدينة القديمة وتوفير المساعدة القانونية والمالية لتأكيد الملكية الفلسطينية للممتلكات وإمكانية شراء ممتلكات أخرى وإعادة الممتلكات التي صودرت. واستخدام الشراكة العامة والخاصة لتقوية الأوقاف من أجل خدمة التعليم وإنشاء آليه تضم الزعماء الدينيين بطريقة مناسبة لإدارة المواقع المقدسة بحيث ينطوي ذلك على احترام الطابع العالمي للديانات الثلاثة. كما أوصت اللجنة بالعمل لقضية القدس من خارج فلسطين من خلال تثقيف أبناء الوطن وصانعي السياسة بمأساة القدس والإجراءات المناسبة التي ينبغي إتباعها بما في ذلك تشجيع المنتجات الفلسطينية ودعم الدول العربية لها وتشجيع سكان العالم على زيارة القدس للسياحة والقيام برحلات من أجل التضامن والتعليم.

كما دعت اللجنة إلى اجتماعات للتضامن من قبل الرأي العام العالمي في يوم النكبة. وتكثيف الضغط على صانعي القرار من رجال السياسة والأكاديميين وصانعي الرأي وسائل الإعلام والرد عليها فيما يتعلق بعمليات التضليل والواقع في القدس الذي لا يتم التركيز عليه. والاهتمام بالقدس عن طريق معارض وأفلام الثقافة الشعبية والفنون. والتأكد من تحويل المبالغ من خارج القدس إلى المنظمات غير الحكومية فيها. وتشجيع توأمة المدن والمساجد والكنائس والمدارس وغير ذلك مع نظيرتها في القدس. وتشجيع أصحاب المهن مثل المدرسين والأطباء وغيرهم بتقديم خبراتهم من خلال إقامة مؤقتة في المدينة وتجميع المقدسيين من المهجر في القدس.

كما طالبت اللجنة بوضع آلية للتعاون والتنسيق بين المنظمات غير الحكومية ومناشدة الجامعة العربية بإنشاء جهاز مادي للتعاون بين المنظمات غير الحكومية داخل القدس وخارجها لضمان استمرارية ومتابعة العمل المثمر الذي تم في الدوحة ومن الممكن أن يتضمن هذا الجهاز تشكيل لجنة عمل.

2. الدعوة لإنشاء مركز أرشيف لوثائق القدس بالدوحة

أكدت لجنة القدس والتاريخ المنبثقة عن المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس في التوصيات التي أصدرتها في ختام أعمالها والتي رفعتها الى المؤتمر انها تتابع ببالغ القلق حملة التزييف والتهويد التي تقوم بها اسرائيل الدولة القائمة بالاحتلال لتاريخ مدينة القدس وتراثها وخاصة المزاعم الدينية والتاريخية والأثرية للمدينة المحتلة والتي تقوم بها آلتها الدعائية ومراكزها الأكاديمية والبحثية، وشددت على أهمية مواجهة مشاريع التهويد التي تعتمد على هذه المزاعم والأكاذيب والتزييف

لتاريخ هذه المدينة العربية وخاصة التاريخ والتراث الإسلامي والمسيحي فيها. وأكدت اللجنة أن جميع المواثيق الدولية أقرت أن الاعتداء على الممتلكات الثقافية للشعوب التي ترزح تحت الاحتلال بما فيها أماكن العبادة وهو مظهر من مظاهر الاعتداء العمد وهو أمر مخالف للمواثيق والقوانين والاتفاقيات الدولية، بما فيها اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949.

وقد شددت اللجنة في تقريرها على أن مدينة القدس مدينة عربية وفقاً للمصادر الموثوقة والموثّقه، بناها العرب منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ودعت اللجنة إلى تبني مبادرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر والتي تقضي بالطلب من مجلس الأمن الدولي تشكيل لجنة تحقيق دولية حول الخطط الإسرائيلية لتهويد القدس. وطلبت من جامعة الدول العربية وعبر المجموعة العربية في الأمم المتحدة تعميم التوصيات الصادرة عن اللجنة على جميع البعثات الدبلوماسية في الأمم المتحدة وإدراج هذه التوصيات ضمن وثائق الأمم المتحدة. واقترحت اللجنة إقامة مركز أرشيف يتولى مهمة جمع الوثائق الخاصة بالقدس وذلك تحت رعاية جامعة الدول العربية ويكون مركزه في العاصمة القطرية الدوحة ويضم مكتبة علمية ومكتبة الكترونية ومركز معلومات خاص بالمدينة المحتلة وذلك بهدف فهرسة وتحليل هذه الوثائق، وتوفير الدعم المالي اللازم له.ودعت الى تشجيع ودعم الدراسات الميدانية والنظرية وإقامة المعارضة المتعلقة بتاريخ وتراث وحضارة القدس.

وطلبت من منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) تفعيل قراراتها ذات الصلة بمدينة القدس والخاصة المتعلقة بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي والمسيحي في المدينة المقدسة، وذلك للضغط على إسرائيل الدولة القائمة على الاحتلال لإيقاف حفرياتها الأثرية وكل إجراءاتها التي تهدف إلى طمس الهوية العربية للمدينة المحتلة والتي تأتي في إطار مخططاتها التهويدية التي تستهدفها بسياسة الاسرلة أي تغيير أسماء الأحياء والشوارع من اللغة العربية إلى العبرية. ودعت المجتمع الدولي إلى الحفاظ على هوية القدس كمدينة عربية ومركز ديني مقدس لدى جميع الديانات السماوية وعدم المساس بأمنها واستقرارها وحرية أهلها وعبادتهم فيها والعمل على دعم صمودهم وإيقاف عملية تهجيرهم القسري الذي تمارسه إسرائيل ضدهم لخلق وقائع جديدة على الأرض كجزء من عملية تزوير تاريخها. وأكدت على ضرورة تفعيل قرار جامعة الدول العربية الخاص بتدريس مساق تاريخ القدس في الجامعات العربية كافة. وعلى ضرورة عقد اجتماع دوري للمؤتمر الدولي للدفاع عن القدس برعاية جامعة الدول العربية كل عامين.

3. إنشاء لجنة قانونية دائمة للدفاع عن القدس تحت مظلة جامعة الدول

العربية

أكدت لجنة القدس والقانون الدولي المنبثقة عن المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس في التوصيات التي رفعتها للمؤتمر أن الممارسات الإسرائيلية تجاه القدس وعموم الأراضي المحتلة تشكل خرقا لقواعد القانون الدولي المتعلقة بعدم مشروعية الاستيلاء على الأراضي بالقوة.وأوصت اللجنة باستمرار الدراسات القانونية حول القدس وضرورة تشكيل لجنة قانونية دائمة تحت مظلة جامعة الدول العربية تختص بتفعيل النتائج والتوصيات الواردة بهذا التقرير ودراسة ومتابعة وتوثيق الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة وتحديد الآليات اللازمة للدفاع عن القدس على أن يتم دعمها بوحدة للمعلومات يتم إنشاؤها بمقر جامعة الدول العربية بالتنسيق مع السلطة الفلسطينية.

وإعمالا لقواعد القانون الدولي دعت منظمة اليونسكو إلى تعيين بعثة دائمة في القدس لرفع تقارير دورية حول الاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات الإسلامية والمسيحية والممتلكات الثقافية خاصة إجراء الحفائر التي تشكل خطرا على آثارها وكافة التعديات الأخرى التي تسهم في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية والثقافية وتهويدها والتي باتت تمثل تهديدا للتراث الإنساني والحضاري القائم في مدينة القدس على النحو الوارد بقرارات المؤتمر العام والمجلس التنفيذي في اليونسكو ذاتها والعمل على تطبيق أحكام ميثاق اليونسكو في هذا الشأن.

وحول السيادة على مدينة القدس قالت اللجنة في تقريرها أن صك انتداب عصبة الأمم عام 1922 يؤكد سيادة الشعب الفلسطيني على فلسطين وان القدس هي في أرض تحت الاحتلال الأجنبي؛ فهي ارض فلسطينية محتلة وفقا للعديد من القرارات الصادرة عن مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ومؤتمر الدول الأطراف السامية في اتفاقيات جنيف لعام 1949 والتي ربطت بين المواقف من الاحتلال الإسرائيلي للقدس وباقي المناطق المحتلة وقضية الاستيطان وأن القوة لا تخلق القانون ولا ترتب حقوقا سيادية وإن إسرائيل كسلطة احتلال لا تملك السيادة على المناطق المحتلة إنما تبقى السيادة كامنة في يد الشعب الفلسطيني وموقوفة بفعل الاحتلال وأن مسألة ضم القدس تتسم بالبطلان وبالتالي يكون لدى الشعب الفلسطيني حق غير قابل للتصرف في تقرير الوضع المستقبلي لدولة فلسطين بما فيها القدس بوصفها عاصمة الدولة الفلسطينية.

وحول التطهير العرقي بمدينة القدس قالت اللجنة أن ممارسات الاحتلال الإسرائيلي السالف ذكرها والحصار الاقتصادي الخانق الذي تفرضه سلطات الاحتلال الإسرائيلية على السكان العرب بالقدس، وسياسة العقوبات الجماعية وهدم الإحياء القديمة والإرهاب الذي يمارسه المستوطنون ضدهم وغيرها من السياسات المنهجة التي تهدف إلى تهجير السكان العرب من مدينة القدس

وبناء المستوطنات بها وتهويدها وطمس هويتها العربية تعكس المحاولات المتعددة المستمرة لتفريغ القدس الشرقية من سكانها الفلسطينيين بما يشكل إحدى صور التطهير العرقي وتجاوز الأمر ذلك بفرض الأنظمة والتشريعات الرامية لطرد السكان ومصادرة الممتلكات مثل قانون أملاك الغائبين والذي يخول السلطات الإسرائيلية سلب أملاك المواطنين الفلسطينيين بالمخالفة لأحكام القانون الدولي العام وخاصة تلك المتعلقة بصلاحيات سلطة الاحتلال على الأقاليم التي تحتلها.
وأكدت أن الإجراءات التعسفية الإسرائيلية بما تشكله من انتقاص لحقوق المقدسيين وتمييز ضدهم وخرق لمبدأ المساواة جميعها تشكل تمييزا عنصريا ضد المقدسيين وان وجود المستوطنات يشكل نموذجا فاضحا للتمييز العنصري ضد الشعب الفلسطيني. وأكدت أن الممارسات الإسرائيلية ضد مدينة القدس تشكل تهديدا للسلم والأمن الدوليين وفقا لنص المادة 39 من ميثاق الأمم المتحدة وهو الأمر الذي يحتم تدخل مجلس الأمن لوقف هذا التهديد طبق لما صدر عنه من قرارات عديدة في هذا الشأن وفقا للصلاحيات المخولة له بالفصلين السادس والسابع من ميثاق الأمم المتحدة.
وحول مسؤولية إسرائيل كدولة احتلال قالت اللجنة ان الانتهاكات السالف ذكرها لقواعد القانون الدولي العرفي والتعاهدي وترتب مسؤولية إسرائيل المدنية عنها بما يستلزم وقف أعمالها غير المشروعة وإعادة الحال الى ما كان عليه فضلا عن تعويض المتضررين من السكان المدنيين الفلسطينيين وإعادة من تم تهجيره منهم كما ترتب ذات القواعد على كل من قام بأي من تلك الانتهاكات أو خطط لها أو حرض عليها أو أمر بها المسؤولية الجنائية الفردية وهي جرائم دولية لا يسقط الحق بشأنها بالتقادم.
وأكدت إن القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة سواء من قبل الجمعية العامة أو مجلس الأمن أو الهيئات الدولية الأخرى مثل اليونسكو ومحكمة العدل الدولية تجسد رفض المجتمع الدولي لإجراءات إسرائيل التهويدية بما فيها إقامة المستوطنات والتهجير القسري للفلسطينيين ومصادرة الأراضي واعتبار الإجراءات الإسرائيلية كافة في هذا الشأن باطلة وغير مشروعة.

4. الانتهاكات الإسرائيلية بحق المدينة المقدسة مخالفة للمواثيق الدولية

شددت اللجان الاربع: القدس والتاريخ، والقدس والقانون الدولي، والقدس والانتهاكات الإسرائيلية، ودور منظمات المجتمع المدني في الدفاع عن القدس، على ضرورة تبني مبادرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر، بتشكيل لجنة تحقيق دولية للتحقيق في الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل بقصد طمس معالم القدس الإسلامية والعربية.

- المطلب الاول: لجنة القدس والقانون الدولي

ناقشت لجنة القدس والقانون الدولي على هامش أعمال المؤتمر على مدار يومين موقف القانون الدولي من قضية القدس وقد خرجت اللجنة بالتوصيات التالية:

- ثمنت اللجنة اقتراح سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني الرامي إلى التوجه إلى مجلس الأمن بغرض استصدار قرار يقضي بتشكيل لجنة تحقيق دولية للتحقيق في جميع الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل منذ احتلال عام 1967 في القدس العربية؛ بقصد طمس معالمها الإسلامية والعربية.

- أكدت اللجنة على أن الممارسات الإسرائيلية تجاه القدس وعموم الأراضي المحتلة تشكل خرقا لقواعد القانون الدولي المتعلقة بعدم مشروعية الاستيلاء على الأراضي بالقوة.

- أكدت اللجنة على أن مسألة ضم الاحتلال الإسرائيلي القدس تتسم بالبطلان وبالتالي يكون لدى الشعب الفلسطيني حق غير قابل للتصرف في تقرير الوضع المستقبلي لدولة فلسطين بما فيها القدس بوصفها عاصمة الدولة الفلسطينية.

- شددت اللجنة على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وفقا لمواثيق حقوق الإنسان الصادرة عن الأمم المتحدة وعلى حقه في إقامة دولته المستقلة والتزام الأمم المتحدة بقبول عضوية فلسطين الكاملة.

- دعت اللجنة إلى تفعيل اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949، المتعلقة بحماية السكان المدنيين وقت الحرب وتلزم الدول الأطراف فيها بملاحقة مرتكبي الانتهاكات الإسرائيلية لقوانين وأعراف الحروب بحق الشعب الفلسطيني.كما دعت في هذا الإطار سويسرا إلى سرعة الدعوة لاستئناف وتفعيل اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949، التي أكد مجلس الأمن في قراره رقم 465 لسنة 1980 انطباقها على الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل منذ عام 1967.

- أكدت اللجنة أهمية حث دول العالم وخاصة الاتحاد الأوروبي على وقف جميع المساعدات والتعاملات التي تدعم الأعمال غير المشروعة التي تقوم بها إسرائيل في القدس بما فيها توسيع وبناء المستوطنات وتغيير التركيبة السكانية فيها.

- طالبت اللجنة منظمة "اليونسكو" بإرسال بعثة إلى القدس بغرض تسجيل الانتهاكات التي تمارسها سلطات الاحتلال خاصة ضد المعالم التراثية والثقافية والمقدسات الدينية.

- أكدت اللجنة دعم طلب فلسطين للحصول على عضوية كاملة في الأمم المتحدة، داعية الدول، التي لم تعترف بعد بفلسطين، إلى القيام بذلك. وشدَّدت اللجنة أيضا على أن إقدام إسرائيل على إتباع سياسة ممنهجة في تهجير السكان المدنيين يشكل في القانون الدولي وأحكام المحاكم الدولية، أحد الانتهاكات

الجسيمة لاتفاقية جنيف لعام 1949، داعية مجلس الأمن إلى تنفيذ قراراته السابقة في هذا الشأن ضد إسرائيل.

– دعت اللجنة إلى تفعيل الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية في قضية الجدار العازل، الذي أكد أن المادة 49 من اتفاقية جنيف الرابعة لا تحظر النقل أو الطرد الجبري للسكان فحسب، بل تحظر أيضا جميع التدابير التي من شأنها أن تنظم أو تشجع عمليات نقل جزء من سكان دولة الاحتلال إلى الأراضي المحتلة.

– أكدت اللجنة على أهمية تشكيل "لجنة قانونية" دائمة تختص بمتابعة النتائج والتوصيات الصادرة عن المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس في الدوحة وتوثيق الانتهاكات الإسرائيلية في القدس.

- المطلب الثاني: لجنة القدس والتاريخ

ناقشت لجنة القدس والتاريخ على هامش أعمال المؤتمر على مدار يومين أهمية البعد التاريخي لقضية القدس وقد خرجت اللجنة بالتوصيات التالية :

– شددت اللجنة على أن مدينة القدس هي مدينة عربية وفقا للمصادر الموثوقة، بناها العرب منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

– دعت اللجنة إلى تبني مبادرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر، التي تقضي بالطلب من مجلس الأمن الدولي تشكيل لجنة تحقيق دولية حول الخطط الإسرائيلية لتهويد القدس.

– طلبت اللجنة من الجامعة العربية وعبر المجموعة العربية في الأمم المتحدة، ضرورة تعميم التوصيات الصادرة عن اللجنة على جميع البعثات الدبلوماسية في المنظمة الدولية وإدراجها ضمن وثائق الأمم المتحدة.

– أوصت اللجنة بإقامة مركز أرشيف يتولى مهمة جمع الوثائق الخاصة بالقدس تحت رعاية الجامعة العربية ويكون مركزه دولة قطر ويضم مكتبة علمية والكترونية ومركز معلومات خاصا بالمدينة المحتلة يهدف إلى فهرسة وتحليل هذه الوثائق وتوفير الدعم المالي اللازم وتشجيع ودعم الدراسات الميدانية والنظرية وإقامة المعارض المتعلقة بتاريخ وتراث وحضارة القدس.

– طلبت اللجنة من منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو"، تفعيل قراراتها ذات الصلة بمدينة القدس والخاصة بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي والمسيحي في المدينة المقدسة، وذلك للضغط على إسرائيل، الدولة القائمة بالاحتلال، لإيقاف حفرياتها الأثرية وكل إجراءاتها التي تهدف إلى طمس

الهوية العربية للقدس والتي تأتي في إطار مخططاتها التهويدية بما في ذلك تغيير أسماء الأحياء والشوارع من اللغة العربية إلى العبرية.

– دعت اللجنة المجتمع الدولي إلى الحفاظ على هوية القدس كمدينة عربية ومركز ديني مقدس لدى جميع الديانات السماوية وعدم المساس بأمنها واستقرارها وحرية أهلها وعبادتهم فيها والعمل على دعم صمودهم وإيقاف عملية تهجيرهم القسري الذي تمارسه إسرائيل ضدهم لخلق وقائع جديدة على الأرض كجزء من عملية تزوير تاريخها.

– أكدت اللجنة ضرورة تفعيل قرار الجامعة العربية الخاص بتدريس مساق تاريخ القدس في الجامعات العربية كافة.

– اوصت اللجنة بضرورة عقد اجتماع دوري للمؤتمر الدولي للدفاع عن القدس برعاية جامعة الدول العربية كل عامين.

– اشارت اللجنة الى إنها تابعت بقلق بالغ حملة التزييف والتهويد التي تقوم بها اسرائيل لتاريخ مدينة القدس وتراثها خاصة المزاعم الدينية والأثرية للمدينة، التي تقوم آلتها الدعائية بها وكذلك مراكزها الأكاديمية والبحثية، مؤكدة على أهمية مواجهة مشاريع التهويد التي تعتمد على هذه المزاعم والأكاذيب والتزييف لتاريخ المدينة العربية خاصة التاريخ والتراث الإسلامي فيها. مشيرة إلى أن جميع المواثيق الدولية أقرت أن الاعتداء على الممتلكات الثقافية التي ترزح تحت الاحتلال بما فيها أماكن العبادة هو مظهر من مظاهر الاعتداء العمد وهو أمر مخالف للمواثيق والقوانين والاتفاقيات الدولية بما فيها اتفاقيات جنيف الأربع.

– المطلب الثالث: لجنة القدس والانتهاكات الإسرائيلية

ناقشت لجنة القدس والانتهاكات الإسرائيلية على هامش أعمال المؤتمر على مدار يومين خطر الانتهاكات الذي يهدد عروبة القدس وقد خرجت اللجنة بالتوصيات التالية :

– اوصت اللجنة بالتصدي ومكافحة الدعاية الإسرائيلية وتقديم الانتهاكات للأمم المتحدة للتعامل معها وفق القانون الدولي.

– أوصت اللجنة بفضح الانتهاكات غير القانونية وقيام شبكة تواصل بين مؤسسات المجتمع المدني في الغرب من أجل اطلاع الرأي العام على ممارسات الحكومة الإسرائيلية ودعت اللجنة إلى زيادة الالتزام وحث الدول العربية لحشد الرأي العام بشأن الانتهاكات.

– المطلب الرابع: لجنة القدس والمجتمع المدني

ناقشت لجنة القدس والمجتمع المدني على هامش أعمال المؤتمر على مدار يومين خطر الانتهاكات الذي يهدد عروبة القدس وقد خرجت اللجنة بالتوصيات التالية :

– ثمنت اللجنة مبادرة سمو الأمير للتوجه إلى مجلس الأمن لتشكيل لجنة تحقيق بشأن الانتهاكات في القدس.
– اوصت اللجنة بتشكيل لجنة قانونية دائمة تحت مظلة الجامعة العربية.
– اوصت اللجنة بتفعيل الرأي العام الاستشاري الخاص بمحكمة العدل حول جدار الفصل ومطالبة اليونسكو بتعيين بعثة دائمة لمراقبة الاعتداءات.

– اعلان الدوحة

ففي الجلسة الختامية للمؤتمر التي ترأسها سعادة الشيخ أحمد بن محمد بن جبر آل ثاني مساعد وزير الخارجية لشؤون التعاون الدولي أعلن من خلالها " اعلان الدوحة"، فقد خلص اعلان الدوحة بجملة من المضامين الهامة والهادفة كانت اهمها:
– توجيه تحية إكبار وإجلال للشعب الفلسطيني في مدينة القدس على صموده وثباته في مواجهة كافة الانتهاكات الإسرائيلية لهذه المدينة ومقدساتها وتاريخها وتراثها.
– الترحيب بدعوة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر، بجعل القدس وحريتها نقطة ارتكاز لكل الفلسطينيين والمحفز لإتمام المصالحة وإنهاء الانقسام.
– تثمين وتأييد اقتراح سموه بالتوجه إلى مجلس الأمن بغرض استصدار قرار يقضي بتشكيل لجنة دولية للتحقيق في جميع الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل منذ احتلال عام 1967 في القدس العربية، بقصد طمس معالمها الإسلامية والعربية.
– الترحيب بدعوة سموه لإعداد إستراتيجية شاملة وموسعة للقطاعات المختلفة والمشاريع التي تحتاجها مدينة القدس، واستعداد دولة قطر للمشاركة بكل إمكانياتها في سبيل إنجاز هذه الإستراتيجية ووضعها موضع التنفيذ.
– التاكيد على أن التهجير القسري لأهل مدينة القدس، عبر مخططات التهويد وإنكار الحق وطمس التاريخ والتراث وسلب الأرض ومصادرة الممتلكات، يشكل خرقاً للقانون الدولي والقانون الدولي الإنساني.
– دعوة القوى الدولية الصامتة عن الانتهاكات الإسرائيلية إلى تحمل مسؤوليتها وإلزام إسرائيل بتنفيذ كافة القرارات الدولية ذات العلاقة بمدينة القدس.
– دعوة الأمم المتحدة بكافة مؤسساتها ذات العلاقة إلى تحمل مسؤولياتها تجاه مدينة القدس وأهلها وضمان تمتعهم بمدينتهم بكافة حقوقهم المدنية والاقتصادية والاجتماعية، والمحافظة على مقدساتها ومعالمها التاريخية وتراثها الإنساني.
– دعوة الحكومة السويسرية، الدولة الوديعة لاتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 إلى سرعة الدعوة لاستئناف مؤتمر الأطراف السامية المتعاقدة في الاتفاقية تنفيذاً لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة في هذا الشأن بقصد اتخاذ الإجراءات

اللازمة لإيقاف الانتهاكات الإسرائيلية وحماية القدس وأهلها ومقدساتها.

– التعبير عن القلق البالغ إزاء ما يجري من أشغال إسرائيلية للتنقيب والحفريات الأثرية في المسجد الأقصى المبارك ومحيطه بالبلدة القديمة، التي تؤثر بصورة خطيرة على الطابع المميز للمدينة على الأصعدة الدينية والثقافية والتاريخية والسكانية، والمتناقضة مع قرارات اليونسكو وقرارات الأمم المتحدة ذات العلاقة بالمدينة المحتلة وقواعد القانون الدولي وخاصة اتفاقية لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية لعام 1954.

– مطالبة أحرار العالم بالدفاع عن مدينة القدس والانتصار لأهلها ومقدساتها كالتزام وواجب إنساني وحضاري، وكحق تفرضه مبادئ القانون الدولي، وأحكام اتفاقيات جنيف الرابعة 1949 واتفاقية لاهاي بشأن حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح 1954 واتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والتاريخي 1972، وقرارات الشرعية الدولية بوضعية القدس كمدينة محتلة وقرارات منظمة اليونسكو ذات الصلة.

– مطالبة السلطات الإسرائيلية بوقف السياسات أحادية الجانب وإجراءات فرض الأمر الواقع على الأرض في مدينة القدس، بما في ذلك الوقف الفوري لكافة الأنشطة الاستيطانية، وإزالة جدار الفصل العنصري طبقاً للرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية، والمحافظة على المقدسات الإسلامية والمسيحية فيها، وضمان حرية الدخول إليها، وعدم المساس بوضع المدينة الجغرافي والسياسي والديموغرافي لتنفيذ مخططات تهويدها.

– دعوة منظمة اليونسكو إلى صون التراث الثقافي لمدينة القدس المحتلة استناداً إلى قراراتها بشأن القدس، والعمل على تطبيق الفقرة الثامنة من قرار مجلسها التنفيذي 35م/49 والقرار م ت/12(185م ت/14 و185 م ت/52 معدلة) التي تدعو إلى تعيين خبير واحد أو أكثر من الخبراء المرموقين والدائمين ويكون مقرهم القدس الشرقية للإبلاغ بصورة منتظمة عن جميع الجوانب المتعلقة بالوضع التعليمي والثقافي والسكاني في مدينة القدس.

– تقدير جهود المملكة الأردنية الهاشمية في دعمها ومساندتها للأوقاف في مدينة القدس، ودور جلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين في العمل لدعم القدس وحماية المقدسات وصمود المقدسيين، لاسيما الجهود التي بذلت في منظمة اليونسكو لاستصدار قرار إجماعي يلزم إسرائيل بعدم اتخاذ إجراء أحادي الجانب لتغيير معالم طريق باب المغاربة.

– تقديم الشكر لدولة قطر، أميراً وحكومة وشعباً، على الاستضافة الكريمة لهذا المؤتمر، وتوفير كافة سبل إنجاحه، دعماً ونصرة لمدينة القدس وأهلها الصامدين في وجه الاحتلال الإسرائيلي ومخططات التهويد المستمرة للمدينة.

ونحن بدورنا كعرب، نرحب باقتراح صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر التوجه إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن لإنشاء لجنة تحقيق دولية للتحقيق في الإجراءات التي قامت بها إسرائيل منذ احتلال القدس في العام 1967 لطمس هوية القدس العربية الإسلامية، حيث أن هذه المبادرة تمثل خطوة جديدة تسير في الطريق الصحيح، وان هذه الخطوة تعكس مواقف قطر الرائدة إزاء العمل الجاد والفاعل من اجل القضايا العربية والإسلامية وهذه المبادرة إحدى الخطوات العملية الفعالة التي تقوم بها القيادة القطرية من اجل القضية الفلسطينية إذ لاحظنا دورها الفاعل في التحرك في وقت سابق باسم المجموعة العربية داخل الأمم المتحدة لتمكين فلسطين من الحصول على عضوية كاملة في المنظومة الدولية. إن قطر تقوم انطلاقا من مبادئها الراسخة وواجبها العربي والإسلامي بخطوات حثيثة تلقى احتراما وتقديرا عربيا كبيرا. وأن استضافتها لهذا المؤتمر تمثل خطوة جديدة على درب التحركات القطرية الناجحة لدعم القضايا العربية والإسلامية ؛ يجب تكريس العمل العربي المشترك فيما يتعلق بملف القدس وغيره من الملفات والقضايا الخاصة بتعزيز الأمن القومي العربي وحقوق الإنسان والحريات في الوطن العربي ومنظومة العمل العربي بشكل عام.

ونثمن عاليا مبادرة سمو الأمير ونعتبرها خطوة رائدة تعكس مواقف قطر المبدئية إزاء العمل الجاد والفاعل من أجل القضايا العربية والإسلامية وهذه المبادرة إحدى الخطوات العملية الفعّالة التي تقوم بها القيادة القطرية من أجل القضية الفلسطينية إذ سعت قطر حثيثاً عبر منابر الأمم المتحدة من أجل تمكين فلسطين من الحصول على عضوية أممية كاملة. وهذا المؤتمر هو أهم وأبرز اللقاءات على صعيد العمل من أجل القدس والقضية الفلسطينية إذ أنه بكل مواصفاته وغاياته وآليات عمله ومكونات نسيجه يختلف كل الاختلاف عن أية لقاءات سابقة إذ عبّر المشاركون من صنّاع قرار وسياسيين ودبلوماسيين وأكاديميين ورجال الأديان الثلاث عن موافقتهم وتقديرهم لهذا التحرك القطري الرائد إزاء القدس والأقصى. فقطر حشدت للمؤتمر مشاركين من أكثر من 70 دولة لهم فعالية قوية على الساحة الدولية من أجل القدس التي تأتي في قمّة أولويات القيادة القطرية والكل بحدوه الأمل في ضوء هذا الزخم أن يؤتي المؤتمر ثماره العملية على الصعيد الدولي وبأسرع ما يمكن وأن تجد القدس منافذ داعمة بقوة لصمودها وصمود أهلها في وجه الاحتلال الصهيوني.

أن احتضان قطر للمؤتمر الدولي للدفاع عن القدس يجسد حرصها على خدمة قضايا الأمتين العربية والإسلامية. خاصة أن قضية القدس تعتبر أم قضايا الأمة الإسلامية وتجيء في سلم أولويات واهتمامات منظمة التعاون الإسلامي.

ويجب العمل الجاد للضغط على إسرائيل لوقف سياسة تهجير المقدسيين ووقف الاستيطان والعمل على تهويد المقدسات في القدس وعدم التصدي لحرية العبادات ووقف الحفريات تحت الأقصى ووقف تعرض المسجد الأقصى لانتهاكات على يد غلاة المتطرفين اليهود. ويجب ضرورة حث المجتمع الدولي خاصة الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة على العمل من أجل وضع حد للانتهاكات والممارسات الإسرائيلية بحق القدس. فالقدس والمسجد الأقصى خط أحمر للأمة الإسلامية ويتعين بالضرورة وقف الانتهاكات الإسرائيلية التي يتعرضان لها.

وفي هذا السياق يجب إنهاء الصمت العربي والإسلامي والدولي إزاء سياسة الاحتلال ومحاولات تهويد القدس وهدم الأقصى الشريف. فيجب تحميل المجتمع الدولي مسؤولية تاريخية إزاءها، من شأنها أن تعمل على كشف المخططات الصهيونية والقناع المزيف لإسرائيل التي تدعي السعي من أجل السلام، وتعمل على تهويد القدس الشريف وتحاول تفريغه من أهله الشرعيين. إن المؤتمر عبر هذا الحشد الكبير الذي يلتئم لأول مرة بهذا المستوى، أراد أن يحمل المجتمع الدولي والعالم أجمع مسؤولية كبيرة إزاء التحديات الكبيرة والخطيرة التي تواجهها مدينة القدس المحتلة، جراء ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلية الرامية إلى تهويد المدينة وطمس هويتها الإسلامية والعربية، والعمل على هدم المسجد الأقصى لإقامة الهيكل المزعوم، إضافة إلى قيام الاحتلال بتعزيز طوق الاستيطان الخانق على المدينة المقدسة، وإحاطتها بجدار الفصل العنصري لقطعها عن باقي الأرض الفلسطينية. أن هذا المؤتمر وعبر ترجمة قراراته الهامة على أرض الوقع سيشكل أحد أكبر عوامل ومقومات الدعم الحقيقي للقدس على الصعيد الدولي والعربي والإسلامي، فهو بالدرجة الأولى يهدف إلى دعم صمود القدس وأهله في وجه الإجراءات التعسفية الاحتلالية وتنبيه العالم، وتحميله مسؤولية تاريخية إزاء الممارسات الإسرائيلية لتهويد المدينة وطمس معالمها الإسلامية والمسيحية عبر استمرارا عمليات الحفر تحت الأقصى الشريف وتكثيف الاستيطان.

كما أن المؤتمر الدولي للدفاع عن القدس الذي استضافته دولة قطر مؤخرا يكتسب أهمية خاصة؛ وذلك نظرا لانعقاده في مرحلة تشهد فيها مفاوضات السلام الفلسطينية الإسرائيلية تعثرا.؛ خاصة ان هناك صلة وثيقة بين مسألة القدس ومسار السلام في الشرق الأوسط. فيجب دعوة المجتمع الدولي الى ضرورة تجميد الاستيطان بالأراضي الفلسطينية المحتلة، حيث أنه يشكل عقبة رئيسية أمام استئناف المفاوضات بين الجانبين في إطار حل الدولتين، كما يتعارض مع مواقف الرباعية الدولية حول الشرق الأوسط. وأن ما تقوم به إسرائيل في القدس يتناقض مع التزاماتها المعلنة بالسلام الدائم مع الفلسطينيين عن طريق

حل الدولتين، ويهدد التنوع الحضاري للمدينة.
ويجب إدانته واستنكار بشدة المخططات والممارسات الإسرائيلية الرامية لتهويد القدس وطمس معالمها التاريخية والجغرافية والثقافية، التي أفرزت تداعيات إنسانية كارثية من شأنها التأثير على التركيبة والنسيج الديموغرافي لسكان المدينة المقدسة وهو ما يتعارض مع مبادئ القانون الدولي وفي مقدمتها اتفاقية لاهاي لعام 1907 والاتفاقية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان جنيف لعام 1949. ومن شأنها أيضا تعرض المئات من سكان القدس الشرقية لخطر التهجير القسري خاصة في البلدة القديمة.
لولا الحماية الأميركية ما كانت إسرائيل لتستمر وبكل جرأة في انتهاكات القرارات والمواثيق الدولية ذات الصلة حتى أصبحت دولة فوق القانون. فهذه حماية ظالمة جنت على حقوق الآخرين واعتدت على حياتهم وهددت الأمن والاستقرار في المنطقة. فعلى جميع دول العالم والمؤسسات الدولية إلزام إسرائيل باحترام وتنفيذ قرارات الشرعية الدولية وقوانينها واتفاقياتها.
ان الإجراءات الإسرائيلية في القدس هي حرب تهويدية مفتوحة في كل الاتجاهات تستهدف كل مكونات المدينة من مقدسات وتاريخ وإرث إنساني وتغيير في الخريطة الجغرافية والتركيبة الديموغرافية. حيث أن يد الاحتلال طالت، في ظل التغاضي عن انتهاكات وإجراءات التهويد، كل ما هو موجود في المدينة من المقدسات الدينية ومن الآثار التاريخية ومن الحقوق والممتلكات الفلسطينية شرقا وغربا شمالا وجنوبا وداخل أسوار المدينة القديمة. فهناك تغول حقيقي استيطاني يترافق مع حملة الحفريات في محيط الأقصى ومن أسفله وإقامة الأنفاق في محاولة مستمرة للجمعيات الاستيطانية للسيطرة على الممتلكات المسيحية في البلدة القديمة ومن بينها أملاك كنسية الروم الأرثوذكس وبطريركية الروم الأرثوذكس، فالاستهداف الإسرائيلي ليس حصرا على الأماكن والمقدسات الإسلامية بل يمتد إلى الأماكن والمقدسات المسيحية أيضا.
فمدينة القدس تحتل محورا هاما وركنا أساسيا في فكر وسياسة الدول العربية والإسلامية وتحيط بها قلوب أنصار السلام والحق والاستقرار في العالم أجمع. حتى أن قرار التقسيم الجائر الذي صدر في عام 1947 اعترف بخصوصية هذه المدينة ونظم لها وضعا خاصا، إلا أنها بعد أن وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي تعرضت قدسيتها وحضارتها وتاريخها وإرثها الإنساني لأفظع الانتهاكات.
إن لدى إسرائيل سياسات مبرمجة لاقتلاع وتهجير الإنسان الفلسطيني منها والاعتداء على حقوقه وسبل عيشه، فهي تسن قوانين جائرة تهدف إلى إحكام السيطرة على القدس الشريف. وتعطي حقوقا باطلة بالتحكم والسيطرة على الأرض والسكان في القدس المحتلة تحت ادعاء باطل بطلانا تاما، وهو الادعاء

بتنفيذ ما أطلقوا عليه نظرية " فراغ السيادة" بدعوى عدم وجود كيان سياسي فلسطيني في الفترة السابقة. فهذا الادعاء يتنافى بشكل واضح وصريح مع أحكام القانون الدولي.

فالمدينة المقدسة اليوم تشهد هجمة تهويد واستيطان وعدوان غير مسبوق واستكمال عزل المدينة المقدسة عن باقي الأراضي الفلسطينية المحتلة ومصادرة الأراضي والتهجير وإجراءات التهويد وتغيير واقع وهوية هذه المدينة المقدسة المحتلة وهو أمر يخالف القانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية بصورة واضحة. وعليه يجب على العرب والمسلمين والمجتمع الدولي المحب للسلام ان لا يتركوا الاحتلال مستمرا في غيه ويجب عدم ترك الفلسطينيين وحدهم يواجهون هذا المشروع الاستيطاني الإسرائيلي ايضا، فهناك مسؤولية دولية جماعية تقع على عاتق جميع الدول الأطراف في اتفاقية جنيف 1949 أن الحدود الآمنة هي حدود الحق وليس حدود القوة، وانه لا يمكن إقرار سلام عادل وشامل ودائم إلا على أساس إنهاء الاحتلال وانسحاب القوات إسرائيلية من جميع الأراضي العربية التي احتلت عام 1967 وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة القابلة للحياة وعاصمتها القدس الشرقية وعودة اللاجئين الفلسطينيين وفق قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 194 وإطلاق سراح جميع الأسرى الفلسطينيين المسجونين والمعتقلين. فهذا هو توجه العرب الذي أكدت عليه مبادرة السلام العربية وقرارات القمم العربية التي تمسكت بموقفها أن القدس خط أحمر ولا سلام من دون عودة القدس إلى أصحابها الفلسطينيين. فمن الواجب على الجميع العمل من أجل الحفاظ على المدينة المقدسة وإعادة طابعها الحضاري كمدينة للتسامح والتعايش بين الأديان والحضارات، مدينة حرة مفتوحة لكل المؤمنين تصان فيها جميع الأماكن المقدسة وتحفظ فيها الحقوق الدينية للجميع لتنعم المنطقة بالسلام العادل والشامل.

ان ثورات الربيع العربي ستعطي زخما أكبر لقضية القدس والقضية الفلسطينية بشكل عام وسيكون هذا الزخم نقطة مفصلية في تاريخ القضية. ان الحراك العربي ستصب مئة بالمائة في مصلحة القدس حتى وإن تأجلت لبضعة أشهر حتى تتمكن دول الربيع العربي من ترتيب أوضاعها الداخلية وكتابة دساتيرها وانتخاب رؤسائها وبرلماناتها. حيث أن تصعيد الاحتلال في القدس والأراضي الفلسطينية تعبير عن انزعاج إسرائيل من الربيع العربي كونها تدرك أن هذه الصحوة العربية ستكون ضد مطامعها ومخططاتها. خاصة أن قضية فلسطين ليست قضية تيار بعينه بل هي قضية الشعوب ولاعلاقة لها بالانتماءات، فهي محل إجماع لدى الشعوب العربية والإسلامية ولدى مختلف التيارات ولا تخص تيارا بعينه.

الخاتمة

اتيحت للباحث فرصة المشاركة في مؤتمر الدفاع عن القدس الذي اختتمت اعماله في العاصمة القطرية الدوحة في 28 - 2 - 2012 م برعاية امير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وحضور الرئيس الفلسطيني محمود عباس والامين العام لجامعة الدول العربية نبيل العربي والامين العام لمنظمة التعاون الاسلامي اكمل الدين احسان اوغلو وممثل الامين العام للامم المتحدة بالاضافة الى وفود من اكثر من سبعين دولة عربية واسلامية وعالمية.

وشارك في المؤتمر الذي جاء انعقاده بناء على قرارات مؤتمر القمة العربية السابق الذي عقد في مدينة سرت الليبية مئات الشخصيات الدينية والسياسية والقانونية والاكاديمية من مختلف التخصصات ومن مختلف الجامعات والمؤسسات العامة والخاصة في العالم من خلال اربعة محاور الآنفة الذكر. وقدمت من خلال لجنة كل محور اوراق عمل بحثية واكاديمية قيمة ناقشت مختلف القضايا التي تتعلق بالمدينة المقدسة من جميع النواحي الدينية والسياسية والتاريخية والاثرية والعمرانية والاجتماعية والسكانية والاقتصادية.

خرج المؤتمر بتوصيات في غاية الاهمية اعلنتها اللجان الاربع في الجلسة الختامية وتضمنت دعوة المجتمع الدولي للحفاظ على هوية القدس كمدينة عربية ومركز ديني مقدس لدى جميع الديانات السماوية وعدم المساس بامن المدينة واستقرارها وضمان حرية العبادة واحترام اقامة الشعائر الدينية فيها وحرية اهلها مسلمين ومسيحيين ودعم صمودهم بكل الوسائل والسبل والعمل على ايقاف عملية تهجيرهم القسري الذي تمارسه اسرائيل ضدهم في محاولاتها لخلق واقع جديد على الارض كجزء من تزوير تاريخ المدينة، كما تضمنت الطلب من منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) تفعيل قراراتها ذات الصلة بمدينة القدس والخاصة بالمحافظة على التراث العربي الاسلامي والمسيحي فيها للضغط على اسرائيل لايقاف حفرياتها الاثرية وكل ممارساتها التي تهدف الى طمس هوية المدينة في اطار مخططاتها التهويدية بالاضافة الى العديد من التوصيات الاخرى.

وصدر عن المؤتمر (اعلان الدوحة) البيان الختامي للمؤتمر. حيث تبنى المؤتمر من خلاله اقتراح أمير دولة قطر بالتوجه الى مجلس الامن بهدف تشكيل لجنة دولية للتحقيق في الإجراءات التي تتخذها إسرائيل منذ 1967 لتهويد القدس، بالإضافة إلى وضع إستراتيجية شاملة وموسعة للقطاعات المختلفة والمشاريع التي تحتاجها مدينة القدس هذا عدا عن الطلب من الامم المتحدة تعميم التوصيات الصادرة عنها على اعضائها والعمل على تنفيذها.

المؤتمر ثمن عاليا جهود الأردن في دعمه ومساندته ورعايته للأوقاف في مدينة القدس، ودور جلالة الملك عبدالله الثاني في العمل لدعم القدس وحماية المقدسات وصمود المقدسيين، لاسيما الجهود التي بذلت في منظمة اليونسكو لاستصدار قرار إجماعي يلزم إسرائيل بعدم اتخاذ إجراء أحادي الجانب لتغيير معالم طريق باب المغاربة.

المشاركة الاردنية من خلال وفد اردني يضم 37 برئاسة الدكتور عبد السلام العبادي وزير الاوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية كانت واضحة ومميزة في مؤتمر الدفاع عن القدس من خلال اوراق العمل والدراسات العلمية والمعمقة التي قدمها عدد كبير من العلماء واساتذة الجامعات الاردنيين والتي تحدثت عن الاعمار في مدينة القدس والانتهاكات الاسرائيلية المستمرة في المدينة وهجرة المسيحيين والمسلمين جراء استمرار الاحتلال الاسرائيلي وعدم الاستقرار ومصادرة الاراضي وبناء المستوطنات اليهودية عليها. والمشاركة الاردنية بهذا الحجم يعكس مدى اهتمام الاردن لانعقاد المؤتمر حول القدس في دولة قطر في هذا الظرف الدقيق التي تمر به منطقتنا العربية.

مؤتمر القدس كان ناجحا تنظيميا بكل المقاييس، وناجحا ايضا بما قدم فيه من اوراق عمل وما اتخذ من قرارات وتوصيات، لكن يبقى النجاح الثاني غير مكتمل وتبقى القرارات حبرا على ورق اذا لم تتم متابعة قراراته وتنفيذها على ارض الواقع. لذلك اجمع المشاركون على تشكيل لجنة متابعة لاعمال المؤتمر، كما وافق المشاركون على عقد مؤتمر للغاية ذاتها كل سنتين في العاصمة القطرية الدوحة.

المراجع

1 –وكالة الانباء القطرية.

2 – التلفزيون القطري.

3 – صحيفة العرب القطرية، العدد8662 –، الأربعاء 29 فبراير 2012 م – الموافق 7 ربيع الآخر 1433 هـ.

4 – صحيفة الراية القطرية، العدد– 10889، الأربعاء 29 فبراير 2012 م – الموافق 7ربيع الآخر 1433 هـ.

5 – صحيفة الشرق القطرية، العدد 8658، الأربعاء 29 فبراير 2012 م – الموافق 7 ربيع الآخر 1433 هـ.

6 – صحيفة الراية القطرية، العدد 10888، االثلاثاء 28 فبراير 2012 م – الموافق 6 ربيع الآخر 1433 هـ.

7 – صحيفة العرب القطرية، العدد 8661، الثلاثاء 28 فبراير 2012 م – الموافق 6 ربيع الآخر 1433 هـ.
8 – صحيفة الشرق القطرية، العدد 8657، الثلاثاء 28 فبراير 2012 م – الموافق 6ربيع الآخر 1433 هـ.
9 – صحيفة العرب القطرية، العدد 8660، الاثنين 27 فبراير 2012 م – الموافق 5 ربيع الآخر 1433 هـ.
10 – صحيفة الراية القطرية، العدد 10887، الاثنين 27 فبراير 2012 م – الموافق5 ربيع الآخر 1433 هـ.
11 – صحيفة الشرق القطرية، العدد 8656، الإثنين 27 فبراير 2012 م – الموافق5 ربيع الآخر 1433 هـ.
12 – صحيفة العرب القطرية، العدد 8659، الاحد 26 فبراير 2012 م – الموافق 4 ربيع الاخر 1433 هـ.
13 – صحيفة الراية القطرية، العدد 10886، الأحد 26 فبراير 2012 م – الموافق4 ربيع الآخر 1433 هـ.
14 – صحيفة الشرق القطرية، العدد 8655، الأحد 26 فبراير 2012 م – الموافق 4 ربيع الآخر 1433 هـ.
15 – صحيفة الراية القطرية، العدد 10884، الجمعة 24فبراير 2012 م – الموافق 2 ربيع الآخر 1433 هـ.
16 – صحيفة الشرق القطرية، العدد 8653، الجمعة 24 فبراير 2012 م – الموافق 2 ربيع الآخر 1433 هـ.
17 – صحيفة العرب القطرية، العدد 8657، الجمعة 24 فبراير 2012 م – الموافق 3 ربيع الاخر 1433 هـ.
18 – صحيفة الشرق القطرية، العدد 8649، الإثنين 20 فبراير 2012 م – الموافق 28 ربيع الأول 1433 هـ.

الملخصات بالفرنسية

RESUMES

1- Les relations culturelles et intellectuelles entre Tlemcen et Constantine

Pr. Abdelaziz Filali
Université Mentouri, Constantine-Algérie

Constantine et Tlemcen comptent parmi les villes les plus anciennes d'Algérie. Elles se convertirent à l'Islam avec l'arrivée d'Abu al-Muhajir Dinar. Depuis, elles ont entretenu des relations culturelles, intellectuelles et mystiques puisées à la source de l'Islam enrichi au Moyen Age, par l'apport des uléma (savants) de ces deux villes issues des familles al-Fgoun, al-Malary, ibn-Kunfud, ibn-Badis de Constantine et ibn-Kheluf, ibn-Marzuq, al-Maqari et e-cherif e-Tilimçani de Tlemcen. A l'époque ottomane, ces relations entre uléma des deux villes se sont perpétuées. Ainsi Bu-Abdellah Muhamed ibn- Badis et Abu-Abbes Ahmed al-Maqari e-Tilimçani entretenaient une correspondance régulière autour de questions intellectuelles et linguistiques. A ce jour, il existe à Constantine une zaouiya qui porte le nom de Sidi Ali e-Tilimçani. Pendant l'occupation française le grand érudit Abdel-Qader al-Mejaoui e-Tilimçani, s'est installé à Constantine d'où il a impulsé la renaissance spirituelle, scientifique et réformatrice.
Le leader de la renaissance islamique en Algérie, l'imam Abd-el-Hamid ibn- Badis rendait souvent visite à Tlemcen pour laquelle il avait beaucoup d'affection, surtout après y avoir procédé à l'inauguration de Dar-el-Hadith. C'est de Tlemcen qu'il rédigea l'appel adressé aux Constantinois, en particulier et aux Algériens en général, pour boycotter la célébration du centenaire de la prise de Constantine.

Mots clés : *Tlemcen, Constantine, familles ancestrales, moyen âge, colonialisme, relations culturelles.*

2- Problématique de la diffusion de la presse maghrébine et moyen-orientale en Algérie entre 1920 et 1954 : le cas de la ville de Tlemcen et ses environs

Pr. Mohamed El-korso
Université Alger2

Le parachèvement de l'occupation coloniale de l'Algérie, passait par l'isolement de sa population « musulmane » du monde arabe et musulman. Des dispositions juridiques et administratives furent

prises par Paris et Alger (administration coloniale) et aboutirent au renforcement de la surveillance du mouvement des idées, plus particulièrement celles véhiculées par la presse maghrébine et moyen-orientale, objet du présent papier.
Malgré les mesures prises, divers titres de presse pénétrèrent dans la colonie. C'est ce que révèle l'exploitation des archives coloniales, corroborée par des témoignages oraux. Si le nombre de titres en terme quantitatif demeure appréciable, par contre le nombre d'exemplaires par titre, reste très symbolique.
Par quelle voies et moyens étaient introduits les titres interdits en Algérie ? Où étaient-ils publiés ? Quelle fut l'attitude de l'administration coloniale dans ce cas ? Etant donné les interdits, comment s'effectuait la lecture ? Tlemcen et sa région entre 1920 et 1954, nous fournissent quelques éléments de réponses.

Mots clés : *Algérie, Maghreb, Moyen Orient, presse en langue arabe, interdiction.*

3- Présentation d'un document de Mohammed Ben Rahal sur la réclamation des réformes (1891)

Pr. Abdelhamid Hadjiat
Université Abou Bekr Belkaid, Tlemcen-Algérie

Le document présenté tire son importance de son signataire, Mohamed Ben Rahal d'une part et le type de revendications qu'il a présenté avec le Docteur Mohammed Ben Larbi devant la commission coloniale du sénat français en juillet 1891, d'autre part.
Ce document se présente comme une plateforme revendicative englobant tous les aspects de la vie culturelle, sociale, économique et politique des «indigènes». D'un point de vue historique, ce document constitue dans son fond comme dans sa forme, une rupture avec les luttes armées anticoloniales et annonce les différentes formes de luttes politiques revendicatives qui auront cours dans les cinquante premières années du XX siècle précédent le déclenchement de la Révolution du 1er. novembre 1954.

Mots clés : *plateforme revendicative, commission coloniale, sénat,* action politique.

4- Relations des Bénou Abdelwed (Benu Ziane-Tlemcen) avec Bénou Mérine (Maroc) entre le VIIème et le Xème siècle de l'hégire/XIIIème et le XVIème siècle

Dr. Latifa Bechari Benamira
Université Alger2

Après la chute des Almohades, Bénou Abdeloued (les Zayyanides) s'installèrent à Tlemcen et dans les régions environnantes et fondèrent un état qui gouverna le Maghreb central, pendant trois siècles (7ème-10ème siècle de l'hegire/13ème-16ème). Yaghmourassen fondateur de l'Etat, après avoir conduit plusieurs expéditions infructueuses contre les Mérinides, conseilla son fils Abu Saïd Othman de mener une politique pacifique à l'ouest. Mais, les Merinides menèrent une guerre continue contre le royaume Zayyanide. Ils multiplièrent leurs expéditions contre Tlemcen, l'assiégèrent et prirent la capitale plusieurs fois.

Devant la résistance farouche des Zayyanides, les Merinides choisissent une politique moins couteuse qui leur permet de maintenir les princes de Tlemcen sous leur tutelle. Ils suscitèrent des luttes internes à la moindre velléité d'indépendance.

Les intrigues des mérinides, affaiblirent l'état Zayyanide qui fut impuissant à repousser les Espagnols et par la suite les Turcs.

Mots clés : *Bénou Abdelwed, Bénou Mérine, les troubles, les Espagnols, les Turcs.*

5- Tlemcen dans le mouvement de la pensée maghrébine du XIIème au XIVème siècles

Dr. Mohamed Souhil Dib
Université Abou Bekr Belkaid, Tlemcen-Algérie

L'activité philosophique, en tant qu'élément social fonctionnant comme une structure institutionnalisée, fixant un programme d'enseignement, avec ses contenus, son orientation idéologique, ses finalités, formant des sujets destinés à encadrer cet enseignement, dans son inspiration malékite postérieure au rude unitarisme almohade, n'a pris réellement forme, dans l'Occident musulman (le Maghreb) qu'avec la constitution

des médersas, à partir de la deuxième moitié du XIII ème siècle. Tlemcen a joué un rôle de premier plan dans cette nouvelle orientation de la pensée. Y ont contribué deux personnalités, entre autres, al-Abilî et Abû Abdillah e-tlemceni sur lesquels nous avons fixé notre attention.

Mots clés : *la pensée maghrébine, la philosophie, la rationalité.*

6- Le rapport Barbedette sur l'émigration de Tlemcen 1911

Pr. Bachir Yelles Chaouche
Université Sénia, Oran-Algérie

Tlemcen a connu en 1910 et 1911 un vaste mouvement d'exode de familles tlemceniènnes vers le pays du e-sham. La presse de l'époque a évalué leur nombre à 1200 personnes sur les 25000 musulmans que comptait la ville de Tlemcen et ses environs. Les autorités coloniales ont réagi pour circonscrire le phénomène et le gouverneur général d'Algérie a ordonné une enquête afin d'en déterminer les causes.

Le rapport d'enquête Barbedette de 32 pages a ciblé les principaux acteurs de l'exode. D'une part, le mufti Djelloul Chalabi; pour avoir mis en garde ses coreligionnaires contre les risques qu'il y avait de vivre avec les apostolats, et d'autre part les Derkaouas dirigés par Cheikh Kazboun et Cheikh Benyelles qui ont eux aussi appelé à l'exode et Cheikh El Hebri, résidant au Maroc, qui avait offert le couvert, le gîte et les moyens de transport vers la terre d'émigration.

S'agissant des causes de l'exode, le rapport les a énumérées et commentées, pour n'en retenir que certaines et rejeter la plupart d'entre elles comme: la conscription, le code de l'indigénat, les impôts arabes, les gardes de nuit, la représentation des indigènes dans les assemblées élues, la crise économique de la région de Tlemcen, la supériorité des juifs et des autres étrangers sur le musulman, les tribunaux répressifs et l'éducation des indigènes.

Le phénomène de l'exode qu'a connu Tlemcen a mis en exergue la réalité du système colonial et ses échos sont arrivés jusqu'au Parlement français qui interpella le gouverneur général de l'Algérie dans sa séance du 31 décembre 1912. C'était une occasion pour débattre du système colonial en Algérie dans son ensemble.

Mots clés : *Emigration secrète, familles de Tlemcen, e-sham,* colonialisme.

7- Le rôle des algériens dans le mouvement intellectuel (Soufisme) Fi-Bilad E-Sham : le cas des émigrés de Tlemcen

Souheil El Khaldi
Écrivain, chercheur- Damas

Cette étude traite du rôle intellectuel et de la place des émigrés algériens (les Tlemcenniens plus particulièrement) dans le développement et la diffusion de la pensée nationaliste arabo musulman fi-bilad e-sham.
Pleinement intégrés dans la société syrienne ,les émigrés algériens qui ont joué un rôle important dans la vie culturelle ,intellectuelle, religieuse ,économique et même politique ,ont contribué à écrire l'histoire de la Syrie du XIXème et XXème siècles et deviennent des ressortissants syriens.
Le soufisme syrien puise ses origines des pays du Maghreb et plus particulièrement en l'Algérie. C'est un soufisme militant qui a combattu l'injustice et l'occupation étrangère. Ce soufisme n'a pas été un opium du peuple comme se plaisent à le considérer les politiques.

Mots clés : *Les émigrés tlemcenniens, e-sham, soufisme.*

8- Le livre "Al Mawahib" et les erreurs d'El Mellali vis à vis de son maitre cheikh Al-Sanusi

Dr .Djamel Edine Boukli Hacène
Université Abou Bekr Belkaid, Tlemcen-Algérie

Le manuscrit laissé par Mohammed Al-Mellali au sujet des qualités de son maître Ibn Youssef al-Sanusi de Tlemcen (mort en 1490) objet de cet article, attend toujours d'être authentifié. Ce manuscrit puise son importance dans la richesse des biographies qui le composent, dans la description de la vie historique sociale et culturelle des gens qui ont vécu à l'époque de l'auteur.
Dans cet article, nous avons essayé de relever les manquements de l'élève vis-à-vis de son maître, dont les plus importants sont :

- *Premièrement, le fait de minimiser le maître présenté comme un simple woualy (sage);*
- *Deuxièmement, le fait d'occulter les efforts de son maître connu pour sa recherche, passionné sur l'unicité de Dieu, ses efforts pour vulgariser cet enseignement auprès des différentes couches sociales, ses appels à étudier la logique, son approche rationnelle d'interpréter les versets coraniques ainsi que la tradition du pro-*

phète, enfin sa méthode rationaliste de traiter les questions théologiques.

- *Troisièmement, la conception d'Al-Mellali du concept du dhikr (invocation de Dieu), et sa manière de combattre le taqlid, étaient à l'opposé des enseignements de son maître.*

Pourtant Al-Mellali était connu pour sa mémoire défaillante, son manque d'argumentation dans la transmission de certaines informations et son recours abusif aux digressions. Toutefois, Al-Mellali a permis de sauvegarder le patrimoine de son maître de toute détérioration et oubli.

Mots clés: *Biographie, négligence, la prudence, l'honnêteté.*

9- L'activité de Ferhat Abbas à Tlemcen (1943-1945)

Dr. Mustapha Ouamri
Université Abou Bekr Belkaid, Tlemcen-Algérie

Tlemcen a joué durant toute la période du mouvement national, un rôle majeur dans l'animation du mouvement revendicatif politique pour toute la région ouest du pays. Parmi ceux qui en ont fait une base de départ et un foyer de rayonnement de leur action politique, le leader Ferhat Abbas. C'est de là qu'il entamera son action en faveur du Manifeste et des Amis du Manifeste et de la Liberté. Il choisira Tlemcen, où il entretenait de solides relations avec nombre de ses notables pour rayonner sur toute l'Oranie entre 1943 et 1945.

Mots clés : *Mouvement national, système colonial, le Manifeste Algérien.*

10- Tlemcen à l'époque de l'antiquité

Dr. Mohamed El Habib Bachari
Université Alger2

La région de Tlemcen bénéficie d'un sol fertile, d'un climat de tempéré à sec et une richesse en eau qui ont favorisé la prospérité de la vie depuis des milliers d'années, comme le confirment les découvertes archéologiques réalisées dans le lac Karar, Boudghen et Ouzedan.

Toutes les données confirment que la vie a continué dans la région sans interruption, même si les sources littéraires n'en font pas état.
A l'époque romaine la région s'est imposée grâce à sa position stratégique à l'extrême ouest de la Maurétanie césarienne, et à sa proximité du couloir de Taza où était implanté un fort "le castellum pomariensis" où stationnait une aile d' éclaireurs pour protéger les centres romains dans la région. Mais très vite le castellum s'est transformé en ville avec toute l'infrastructure nécessaire tel le forum , les thermes et le temple.
Dans le domaine religieux les croyances païennes ont dominé jusqu'au 3iem. Siècle avec l'introduction du christianisme, qui s'est largement répandu.
Sur le plan politique, la région a vu le retrait des forces romaines suite à la décision de l'empereur Diocletien d'abandonner toutes les régions menacées pour ne garder que ce qui représente un espace vital pour Rome , Tlemcen passa alors sous le règne de rois maures mais nous ne savons pas si elle a été occupée ou pas par les Vandales

Mots clés : *Epoque antique, époque romaine, le limes, le paganisme.*

11- L'aménagement urbain de la ville de Tlemcen des Murabitines jusqu'au début de l'occupation coloniale Française

Dr. Sidi Mhamed Négadi
Université Abou Bekr Belkaid, Tlemcen-Algérie

Cette essai d'explication fonctionnelle est le résultat d'un travail de terrain sur la médina de Tlemcen, longtemps mûri. Il s'agit de démontrer que :

1. *Le tissu urbain d'une « médina » tel que Tlemcen, est le résultat de la congruence entre différentes fonctions qui tendent à faire d'une agglomération une cité où les rapports entre les différents occupants traduisent une volonté de vivre en commun. Ces rapports et cette volonté font que la cité participe activement à l'émergence de la société civile.*

2. *La médina dans sa conception originelle est la réponse aux exigences* socio économiques et culturelles de la vie quotidienne du citadin maghrébin.

3. *La médina n'est pas un assemblage d'îlots ou de quartiers qui par la force des choses ,doivent s'accommoder entre eux dans le but de créer des relations d'intérêt .Il est surtout le reflet d'un niveau civilisationnel .C'est ce que nous observons à Tlemcen.*

Mots clés : *Urbanisme, médina, évolution, société civile.*

12 - L'élite Tlemcennième et son rôle culturel, social et politique à la fin du du XIXème siècle et jusqu'à la fin de première guerre mondiale

Dr. Ibrahim Mahdid
Université Sénia, Oran-Algérie

Cette étude se propose de faire l'historiographie de l'élite tlemcennième à partir des éléments suivants :

1- *les appartenances sociales et culturelles de cette élite et les différentes étapes de sa formation historique ;*

2- *le rôle des institutions culturelles et éducatives implantées à Tlemcen et ses environs comme les mosquées, les écoles, les koutab, les zaouias etc. dans l'évolution culturelle, intellectuelle et politique de cette élite*

3- *le rôle joué par cette élite comme force politique durant l'occupation coloniale et plus particulièrement entre la fin du XIXème siècle et la fin de la première guerre mondiale. Ce rôle est apprécié à travers ses contributions dans la presse, les cercles culturels, les associations que cette même élite a mise en place dans son activité au sein du mouvement national algérien en oranie.*

Mots clés : *La nation, l'élite, les institutions culturelles et religieuse, la politique.*

1- The cultural and intellectual relations between Tlemcen and Constantine

Pr. Abdelaziz Filali
Mentouri University, Constantine - Algeria

Both Constantine and Tlemcen are ancient cities in Algeria. They converted to Islam by the coming of the first Arabs, like Abu al-Muhajir Dinar. Since that time, intellectual and cultural exchange has been established through the contribution of scientists and families like, al-Fgoun, al-Malary, ibn-Kunfud, ibn-Badis from Constantine and ibn-Kheluf, ibn-Marzuq, al-Maqari et e-cherif e-Tilimçani from Tlemcen, in the middle ages.
During the Ottoman empire the communication beeween scientists of the two cities has continued, so Bu-Abdellah Muhamed ibn- Badis corresponded with Abu-Abbes Ahmed al-Maqari e-Tilimçani on many subjects which concerned intellectual and linguistics questions. Until now, there is a Zaouya in Constantine named (Sidi ali e-Tilimçani).
During the French occupation period, the scientist, Abdel-Qader al- Mejaoui e-Tilimçani has moved to Constantine and became a teacher and helped in boosting the intellectual, scientific and reformist renaissance.
Because of his respect and feeling toward the tlemceni people, Ben Badis was visiting Tlemcen without interruption, especially when he inaugurated (Dar-el-Hadith) and from this city he addressed a call on to Algerian people demanding them to boycott the celebration of the French occupation centenary of Constantine.

Keywords: *Tlemcen, Constantine, ancestral families, middle age, colonialism, cultural relations.*

2- Problematic of the Maghreb and middle east press diffusion in Algeria between 1920 and 1954: the situation in Tlemcen and its surroundings

Pr. Mohamed El-korso
University Algiers 2

The completion of the colonial occupation of Algeria, passed by the isolation of its "Muslim" people from the Arab and Muslim world. Therefore, legal and administrative provisions were taken by Paris and the General colonial Government in Algiers, in order to strengthen the

الملخصات بالإنجليزية

ABSTRACTS

prohibition of the movement of ideas, especially those conveyed by the Maghreb and Middle East press, the subject of this paper.
Despite the measures taken, a great number of newspapers entered the colony (Algeria). This is what reveals the exploitation of colonial archives, supported by oral testimony.
However, if the number of titles introduced remains significant in quantitative terms, the number of copies per title remains very symbolic.
By what ways were introduced these titles banned to the colony? Where were they published? What was the attitude of the colonial administration toward this matter? How was the reading made under intellectual and cultural surveillance?
Tlemcen and its region between 1920 and 1954 provide us some of the answers.

Keywords: *Algeria, Maghreb, Middle East, Arabic press, prohibition*

3- Presentation of a document of Mohammed Ben Rahal about claiming reforms (1891)

Prof. Abdelhamid Hadjiat
University Abou Bekr Belkaid, Tlemcen- Algeria

The document presented here, gets its importance from its signatory Mohamed Ben Rahal on the one hand and the type of claims he had submitted with Dr. Mohammed Ben Larbi in front of the Colonial Commission of the French Senate in July 1891, on the other hand.
The document comes as a protest platform encompassing cultural, soϵcial, economic and political aspects of "natives".
From a historical point of view, this document is in its content and in its form, a break with the anti-colonial armed struggle and announces the different forms of political struggles which occurred in the first fifty years of the twentieth century before the outbreak of the Revolution (1st of November 1954).

Keywords: *platform of claims, colonial commission, senate, political action.*

4- Relations of Banou Abdeloued (the Zayyanids-Tlemcen) to the Marinids (Morocco) between the 7th and the 10th centuries ah/ 13th and 16th centuries ad.

Dr. Latifa Bechari Benamira
University Algiers 2

After the fall of the al-Mowahidin State, Banou Abdeloued (the Zayyanides) settled in Tlemcen and the surrounding areas. They established a state which governed the Middle Maghreb for three centuries (7th - 10th centuries AH/ 13th - 16th centuries AD).
Yaghmourassen founder of the state, having led several unsuccessful expeditions against the Merinides advised his son Abu Said Othman to make peace on the west (the Marinides). But, Merinides led a continuous war against the Zayyanides. They multiplied their expeditions against Tlemcen, besieged and took the city several times.
To the fierce resistance of Zayyanides, the Merinides choose a less expensive policy which allows them to maintain the princes of Tlemcen under their tutelage. They sparked internal struggles at the slightest hint of independence.
The intrigues of mérinides weakened the Zayyanides state who was powerless to push back the Spanish and later the Turks.

Keywords: *Banou Abdeloued, Benou Mérine, the disorders, the Spaniards, the Turks.*

5- Tlemcen in the the midst of the movement of Maghreb thought between the centuries twelfth and fourteenth

Dr. Mohamed Dib Souhil
University Abou Bekr Belkaid, Tlemcen- Algeria

The philosophical activity, as a social element functioning as an institutionalized structure, establishing a curriculum, with its contents, its ideological orientation, its objectives, and which form tutors to frame this teaching in a Maliki inspiration subsequent to the strict Almohad Unitary, has really taken shape in the Muslim West (Maghreb) with the establishment of Medersas, from the second half of the thirteenth century.

Tlemcen has played a leading role in this new direction of thought. Y contributed two personalities, among others, Al-Abili and Abu Abdillah e-tlemceni, on which we have focused our attention in this paper.

Keywords: *Maghreb thought, philosophy, rationality.*

6- **The "Barbedette" report about Tlemcen exodus of 1911**

Pr. Bachir Yelles Chaouche
University Essania, Oran - Algeria

Tlemcen in 1910 and 1911 experienced a large exodus of family's tlemceniènnes to the country of e-sham. The press of that time estimated their number at 1200 persons out of 25000 Muslims inhabitants of Tlemcen and its surroundings. The colonial authorities responded to circumscribe the phenomenon and the Governor General of Algeria has ordered an investigation to determine the causes.

The Barbedette investigation report of 32 pages targeted the main actors in the exodus. On the one hand, the mufti Djelloul Chalabi, who have warned his coreligionists against the risks of living with the apostolates and on the other hand the Derkaouas led by Sheikh Kazboun and Sheikh Benyelles both of them has also called for the exodus and Cheikh El Hebri residing in Morocco, which had offered cover, shelter and transportation to the country of emigration.

Regarding the causes of the exodus, the report had listed and commented all of them, to retain only some and reject most like: the conscription, the native code, the Arabs taxes, the night guards, the representation of indigenous peoples in elected assemblies, the economic crisis in the region of Tlemcen, the superiority of Jews and other foreigners with regards to the Muslim, the repressive courts and indigenous education.

The phenomenon of exodus experienced by Tlemcen highlighted the reality of the colonial system and its echoes came to the French Parliament which interpellated the Governor General of Algeria in its meeting of 31 December 1912. It was an opportunity to discuss the colonial system in Algeria as a whole.

Keywords: *Emigration secret, families of Tlemcen, e-sham, colonialism*

7- The role of algerians in the intellectual movement (Sufism) in Bilad E-Sham: the case of immigrants from Tlemcen

Souheil El Khaldi
Writer-researcher, Damascus-Syria

This study examines the intellectual role and the place of Algerian emigrants (especially the Tlemcenniens) in the development and diffusion of Arab Muslim nationalist thought fi- Bilad e-sham.
Fully integrated into Syrian society, the Algerian emigrants who played an important role in the cultural, intellectual, religious, economic and even political life, contributed to write the history of Syria nineteenth and twentieth centuries and become Syrian citizens.
Syrian Sufism has its origins in the Maghreb countries, especially in Algeria. It is a Sufism militant who fought injustice and foreign occupation. That Sufism was not opium of the people as like to consider it the Politicians.

Keywords: *Tlemcenniens emigrants, e-sham, Sufism.*

8- The book “El Mawahib” (talents) and the irregularities of Al-Mellali toward his master Ibn Yusuf Al-Sanusi E-Tlemceni

Dr. Djamel Eddine Boukli Hassen
University Abou Bekr Belkaid, Tlemcen - Algeria

The manuscript left by Mohammed Al-Mellali about the qualities of his master Ibn Youssef al-Sanusi e-Tlemcen (d. 1490) object of this article, is still waiting to be authenticated.
This manuscript draws its importance in the wealth of biographies which compose it, in the description of the historical, social and cultural life of the people who lived at the time of the author.
In this article, we have tried to identify the shortcomings of the student (Mohammed Al-Mellali) vis-à-vis of his master, the most important are cited below:
- First, he presented his master as a simple "woualy" (wise);
- Second, he masked the multiple qualities of his master who were known for his research, his passion about the oneness of God, his efforts to popularize this teaching for different social strata, its calls for study of logic, his rational approach to interpret the Qur’anic verses and the prophet’s traditions and sayings (hadith) and his rationalistic

method of treating theological questions;
-Third, the point of view of Al-Mellali regarding the dhikr concept (invocation of God), and how to combat taqlid (imitation), were the opposite of the teachings of his master.
With regard to Al-Mellali, he was known for his failing memory, lack of reasoning in the transmission of certain information and abusive use of digressions .However, Al-Mellali helped preserve the heritage of his master deterioration and neglect.

Keywords: *Biography, negligence, caution, honesty.*

9- The activity of Ferhat Abbas in Tlemcen (1943-1945)

Dr. Mustapha Ouamri
University Abou Bekr Belkaid, Tlemcen - Algeria

Tlemcen played throughout the period of the national movement, a major role in leading the protest movement policy for the entire region of the west of the country. Among those who have made of Tlemcen a home base and a center for outreaching their political action, the leader Ferhat Abbas. He begins his action for the Manifesto and Friends of the Manifesto and Liberty from there. He chose Tlemcen, where he maintained strong relationships with many of its notable, in order to radiate over the whole Oranie between 1943 and 1945.

Keywords: *National movement, the colonial system, the Algerian Manifesto.*

10- **Tlemcen in antique eras**

Dr. Mohamed El Habib Bachari
University Algiers 2

Tlemcen region has a fertile soil, a dry tempered climate and abundant water which favored prosperity of life for thousands of years, as confirmed by the archaeological discoveries made in the Lakes of Karar , Boudghen and Ouzedan. All data confirms that life has continued without interruption in the region, although the literary sources do not mention.
During the Roman period the region has emerged because of its

strategic position at the extreme west of the Mauritania Caesaren, and its proximity to the corridor of Taza where was implanted a strong «castellum pomariensis « where was stationed a wing of pathfinders to protect Roman centers in the region. But soon le castellum turned to a town with the entire necessary infrastructure such as forum, baths and the temple.

In the religious sphere the pagan beliefs dominated until 3iem. Century. This Century Tlemcen has seen the introduction of Christianity, which has been largely widespread.

On the political level, the region has seen the withdrawal of Roman forces, following the decision of the emperor Diocletian to abandon all regions threatened, in order to keep only what is a vital area for Rome. Tlemcen passed then under the reign of Moorish kings, but we do not know whether it was occupied or not by the Vandals.

Keywords: *Antique eras, roman period, the limes, the paganism.*

11- The urban planning of the city of Tlemcen from the periods of murabitines to early french colonial occupation

Dr. Sidi Mhamed Negadi
University Abou Bekr Belkaid, Tlemcen – Algeria

The present article presents a functional explanation about the city of Tlemcen, based on the result of a fieldwork. It is shown that:

1-The urban tissue of a "medina" like Tlemcen is the result of the congruence between different functions which tend to make of a set of constructions a city ,where relationships between the different occupants reflect the will to live in common. These relationships and this will mean that the city is actively involved in the emergence of civil society.

2- The medina in its original conception is a response to socio-economic and cultural needs of the daily life of townsman in the Maghreb cities.

3- The medina is not an assembly of blocks or neighborhoods by necessity; it is mainly a reflection of the level of civilization. This is what we observed in Tlemcen.

Keywords: *Urban, Medina, development , civil society.*

12- The Tlemcenian elite and its cultural, political and social role, by the end of the nineteenth century to the end of the first world war

Dr. Ibrahim Mahdid
University Essania, Oran – Algeria

This study proposes to make the historiography of the elite tlemcenniène from the following:
1 - the Social and cultural affiliations of the elite and the various stages of its historical formation;
2 - the role of the cultural and educational institutions located in Tlemcen and its surroundings as the mosques, the schools, the Koutab, the zaouias etc.. in the cultural, intellectual and political development of this elite;
3 - the role played by this elite as a political force during the colonial occupation and especially between the late nineteenth century and the end of the First World War. This role is assessed through its contributions to the press, the cultural clubs and the associations which has been developed by this elite in its activity within the Algerian national movement in the Oranie.

Keywords: *The nation, the elite, the cultural and religious institutions, the politics.*

"أفكار وآفاق" مجلة أكاديمية محكمة، تهدف إلى نشر الدراسات والبحوث الأصيلة المبتكرة في مختلف العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان من حيث آدابه ومجتمعه وسلوكه وتاريخه وسياسته وتواصله وتحديات مستقبله.

وللمجلة موقع إلكتروني يمكن من خلاله التواصل والإطلاع على الدراسات والبحوث المنشورة و/أو تنزيلها.

الموقع الإلكتروني للمجلة (URL)

www.afkar-affak.org

رقم الإيداع القانوني: 2011-1208
ردمد : ISSN: 2170-1431

الثمن: 500 دج